









السنة الخامسة - العدد الخامس عشر | مارس (آذار) 2012م - ربيع ثان 1433هـ

الترقيم الدولي المعياري للدورية ISSN: 2090 – 0449

Kan historique périodique

www.kanhistorique.org

info@kanhistorique.org

خمسة أعوام
من الدراسات التاريخية

متاحة للقراءة والتحميل عبر:




دار ناشري



الأرشيف العالمي



الراعي الرسمي







أول دورية عربية مُحكّمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني ، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية ، وصدر العدد الأول منها في سبتمبر / أيلول ٢٠٠٨

دورية كان التاريخية

- تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إلى إثراء صفحات الدورية بالموضوعات التاريخية.
- ترحب هيئة التحرير بإسهامات الأساتذة ، والباحثين ، والكتاب المتخصصين ، من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.

موضوعات الدورية

- الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العرب ، وأصحاب الدراسات العليا ، والباحثين في الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة ، والمهتمين بالقراءات التاريخية.
- الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية ، أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي ، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

أعداد الدورية متوفرة عبر:



دار ناشري للنشر الإلكتروني – الكويت
أول دار نشر ومكتبة إلكترونية عربية مجانية
تأسست يوليو ٢٠٠٣
www.nashiri.net





أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية (سان فرانسيسكو)
www.archive.org

الترقيم الدولي المعياري للدورية

كان التاريخية مسجلة وفق النظام العالمي لمعلومات الدوريات ، وحاصلة على الترقيم الدولي المعياري الموحد للدوريات:

ISSN: 2090 – 0449 Online

الراعي الرسمي

سلسلة المؤرخ الصغير ، هي سلسلة كتب علمية تاريخية ، تهدف إلى توفير المعلومة العلمية حول الموضوعات التاريخية التي تهم الباحثين ، بأسلوب أكاديمي موثق يتوافق مع متطلبات البحث العلمي. وتستهدف السلسلة الطلاب والباحثين لإرشادهم في طريق البحث العلمي ، والإعلامي والمُعلم والمثقف العربي لمساعدتهم على نشر الوعي التاريخي.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك ، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية ، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.

النشر الورقي

- يحق للكاتب إعادة نشر المقال (البحث) بصورة ورقية أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير.
- يحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.

المراسلات

توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

موقع الدورية على شبكة الإنترنت

لمزيد من التواصل بإمكانك مطالعة الدورية والأرشيف بالكامل على الموقع الإلكتروني بالإضافة إلى مزيد من التفاعل .. نحن بانتظاركم



www.kanhistorique.org
www.historicalkan.co.nr

دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية عالمية مُحَكَّمَة ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

البحوث والدراسات العلمية

- تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.
- تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.
- يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



- التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

إرشادات المؤلفين (الاشتراطات الشكلية والمنهجية)

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

- **عنوان البحث:**

يجب أن لا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيسي.

نبذة عن المؤلف (المؤلفين):

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحث باللغة العربية في حدود (٧٥ - ١٠٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة.

- **موضوع البحث:**

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة. فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط "APA Style" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية (American Psychological Association)، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

- **المراجع:**

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ...الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Microsoft Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.
- المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج".
- ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية ا أخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية أربع مرات في السنة (مارس- يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، والشبكات الاجتماعية.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى البريد الإلكتروني: info@kanhistorique.org
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى البريد الإلكتروني لرئيس التحرير: mr.ashraf.salih@gmail.com

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



محتويات العدد

دورية إلكترونية. مُحكَّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

المنهج الأركيولوجي في التاريخ

يعتبر علم الأركيولوجيا l'archéologie (الحفريات أو الأثريات) من العلوم الحديثة التي اهتمت بإعادة البحث عن الحقائق التاريخية المرتبطة بالعصور الماضية، فقد نجحت الأركيولوجيا في تغيير نظرة الإنسان إلى ذاته وإلى تاريخه الماضي، بحيث لم تعد معرفة التاريخ مرتبطة بروايات شفوية أو شهادات قابلة للزور، بل أصبحت دراسة الماضي تعتمد على معطيات تجريبية ومخلفات كل حقبة، فيتم تأسيس الحدث التاريخي على ما وجد من آثار تدل على كل حدث أو واقعة تاريخية.

هذا الشكل من "الأركيولوجيا" بدا تأثيره واضحًا على العلوم الإنسانية منذ منتصف القرن العشرين، فالمنهج الأركيولوجى الحفري التفكيكى، يقصد به البحث المعمّق في متون الوقائع، أو الوثائق التاريخية، وقراءتها مجددًا، قراءة مختلفة بشكل عمودي، سواءً باستخدام أدوات البحث المعاصرة والمستحدثة، أو باستحضار المرونة في الذهن، والقدرة الاستيعابية المنفتحة، على آفاق النص ومكنوناته، دون الانغلاق على صورته التقليدية، ومدركاته الموروثة الشائعة.



في ظل هذا المنهج أصبحت المعرفة التاريخية تتسم بكثير من العلمية والعقلانية في معالجة وقائع الماضي، فطرح المؤرخون أسئلة جديدة بعدما تبين لهم محدودية الوثيقة المكتوبة في كتابة التاريخ، وتم الانتقال إلى تصور جديد في كتابة التاريخ يقوم على النقد والدراية بدل السرد والرواية، وصار من الممكن كتابة تاريخ الشعوب التي ليس لها تراث مكتوب ومدون، خاصةً بعد ظهور "الأركيولوجيا– الجديدة" التي تربط في دراستها بين المخلفات المادية وغير المادية في ثقافات الشعوب.

إن المنهج الأركيولوجي الحفري يتصفح الوقائع والأحداث، ويعيد قراءة النصوص بعمق وفق رؤية تفكيكية تحليلية لكشف ما وراء الظاهر من النص من حقائق قد تكون أغفلتها مجلدات التاريخ التقليدية، وعليه فإن هذا المنهج المعرفي من البحث المعمّق، يقدم أفاقًا دراسية منهجية، تسمح بكسر الجمود الفكري، بهدف التنقيب والتعرية المعرفية لإحياء النصوص وكشف المسكوت عنه في متون التراث العلمي.

ورغم أنه من الناحية العلمية تظل نتائج هذا المنهج قابلة لتأويلات عديدة، إلا إنه نفض الغبار وأزال السِّتار عن عُيُوب المنهج التاريخي التقليدي، وقدم للإنسانية مدخلاً جديدًا لفهم كثير من الحقائق المطمورة، واستطاع أن يصحح تصوراتنا حول حضارات وشعوب كانت في الغالب مرتبطة بالحكايات الأسطورية والخرافية.

رئيس التحرير

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الخلاف بشأن خور العديد بين السعودية وأبو ظبي (١٩٣٤ – ١٩٥٢) والموقف البريطاني منه



أ. م. د. حسين عبد القادر محيي التميمي

أستاذ مساعد التاريخ الأوربي المعاصر

كلية الآداب – جامعة البصرة

البصرة – جمهورية العراق

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسين عبد القادر محي التميمي، الخلاف بشأن خور العديد بين السعودية وأبو ظبي (١٩٣٤ – ١٩٥٢) والموقف البريطاني منه .- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ٩ - ١٥.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخَص

كان ظهور النفط في منطقة الخليج العربي سببًا في ظهور عددًا من المشكلات الحدودية التي لم تكن مألوفة في المنطقة من قبل، ومن بين تلك المشكلات الخلاف حول خور العديد بين المملكة العربية السعودية وإمارة أبو ظبي في المدة بين عامي (١٩٣٤-١٩٥٢)، وتم تحديد سنة ١٩٣٤ بداية للبحث وذلك لأنه العام الذي شهد بداية المباحثات الرسمية حول الحدود بين الحكومة السعودية والحكومة البريطانية بوصفها ممثلاً لأمارة أبو ظبي بموجب معاهدات الحماية التي عقدت في القرن التاسع عشر، أما سنة ١٩٥٢ التي انتهى عندها البحث فهي السنة التي عُقد فيها مؤتمر الدمام في السعودية لبحث مشكلات الحدود والذي عجزت فيه الأطراف المتنازعة عن التوصل إلى حلول مرضية.

شهدت المدة موضوع البحث العديد من اللقاءات والمباحثات الرسمية وغير الرسمية بين طرفي النزاع، قدم خلالها كل طرف منهما وجهة نظره الخاصة ،و تم طرح العديد من المقترحات والحلول، إلا أنه مما يلاحظ أن جميع تلك المفاوضات التي خصصت لبحث هذا الموضوع فشلت في التوصل إلى تسوية عادلة لتلك المشكلات وذلك بسبب تصلب كلاً الطرفين في مواقفهما فضلاً عن أن مشكلة خور العديد كانت جزءًا من مجموعة خلافات حدودية لم تحسم بين الحكومتين السعودية والبريطانية كالخلاف حول واحة البريمي. بالإضافة إلى ذلك كانت بريطانيا تعمل على إطالة أمد النزاع حول خور العديد وغيره من المشكلات الحدودية الأخرى رغبة منها في استمرار ما يعرف بسياسة الوضع الراهن status quo وهو الأمر الذي يصب في النهاية بخدمة المصالح البريطانية طالما أن شركاتها النفطية مستمرة في استثمار بترول تلك المناطق.

مُقدِمة

تعد الدراسات الحدودية من الدراسات المهمة لما يترتب عليها من مشكلات قد تنشأ بين الدول المتجاورة وما ينجم عنها من خلافات من الممكن أن تؤدي إلى خسائر بشرية ومادية هائلة، ومن هذا المنطلق برز الاهتمام بالدراسات التي تعنى بالخلافات الحدودية في منطقة الخليج العربي لتحديد أسبابها والظروف التي رافقتها وكشف الأهداف التي خطط لها الاستعمار، ومن هذه الخلافات، الخلاف بين المملكة العربية السعودية ومشيخة أبو ظبي حول خور العديد في المدة بين عامي (١٩٣٤-١٩٥٢)، وكان النفط من الأسباب المهمة التي ساهمت في إذكاء جذوة ذلك الخلاف وغيره من الخلافات الأخرى في منطقة الخليج العربي ذات الأهمية النفطية الاستثنائية، وتم تحديد سنة ١٩٣٤ بداية للبحث وذلك لأنه العام الذي بدأت فيه المباحثات الرسمية حول الحدود بين حكومة المملكة العربية السعودية وبريطانيا بوصفها ممثلاً عن مشيخات الخليج العربي - التي كانت ترتبط بها بمعاهدات حماية - في لندن، وكانت تلك المفاوضات بداية لسلسلة طويلة من اللقاءات والمباحثات الرسمية وغير الرسمية لإيجاد تسوية مقبولة من الطرفين، أما سنة ١٩٥٢

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الذي ينتهي عنده البحث فهو العام الذي عقد فيه مؤتمر الدمام في السعودية لبحث مشكلات الحدود والذي عجزت فيه الأطراف المتنازعة عن التوصل إلى حلول مرضية وهو ما أدى إلى توقف المباحثات وتأجيلها لمدد لاحقة لا تقع ضمن حدود البحث.

الخلاف بشأن خور العديد بين السعودية وأبو ظبي (١٩٣٤- ١٩٥٢) والموقف البريطاني منه

لم تظهر مشكلات الحدود السياسية في أمارات الخليج العربي إلا منذ أوائل القرن العشرين، كما أنها لم تصل إلى درجة من التعقيد السياسي إلا بعد اكتشاف النفط في مدة ما بين الحربين العالميتين وما بعدها،[١] وكان المحرك الأساس لتلك الخلافات شركات النفط الأجنبية ومن ورائها الدول الاستعمارية، ومن بين الخلافات الحدودية التي لم يتم التطرق إليها بالدرس والتحليل الخلاف حول خور العديد بين السعودية وأبو ظبي الذي كان عبارة عن مدخل أو خليج صغير يبعد مسافة (١٨٠) ميل مباشرة عن مدينة أبو ظبي.[٢]

ويمكن أن نعزو أسباب نشوب النزاع حول خور العديد إلى الامتيازات النفطية التي منحت إلى الشركات الأجنبية في منطقة الخليج العربي وعلى رأسها الشركات البريطانية[٣] والتي عمدت إلى احتكار امتياز التنقيب عن النفط عن طريق إبرام معاهدات مع شيوخ الخليج العربي والتي تضمنت أن لا يمنحوا أي امتياز للتنقيب عن النفط في بلادهم دون مشاورتها.[٤]

وعلى الرغم من تلك الجهود البريطانية الرامية إلى جعل امتيازات النفط حكرًا على الشركات البريطانية العاملة في هذا المجال، إلا أن مدة الثلاثينيات من القرن العشرين تميزت بنشاط واسع لشركات النفط الأمريكية في منطقة الخليج العربي، وقد أدى التسابق من أجل الحصول على الامتيازات النفطية في المنطقة بين الأمريكيين والبريطانيين[٥] إلى ظهور مشكلات الحدود السياسية لاسيما بين المملكة العربية السعودية وجاراتها في الشرق والجنوب الشرقي وكانت البداية لذلك عام ١٩٣٣ عندما منح الملك عبد العزيز آل سعود[٦] امتيازًا للنفط[٧] لشركة "ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا" Standard oil of California ، إذ كان هناك على ما يبدو تضاربًا في وجهات النظر بين حكومتي لندن والرياض حول حدود المملكة العربية السعودية المشار إليها – أنفًا- وهو أمر كان يستدعي الدراسة من الجهات المعنية في بريطانيا.[٨]

بادرت الحكومة البريطانية إلى فتح باب المباحثات مع المملكة العربية السعودية لغرض إيجاد حل للخلافات الحدودية بين السعودية وإمارات الخليج العربي الخاضعة لبريطانيا، وتم خلالها طرح موضوع الخلاف حول خور العديد – الذي كانت بريطانيا تدعي تبعيته لأمارة أبو ظبي- ، إذ أوعزت الحكومة البريطانية إلى اندرو ريان Andrew Ryan، الوزير البريطاني المفوض في جدة، بأن يبلغ الحكومة السعودية برغبتها في فتح باب التباحث حول الحدود بهدف إيجاد تسوية لها، وبهذا الصدد وجهت دعوة إلى فؤاد حمزة وكيل وزارة الخارجية السعودية، آنذاك، للذهاب إلى لندن في شهر أيلول من عام ١٩٣٤ لبحث موضوع الحدود.[٩]

غادر فؤاد حمزة إلى لندن وأجرى مفاوضات في التاسع من أيلول من العام المذكور مع الحكومة البريطانية التي كانت تنوب عن أبو ظبي وقطر وبقية الإمارات التي لها خلافات حدود مع العربية السعودية.[١٠] وردًا على اقتراحات قدمها فؤاد حمزة بأنه من المستحسن أن يكون الحكام ذوي الشأن موجودين في أية محادثات خاصة بالحدود، أوضح الجانب البريطاني أن الحكومة البريطانية هي وحدها المسئولة عن العلاقات الخارجية لأولئك الحكام وأن موضوع وجودهم في أية محادثات أمر لا يعني الحكومة السعودية.[١١] وعليه لم تسفر تلك المفاوضات عن أي تسوية لمشكلة الحدود ومنها مشكلة خور العديد بسبب عدم توافق الآراء بين الطرفين- السعودي والبريطاني-، لكن سرعان ما بادرت الحكومة السعودية إلى استئناف المفاوضات من جديد إذ قدم فؤاد حمزة مذكرة إلى اندرو ريان في الثالث من نيسان عام ١٩٣٥ حدد فيها حدود المملكة العربية السعودية مع كل من أبو ظبي وقطر وبقية إمارات الساحل المتصالح ومسقط وسميت تلك المذكرة بـ"الخط الأحمر" أو "خط فؤاد حمزة".[١٢]

وفيما يتعلق بخور العديد فقد أشارت السعودية ولأول مرة في تلك المذكرة إلى أن الخور المذكور يقع ضمن حدودها إذ جاء فيها: "إن حدود السعودية تبدأ من نقطة على الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية على بعد ٢٥ كم من رأس دوحة سلوى يتجه شرقًا مسافة حوالي ٨ كم لتعود جنوبًا بشرق لتصل إلى الساحل الشرقي على بعد ١٢ كم إلى الشرق من خور العديد..".[١٣] ومن الطبيعي أن يرفض البريطانيون ذلك الخط الأمر الذي أدى بطبيعة الحال إلى إطالة عمر النزاع.[١٤]

وكمقترح بديل للمقترح الذي قدمه فؤاد حمزة، سلم اندرو ريان إلى الحكومة السعودية في التاسع من نيسان ١٩٣٥ مسودة اتفاق مقترح باستبدال خط السعودية بخط آخر أطلق عليه اسم "الخط الأخضر" كحل لقضية الحدود، إلا أن السعودية لم توافق على هذا المقترح الجديد، وهو الأمر الذي أدى إلى فتح باب المفاوضات من جديد في لندن في شهر تموز من عام ١٩٣٥ وخلالها بين فؤاد حمزة أن بلاده لا تستطيع التراجع عن المشروع الذي قدم في السابق - والذي سمي باسمه - لأنه يمثل، بحسب قوله، "الحد الأدنى لمطالب ابن سعود.." وفضلاً عن ذلك فقد كان من بين الأسباب التي أدت إلى الرفض السعودي للخط البريطاني الجديد هو استبعاد الأخير لخور العديد من الحدود الشرقية للسعودية على الرغم من أن الملك عبد العزيز آل سعود "مارس حقًا قاطعًا على هذه المنطقة .." وأن خور العديد "كان يستخدم في الماضي كمحطة للقوافل المتجهة إلى الإحساء وأن هناك مشروعًا معدًا لتطويره من الناحية التجارية".[١٥]

ويظهر أنه كان هناك رغبة مشتركة بين بريطانيا والسعودية تتعلق بضرورة التوصل إلى حل لمشكلات الحدود في المنطقة، فقدمت الحكومة البريطانية في الثالث والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٣٥ بواسطة وزيرها المفوض في جدة، اندرو ريان ما عرف بـ"خط الرياض" الذي تضمن اقتراحًا لترسيم الحدود بين السعودية وإمارات الخليج العربي المجاورة لها وأبدت خلالها بريطانيا استعدادها للتوصل إلى تسوية مقبولة، ولكن على الرغم من ذلك بقي خور العديد بموجب هذا المقترح الجديد يقع ضمن حدود أبو ظبي.[١٦]

ويبدو أن السبب الذي دفع بريطانيا إلى فتح باب التفاوض مع المملكة العربية السعودية هو رغبتها في الاحتفاظ بصداقتها مع الأخيرة في مدة شهدت تناميًا في النفوذ الايطالي في الحوض الجنوبي من البحر الأحمر،[١٧] فضلاً عن ذلك فقد توفرت أدلة على وجود مكامن نفطية مهمة في التخوم السعودية مع أبو ظبي فعزز ذلك من حرص بريطانيا على خط حدودي "مرن" يتناسب مع مصالح الشركات البريطانية النفطية وسياستها في المنطقة.[١٨]

وعلى الرغم من أن خط الرياض لبىّ بعض المطالب السعودية في الجهة الجنوبية الشرقية من التخوم السعودية مع أبو ظبي، ألا انه أعطى خور العديد وسبخة مطي بالإضافة إلى مساحات لا بأس بها من الداخل الصحراوي لإمارة أبو ظبي كما احتفظ بجبل نخش لقطر، وهو الأمر الذي لم يكن يتفق مع ما تطمح إليه الحكومة السعودية آنذاك.[١٩]

وعليه فقد كان ذلك كافيًا لرفض حكومة الرياض لهذا العرض البريطاني، إذ أعلنت عن رفضها له بعد أربع وعشرين ساعة من عرضه، مع تأكيد – حقها - بالمطالبة بجبل نخش وخور العديد[٢٠] ويبدو أن السبب الذي دفع الحكومة السعودية إلى المطالبة بالأخير يرجع -بحسب جون كيلي- إلى أسباب إستراتيجية ومنها الوصول إلى الساحل شرق قطر مما يؤدي إلى عزل أبو ظبي عن الأخيرة، ومن ثم يصبح ابن سعود قادرًا على فرض الضغوط على كليهما وعلى كل مشيخات الساحل المتصالح.[٢١]

ويظهر من خلال الاطلاع على الوثائق البريطانية أن مطالب الحكومة السعودية بخور العديد لم تكن بالقوة نفسها التي كانت تطالب بها في المناطق الأخرى لاسيما أن فؤاد حمزة في لقائه مع اندرو ريان أشار إلى أن الملك عبد العزيز – ربما- يتخلى عن خور العديد لأبو ظبي مقابل حصوله على مكاسب أخرى تتعلق بالحدود وخاصة بمشيخة قطر ومنها جبل نخش، وفضلاً عن ذلك اقترحت السعودية امتناع الشركات النفطية العاملة في أراضي الطرفين عن التنقيب في الأراضي المتنازع عليها حتى يتم التوصل إلى تسوية نهائية "معقولة". إلا أن ريان رفض العرض رفضًا قاطعًا، مبينًا الوعود التي قطعتها بريطانيا لمشايخ الخليج العربي من خلال معاهدات الحماية[٢٢] مع تلك المشيخات.[٢٣]

ونظرًا لصعوبة التوصل إلى حل وسط بين الحكومة السعودية من جهة والحكومة البريطانية بوصفها ممثلاً لمشيخات الخليج العربي من جهة ثانية توقفت المفاوضات حول الحدود بين الطرفين، ويبدو أن البريطانيين كانوا مصممين على عدم إعطاء خور العديد للسعودية، ففي برقية بعث بها غوردن لوك Gordon Loch المعتمد السياسي البريطاني في البحرين في التاسع عشر من شباط ١٩٣٧ إلى المندوب السامي البريطاني في بوشهر أوضح فيها أن الملك عبد العزيز آل سعود لا يملك أي حق في خور العديد، وأن أي أدعاء من هذا النوع هو محل دراسة ومناقشة، وأضاف أنه في حالة منح أبن سعود أي مرور في خور العديد بصورة رسمية، أو أي تسهيلات مشابهة سيلحق الضرر بكل من أبو ظبي وقطر، وعندها سينظر إلى بريطانيا كمن باعت أصدقاءها -حكام أبو ظبي وقطر- لذا لا يمكن تقديم أي تنازل آخر بخصوص حدود أبو ظبي أو غيرها من المشايخ.[٢٤]

وللتأكيد على وجهة النظر البريطانية بخصوص الموقف تجاه خور العديد قام المندوب السامي البريطاني في بوشهر باستطلاع المنطقة، وبعث برسالة إلى حكومة الهند البريطانية في العشرين من شباط ١٩٣٧ وخلص فيها إلى أنه لا يمكن تقديمهم أي تنازل للملك عبد العزيز في خور العديد.[٢٥]

ولم تستأنف المحادثات بشأن الحدود إلا في شهر آذار من العام المذكور، وذلك حينما زار رندل Rendle ، ممثلاً عن الحكومة البريطانية، جدة وأجرى محادثات مع كل من الملك عبد العزيز آل سعود ومستشاريه حول هذه المشكلة، وخلال هذه المفاوضات أوضح الأخير أن مطالبه بخور العديد إنما هي في صالح الحكومة البريطانية "لأنه لن يستطيع أحد غيره أن يقر الأمور هناك حيث ترتكب الجرائم وأن الناس يلتجئون لحمايته..".[٢٦] بمعنى أن الوجود السعودي في خور العديد سيؤدي إلى توطيد الأمن في تلك المنطقة، وهو أمر سيصب في النهاية في صالح بريطانيا التي كانت مهتمة بتحقيق الاستقرار في الخليج العربي حفاظًا على مصالحها، ولكن يبدو أن السبب يرجع إلى رغبة المملكة العربية السعودية في توسيع ممتلكاتها في تلك المنطقة الغنية بالثروات النفطية.

ويظهر أن بريطانيا كانت مدركة لطموحات الملك عبد العزيز– التوسعية - فقد جاء ردها على خلاف وجهة النظر السعودية إذ أوضح رندل أن منطقة خور العديد تعد جزءًا من مشيخة أبو ظبي ومعترف بها منذ سبعينيات القرن التاسع عشر، وأن مطالبة السعودية بها على الأسس التي تقدم بها فؤاد حمزة في السابق من حيث أنها تعتزم استغلالها تجاريًا أمر لا يتفق والواقع وأن امتلاك أبو ظبي لساحل هذه المنطقة يعد من ناحية أخرى ضروريًا لربط أبو ظبي بمشيخة قطر المجاورة لها.[٢٧] ونظرًا لاختلاف وجهات النظر بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا، ونشوب الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ علُق البحث في مشكلات الحدود إلى ما بعد انتهاء الحرب.

وما أن انتهت الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٤٥ حتى استؤنفت المفاوضات بشأن مشكلات الحدود في منطقة الخليج العربي من جديد، لاسيما بعد أن باشرت بريطانيا بدراسة تلك المشكلات من أجل التوصل إلى تسوية تتفق ومصالحها في المنطقة.[٢٨]

ويبدو لنا أن السبب الذي دفع بريطانيا إلى استئناف المفاوضات من جديد يرجع إلى النتائج التي تمخضت عنها الحرب العالمية الثانية، إذ أدت تلك الحرب إلى حدوث تغيرات عميقة في ميزان القوى العالمي وفي الترتيبات السياسية والإقليمية والتي كان أبرزها انكماش الهيمنة البريطانية العالمية وبداية انحسار النفوذ البريطاني عن بعض أجزاء المنطقة العربية لمصلحة الولايات المتحدة الأمريكية.[٢٩] وهو الأمر الذي جعل بريطانيا تعمل من جديد لإيجاد حل لمشكلات الحدود ومنها الخلاف حول خور العديد في وقت كانت فيه الاكتشافات النفطية تزداد يومًا بعد يوم.

وفي أطار ذلك السياق ورغبة من بريطانيا بعدم إثارة الملك عبد العزيز آل سعود أصدرت الدوائر المعنية في لندن أوامر تقضي بمنع الشركات النفطية البريطانية من القيام بأعمال التنقيب في المناطق المختلف عليه ومنها خور العديد الذي، لا يزال، موضع خلاف بين السعودية من جهة وبريطانيا وأبو ظبي من جهة ثانية.[٣٠]

ولم تلبث الشركات النفطية البريطانية أن استأنفت نشاطها في المناطق المختلف عليها في المدة بين عامي (١٩٤٧- ١٩٤٨) وهو الأمر الذي أثار الحكومة السعودية وجعلها تسمح لفرق المسح التابعة لشركة أرامكو[٣١] في سنة ١٩٤٩ بالتوغل في تلك المناطق وأقامت لها منارات في منطقة "رأس الجذرة" الواقعة بين خور العديد وسبخة مطي.[٣٢] في محاولة منها لتعزيز نفوذها في تلك المناطق التي لم يتعين حدود السيادة عليها بعد.[٣٣]

أدت تلك الإجراءات إلى احتجاج الجانب البريطاني، إذ أوضح ستوبارت Stobart الضابط السياسي في ساحل عمان لأحد المسئولين السعوديين المرافقين للشركة الأمريكية أن الحكومة البريطانية كانت تعترف بامتداد أبو ظبي حتى خور العديد، ومن ثم فأن عمل الشركة المذكورة يعد "تعدياً" على شيخ أبو ظبي شخبوط بن سلطان.[٣٤]

جاء الرد السعودي على خلاف وجهة النظر البريطانية، إذ أوضحت الخارجية السعودية أن رجال الشركة في منطقة سعودية لوجود قبائل في المنطقة تدين بالولاء للحكومة السعودية.[٣٥] ويبدو من ذلك أن الحكومة السعودية كانت تعد تبعية قبائل المنطقة للفكر الوهابي وأدائهم الحقوق الشرعية كالزكاة والصدقات وغيرها يمكن أن يكون دليل مناسب للولاء السياسي لها.

وعلى الرغم من تلك الرؤية السعودية فقد أوضح أحد خبراء شركة أرامكو لبعض المسئولين البريطانيين أنه كان يعرف من خريطة تعود للشركة أنه في أراضٍ تعود لأبو ظبي،[٣٦] وهو ما يوضح بأن الادعاء السعودي -المشار إليه آنفاً- بشأن تبعية تلك المناطق لها ادعاء غير دقيق لاسيما مع الاعتراف المذكور والذي يمكن أن نستدل منه على تبعية خور العديد لإمارة أبو ظبي.

وعليه بيّنَتْ الحكومة البريطانية في الحادي عشر من أيلول عام ١٩٤٩ أن العمل السعودي المتضمن القيام بأعمال التنقيب في الأراضي المتنازع عليها يعد انتهاكًا من الحكومة السعودية لحرمة أراضي أبو ظبي ومن ضمنها خور العديد.[٣٧]

أدت تلك التطورات إلى إجراء عدد من اللقاءات الرسمية وغير الرسمية بين الجانبين السعودي والبريطاني لبحث مشكلات الحدود، ويتضح من أحد اللقاءات التي جرت بهذا الخصوص في شهر أيلول من عام ١٩٤٩ أن السعودية كانت ترى أن أية تسوية بشأن الحدود ينبغي لها أن تعتمد على السلطة الفعلية التي مارسها الملك عبد العزيز آل سعود على القبائل في المناطق المتنازع عليها والتي تمثلت بالحقوق الشرعية وأبرزها جمع الزكاة، غير أن ذلك – بحسب الباحث رياض جاسم الأسدي- لا يمكن أن يعد دليلاً كافيًا لإثبات السلطة السعودية[٣٨] على تلك القبائل.[٣٩] ولم تكتف السعودية بذلك وإنما أوضحت أن لها السيادة على الجزء الأكبر من قطر والجزء الشرقي من الخليج العربي.[٤٠] ويظهر أن تلك المطالب جاءت على أثر نشوب النزاع حول واحة البريمي[٤١] في السادس والعشرين من نيسان في العام نفسه، وهو الأمر الذي دفع بريطانيا إلى الوقوف بحزم وصلابة ضد الادعاء السعودي في خور العديد خوفاً من فقدان امتيازاتهم فيها.[٤٢] لذا جاء الرد البريطاني على المطالب السعودية الجديدة بالرفض مع مطالبة السعودية بتقديم الأدلة التفصيلية التي تؤيد ادعاءاتها في المناطق المتنازع عليها.[٤٣]

أوضحت السعودية في معرض ردها على الجواب البريطاني في مذكرة مؤرخة في العاشر من كانون الأول عام ١٩٤٩، أنها لا تطالب إلا "بحقوقها المشروعة" بأرض يسكنها رعاياها كما أعربت عن رغبتها بالتوصل إلى تسوية مرضية للطرفين وهي على استعداد بأن تقوم بدراسة مشتركة لتحقيق تلك الغاية.[٤٤]

وانسجامًا مع هذا الموقف قدمت الحكومة السعودية في شهر أيار عام ١٩٥٠ اقتراحًا يقضي بإرسال لجنة لتقصي الحقائق إلى المناطق المتنازع عليها للتثبت من "حقائق الحياة الاجتماعية والولاء السياسي للقبائل المعنية". وقد حظي هذا المقترح بموافقة الجانب البريطاني ولعل السبب الذي دفع بريطانيا إلى الموافقة على هذا المقترح هو أن اللجنة المقترحة لم تمتلك سلطة قضائية بمعنى أن تقريرها سيبقى ذا طابع غير ملزم.[٤٥]

وقبل أن تبدأ اللجنة المقترحة عملها دعت بريطانيا الأمير فيصل بن عبد العزيز[٤٦] إلى لندن للتباحث بشأن القضايا العالقة بين الطرفين، وعند وصوله اقترح فيصل على بريطانيا عقد مؤتمر مائدة مستديرة يحضره الشيوخ العرب أطراف النزاع، وافقت بريطانيا شريطة أن تراس هي وفد المشايخ الخليجيين.[٤٧]

بدأ المؤتمر الحدودي أعماله في لندن في الثامن من أب ١٩٥١ وانتهى في الرابع والعشرين من الشهر نفسه وبالرغم من تبادل الآراء

بين الجانبين إلا انه لم يتم الاتفاق حول الحدود، بل اكتفى المؤتمر بالتوصية بعقد مؤتمر لاحق في الدمام في المملكة العربية السعودية عام ١٩٥٢ لاستئناف المباحثات وبحضور شيخي أبو ظبي وقطر وشيوخ الإمارات الأخرى الذين لهم معاهدات تعاقدية مع الحكومة البريطانية.[٤٨] وهكذا نرى أن مؤتمر لندن لم يكن إلا تمهيدًا لعقد مؤتمر أخر في الدمام لحسم مسألة الحدود بين المملكة العربية السعودية وجاراتها من مشيخات الخليج العربي الأخرى.[٤٩]

بدأ مؤتمر الدمام أعماله في المدة من الثامن والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٥٢ لغاية الرابع من شباط من العام نفسه لحل النزاع الحدودي بين السعودية من جهة وكل من قطر وأبو ظبي من جهة أخرى.[٥٠] وفيما يتعلق بحدود أبو ظبي فقد عدت بريطانيا خور العديد ضمن أراضي أبو ظبي، وبالإضافة إلى ذلك فقد قام شيخ الاخيرة نفسه بتحديد مطالبه في معظم واحات البريمي وفي خور العديد.[٥١] ويبدو أن تباين وجهات النظر بين الأطراف المعنية منعهم من الوصول إلى نتيجة ايجابية بشأن الحدود.

وفي اللقاء الأخير من لقاءات مؤتمر الدمام الذي انعقد في الرابع من شباط ١٩٥٢ قدم روبرت هاي Robert Hay المقيم السياسي في البحرين عرضًا أخيرًا لمواصلة المباحثات وقد تضمن تعديل المطالب السعودية من خلال التنازل عن منطقة خور العديد لأبو ظبي إلا أن السعودية رفضت الاقتراح البريطاني.[٥٢] وبالمقابل أشار هاي بأنه طبقًا للتعليمات الصادرة من وزارة الخارجية البريطانية فأن حكومته لا يمكنها قبول مطالب المملكة العربية السعودية الرامية لضم خور العديد إليها، بل أرادت أن تكون هذه المنطقة ضمن أراضي أبو ظبي.[٥٣].

وبذلك فشلت كل الجهود المذكورة ومن كلا الجانبين لحل المشكلات الحدودية بين الجانبين السعودي والبريطاني الذي كان ينوب عن مشايخ الخليج العربي ومنها مشيخة أبو ظبي التي عدت خور العديد جزء من أراضيها، وهذا أدى إلى عدم حل مشكلة الخور وبقائه لمدد لاحقة لأنه كان مقترن بمشكلات حدودية أخرى لم يتم التوصل إلى حلول بشأنها وأبرزها مشكلة البريمي.

خاتمة

اقترن ظهور النفط في منطقة الخليج العربي بظهور عددٍ من المشكلات الحدودية التي لم تكن تألفها المنطقة من قبل، وقد مارست الشركات العاملة في مجال الصناعة النفطية ومن ورائها الدول الاستعمارية – وتأتي في الصدارة منها بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية التي دخلت كمنافس قوي لبريطانيا في منطقة الخليج العربي– دور واضح في زيادة حدة تلك الخلافات التي كانت منطقة خور العديد واحدة منها، إذ ادعت المملكة العربية السعودية بتبعية هذه المنطقة لها، على الرغم من أنها كانت تابعة من الناحية السياسية لأمارة أبو ظبي، واستندت في ذلك إلى أن القبائل هناك كانت تدين بالولاء للسعوديين من خلال دفع الحقوق الشرعية كالزكاة والصدقات إلى زعماء الوهابية، وهو دليل كافٍ بنظر الملك عبد العزيز آل سعود لإثبات "حقه" في خور العديد وغيره من المناطق المتنازع عليها، وفضلاً عن ذلك فقد كان ظهور النفط في تلك القفار كافيًا من أجل المطالبة بالمنطقة المشار إليها.

وكانت المطالب السعودية في خور العديد – وما سواه من المناطق الخاضعة لبريطانيا – سببًا في جعل الدوائر المعنية في بريطانيا تنبري لإثبات عائديته لإمارة لأبو ظبي رغبة منها في إبقائه تحت النفوذ البريطاني ومن ثم يسهل استغلال ثرواته، ومن جهة ثانية فقد كانت سيطرة الحكومة السعودية على خور العديد تعني بالنسبة لبريطانيا ابتلاع السعودية لقسم كبير من إمارة قطر والوصول إلى سواحل الخليج العربي الشرقية وهو الأمر الذي لم يكن ينسجم والمصالح البريطانية آنذاك، وفي الوقت نفسه تبدو بريطانيا كمن باعت أصدقائها لاسيما وأنها كانت مرتبطة منذ القرن التاسع عشر بمعاهدات حماية مع مشيخات الخليج العربي وهو ما يجعلها طرفًا أساسيًا في جميع مفاوضات ومباحثات الحدود الرسمية وغير الرسمية.

وقد لاحظنا أن جميع تلك المفاوضات فشلت في التوصل إلى تسوية – عادلة - لتلك المشكلات وذلك بسبب تصلب كلا الطرفين في مواقفهما، فضلاً عن أن مشكلة خور العديد كانت جزءًا من مجموعة خلافات حدودية بين الحكومتين كالخلاف حول واحة البريمي، غير أنه مما يلاحظ على الموقف السعودي في هذا الصدد أن ادعاء الجانب السعودي لم يكن بالقوة نفسها التي طالبت فيها بمناطق أخرى ومع إمارات أخرى، ولعل السبب يرجع إلى أنها أرادت استخدام خور العديد كأداة ضغط ومساومة، إذ لمحت عن استعدادها للتنازل عن العديد إذا ما أبدت بريطانيا استعدادها للتخلي عن مناطق نزاع أخرى، وبالمقابل فقد كانت الأخيرة تعمل على إطالة أمد النزاع حول خور العديد وغيره من المشكلات الحدودية الأخرى رغبة منها في استمرار ما يُعرف بسياسة "الوضع الراهن"، وهو الأمر الذي يصب في النهاية بخدمة المصالح البريطانية طالما أن شركاتها النفطية مستمرة في استثمار بترول تلك المناطق.

الهوامش:

(١) جمال زكريا قاسم، **تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر: الأوضاع الداخلية في إمارات الخليج العربية وعلاقات الجوار ١٩١٤ - ١٩٤٥م**، مج٣، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠١، ص٢٩٤.

(٢) محمد متولي، **حوض الخليج العربي**، ج١، القاهرة، ١٩٧٥، ص٥٧ - ص٥٨؛ مصطفى عبد القادر النجار وآخرون، **تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر**، البصرة، ١٩٨٤، ص١٢٧ – ١٢٨.

(٣) إن أول ذكر لوجود النفط في الساحل الغربي للخليج العربي، ورد في رسالة بعث بها الشيخ مبارك الصباح، حاكم الكويت، إلى المقيم السياسي في الخليج العربي في السابع والعشرين من تشرين الأول عام ١٩١٣ أخبره فيها أن لا يعطي الامتياز لأية جهة دون موافقة الحكومة البريطانية. لمزيد من التفاصيل ينظر: سي يو اتجيسون، **مجموعة المعاهدات والتعهدات ذات العلاقة بالهند البريطانية والخليج والجزيرة العربية**، ترجمة: عبد الوهاب عبد الستار القصاب، بغداد، ٢٠٠١، ص٣١٧-٣١٨.

(٤) خالد بن محمد القاسمي، **الخليج العربي في السياسات الدولية قضايا ومشكلات**، ط١، الكويت، ١٩٨٦، ص٤٣. وللمزيد من التفاصيل عن التعهدات التي أعطاها شيوخ الخليج لبريطانيا بشأن النفط، ينظر: طالب محمد وهيم، **التنافس البريطاني– الأمريكي على نفط الخليج العربي وموقف العرب في الخليج منه ١٩٢٨- ١٩٣٩**، ص٨ – ٩.

(٥) للمزيد من التفاصيل عن التنافس البريطاني– الأمريكي حول نفط الخليج العربي إبان تلك المدة ينظر: وهيم، المصدر السابق. ص٢١ وما بعدها.

(٦) **الملك عبد العزيز آل سعود**: ولد في الرياض عام ١٨٧٦م واضطر إلى العيش مع ابيه في الكويت وذلك بسبب النزاع الداخلي في نجد، ومن هناك شن الغارات على خصوم عائلته آل الرشيد والحق الهزيمة بهم ومن معهم من العثمانيون في القصيم واستولى على الإحساء والقطيف، كما قضى على دولة الهاشميين بقيادة حسين بن علي وابنه علي بن الحسين في الحجاز سنة ١٩٢٥، وجعل الرياض عاصمة آل سعود فنودي به ملكًا على نجد والحجاز. وفي سنة ١٩٣٢ أعلن قيام المملكة العربية السعودية، وتوفي سنة ١٩٥٣. ينظر: عبد الوهاب الكيالي، **موسوعة السياسة**، ج٣، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،١٩٩٣، ص٨٣٦.

(٧) في التاسع والعشرين من أيار ١٩٣٣ صدرت الإرادة الملكية والتي تم بموجبها منح الامتياز لمدة ستين عامًا لشركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا (Standard Oil of California) ونشرت بالجريدة الرسمية السعودية (أم القرى)، وقد وقع الاتفاقية عن الجانب السعودي (عبد الله بن سليمان)، في حين وقع (هاملتون) نيابة عن الشركة الأمريكية. للمزيد من التفصيلات ينظر: ناظم جاسم العلواني، **الامتيازات النفطية الأمريكية في المملكة العربية السعودية (١٩٣٣ – ١٩٥٠) دراسة تاريخية**، رسالة ماجستير غير منشورة (محفوظة على قرص مدمج)، كلية التربية، جامعة بابل، ٢٠٠٤، ص٤٥ - ٤٦.

(٨) قاسم، المصدر السابق، ص٢٩٩ – ٣٠٢.

(٩) جون ب. كيلي، **الحدود الشرقية للجزيرة العربية**، ترجمة: محمد أمين عبد الله، الكويت، ١٩٦٨، ص١٤٥؛ قاسم، المصدر السابق، ص٣٠٢؛ محمد مرسي عبد الله، **دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها**، ط١، الكويت،١٩٨١، ص٢٥٤.

(١٠) حسين عبد القادر محيي التميمي، **الخلاف الحدودي القطري السعودي (١٩١٣- ١٩٥٦)**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة،٢٠٠١، ص٤٦.

(١١) قاسم، المصدر السابق، ص٣٠٣.

(12) Rosemarie Said Zahlan, **The creation of Qatar**, London, 1979, P: 83.

(١٣) التميمي، المصدر السابق، ص٤٨.

(١٤) مشاري عبد الرحمن النعيم، **الحدود السياسية للسعودية: البحث عن الاستقرار**، الرياض، ١٩٩٨، ص ٤٨.

(١٥) قاسم، المصدر السابق، ص ٣٠٥ – ٣٠٦.

(16) **Arabian Boundaries: Primary Documents 1853 -1957**, Editors: Richard Schofield and Gerald Blake , Vol.19, London, 1988, P: 472.

(١٧) في الثالث من تشرين الأول ١٩٣٥ أعطى الزعيم الايطالي موسوليني أوامره باحتلال الحبشة، وقد أدى ذلك إلى إثارة قلق وخشية بريطانيا. وللمزيد من التفاصيل عن تنامي المصالح الايطالية في الحبشة إبان تلك المدة ينظر: زينب نايف أحمد الألوسي، **النفوذ الايطالي في القرن الإفريقي ١٩٣٦-١٩٤١**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية جامعة بغداد، ٢٠٠٤، ص ٥٠ – ٦٢.

(١٨) النعيم، المصدر السابق، ص٤٢.

(١٩) المصدر نفسه، ص٤٢.

(٢٠) كيلي، **شبه الجزيرة العربية والخليج والغرب**،ج١، ترجمة: مركز البحوث والمعلومات، بغداد، ١٩٨٠، ص١٥١.

(٢١) المصدر نفسه، ص١٢٩- ١٣٠.

(٢٢) وقعت بريطانيا معاهدات حماية مع مشيخات الخليج العربي في أواخر القرن التاسع عشر كان أبرزها الاتفاق المانع أو الأبدي سنة ١٨٩١ ومعاهدة الحماية مع الكويت سنة ١٨٩٩م وأصبحت بريطانيا بموجب تلك المعاهدات مسئولة عن إدارة السياسة الخارجية لتلك الإمارات. وللمزيد من التفاصيل: ينظر: عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، **بريطانيا وإمارات الساحل العماني (دراسة في العلاقات التعاهدية)**، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٨، ص٣٢٣ - ص٣٢٤؛ محمد البكاء، **استلاب الكويت**، آفاق عربية، مجلة، العدد التاسع، السنة الخامسة عشر، بغداد، ١٩٩٠، ص٢٩.

(23) **Arabian Boundaries**, Op, Cit., Vol. 19, p: 466.

(24) Ibid, Vol., 19, pp: 533 - 534.

(25) Ibid, Vol., 19, pp: 562 - 563.

(٢٦) قاسم، المصدر السابق، ص٣٠٧ – ٣٠٨.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٣٠٨.

(٢٨) التميمي، المصدر السابق، ص٧٢؛ خليل علي مراد، **تطور السياسة الأمريكية في منطقة الخليج العربي (١٩٤١-١٩٤٧)**، بغداد، ١٩٨٠، ص٢٨٩ – ٢٩٧.

(٢٩) النعيم، المصدر السابق، ص٤٣.

(٣٠) التميمي، المصدر السابق، ص ٧٤.

(٣١) **أرامكو**: كانت نواة هذه الشركة، شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا التي حصلت سنة ١٩٣٣ امتيازًا للتنقيب عن النفط من الحكومة السعودية لمدة (٦٠) عامًا، وبعد توسع نشاط الشركة غيرت اسمها في الحادي والثلاثين من كانون الثاني ١٩٤٤ إلى شركة النفط العربية - الأمريكية (Arabian American Oil Company)، وأصبح يرمز لها اختصارًا أرامكو ARAMCO واتخذت الشركة من نيويورك مركزًا لها، ثم ما لبثت أن نقلته إلى الظهران في السعودية بناءً على طلب الحكومة السعودية، وفي سنة ١٩٨٠ انتقلت ملكية الشركة الكاملة إلى الحكومة السعودية، وتغير اسمها إلى شركة الزيت العربية السعودية – أرامكو السعودية. للمزيد من التفاصيل عن الجذور التاريخية لنشأت أرامكو ونشاطها ينظر: سلمى عدنان محمد الكباسي، **النفط السعودي وأثره في العلاقات السعودية – الأمريكية (١٩٧٥-١٩٨٢)**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٧، ص١٤ – ٩٥.

(٣٢) التميمي، المصدر السابق، ص ٧٦.

(٣٣) روبرت جيران لاند، **عمان منذ ١٨٥٦ مسيرًا ومصيرًا**، ترجمة: محمد أمين عبد الله، (د.م)، ١٩٧٠، ص ٣٦٨.

(٣٤) **عرض المملكة العربية السعودية، التحكيم لتسوية النزاع الإقليمي بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية**، مجلد١ الأساس، تموز ١٩٥٥، ص٣٩٧-٣٩٨؛ كيلي، **الحدود الشرقية للجزيرة العربية**، ص١٧٠.

(٣٥) **عرض المملكة العربية السعودية**، المصدر السابق، مجلد ١، ص ٣٩٨.

(٣٦) كيلي، **الحدود الشرقية للجزيرة العربية**، ص١٧٠.

(٣٧) **عرض المملكة العربية السعودية**، المصدر السابق، مجلد ١، ص ٣٩٨.

(٣٨) يبدو لنا أن تلك الرؤية السعودية لا تتسم لا بالواقعية ولا المنطقية، إذ أن الولاء الديني لا يمكن أن يعد اليوم دليلاً على الولاء السياسي، فهل يمكن أن ندعي بأن المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية -مثلاً- موالين سياسيًا للحكومات المسلمة في العالم العربي والإسلامي؟!

(٣٩) رياض جاسم الاسدي، **الاندفاع الجنوبي والجنوبي الشرقي السعودي: دراسات في المشكلات الحدودية مع دول الجوار**، سلسلة بحوث شهرية محكمة تهتم بالخليج العربي والجزيرة العربية، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة، العدد الأول، السنة الثانية، كانون الثاني، ٢٠٠٠، ص ٢٩.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٢٩.

(٤١) **مشكلة البريمي**: تقع واحة البريمي على الحدود بين أبو ظبي ومسقط وعمان في شبه الجزيرة العربية وتبلغ مساحتها ١٣,٤٩٠ ميلاً مربعًا، وتتألف من ثماني قرى ستة منها تابعة لأبو ظبي واثنتان لمسقط وعمان، أصبحت البريمي موضوع نزاع بين أبو ظبي والسعودية على أثر ظهور النفط فيها نهاية الأربعينات من القرن العشرين، فقد ذهبت السعودية إلى القول أن سلاطين نجد السعوديين كانوا حكام البريمي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأن اتفاقية نجد البريطانية - السعودية لم تحدد وضع الواحة، وفي عام ١٩٥٢ بادرت الحكومة السعودية إلى إرسال قوة عسكرية للسيطرة عليها، وفي عام ١٩٥٤ اتفق على حل المشكلة بالتحكيم ولكن ذلك لم يسفر عن نتيجة مرضية، وهو الأمر الذي أدى إلى توتر العلاقات السعودية البريطانية لأن الأخيرة كانت مسؤولة عن السياسة الخارجية لأبو ظبي وغيرها من مشيخات الخليج الداخلة معها بمعاهدات حماية منذ القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من التقارب السعودي مع إمارات الخليج العربي في أواخر الستينات فقد بقيت المشكلة موضع خلاف ودون حل نهائي.ينظر: الكيالي، **موسوعة السياسة**، ج١، ط٤، الدار العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩، ص٥٤٢. وللمزيد من التفاصيل ينظر: أمير علي حسين، **الخلاف الحدودي حول واحة البريمي بين السعودية وعمان أبو ظبي**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة،٢٠٠١.

(٤٢) المصدر نفسه، ص٥٧.

(٤٣) التميمي، المصدر السابق، ص٧٩ – ٨٠.

(٤٤) **عرض المملكة العربية السعودية**، المصدر السابق، مجلد ١، ص٤٠٢.

(٤٥) النعيم، المصدر السابق، ص٤٣.

(٤٦) **فيصل بن عبد العزيز آل سعود**: ولد في مدينة الرياض سنة ١٩٠٦م وشارك وهو في سن مبكرة في المعارك التي خاضها والده ضد آل الرشيد والهاشميين، وفي سنة ١٩٢٧ أوفده والده لينوب عنه في المفاوضات مع بريطانيا والتي انتهت بالتوقيع على معاهدة جدة في مايو سنة ١٩٢٧ التي اعترفت بريطانيا بموجبها بحكومة الملك عبد العزيز، مثل والده بالعديد من المؤتمرات وترأس مؤتمر القمة العربية الثاني، وقد أدى ذلك النشاط إلى بلورة دوره القيادي فأصبح وليًا للعهد بعد وفاة والده في سنة ١٩٥٣. وفي الثالث من تشرين الثاني سنة ١٩٦٤ أصبح ملكًا بعد عزل أخوه سعود، اغتاله أحد أفراد العائلة السعودية سنة ١٩٧٥ لدوافع لم يكشف النقاب عنها بعد. ينظر: عبد الوهاب الكيالي، **موسوعة السياسة**، ج٤، ط٢، الدار العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٠، ص٦٨٠, وللمزيد من التفاصيل عن الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود. ينظر: محمد حرب، **الملك فيصل بن عبد العزيز**، ط١، دار الفكر اللبناني، ١٩٩١. ص٨ – ١٠٣.

(٤٧) النعيم، المصدر السابق، ص٤٤.

(٤٨) أمين سعيد، **الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة**، بيروت، (د.ت)، ص١٣٧؛ مصطفى مراد الدباغ، **قطر ماضيها وحاضرها**، ط١، دار الطليعة، بيروت، (د.ت)، ص١٩٤.

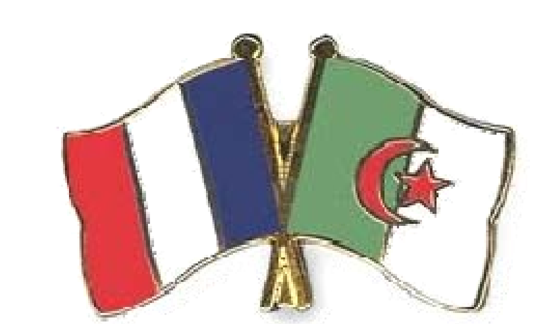
(٤٩) الأسدي، المصدر السابق، ص٣٠.

(٥٠) التميمي، المصدر السابق، ص٩١؛ حافظ وهبة، **خمسون عام في جزيرة العرب**، مصر، ١٩٦٠، ص ١١٣.

(٥١) صلاح العقاد، **التيارات السياسية في الخليج العربي**، القاهرة، ١٩٦٥، ص٣١٠ – ٣١١.

(٥٢) كيلي، **الحدود الشرقية للجزيرة العربية**، ص ١٩٠.

(٥٣) التميمي، المصدر السابق، ص ٩٥.



العلاقة الجدلية بين الثقافتين الفرنسية والجزائرية في العهد الاستعماري وانعكاساتها

د. رابح لونيسي

أستاذ التاريخ المعاصر
قسم التاريخ – جامعة وهران
وهران – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

رابح لونيسي، العلاقة الجدلية بين الثقافتين الفرنسية والجزائرية في العهد الاستعماري وانعكاساتها.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ١٦ - ٢١.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخَص

تتناول هذه المقالة موضوع العلاقة الجدلية بين الثقافتين الفرنسية والجزائرية في العهد الاستعماري وانعكاساتها، وذلك من خلال ثلاث محاور هي: تحديد مفهومنا للثقافة، وفيما يتمثل التحدي الثقافي الاستعماري، ثم نحدد مختلف أشكال الاستجابات السلبية والإيجابية لهذا التحدي، كي نتوصل في الأخير إلى فهم بعض انعكاسات مختلف هذه الاستجابات على المجتمع الجزائري المعاصر.

مُقدِمة

توصل المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي من خلال دراسته لعدد (28) حضارة إلى نتيجة مفادها، أن أي انطلاقة حضارية تبدأ بعد ما يواجه مجتمع ما تحديًا داخليًا أو خارجيًا، شريطة أن تكون استجابة المجتمع لهذا التحدي إيجابية وليست سلبية، كما لا يجب أن يكون التحدي أكبر من طاقة المجتمع.(١) وقد عرف المجتمع الجزائري غداة الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠ تحديًا شاملاً على كل المستويات، ومنها المستوى الثقافي بمفهومه الواسع، لكن رغم ذلك لم يحقق هذا المجتمع انطلاقة حضارية أو على الأقل إعطاء نموذجًا ثقافيًا خاصًا به، فهل يعود ذلك إلى انشغال هذا المجتمع بالمقاومة السياسية والمسلحة للاستعمار؟ أم أن التحدي الاستعماري كان أكبر من طاقة المجتمع؟ أم أن استجابة المجتمع لهذا التحدي كان سلبيًا؟

أولاً: مفهوم الثقافة وواقعها عشية الاحتلال

عدد المفكر مالك بن نبي أكثر من تعريف واحد للثقافة، ويرى أن كل طرف يعرفها حسب إيديولوجيته ومصالحه وظروفه التاريخية،(٢) لكننا نحن في دراستنا هذه نأخذ بالمفهوم الشامل والواسع للثقافة التي لا نميزها عن الحضارة مثل إدوارد بورنيت تايلور Edward Burnette Taylor (١٨٣٢ - ١٩١٧)، والتي عرفها بالقول أنها "كل المركب الذي يشمل المعارف والمعتقدات، الفنون، الأخلاق، القوانين، العادات والتقاليد وكل القدرات والطبائع التي اكتسبها الإنسان بصفته فردًا أو عضوًا في المجتمع".(٣)

وقد أخذنا بهذا المفهوم الشامل بحكم أن المجتمع الجزائري مجتمعًا إسلاميًا، والإسلام هو المتحكم أو المؤثر الرئيسي في ما ينتجه المجتمع من معارف وقوانين وأفكار وآراء وفنون وما يمارسه من عادات وتقاليد وسياسات وغيرها عشية الاحتلال الفرنسي ١٨٣٠، أما لغة التعبير عن هذه الثقافة آنذاك، فهي العربية الكلاسيكية إلى جانب لهجات محلية عربية وأمازيغية، لكن علينا أن نشير إلى أن ما يتبعه وما يمارسه هذا المجتمع كان منحطا عشية الاحتلال بسبب الانحطاط الذي مس الحضارة الإسلامية، التي وصلت آنذاك مرحلة شيخوختها، ويصف الدكتور أبو القاسم سعد الله هذا الانحطاط في مجال الإنتاج الفكري والأدبي على سبيل المثال لا الحصر أثناء العهد العثماني بالقول: "أن ظاهرة الجمود الثقافي كانت بارزة في العهد الذي درسناه" وسيطرت عليه عدة مظاهر ومنها "انتشار التصوف والدروشة وشيوع الشروح والحواشي على أعمال المتقدمين والثقافة الموسوعية والحفظ"، كما "قلت الآثار المبتدعة في إنتاج العلماء وشيوع الدروشة والتخلف السياسي".(٤)

وقد واجه المجتمع الجزائري غداة الاحتلال تحديًا عسكريًا من جهة، وتحد ثقافي فيما بعد، واستهدف الاستعمار الفرنسي ضرب

العناصر الأساسية المحددة لثقافة الشعب الجزائري، وعلى رأسها الإسلام واللغة العربية المرتبطة به، وكان الاستعمار يرى أنه بتحطيمهما ستتحطم كل البنية الثقافية الشاملة الناتجة عنهما، لكن كان بالإمكان أن يحدث هذا التحدي الثقافي الاستعماري حركية ثقافية إيجابية في المجتمع الجزائري، ويقضي على الركود والجمود السائد فيه، وتعطي بداية لثقافة وحضارة جديدة لهذا المجتمع انطلاقًا من فهم وممارسة سليمة للإسلام الذي يمثل العنصر الأساسي الذي تبنى حوله ثقافة المجتمع الجزائري.

إلا أنه لم يحدث ذلك في نظرنا بشكل واسع، ويعود ذلك إلى عدة أسباب وعوامل، سنتطرق إليها عند تناولنا مختلف الاستجابات التي كانت للمجتمع الجزائري تجاه التحدي الثقافي الاستعماري، والتي نصنفها إلى استجابة سلبية بأشكالها المختلفة واستجابة شبه إيجابية بأشكالها العديدة أيضًا، لكن قبل تطرقنا إلى هذه الاستجابات، علينا أن نشير إلى أن المجتمع الجزائري في عمومه، قد واجه هذا التحدي الثقافي الاستعماري بالرفض والانغلاق التام على نفسه، على عكس نخبه الثقافية التي انقسمت حول أساليب المواجهة لهذا التحدي كما سنرى الآن.

ثانيًا: مظاهر الاستجابة السلبية بين الانغلاق والانبهار

تتمثل الاستجابة السلبية للتحدي الثقافي الاستعماري في نوعين، وهما مقاومة سلبية بالانغلاق ورفض كل ما هو وافد، وقد عم ذلك أغلب المجتمع الجزائري، خاصة المجتمع الريفي، أما النوع الثاني فهو استسلامي أو إنبهاري يدعو إلى التبني التام للثقافة الفرنسية ونموذجها الحضاري، لكنه يضم فئة صغيرة جدًا.

١- المقاومة السلبية أو الكهفيون

كان المجتمع الجزائري يعيش انحطاطًا حضاريًا كما أسلفنا ذكره آنفا، وعندما دخل الاستعمار الفرنسي انغلق هذا المجتمع أكثر على ذاته، وكان يدعمه في ذلك نخبة تقليدية، تتمثل في المرابطين والطرقيين وبعض رجال الزوايا، وبالرغم من أن هؤلاء قد أبلوا البلاء الحسن في المقاومة المسلحة ضد الاحتلال، ابتداءً من الأمير عبد القادر إلى الشيخ بوعمامة مرورًا بمقاومات لالا فاطمة نسومر(٥) والمقراني والشيخ الحداد وغيرهم، لكن عرف الاستعمار الفرنسي كيف يدجن الكثير من هذه الطرق والزوايا في نهاية القرن التاسع عشر، واعتمد في رسم سياسات هذا التدجين على دراسات علمية خاصة لهذه الطرق الدينية والزوايا، ومنها دراسات كل من لويس رين وأكتاف ديبون وأوكزافيه كوبولاني،(٦) وبفعل سياسة التدجين الاستعمارية المدروسة، انتقل الكثير من الطرقيين ورجال الزوايا من مقاومين للاستعمار إلى خادمين له بعدة أشكال وأساليب، ومنها غرس الخرافة والدروشة في صفوف المجتمع باسم الإسلام، ودفعه للانغلاق أكثر على نفسه.

وكل هذا كان يخدم الاستعمار في آخر المطاف، لأنه يبعد بذلك المتنورين من الجزائريين عن الإسلام من جهة، كما يعطي للاستعمار ذريعة لرفض إعطاء الشعب الجزائري الاستقلال، لأنه لا يستحقه، بدعوى أنهم جمع من البرابرة والهمج، ويخاطب الإبراهيمي هذه النخبة التقليدية بقوله "ألا تدرون أن هناك محاضرات تلقى وخطبًا تتلى وكتبًا تطبع وتنشر وجمعيات تقوم بجمع ذلك وكل ذلك (للطعن) في الإسلام بكم وبأفعالكم واتخاذكم حجة عليه"، وهدفه من كل ذلك "حمل العالم المتحضر على احتقاركم واعتباركم في الهمج الرعاع.. فما أنحسكم على الإسلام".(٧) ويحمل الإبراهيمي هؤلاء مسؤولية انتشار الإلحاد والمسيحية في صفوف بعض خريجي المدارس الفرنسية فيقول "أن من الأسباب التي مكنت الإلحاد في نفوس الشبان المتعلمين مجانبة علماء الدين الجامدين ونفورهم منه" ولهذا فإن "القضاء على الطرقية قضاء على الإلحاد" وينطبق نفس الأمر على "التبشير المسيحي".(٨)

وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذا التيار الثقافي المنتشر بقوة في المجتمع، فأطلق عليهم البعض مصطلح "التقليديون" أو "المحافظون"، وسماهم آخرون بـ "المتزمتين" أو "المتطرفون"، أما اليوم فقد شاع مصطلح "الأصوليون" المأخوذ من المصطلح الأمريكي الأصل "Fondamentaliste"، والذي ترجم إلى "intégrisme". لكن للأسف لم تتوقف هذه التسمية الغربية عند هذه الفئة المحدودة، بل يسعى بعض الغربيين إلى تعميمها على كل المسلمين، وكي نتجنب ذلك نفضل استعمال مصطلح آخر هو "الكهفيون"، لأن الكثير من أتباع هذا التيار يشبهون رمزيًا لا فعلاً ومعتقدًا أهل الكهف الذين وردت قصتهم في القرآن الكريم، فكما هرب هؤلاء الفتية إلى الكهف خوفًا على دينهم، فإن هؤلاء أيضًا انغلقوا على ذاتهم، ورفضوا كل ما يأتيهم من الآخر، وذلك اعتقادًا منهم أنهم يخشون على دينهم من الغزو الثقافي الاستعماري سابقًا ومن العولمة الثقافية الغربية اليوم، ولم يعلم هؤلاء المنغلقين على الذات، أنهم بذلك سيفوتهم العصر كما فات أهل الكهف بـ ٣٠٩ سنين، فأصبحوا عاجزين على مواجهة العصر الجديد بعد استفاقتهم، فلم يكن أمامهم إلا العودة إلى كهفهم للموت هناك.

وهذا ليس معناه انتقاصًا لقديسي أهل الكهف، لكن فقط تشبيه رمزي لكل من يتوقف عن مسايرة الزمن ومختلف تطوراته ومنتجاته العلمية والفنية وغيرها معتقدًا عن حسن نية أنه يحافظ بذلك على دينه، ونعتقد أن القرآن الكريم، قد رمز لذلك عندما أشار إلى عدم قدرة فتيان أهل الكهف مسايرة الجديد الذي طرأ على المجتمع وعودتهم إلى الكهف ليموتوا فيه، ويبدو أنه ترميز لمصير كل أمة ترفض الجديد ومسايرة العصر ومنتجاته والتفاعل معها، وتنغلق على ذاتها بدل الاستجابة الإيجابية للوافد المتطور دون التخلي عن الدين والهوية، وقد كاد أن يكون هذا هو مصير الشعب الجزائري، لو اتبع هؤلاء التقليديون الذين أطلقنا عليهم "الكهفيون"، لو لم يقيض الله لهذه الأمة رجال الإصلاح الذين وقفوا بالمرصاد لهؤلاء، وخففوا من تأثيرهم على المجتمع في بدايات القرن العشرين.

لكن ليس هذا معناه القبول بالاندماج في الثقافة الغازية، كما فعل ما أسميناهم بـ "الاستسلاميين" أو "المنبهرين بالآخر"، فكان من المفروض في مثل هذه الحالات من التحديات أن تكون الاستجابة إيجابية وليست سلبية، لأنه لم يجد الإنسان الجزائري أمامه إلا حلين كلاهما موت له ولهويته الثقافية، فإما أن يضيع هذه الهوية في حالة الاستسلام، فتندحر معها الأمة، أو يتحول إلى التزمت والانغلاق القاتل المعرقل لأي عملية بناء حضاري وتطوير للهوية الثقافية وجعلها تتكيف مع مستجدات العالم المعاصر.

وقبل الحديث عن هؤلاء الاستسلاميين، علينا أن نوضح ونرد على تساؤل البعض، هل تنطبق هذه الصفة على كل الطرقيين

ISSN: 2090 – 0449

آنذاك؟، فنقول بأنه بإمكاننا استثناء البعض منهم الذين انخرطوا في الحركة الوطنية الاستقلالية ورفضوا الرضوخ للاستعمار كالرحمانيين في منطقة القبائل وبعض القادريين والدرقاويين في الغرب الجزائري، لكن ليس هذا الموقف من الاستعمار، معناه أن هؤلاء لم يكونوا يحملون أفكارًا تعرقل استعادة المجتمع الجزائري مسيرته الحضارية، وقد اعتبر المفكر مالك بن نبي أفكار هؤلاء الطرقيين كلهم دون استثناء ومعهم كل أفكار هذا التيار الديني التقليدي، بأنها "أفكار ميتة"، وأنها أخطر من الأفكار الوافدة التي سماها بالقاتلة، لأن "كل مجتمع يضع بنفسه الأفكار التي ستقتله، لكنها تبقى بعد ذلك في تراثه الاجتماعي" أفكارًا ميتة"، وتمثل خطرًا عليه أشد من خطر الأفكار القاتلة، إذ الأولى تظل منسجمة مع عاداته، وتفعل مفعولها في كيانه من الداخل، إنها تكون ما لم نجر عليها عملية تصفية الجراثيم الموروثة الفتاكة التي تفتك بالكيان الإسلامي من الداخل، وهي تستطيع ذلك لأنها تخدع قوة الدفاع الذاتي فيه".[٩]

كما علينا الإشارة إلى؛ أن الالتحاق بالاتجاه الوطني الاستقلالي، ليس معناه استجابة إيجابية وتقدمية للتحدي الثقافي الاستعماري، لأن أغلب القواعد الشعبية لهذا الاتجاه كانت ترفض أي فكرة وافدة عليه، حتى ولو كانت إيجابية، فمثلاً تنظر إلى كل من يحمل ربطة عنق أنه متأورب يجب الحذر منه.[١٠] ويمكن أن يستثني البعض الطريقة العليوية التي كانت حديثة في أساليها إلى درجة وصف بن عليوة بـ "الطرقي المعصرن" كما فعل أوغسطين بيرك،[١١] لكن الأساليب الحديثة ليس معناه حمل أفكار وذهنيات حديثة، كما لم تكن هذه الأشكال الحديثة لهذه الطريقة إلا محاولة منها للحد من نشاط الإصلاحيين وإدخال الغموض والالتباس حولهم وهم في بداية الطريق.

٢- الاستسلاميون والإنهاريون

يتمثل الاستسلاميون في الكثير من خريجي المدرسة الاستعمارية الذين انبهروا بالنموذج الفرنسي، فتحولوا إلى مستلبين أو منسلخين عن ذاتهم، وأصبحوا يرون أن إخراج المجتمع الجزائري من تخلفه الحضاري، يكمن في الارتماء في أحضان النموذج الحضاري الفرنسي خاصة والأوروبي عامة، وينقسم هؤلاء الاستسلاميون إلى ثلاث أصناف:

٢/أ- دعاة التبني التام للنموذج الفرنسي

دعا هذا الصنف من المثقفين إلى الاندماج التام في فرنسا ثقافيًا وحضاريًا حتى دينيًا إن أمكن ذلك، وعملوا من أجل القضاء على كل ما يعرقل هذا الاندماج وعلى رأسها العقيدة الإسلامية، التي يرون فيها أنها "تلعب دورًا أساسيًا في عرقلة عملية الفرنسة في الجزائر"،[١٢] مما يتطلب محاربتها أو إضعافها على الأقل في النفوس، لأن "تقوية التدين لدى المسلمين والحفاظ على بعض المعتقدات الدوغماتية (في نظرهم)"، يعرقل ما يسمونه بـ "التطور الأخلاقي" للمسلمين الجزائريين.[١٣]

وقد التأم هؤلاء الاستسلاميون حول جريدة "صوت المستضعفين" (Voix des humbles)، التي أسسها رابح زناتي عام ١٩٢٢، وكان شعارها "بعيدون عن الأحزاب، بعيدون عن العقائد من أجل ترقية الأهالي عن طريق الثقافة الفرنسية"، وقد أدار هذه الجريدة سعيد فاسي منذ عام ١٩٢٨ حتى اختفائها عام ١٩٣٩، أما مؤسسها الأول رابح زناتي، فقد أنشأ جريدة أخرى هي "صوت الأهالي" Voix des indigènes في عام ١٩٢٩، لكنها لم تستمر إلا سنتين، وهي تحمل نفس طروحات "صوت المستضعفين"، ويتمثل شعارها في "جريدة الإتحاد الفرنسي الإسلامي"، وحمل افتتاحية عددها الأول عنوان "يجب أن تصبح الجزائر فرنسية".

ويعتبر سعيد فاسي ورابح زناتي إلى جانب محند سعيد لشاني وطاهرات وبن حاج من أبرز دعاة الاستسلام للنموذج الثقافي الفرنسي، أو كما يسمونه هم "تحقيق الاندماج"، وقد ألف رابح زناتي عام ١٩٣٨ كتابًا بعنوان "المشكل الجزائري كما يراه أحد الأهالي"، يطرح فيه أساليب تحقيق الاندماج وأساليب القضاء على مختلف العوائق التي تقف في وجه هذا الاندماج، ومنها المعتقد الإسلامي واللغة العربية وعدم اهتمام الجزائريين بالتعليم الفرنسي الذي يعتبره الطريقة المثلى لتحقيق هذا المبتغى.[١٤]

ولا يختلف زميله سعيد فاسي عن هذا الطرح في كتابه "الجزائر تحت الرعاية الفرنسية ضد الإقطاعية الجزائرية" الذي نشره عام ١٩٣٦، أين يتهجم على بعض الأعيان الجزائريين الذين شبههم بطبقة النبلاء في فرنسا عشية ثورة ١٧٨٩، كما لم يخل كتابه أيضًا من التهجم على علماء الدين الذين يعرقلون الاندماج بتقوية الدين في نفوس الجزائريين، فيشبههم برجال الكنيسة في أوروبا دون أن يميز بين التقليديين المتزمتين والإصلاحيين المتنورين.[١٥]

ونجد إلى جانب هؤلاء صنف آخر، تخرج من المدرسة الاستعمارية ويحمل نفس أفكارهم وطروحاتهم في العمق، لكن يختلفون عنهم في أسلوب الطرح وذلك بأخذهم مبادئ الإسلام وقيم حضارته بعين الاعتبار، ولهذا سميناهم بـ "دعاة التبني النسبي للنموذج الفرنسي"، فمن هم هؤلاء؟

٢/ب- دعاة التبني النسبي للنموذج الفرنسي

إذا كان دعاة التبني التام للنموذج الفرنسي الذين تطرقنا إليهم آنفا ينتمون في أغلبهم إلى سلك المعلمين، فإن دعاة التبني النسبي لهذا النموذج هم في أغلبهم من المنتخبين أو المرشحين إلى مختلف المجالس التمثيلية، ومنها المجالس المالية والإقليمية والبلدية، لكنهم تلقوا تعليمًا عاليًا في المدارس والجامعات الفرنسية، مثل محمد الصالح بن جلول وفرحات عباس والدكتور سعدان وعلي بومنجل ومحمد عزيز كسوس وغيرهم. ويتميز هؤلاء عن دعاة التبني التام للنموذج الفرنسي باعتزازهم بالإسلام والعربية في خطابهم، ورفضهم التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية مقابل الحصول على حق المساواة بالأوروبيين في الحقوق والواجبات.

وقد سعى هؤلاء إلى التوفيق بين الإسلام والنموذج الحضاري الفرنسي، أو كما قال فرحات عباس "خلق وفاق شرعي بين الإسلام وفرنسا"، أو بين ما يسميه بـ "وطننا الروحي (أي الإسلام) ووطنا الفكري (أي فرنسا)".[١٦] والذي فسره زميله محمد عزيز كسوس بوضوح عندما قال "إن جيلنا فرنسي فكريًا، إلا أنه يحتفظ بدينه ولغته وعاداته، ولكن لا يمكن أن يتصور أي شكل سياسي غير الشكل الذي تمثله فرنسا".[١٧]

لا يختلف البعض، وليس الجميع من دعاة التبني النسبي للنموذج الفرنسي عن دعاة التبني التام لهذا النموذج إلا تكتيكيًا، فالأوائل لا ينظرون إلى الإسلام إلا كسلاح هوية في صراعهم ضد النظام الاستعماري الذي منعهم من تحقيق طموحاتهم السياسية

في المساواة بالأوروبيين، فبمجرد ما يحققوا ذلك، فإنهم يتخلون عن الثقافة الجزائرية الأصيلة، وهذا ما يفسر لنا التحول الذي حدث لدى البعض من خريجي المدارس الاستعمارية الذين انضموا إلى الاتجاه الوطني الاستقلالي الممثل في حزب الشعب الجزائري ثم حركة الانتصار للحريات الديمقراطية ثم شاركوا في الثورة، كيف أنهم كانوا من أشد المدافعين عن الثقافة الجزائرية بمكوناتها المختلفة، لكنهم تخلوا عن هذا الخطاب بمجرد ما حققت الجزائر استقلالها، وأصبحوا من أكبر المعرقلين لاستعادة هذه الهوية الثقافية مكانتها الطبيعية، وتحولوا إلى أشد المدافعين عن الثقافة الفرنسية في الجزائر.

إن التكتيك السياسي هو العامل الرئيسي الذي يختفي وراء الاختلاف في الموقف من الإسلام وحضارته بين البعض من دعاة التبني النسبي للنموذج الفرنسي ودعاة التبني التام لهذا النموذج، فالأخيرين ينتمون في أغلبهم إلى سلك المعلمين، ولم يكن لهم طموح سياسي كبير، على عكس الصنف الأول، الذين ينتمي الكثير منهم إلى المنتخبين أو المرشحين إلى مختلف المجالس التمثيلية ومنها المجالس المالية والإقليمية والبلدية، ويتطلب ذلك منهم الاقتراب أكثر من قيم المجتمع لاكتساب أصواته في الانتخابات، وأن تحقيق طموحهم السياسي يمر عبر الأهالي من جهة، ودعم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لهم من جهة أخرى، أو كما كتبت صحيفة "الرشاد"- لسان حال جامعة الزوايا والطرق الصوفية- عام ١٩٣٩ "وهكذا شاءت ورقة الانتخابات المقدمة أن يعقد أبطال لانتانت (بن جلول) محالفة مع أبطال جمعية العلماء، وإن يحل الوداد محل الجفاء الطويل ظاهرًا وريثما تنتهي عملية الانتخاب".[١٨]

أما الطموح السياسي لدعاة التبني التام للنموذج الفرنسي، فإنه يمر عبر السلطة الاستعمارية، كما أن تجنس الكثير منهم أوقعهم في مأزق أمام الأهالي،[١٩] وكي يتخلصوا من ذلك عليهم بإضعاف العقيدة في نفوس هؤلاء الأهالي الذين يعتبرون هذا الصنف من المنبهرين بالنموذج الفرنسي مرتدين عن الدين، ويسمح لهم تحقيق ذلك إيجاد مكانة لهم لدى الأهالي وفرنسا على حد سواء، لكن إن اضطروا إلى التضحية بأحدهما فيضحون بالأهالي، على عكس دعاة التبني النسبي للنموذج الفرنسي، الذين يجدون عداء لهم لدى المعمرين الذين يخشون منافستهم لهم في الامتيازات في حالة تحقيق مطالبهم في المساواة، ولهذا فإن هؤلاء المثقفين يفضلون التضحية بفرنسا المتحالفة مع المعمرين المعادين لهم بدل التضحية بالأهالي الذين بالإمكان مساندتهم في حال تعرضهم للقمع أو الثورة على النظام الاستعماري المعرقل لطموحاتهم، وهذا كله يتطلب الاعتزاز بالإسلام وثقافة الأهالي في خطابهم حتى ولو كان ذلك نفاقًا لدى البعض منهم.

٢/ج- المنبهرون بالنموذجين السوفياتي والفرنسي

نجد إلى جانب الصنفين السابقين صنف ثالث، ويتمثل في الشيوعيين بكل توجهاتهم، والذين يعادون البعض من العناصر الثقافية للمجتمع الجزائري باعتبارها رجعية وإقطاعية وحليفة للاستغلال في نظرهم، وأن الثورة الشيوعية تشترط تحطيمها، لكن لم يخل خطاب الشيوعيين من محاولات التقرب من هذه العناصر الثقافية للأمة الجزائرية تكتيكيا، ويعتبر البيان التأسيسي للحزب الشيوعي الجزائري أن هذه الثقافة والتقاليد الجزائرية أحد مراجعه الأساسية إلى جانب مبادئ الثورة الفرنسية والنموذج السوفياتي، فيقول بيان مؤتمره التأسيسي عام ١٩٣٦، أنه يستمد أفكاره من "التقاليد الكبرى الجمهورية والثورية للشعب الفرنسي، ونأخذ التقاليد العظيمة والنبيلة الموجودة في ثقافة وحرية الشعب الجزائري بالإضافة إلى الاستمرارية للأبطال الوطنيين الجزائريين عبد القادر والمقراني والحداد".[٢٠]

كما حاول بعض الشيوعيين عدم الاصطدام بالحركة الإصلاحية، بل تحالفوا معها في بعض الأحيان، مثلما حصل في المؤتمر الإسلامي عام ١٩٣٦، وهدفهم من كل ذلك هو استخدامها كحصان طروادة للوصول إلى قلب الشعب الجزائري الذي ينظر إلى الشيوعية كفكرة معادية لثقافته ودينه، وذهب بعض الشيوعيين إلى حد الامتنان على الحركة الإصلاحية واعتبارها تقدمية مشبهين إياها بالحركة البروتستانتية في أوروبا التي لعبت دورًا في تطوير المجتمع الأوروبي.[٢١] وتعتبر نظرتهم هذه أيضا موقفا تكتيكيا ومرحليا، فهم لا يرون في الحركة الإصلاحية إلا أداة يستخدمونها لتطوير المجتمع بالقضاء على بعض التقاليد البالية والجامدة، مما يمهد لهم الطريق للقضاء على العناصر الثقافية للمجتمع وتسهيل اندماج الشعب الجزائري في الرأسمالية الأوروبية وثقافتها، والتي يعتبرها الشيوعيون المرحلة ما قبل الأخيرة لانتصار الشيوعية في الجزائر.

فمادام أن الكثير من الذين ذكرناهم إلى حد الآن قد لعبوا دورًا سلبيًا في مواجهة الثقافة الاستعمارية، هذا إن لم نقل أنهم خدموها بتفان وإخلاص، فكانوا معاول هدم لأسس الثقافة الجزائرية، وعلى رأسها الإسلام واللغة العربية، فمن هم إذن الذين استجابوا إيجابيًا لهذا التحدي الثقافي الاستعماري؟.

ثالثًا- الاستجابة شبه الإيجابية بين التوفيق والتجديد

عرف المجتمع الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي بعض الكتابات المحدودة، التي تدعو إلى إخراج هذا المجتمع من الجمود والانحطاط الشامل، ويمكن لنا ذكر من ضمن هؤلاء عبد القادر الراشدي القسنطيني في أواخر القرن١٨م، والذي دعا إلى الاجتهاد الفكري، فأتهم بالزندقة والإلحاد، وكذلك المفتى المالكي أحمد بن عمار الذي حمل العلماء مسؤولية الجمود والانحطاط، وأبرز هؤلاء على الإطلاق، هو ابن العنابي الذي دعا إلى تحديث الجيش، ولم ير أي ضرر في الأخذ عن الأوروبيين ما لا يناقض مبادئ الإسلام، وذلك في كتابه "السعي المحمود في نظام الجنود" عام ١٨٢٦،[٢٢] ولم تعرف الجزائر محاولة عملية للخروج من عصر الانحطاط إلا على يد الأمير عبد القادر، الذي سعى إلى تحديث المجتمع وبناء دولة حديثة تأخذ بما وصلت إليه الإنسانية من تقدم ورقي، وينطلق في كل ذلك من مبادئ الإسلام وشريعته، لكن لم تكتمل تجربة الأمير عبد القادر، ولم تأخذ مسارًا طبيعيًا بسبب تركيزه على الجانب العسكري على حساب الجوانب الأخرى بحكم الحرب التي كان يقودها ضد الاحتلال الفرنسي.

وعاد المجتمع الجزائري إلى الانغلاق على الذات بعد نهاية تجربة الأمير عبد القادر النهظوية عام ١٨٤٧، بل يمكن لنا القول أن هذا المجتمع انغلق أكثر على نفسه رافضًا كل جديد وأي مسايرة للعصر، وربط كل هذا بالاستسلام للغزو الثقافي الاستعماري الذي

ازداد ضغطه أكثر على هذا المجتمع. وبقي الوضع على ذلك حتى بدايات القرن ٢٠م، أين ظهرت بوادر نهظة ثقافية بظهور الشبان الجزائريين، سواءً كانوا معربين أو مفرنسين، وبرزت بوضوح الحركة الإصلاحية بقيادة بن باديس في العقد الثالث من القرن ٢٠م، والتي أنشأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام ١٩٣١، وكان هدفها تجسيد الفكرة الإصلاحية التي حددها بن باديس في العدد الأول من المنتقد بقوله "نحسن ما كان من أخلاق الأمم حسنًا وموافقًا لحالنا وتقاليدنا ونقبله، ونفتح ما كان منها قبيحًا أو مباينًا لمجتمعنا وبيئتنا ونرفضه، فلسنا من الجامدين في جحورهم ولا مع المتفرنسين في طفرتهم وتنطعهم، والوسط العدل هو الذي نؤيده وندعو إليه".[٢٣]

ولم تتوقف هذه الدعوة عند القول، بل انتقلت إلى الفعل عن طريق رجالات الإصلاح القلائل، الذين شرعوا في بناء إنسان جزائري جديد مختلف عن إنسان عصر الانحطاط فكرًا وروحًا وأخلاقًا، ويتميز بتفتحه على العصر ومسايرته مع الارتكاز على جذوره ومبادئه الإسلامية. لكن لم تؤت هذه المحاولة أكلها كاملة، ولم تؤد إلى بناء المجتمع الجديد، الذي سيقيم الحضارة الجديدة، ويعود ذلك إلى عدة عوامل ومنها:

- اشتغال الحركة الإصلاحية بالسياسية بدل تركيز جهودها فقط على بناء الإنسان الجديد طبقا لقوله تعالى "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"، وقد عبر مالك بن بنى عن ذلك بقوله "وعلى الرغم من قوة عبارات الإصلاحيين الجزائريين، فإن هذه الكلمات قد انحرفت أحيانًا وبكل أسف عن أهدافها لأسباب تضاد المنهج... لأن الحكمة قد تركت مكانها للانتهازية السياسية"، وبذلك "انقلبت الحركة الإصلاحية على عقبها وأصبحت تمشي على قمة رأسها لا على قدميها"، واعتبر بن بني عام ١٩٣٦ هي قمة ما بلغته الحركة الإصلاحية لتعود إلى الوراء بعد قبولها المشاركة في المؤتمر الإسلامي والذهاب إلى باريس، فيتساءل "فبأي غنيمة أرادوا أن يرجعوا بها من هناك وهم يعلمون أن مفتاح القضية في روح الأمة لا في مكان آخر".[٢٤]

- طغيان الخطاب السياسوي على المجتمع بدل الخطاب الإصلاحي بفعل زحف الاتجاه الوطني الاستقلالي وسيطرته على الميدان، مما دفع المجتمع الجزائري إلى الاعتقاد، أن كل الحلول للتخلف الحضاري تتلخص في القضاء على الاستعمار، فتم إهمال عملية بناء الإنسان، لكن رغم نهاية الاستعمار فإن الانحطاط بقي مستمرًا، ولم يحدث الإقلاع الحضاري المنتظر على يد الدولة الوطنية التي أهملت بناء الإنسان وتغيير ذهنيته، كما لم تضع أصبعها، إما عن عمد أو جهلاً على الفكرة التي بإمكانها تحريك المجتمع وتحويل الجزائري إلى إنسان فعال، وتشترك في ذلك مع الحركة الإصلاحية التي "لم تستطع أن تترجم إلى لغة الواقع فكرة الوظيفة الاجتماعية للدين"، حسب مالك بن نبي الذي قام بتشريح الحركة الإصلاحية في كتابه "وجهة العالم الإسلامي".[٢٥]

- ضعف قيادة الحركة الإصلاحية من ناحية التكوين، فالقليل منهم فقط من تمكن من الإطلاع على الفكر والواقع العالمي الذي نراه شرطًا أساسيًا لقراءة القرآن الكريم قراءة معاصرة واستنباط الحلول للمشاكل التي يواجهها المجتمع المعاصر، لكن هذه القيادة لم تكن في هذا المستوى، بل كانت تحمل رواسب المسلم في عصور الانحطاط، لأن حتى هي تحمل ثقافة تقليدية في عمقها، حتى ولو لبست لباسًا عصريًا ومتفتحًا نوعًا ما ومتقدمًا عن المنغلقين على ذاتهم، ولعل هذا ما جعل بن بني يقول بعد لقائه بين باديس في باريس عام ١٩٣٦ "أن مفهوم الإصلاح لا يعني شيئًا واحدًا في عقل تمرن في المنطق الكارتزياني، وفي عقل كونه علم الكلام"، ثم يؤكد على أن "العلماء أي الطائفة المتكونة من بوتقة ما نسميه الثقافة التقليدية لا يستطيعون القيام بالمهام الكبرى".[٢٦]

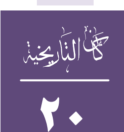
لهذه الأسباب التي أوردناها، فإننا نعتبر الحركة الإصلاحية مجرد استجابة شبه إيجابية للتحدي الثقافي الاستعماري، لأنها طورت المجتمع نوعًا ما، ويكفيها فخرًا أنها حطمت المجتمع التقليدي المنغلق، ولو أنها عجزت على بناء البديل، وقد بدأ في بداية الخمسينيات ظهور نواة من داخل الحركة الإصلاحية ذاتها يحمل أعضاءها ثقافة جديدة بحكم إطلاعهم على الثقافتين الإسلامية والغربية، وقد شكلت هذه النواة مجلة "الشاب المسلم" عام ١٩٥٣ باللغة الفرنسية. والتي تحمل أفكارًا إسلامية جديدة ومعاصرة وفعالة، ومن أبرز كتابها نجد مالك بن بنى وأحمد طالب الإبراهيمي وعبد العزيز الخالدي وغيرهم، وكان بإمكان هؤلاء القيام باستجابة إيجابية للتحدي الثقافي الاستعماري، لكن ابتلعت الثورة المسلحة نشاطاتهم، ولم تجد أفكار هذه النواة مكانها اللائق في الدولة الوطنية التي أهملت المسألة الثقافية باعتبارها أداة لبناء الإنسان الجديد.

كما عجزت هذه الدولة على توضيح مشروعها الثقافي بمفهومه الواسع، ويعود ذلك إلى الصراع بين دعاة تبني النموذج الفرنسي والإصلاحيين داخل دواليب السلطة، واكتفاء القيادة العليا بإدارة هذا الصراع والتلاعب بمختلف التناقضات لأهداف سلطوية بحتة، فقد وزع مثلاً الرئيس هواري بومدين مؤسسات الدولة بين التيارين، فأخذ الإصلاحيون ومعهم الكثير من المعربين الذين درسوا في المشرق العربي قطاعات التعليم والإعلام والقضاء وحزب جبهة التحرير الوطني، وكل ما من شأنه التأثير الأيديولوجي والثقافي، وأعطي لدعاة تبني النموذج الفرنسي ومعهم البعض من المفرنسين قطاعات الاقتصاد والإدارة، كما استخدم النظام الجزائري الانشقاق والصراع الثقافي بين الطرفين لتدعيم سلطته وضرب هذا بذاك، فكلما تقوى طرف أضعفه بالآخر، وقد أخذ الصراع فيما بعد بين هذين الطرفين صراعًا أيديولوجيًا، فوقف أغلب المعربين والإصلاحيين إلى جانب الإسلاميين، ووقف الكثير من المفرنسين ودعاة تبني النموذج الفرنسي أو الغربي إلى جانب التيارات العلمانية واليسارية.[٢٧]

خاتمة

وأضيف إلى هذا الصراع الثقافي الحاد صراع آخر حول الاعتراف بالبعد الأمازيغي للهوية الجزائرية، والتي يرى دعاتها أنها الهوية الأصلية للشعب الجزائري قبل أن يدخل الأمازيغ في الإسلام، ويتعرب جزء منهم، وهم سكان المدن، في الوقت الذي احتفظ فيه سكان الجبال والأرياف والبوادي البعيدة عن مركز السلطة على ثقافتهم الأمازيغية التي يعبر عنها بلهجات أمازيغية متشابهة إلى حد كبير،[٢٨] ويمكن أن نقول أن هذا الانشقاق الثقافي حول الأمازيغية يعود إلى عدم اكتمال عملية التعريب في الجزائر في الوقت الذي اكتملت فيه عملية الأسلمة بعد دخول سكان الجزائر في الإسلام منذ أربعة عشر قرن.

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



الهوامش:

(١) أرنولد توينبي، **في دراسة التاريخ**، ترجمة أحمد محمود صبحي، دار الطليعة بيروت ١٩٧٥.

(٢) أنظر مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر ط ٣ دمشق ١٩٦٩. ويمكن العودة إلى بعض التعريفات في:

Denys cuche, **la notion de culture dans les sciences sociales**, casbah éditions Alger 2000.

(3)E.B. Taylor, **la civilisation primitive**, traduit de l'anglais par reinwalds, Vol I Ed Paris 1878 p1.

(٤) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن ١٠م إلى ١٤م**، ج١، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ١٩٨٥، ص١٣، ص١٥.

(٥) **فاطمة نسومر** (تسمى أيضًا لالة فاطمة نسومر أو لالا فاطمة نسومر)، حيث "لالة" لفظة توقير أمازيغية تعني "السيدة"). ولدت في وِرجة حوالي سنة ١٨٣٠ وتوفيت في بني سليمان في سبتمبر ١٨٦٣، وتعد من أبرز وجوه المقاومة الشعبية الجزائرية في بدايات الغزو الاستعماري الفرنسي للجزائر.

(6)Cdt Rim, **Marabouts et Khouanes –étude sur l'islame en Algérie** ,Ed jourdan Alger 1884

(٧) السنة عدد (١٩٣٣/٦/٥).

(٨) من كتاب **سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين** المنعقد بنادي الترقي في سبتمبر من عام ١٩٣٥، نقلاً عن محمد البشير الإبراهيمي، **الآثار** ، ج١، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ١٩٨٤، ص ١٣١- ١٣٤.

(٩) مالك بن نبي: **في مهب المعركة- إرهاصات الثورة**-، دار الفكر دمشق ١٩٨٦، ص١٣.

(١٠) أنظر في ذلك، **دراسة محمد حربي حول الاتجاه الاستقلالي في سكيكدة** المنشورة في ملاحق كتابه.

L'Algérie et son destin, Croyants ou citoyens, ENAG – Ed Alger 1995

(11)Augustin Berque, **un mystique moderniste, Le cheikh Benaliona**, Revue Africaine Vol 79/II Année 1936 pp691-776

(12)Voix indigène n° (20/6/1929)

(13)Voix des humbles n° octobre 1922

(14)R.Zenati, **le problème Algérien vu par un indigène**, EdAlger 1938

(15)S.Faci, **l'Algérie sous l'égide de la France contre la féodalité Algérienne**, Toulouse 1936.

(16)Ferhat Abbas, **de la colonie vers la province : le jeune Algérien**, Ed Garnier Paris 1981 p155.

(17)M.A Kessous, **la vérité sur le malaise Algérien**, Ed Bone 1935

(١٨) **الرشاد**، عدد ٤٢ (١٩٣٩/٥/٢٢).

(١٩) أنظر: **اعترافات زناتي**.

Mémoires d'un instituteur Algérien naturalisé, in voix indigène sep 1930

وترجمتها الشهاب إلى العربية عدد أكتوبر ١٩٣٠

(20)Lutte social n°68 (24/10/1936)

(21)Amar ouzegane, **le meilleur combat**, Ed julliard Paris 1962 P36.

(٢٢) أبو القاسم سعد الله، **رائد التجديد الجزائري: ابن العنابي**، المؤسسة الوطنية للكتاب ط ٢ الجزائر ١٩٩٠.

(٢٣) **المنتقد**، عدد ١ (١٩٢٥/٧/٢).

(٢٤) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر ط٣، دمشق ١٩٦٩، ص ٣٣ – ٣٥.

(٢٥) مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق ١٩٦٩، ص٦٥.

(٢٦) مالك بن نبي، **مذكرات شاهد القرن** . الطالب . دار الفكر دمشق ١٩٦٩، ص٢٣٣ - ٢٣٤.

(٢٧) بإمكان العودة في ذلك إلى الفصل الثاني من كتابنا: رابح لونيسي، **رؤساء الجزائر في ميزان التاريخ**، دار المعرفة، الجزائر٢٠٠٩.

(٢٨) يمكن العودة بالتفصيل إلى هذا الموضوع في كتابنا: رابح لونيسي، **دعاة البربرية في مواجهة السلطة**، دار المعرفة، الجزائر٢٠٠١.



السياق السياسي والاجتماعي العربي ودوافع الموقف السعودي من حلف بغداد "مقاربة سوسيوسياسية"

د. محمد علي الروسان

أستاذ مساعد التاريخ الحديث
جامعة البلقاء التطبيقية

د. صفوت محمود الروسان

أستاذ مساعد علم الاجتماع
جامعة البلقاء التطبيقية

د. علاء زهير الرواشدة

رئيس قسم العلوم الاجتماعية
جامعة البلقاء التطبيقية
عجلون – المملكة الأردنية الهاشمية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد علي الروسان، صفوت محمود الروسان، علاء زهير الرواشدة، السياق السياسي والاجتماعي العربي ودوافع الموقف السعودي من حلف بغداد: مقاربة سوسيوسياسية.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ٢٢ - ٣٢.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخَص

هدفت هذه الدراسة وبشكل مباشر للبحث في المقدمات التي دفعت نحو إنشاء حلف بغداد ومواقف الدول العربية تجاهه، وتحديدا التركيز على الموقف السعودي الرافض للحلف. من هنا فقد اتجهت الدراسة إلى تتبع تلك المقدمات والمبررات التي واكبت إنشاء الحلف وما نتج عنها من مواقف تقاطعت حينا وتصادمت حينا آخر، وفي ضوء افتراض إشكالية الموقف السعودي الرافض الذي اتسق مع الموقف المصري رغم الاختلافات السياسية والأيدولوجية بين النظامين. سعت الدراسة إلى محاولة فهم الأثر الذي لعبته حالة الوعي عند الشعوب العربية آنذاك والتي بدأت تعبر عن رفضها لأية مشاريع غربية بدوافع الخوف من الاستعمار ومحاولة مقاومة كل مبادراته. وقد اعتمدت الدراسة منهجا تحليليا يقوم على البعد الوصفي التاريخي في فهم وتفسير تساؤلات الدراسة.

وقد تبين من خلال البحث أن الموقف السعودي الرافض للحلف عبر عن حقيقة ظهور السعودية كدولة محورية في المنطقة إلى جانب مصر. إضافة إلى هاجس الخشية السعودية من الطموحات العراقية في الحجاز ثم دور الهاشميين في ضوء علاقات الصراع والتنافس السابقة في الحجاز، إضافة إلى ما انتاب العلاقات السعودية البريطانية من توتر نتيجة الانحياز البريطاني إلى بعض الأطراف العربية الخليجية في قضية (منطقة البريمي الحدودية) مع بعض الدول الخليجية.

وعليه فقد خلصت الدراسة إلى أن هناك مصالح سياسية إقليمية تقاطعت عندها بعض الأطراف العربية؛ مثل مصر والسعودية فيما يتعلق بالحلف، بينما جمعت بين أطراف أخرى مواقف أيديولوجية معادية للاستعمار متناغمة مع المواقف السوفيتية الداعمة لحركات التحرر العربية واستقلال البلدان العربية، الأمر الذي ساعد على تبلور الموقف السعودي الرافض للحف وأيضا مواقف معظم الدول العربية، التي أسفرت في نهاية المطاف إلى إسقاط حلف بغداد بل والقضاء على النظام السياسي في العراق.

مُقدِمة

إن الباحث في التاريخ الاجتماعي والسياسي العربي الحديث تستوقفه الكثير من الحقب التاريخية بما تحويه من غزارة في الأحداث لاسيما السياسية منها، ذلك لما شهدته المنطقة التي شكلت عبر القرون بؤرة لاهتمام العالم أجمع من تواتر غريب في الأحداث والمواقف بفعل الاستعمار الغربي للمنطقة بدوافعه المتعددة، وظهور النفط في المنطقة إضافة إلى القضية الفلسطينية والمشروع الصهيوني فيها الأمر الذي ساهم بصورة أو بأخرى في حدوث صراعات إقليمية ودولية تنازعت هذا الواقع العربي بحجج مختلفة. والمنطقة العربية احتلت في الشرق الأوسط حالة من التجاذب القوي بين المعسكرين الشرقي بقيادة الاتحاد السوفيتي والغربي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية وتحديدا في الفترة ما بعد خروج

الانجليز والفرنسيين من المنطقة أو تضائل نفوذهم فيها، حيث حاولت أمريكا السيطرة على المنطقة واستغلالها في حربها الباردة مع المعسكر الشرقي؛ إلا أنها لجأت إلى اعتماد سياسة جديدة ذات طابع تكتيكي يختلف عن الأسلوب البريطاني الذي كان يعتمد على إبرام المعاهدات الثنائية. فقد اعتمد الأمريكان على الأنظمة الدفاعية التي تظم مجموعة من الدول العربية، حيث كان يتم عرض هذه المشاريع على الدول العربية في سلة وكانت السلة الثانية مليئة بالوعود والامتيازات الجدية منها والخيالية. وقد نجحت هذه السياسة في بعض الاتفاقيات وفشلت في أخرى ذلك لأسباب سياسية واجتماعية فرضت نفسها آنذاك في الواقع العربي، وربما إن الفترة ما بين (١٩٥٠ - ١٩٦٠م) كانت من أكثر سنوات هذا القرن اضطرابًا وتوترًا على الصعيد الاجتماعي والسياسي على المستوى المحلي والإقليمي والدولي على السواء. فهناك صياغة جديدة لميزان القوى العالمي رافقه على الصعيد الداخلي العربي حال من الحراك الشعبي أفرز العديد من حركات التحرر الوطنية والقومية.

يحتل العالم العربي بامتداده القاري في أسيا وإفريقيا مساحات شاسعة من الأراضي تختزن في باطنها ثروات وموارد نادرة وبكميات هائلة، كما لسواحله الطويلة على البحار والمحيطات ميزة جغرافية مهمة، مما يجعل منه موقعًا جغرافيًا واستراتيجيًا مميزًا متوسطًا بين الشرق والغرب. ويعتبر محورًا رئيسيًا من محاور الإستراتيجية الدولية المتعددة الجوانب السياسية والاقتصادية. لذلك فهو يكتسب أهمية فائقة في تخطيط واستراتيجيات الدول الكبرى ولاسيما الولايات المتحدة الأميركية. فالموارد العديدة التي تملكها الدول العربية وفي مقدمها النفط والغاز والدور الذي تقوم به الولايات المتحدة على المسرح العالمي كقوة عظمى اقتصادية وسياسية وعسكرية ومالية. هذان العاملان يمثلان في الحقيقة قوى الجذب بين الطرفين العربي والأميركي وذلك منذ عام ١٩١٩، تاريخ دخول السياسة الأميركية المنطقة العربية وكان ذلك مع نهاية الحرب العالمية الأولى.

لم تدخل أمريكا في الحلف علانية لتبقى في مظهر المحايد بين الدول العربية، ولكنها كانت تدير اللعبة من خلف الستار، كما لم تدخل فيه أفغانستان لأن أصول اللعبة اقتضت تركها غنيمة للروس الشيوعيين ينشغلون بها عن هذه الأحلاف، ووقفت سوريا والسعودية ومصر موقف المعارض لهذا الحلف. وكان رأي الاتحاد السوفيتي أن هذا الحلف لم يكن في حقيقته سوى حلقة جديدة في سلسلة المخططات والمؤامرات الامبريالية التي ينفذها الغرب في مواجهة شعوب منطقة الشرق الأوسط لضمان استمرار تسلطه على ثرواتها الطبيعية والإبقاء عليها ضمن مناطق نفوذه، فضلاً عن أن الحلف قام على تهديد المصالح الأمنية الحيوية للاتحاد السوفيتي نفسه.

ليشكل حلف بغداد (١٩٥٤- ١٩٥٥) أهم المشاريع التي قدمها المعسكر الغربي بذريعة الدفاع عن المنطقة، وقد شكل مشروع الحلف والحلف في حينه تجاذبات سياسيه عربية وإقليمية بين مؤيد ومعارض. إلا أن الحلف إجمالا ووجه بموجة رفض عربية شبه كلية على الصعيد الرسمي والشعبي معا الأمر الذي افرز صراعات سياسية هائلة أدت إلى زعزعت استقرار المنطقة سياسيا . والدراسة الحالية أخذت جانبا من هذا الرفض متمثلا بالموقف السعودي في سياقه التاريخي والموضوعي، بحثا عن الأسباب وراء هذا الرفض وتداعياته على الواقع السعودي والعربي ثم على اتفاقية الحلف نفسها، والدراسة تنطلق من افتراض أن الواقع السياسي العربي كان آنذاك مرهونا بالواقع الاجتماعي ككل والذي من الممكن انه قد لعب دورًا في إفراز وتعزيز الموقف السعودي بكليته.

أهمية الدراسة

تأتي أهمية هذه الدراسة من خلال تناولها لأحد الموضوعات المهمة والمفصلية في التاريخ العربي وهو حلف بغداد وما أحاط به من ظروف سياسية واجتماعية. حيث عبر الحلف وما تضمنته بنود الاتفاقية في حينه عن تمازج بين المواقف الغربية والعربية بمبادرة أمريكة لاتخاذ موقف مشترك من الاتحاد السوفيتي، إلا أن معظم الدراسات التي تناولت هذه الاتفاقية وفي حدود علم الباحث ركزت على تناول ما تحتويه هذه الاتفاقية من مرتكزات كشروط واتفاقيات تحتم على الداخلين في هذا الحلف بعض الواجبات وتقدم لهم بالمقابل بعض الامتيازات. بينما توجهت هذه الدراسة إلى تحليل وفهم الظروف الاجتماعية والسياسية التي رافقت ظهور الحلف إضافة إلى فهم ودراسة المواقف الرافضة له وتحديدا الموقف السعودي من هذا الحلف، وهو من الموضوعات التي بقيت بعيدة عن الاهتمام البحثي. لذلك تأتي أهمية هذه الدراسة من خلال تناولها لأحد المواقف العربية الرافضة آنذاك لهذا الحلف بحثا عن الأسباب والدوافع وراء هذا الموقف الرافض في سياقه الاجتماعي والسياسي والتاريخي. إضافة إلى أن هذا النوع من الدراسات يقع ضمن اهتمام البحث في علم الاجتماع العام، وعلم الاجتماع السياسي، وعلم اجتماع العولمة إذ أن العولمة بأبعادها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. أفرزت العديد من التحالفات والتكتلات حفاظا على المصالح المشتركة.

إشكالية الدراسة

شكلت السياسة الخارجية الأمريكية ما بعد الحرب العالمية وتحديدا بعد تشكيل حلف الناتو في ١٩٤٩م بوادر ظهور الحرب الباردة بين قطبي المعادلة العالمية الغربية والشرقية. لذلك دفعت السياسة الخارجية الأمريكية قوتها باتجاه المنطقة العربية لتستغلها كورقة ضغط رابحه في حربها المرتقبة مع الاتحاد السوفيتي. وقد حاولت هذه السياسة وبذكاء استغلال حلف بغداد ١٩٥٥م كأحد اذرعها في الشرق الأوسط بدافع مواجهة المد الشيوعي في المنطقة أو ما كانت تسمية (الخطر الشيوعي). وبذلك دفعت البريطانيين إلى تبني مشروع الحلف. وكان هذا الدفع لان البريطانيين كانوا الأقرب والأعرف بتداعيات الأحداث السياسية في المنطقة، وبالتالي تسهل

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

فعل الولايات المتحدة في المنطقة من خلال ضم مجموعة من الدول العربية والإقليمية إلى هذا الحلف.

إلا أن الحقيقة المرة بالنسبة للبريطانيين ومن خلفهم الأمريكان هو فشل الحلف في ضم أي من الدول العربية إليه باستثناء العراق. فكانت مواقف الدول العربية شبه متوافقة في رفضها الدخول في حلف بغداد، وذلك انطلاقًا من الاعتقاد بأن مثل هذه الأحلاف والتكتلات مع البريطانيين تحديدًا هو ضرب جديد من ضروب الاستعمار الذي جربه العرب وأصبحوا غير قادرين على تقبله كحكومات في ظل اتساع حالة الوعي العربي الرافض للاستعمار وظهور حركات التحرر العربية في مختلف إرجاء الوطن العربي. وبالتالي كانت الحكومات آنذاك في غنا عن خلق معارضات جديدة تزعزع استقرار المنطقة المتجه نحو الأعمار والعمل في ظل ظهور النفط كسلعة عالمية مهمة. وكان من أبرز الدول العربية الرافضة لهذا الحلف في حينه الجمهورية المصرية قلعة المد القومي في المنطقة، ثم الموقف السعودي الذي جاء مشابها للموقف المصري والسوري باعتبارها أكثر الدول فاعلية في الشأن العربي. وفي مقابل هذا القطب الرافض كان هناك بعض الدول التي وجدت في هذا الحلف تحقيقًا لمصالحها وطريقًا قليل المخاطر في الحفاظ على استمرار وجودها.

لذلك كان لابد من فهم الجهود الغربية المبذولة التي بنيت على تقديم الإغراءات الاقتصادية والسياسية والعسكرية، وإقناع دول المنطقة بالمصالح المشتركة للأطراف المتحالفة وعلى رأسها الوقوف في وجه الاتحاد السوفيتي الذي يشكل خطورة على المنطقة واستقرار أنظمتها السياسية مما يتطلب ضرورة العمل على الحيلولة دون تغلغله في المنطقة. لأن وجود الفكر الشيوعي في المنطقة يعني أن كثير من الأنظمة العربية سيكون مصيرها الزوال. وبالتالي كان من المفيد البحث في الموقف العراقي؛ الطرف العربي الوحيد الذي دعا وشجع على الدخول في تحالف مع القوى الغربية الفاعلة على المستوى العالمي، وكذلك البحث في المواقف العربية الأخرى المساندة وما عكسته من مواقف وردود فعل عربية معارضة ورافضة.

وفي حين بدأت المجتمعات العربية في هذه الحقبة التاريخية تتبلور فيها البنى والأنساق الاجتماعية والسياسية وظهور بوادر المجتمع المدني بصورته الأولية، ثم ظهور برامج الإصلاح السياسي والزراعي والتنموي وتحديدًا في مصر ثم سوريا، وبداية حالة استقرار الدولة في الخليج العربي إن جاز التعبير. خصوصًا في المملكة السعودية التي شكلت القطب العربي الأقوى كمقابل للقطب المصري بفعل حالة الثروات النفطية المكتشفة الأمر الذي عزز من موقف الحكم السعودي ليشكل في الواقع العربي قطب سياسي ومالي مؤثر. وقد سعت هذه الدراسة للإجابة عن سؤالها الرئيس وهو: ما هي الأسباب الأساسية وراء الرفض السعودي لحلف بغداد؟ والذي يتفرع منه التساؤلات الآتية:

أولاً: مـا هي المقـدمات والمبـررات الاجتماعيـة والسياسـية لظهـور الموقف السعودي من حلف بغداد؟

ثانيًا: ما هي طبيعة المواقف والتقاطعات والصراعات الناتجة عن الموقف السعودي من الحلف؟

ثالثًا: ما هي طبيعة الموقف الإشكالي السعودي المصري من الحلف؟

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في المقدمات والمبررات التي دفعت الولايات المتحدة وبريطانيا وبعض الدول في منطقة الشرق الأوسط للدخول في تحالفات سياسية وعسكرية، وفي مقابل ذلك ظهرت دول أخرى وقفت بوجه تلك الأحلاف الغربية، بدوافع ومبررات مختلفة. فقد برزت مواقف عربية رسمية وشعبية معارضة ورافضة لدخول العراق وغيره من الدول العربية في هذا الحلف من خلال بذل الجهود عبر الاتصالات والمحادثات الثنائية وعقد الاجتماعات والمؤتمرات الوزارية على مستوى مجلس الجامعة العربية. وكان من أبرز الدول المعارضة للحلف، مصر والسعودية، ومن هنا هدفت الدراسة وبشكل مباشر إلى البحث في طبيعة المواقف العربية الرافضة لحلف بغداد. واهتمت الدراسة تحديدًا للبحث حول الدوافع والمبررات وراء الموقف السعودي من الحلف.

منهجية الدراسة

اعتمدت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي بغية الوصول إلى تقديم توصيف تفصيلي ومقبول لحقيقة الموقف السعودي من حلف بغداد استنادًا على المعطيات والوقائع التاريخية التي واكبت هذا الموقف في سياقه الاجتماعي والسياسي العربي في تلك الفترة من الزمن. فاستقراء الواقع السياسي والاجتماعي يعتبر المنهج الذي تستند عليه الدراسة.

مقدمات ومبررات بناء التحالف

منظمة الحلف المركزي (CENTO Central Treaty Organization) أو حلف بغداد (Baghdad Pact) كان قد عرف في بادئ الأمر باسم منظمة حلف الشرق الأوسط (Middle East Treaty Organization) وهو حلف أنشء عام ١٩٥٥ بداعي الوقوف بوجه المد الشيوعي في الشرق الأوسط ضم إضافة إلى الدول الغربية كل من العراق وتركيا و إيران وباكستان وبريطانيا. (www.marefa.org/index.php). مع الإشارة إلى أن فكرة الحلف لم تكن وليدة عام ١٩٥٥ تحديدًا، ذلك أن بداية التفكير في إقامة تحالف يضم القوى الغربية الكبرى وأكبر عدد ممكن من دول منطقة الشرق الأوسط ترجع إلى عام ١٩٥١، حين تقدمت الدول الغربية بمشروع يهدف إلى إقامة منظمة عسكرية جماعية للدفاع عن الشرق الأوسط. ذلك بعد إلغاء مصر معاهدة التحالف والدفاع المشترك المعقودة بينها وبين بريطانيا في عام ١٩٣٦. (مقلد، ١٩٧٩: ٢٤١)

في ١٤ تشرين الأول ١٩٥١ أصدرت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بيانًا دعت فيه الدول العربية إلى الاشتراك في منظمة للدفاع

ISSN: 2090 – 0449

عن الشرق الأوسط، وأن تضع هذه البلدان قواعدها العسكرية، وموانئها وطرق مواصلاتها تحت تصرف القائد العام للمنطقة. ثم أعقبته ببيان ثاني في ١٠ تشرين الثاني ١٩٥١ لممارسة الضغط على الدول العربية من أجل الالتحاق بالمشاريع الأمريكية قائلة: إن الدفاع عن الشرق الأوسط يمثل أمرًا حيويًا للعالم الحر. (الحمداني، ٢٠٠٣: ٢٧٠).

وفي عام ١٩٥٢ قدمت رئاسة الوزراء البريطانية ورقة حول إستراتيجيتها العالمية تضمنت مبررات الاهتمام البريطاني بالشرق الأوسط. مبينة أن هناك تقاليد سياسية والتزامات بريطانية لبعض الدول والتي منها العراق والأردن والسودان ومشيخات الخليج. ثم أن وقوع الشرق الأوسط في وسط الطرق البحرية والجوية التي تربط بين استراليا والهند وباكستان من الأمور الإستراتيجية المهمة، كما ان هناك علاقة بين المنطقة والحرب الباردة بسبب مصادر النفط المتوفرة فيها، علاوة على أن الشرق الأوسط يمثل مركز العالم الإسلامي، وان هنالك مخاطر تتمثل في تطلعات استعمارية روسية في الدردنيل المضيق البحري المهم. وهناك أهمية إستراتيجية كبرى لمصر بسبب موقعها الجغرافي الخاص وإشرافها على قناة السويس. (Ruane,2005:181-182)

ويتضح إن تلك الطموحات لم تقتصر على الدول الغربية فحسب، بل والحكومة العراقية من طرفها أيضًا كانت تتطلع لبناء تحالف إقليمي في المنطقة. فبعد اغتيال الملك عبد الله في ٢٠ تموز١٩٥١ اشتدت الدعوة لضم الأردن إلى العراق وأصبح (نوري السعيد) لا يتردد في التصريح للمقربين منه بأن الأردن وحدة سياسية مصطنعة لا يقوم على أي أساس اقتصادي، ولا مناص لها من الارتباط بمرور الوقت ببلد عربي مجاور إشارة منه إلى العراق. وفي ٢٣ تموز ١٩٥١ اقترح وزير الخارجية العراقي (صالح جبر) على الوزير المفوض البريطاني في عمان توحيد العرشين الهاشميين بقيادة الملك فيصل الثاني، ليعود نوري السعيد ليؤكد هذا المطلب في لقاءه مع المفوض البريطاني في ٢٤ تموز ١٩٥١.

وفي هذا الساق وللتأثير على قرار مجلس النواب الأردني، شكلت الحكومة العراقية لجنة للترويج لفكرة الاتحاد أطلق عليها "لجنة توحيد العراق والأردن"، وبدأت أعمالها في آب ١٩٥١ من خلال دعم المرشحين المؤيدين لمشروع الاتحاد بين البلدين. إلا أن نتائج الانتخابات جاءت بنواب غير مؤيدين للاتحاد. وكان الملك طلال الذي نادى به مجلس النواب ملكا قد رفض هذا المشروع، اعتقادا منه أن (عبد الإله) الوصي على عرش العراق قد سعى لإقصائه عن الحكم ليتولى مكانه ومن ثم يخلفه الملك فيصل الثاني. (الشلبي، ٢٠٠٦: ١٠٧- ١١٠) والحكومة العراقية كانت قد اتخذت موقفا منحازا للولايات المتحدة الأمريكية في حربها الباردة مع الاتحاد السوفييتي تم ترجمتها بسياسات وعلاقات واتفاقيات اتجهت به أخيرًا لدخول حلف بغداد. (Tripp, 1997: 186)

حيث يتضح أن هناك مجموعة من العوامل الدافعة باتجاه تشكيل الحلف لدى من كان يروج له فهناك دوافع استعمارية ومصالح اقتصادية وسياسية وجغرافية إستراتيجية، في مقابل مصالح سياسية لبعض دول المنطقة منبثقة من رؤيتها بضرورة ارتباطها مع القوى الغربية الكبرى، خاصة في ظل الحرب الباردة وصراع النفوذ القائم في حينه بين الولايات المتحدة وبريطانيا وحلفاءهما من جهة وبين الاتحاد السوفيتي وحلفاءه من جهة أخرى. فالرئيس الأمريكي (دوايت ايزنهاور) ورئيس الوزراء البريطاني (وينستون تشرتشل) كان هاجسهما من إنشاء حلف بغداد في السيطرة على الفكر القومي ومنع الزحف الشيوعي إلى الشرق الأوسط. (زاده،١/٩/ ٢٠٠٩) هذا ما دفع بالولايات المتحدة إلى متابعة جهودها بهدف خلق حزام من الدول الموالية للغرب لتحيط بالاتحاد السوفيتي، وعلى أساس ذلك أخذت تبادر بالاتصال والتفاوض مع عدد من الدول وإغراءها بالمساعدات المالية والعسكرية، وفي الشق الأخر انتهزت بعض دول الشرق الأوسط هذا التحالف لتعزيز وجودها السياسي من خلال المكاسب والتسهيلات الغربية. (الناصري، ٣ أيلول ٢٠٠٩)

في آذار ١٩٥٣ بدأ وزير خارجية أمريكا (جون فوستر دالاس) زياراته للمنطقة؛ وعقد لقاء مع (جمال عبد الناصر) لتسويق مشروع إقامة "منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط"، وحين سأله جمال عبد الناصر عن أهداف هذه المنظمة وما الذي تدافع عنه.. أجابه دالاس قائلاً.. الدفاع عن الشرق الأوسط ضد الشيوعية.. فأجابه ناصر قائلاً: إنه لا يوجد خطر على الشرق الأوسط من الشيوعية بل إن الخطر كل الخطر يأتي من إسرائيل. وهنا أدرك دالاس مرامي سياسة عبد الناصر ومن ثم وضعه على أجندة السياسة الأمريكية باعتباره معاديًا وبالتاي يجب التخلص منه في أقرب وقت، وعلى هذا اتجه الغرب إلى العراق ليكون بديلا مقنعا لمصر في المنطقة كحليف للغرب بمشاريعه المعلنة والخفية.(الدسوقي، ٦/ ٩/ ٢٠٠٩،.www.al-araby.com/docs/article1958.html).

تابع دالاس زياراته إلى الأردن سوريا لبنان السعودية إسرائيل الهند باكستان وتركيا اليونان وليبيا. وعاد إلى أمريكا في أواخر أيار ١٩٥٣ وهو يحمل انطباعات بوجود موقفين محددين في منطقة الشرق الأوسط: موقف متفق مع الغرب وموقف معادي له. فهنالك الدول التي تعرف باسم"الدول الشمالية" وهي تركيا وإيران والعراق وباكستان التي يمكن أن تنظم إلى منظمة دفاعية إقليمية. وعلى أساس ذلك أنجز دالاس أولى مآثره في"الحزام الشمالي" في ٢ نيسان ١٩٥٤ حينما وقعت تركيا وباكستان معاهدة صداقة وتعاون بينهما. وأعقب ذلك الإعلان في بغداد عن موافقة واشنطن على إمداد بغداد بالأسلحة بموجب اتفاقية الأمن المتبادل مع أمريكا الموقعة مع حكومة فاضل الجمالي في ٢١ نيسان ١٩٥٤. (الحمداني، ٢٠٠٤: ٤٠٢)

بدورهم أخذ المبعوثون الباكستانيون والأتراك على عاتقهم التبشير بتحالفهم ودعوة الآخرين إلى الانضمام لهم من خلال زيارات قاموا بها إلى دول المنطقة. ومن بين الدول التي وافقت مبدئيًا على ذلك؛ العراق، تحت تأثير الإغراء الأمريكي بتزويد العراق بالأسلحة. إلا أن مجلس الجامعة العربية عقد مؤتمرًا في القاهرة لاستيضاح الأمر حيث أعلن الوفد العراقي خلاله على عدم صحة ما تم تداوله بخصوص موافقة العراق على الانضمام للحلف التركي الباكستاني، وعليه أصدر المجلس بيانا أكد فيه عدم اعتزام العراق المشاركة في الحلف. ما دفع بوزير الخارجية الأمريكية دالاس إلى أن يبعث برسالة إلى السفير الأمريكي في بغداد يبلغ فيها الحكومة العراقية افتقارها للشجاعة الضرورية والثقة لتنفيذ البرنامج الدفاعي. (المبحث الثالث: www.moqatel.com/openshare/indexf.html) مع ذلك، بقي العراق في تعامله مع الأفكار والمبادرات المرتبطة بالحلف غامضًا وغير واضحًا مع بعض الأطراف العربية، وكان يبدو أكثر قربًا إلى الغرب منه إلى مصر وغيرها من الأطراف العربية التي لم تكن متشجعة للتحالف مع البلدان الغربية.

هذا ما بدا واضحًا في الزيارة التي قام بها وفد مصري إلى العراق في ١٥ آب ١٩٥٤ حيث أبلغ الحكومة العراقية أن الدفاع عن المنطقة يجب أن يتولاها العرب بأنفسهم وأن يبنى ميثاق الضمان العربي. عندها أبلغ نوري السعيد الوفد المصري حرص العراق على استقلاله ومواقفه العربية، لكنه في الوقت نفسه بحاجة إلى صداقة تركيا خوفا على الموصل ونفطها ثم صداقة إيران اتقاء لمطامعها في بعض المناطق الحدودية. واقترح أن يشتمل مشروع الضمان العربي باكستان وأن تعقد دول الميثاق اتفاقًا عسكريًا مع بريطانيا، وأن ينشأ بين العراق وسوريا اتحاد يتيح للعراق الوصول إلى البحر المتوسط. كما واقترح استشارة الولايات المتحدة قبل البت بالمشروع. إلا أن المباحثات لم تسفر عن أية نتائج أو اتفاقات (حسين، ٢٩ أيار ٢٠٠٦). لأن نوري السعيد كان ذاهب بمشروعه إلى أبعد مدى؛ وإصرارًا منه على المشاركة الغربية في الحلف قام بزيارة إلى لندن في ٢٣ أيلول ١٩٥٤ وطلب من وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية (سلوين لويد) ربط ميثاق الضمان العربي بالدول الغربية. وفي طريق عودته من لندن زار أنقره وعقد مفاوضات مع رئيس الوزراء التركي (عدنان مندريس) أعلن فيه بأن أمن العراق وسلامته مرتبطان بأمن وسلامة تركيا و إيران واتفق الطرفان على العمل لخلق حلف إقليمي يتسع لدول أخرى للدفاع عن المنطقة والتعاون الاقتصادي ومناهضة الشيوعية. (المبحث الرابع: www.moqatel.com/openshare/indexf.html)

وهذا الإصرار لنوري السعيد جاء من حقيقة ارتباط العراق ببريطانيا منذ فترة حكم فيصل الأول، وعلى أساس تحالف الشريف حسين وأبناءه مع بريطانيا في الحرب العالمية الأولى ضد الدولة العثمانية. فكان هذا الارتباط مع البريطانيين مقدمة للدخول في تحالف معهم (Simons, 1996: 224) وبناء على توصية السفارة البريطانية في بغداد لربط العراق بالحلف الذي يضم تركيا وإيران والباكستان وبريطانيا واشتراك الولايات المتحدة العسكري، أخذ نوري السعيد بتمهيد الأجواء للانضمام إلى الحلف باتخاذ خطوات تمهيدية داخلية على رأسها قطع علاقاته الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي وإصدار مراسيم قانونية داخلية لمقاومة الشيوعية (الحمداني، ٢٠٠٣: ٢٧٠). في ١٢ كانون الثاني ١٩٥٥ في السياق نفسه وصل (عدنان مندريس) رئيس الوزراء التركي إلى بغداد حيث أعلن أن تركيا والعراق قررًا عقد اتفاق عسكري بينهما يرمي إلى تحقيق التعاون وكفالة الاستقرار والأمن في الشرق الأوسط ويدعو الحكومات العربية للدخول فيه (مقلد، ١٩٧٩: ٢٤٢).

وبالإعلان عن ولادة الحلف عاود نوري السعيد بذل محاولاته لضم الأردن إلى الحلف، مقدماً للملك (حسين) الكثير من الإغراءات والمساعدات المادية، كما قدمت بريطانيا من جهتها المزيد من الإغراءات والمساعدات للملك حسين إذا ما قرر الانضمام للحلف، وقد وافق الأردن على الانضمام للحلف، وأرسل وفدًا إلى بغداد للتداول في شروط الانضمام. (الحمداني، ٢٠٠٣: ٢٧٢) كما بذلت بريطانيا جهدها أيضا لإقناع الأردن الالتحاق بالحلف؛ ففي أواخر ١٩٥٥ حضر رئيس أركان الجيش البريطاني (تمبلر) لبحث الموضوع وإقناع القيادة الأردنية بالانضمام إلى الحلف متحدثا عن مكاسب عسكرية وسياسية ومالية. وكانت حكومة (هزاع المجالي) قد وافقت. مما أدى إلى استقالة عدد من الوزراء قامت على إثرها المظاهرات والمسيرات المندددة والرافضة للحلف، الأمر الذي حال في النهاية دون انضمام الأردن إليه. (رشيد، ٩ كانون الأول ٢٠٠٦، عرض بسام بدارين، www.alfikralarabi.org/index/modules)

الدعوة العراقية والبريطانية للأردن استندت بدافع الدخول في تحالف يقوي من موقع الدولة الأردنية في المنطقة بالإضافة للاستفادة من المساعدات المالية والاقتصادية والعسكرية التي كانت الدول الغربية تمنحها إلى دول المنطقة للوقوف في وجه المد السوفيتي حينذاك. (Robins, 2004:92) إلا أن الموقف الأردني جاء متناغمًا مع الأساس الذي تمت عليه صياغة سياسة الأردن الخارجية خلال الحرب الباردة تجاه القوى الكبرى في حينه، الاتحاد السوفيتي وبريطانيا وأمريكا، الذي جاء متوافقًا مع الرؤية السياسية الغربية، الأمر الذي شكل لديه الرغبة ببناء سياسات تستجيب لهذه الاتجاهات السياسية ومن ضمنها دخول حلف بغداد (Tal, 1997: 102)

بقي أن المعارضة الشديدة لمصر وسوريا والسعودية لحلف بغداد كان عاملاً حاسمًا في تخلي الأردن عن الانضمام للحلف في النهاية، إذ تعهدت هذه البلدان إلى تعويض الأردن عن كافة المساعدات العراقية والبريطانية والأمريكية التي وعد بها، مما دفع نوري السعيد إلى الطلب من الولايات المتحدة الامتناع عن دفع ثمن مشترياتها من النفط السعودي عقابًا لها لتعهدها بمساعدة الأردن، وأعلن بكل صراحة قائلاً: "لو قبلت الولايات المتحدة اقتراحي هذا

لانهارت مقاومة مصر وسوريا والسعودية ولبنان والأردن ولتمكنا من إيجاد تسوية عربية إسرائيلية". (الحمداني، ٢٠٠٣: ٢٧١)

وما يجدر الإشارة إليه؛ أنه وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة كانت القوة الرئيسية المحركة لهذا الحلف؛ باعتبارها الجهة المبادرة والبادئة بفكرته التي وضعت تصميمه وحددت إطاره العام، إلا أنها آثرت عدم الانضمام إليه بصورة كاملة، حيث بقي دورها مقتصرًا على المشاركة في أعمال اللجنتين الاقتصادية والعسكرية ولجنة مكافحة "النشاط الهدام". وقد فوضت الولايات المتحدة مهمة قيادة الحلف الرسمية إلى بريطانيا في حين ظل التخطيط لإستراتيجية الحلف الدفاعية وكذلك السلطة الحقيقية في اتخاذ القرارات المهمة فيه في يد الولايات المتحدة. (Williamson,Sep 2006:599)

وهكذا؛ أصر العراق على بناء حلف بغداد والدعوة له في الأوساط العربية رافضا كل الدعوات العربية والاحتجاجات الرسمية والشعبية، مما دفع إلى استمرار المواقف وتصعيدها باتخاذ كل الإجراءات الكفيلة بالعمل ضده وإفشاله. وبدورها تمكنت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا والدول الحليفة لها في المنطقة من إنشاء حلف بغداد الذي اتخذ من العاصمة العراقية اسما ومقرا رسميا. الأمر الذي لم يرق للكثير من الدول العربية. وكان لكل من تلك الدول مبرراتها ودوافعها الخاصة؛ منها المواقف المشتركة على هدف ومصلحة واحدة ومنها المتقاطعة والمتوافقة عند نقطة تحقيق الهدف النهائي، ألا وهو إفشال الحلف وإسقاطه.

فمصر عارضت الحلف منذ البداية؛ إذ رأت في ذلك عزل لمصر، لذا سارعت إلى إيفاد وزير الإرشاد القومي (صلاح سالم) ليطوف على الدول العربية مؤكدا رفض الأحلاف العسكرية وضرورة دعم الجامعة العربية بتوحيد السياسات العربية.(عمر،١٧/ ٥/ ٢٠٠٨). حيث تلخصت رؤية مصر للحلف باعتباره مؤامرة نفذتها بريطانيا وحليفتها إسرائيل ومن وراءهما الولايات المتحدة مستهدفة فتح ثغرة في الموقف العربي، وبالتالي التمهيد لضرب القومية العربية للإبقاء على تبعية العالم العربي وتعطيل كل إمكانية للتقارب أو التجمع بين دوله. كذلك رأت مصر أن الغرب بالغ في تصوير الخطر السوفيتي على أمن الشعوب العربية ومعتقداتها متجاهلة إسرائيل وتهديدها لأمن واستقرار المنطقة.

(منصور، www.arabvoice.com/modules.php)

وعلى المستوى العربي وجهت مصر الدعوات إلى الدول العربية لعقد اجتماعات لمجلس الجامعة العربية لاتخاذ قرارات تؤكد على التضامن العربي ورفض الأحلاف. وكذلك الاستمرار في إرسال الوفود إلى العراق لثنيه عن الاستمرار في الحلف. فعقد مجلس الجامعة اجتماعات بدأت في ٢٢ كانون الثاني ١٩٥٥ وانتهت في ٨ شباط ١٩٥٥ بإصدار بيان ختامي أكد فيه على الالتزام بميثاق الجامعة ومعاهدة الدفاع العربي المشترك والتعاون الاقتصادي وعدم إقرار الأحلاف. وكان الدور السعودي فاعلاً في المجلس، وقد ناشدت السعودية العراق على عدم الدخول في الحلف حماية وحفاظا على مصالح المنطقة العربية ووحدة العرب. (www.moqatel.com/openshare/indexf.html، المبحث السادس)

لم تقتصر ردود الأفعال على المستوى الرسمي بل والشعبي أيضا؛ فالطموحات البريطانية قوبلت بمعارضة شعبية عربية شجعتها قيادة (جمال عبد الناصر). فقد رفضت سورية الانضمام إلى الحلف، كما ورفض الأردن الانضمام للحلف خاصة بظهور مواقف شعبية معارضة برزت بخروج المتظاهرين إلى الشوارع بأعداد كبيرة للتنديد بالحلف (بت، جيرالد، http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/news/newsid_2803000/2803405.stm) فكان الموقف المصري متطابقًا مع الموقف السعودي تجاه حلف بغداد، برغم الاختلاف بين النظامين السياسيين. فالسعودية ومنذ البداية اتخذت موقفًا معارضًا بل ورافضًا لأية محاولات لإقامة أحلاف تقودها أو تبادر لها الحكومة العراقية. ويبدو أن عوامل ومبررات معينة دفعت بالسعودية لاتخاذ هذا الموقف بل والعمل مع مصر ضد الحلف وبذل الجهود لإفشاله على الرغم من العلاقات الودية التي تربط السعودية مع الولايات المتحدة؛ الدولة المبادرة والداعمة للحلف.

ولابد من الإشارة إلى؛ أن الحديث عن حلف بغداد ودخول العراق فيه احدث موجات غضب شعبية حيث كانت تخرج المسيرات لتندد بالتحالفات مع الغرب المستعمر الداعم للوجود الصهيوني في المنطقة حتى أن طلاب المدارس كانوا يشاركون ويهتفون ضد التحالف مع البريطانيين وينادون بالقومية وبزعيمها (عبد الناصر)، وهنا يمكن القول إن بعض الحكومات العربية استغلت الموقف الشعبي لدعم موقفها السياسي الرافض للحلف.

الموقف السعودي من حلف بغداد

سعت المملكة العربية السعودية بشكل حثيث ومنذ سقوط الدولة العثمانية لان تأخذ دورها كزعيمة للعالم الإسلامي (السني) برؤيتها المذهبية المعروفة عندما انتهى الملك عبد العزيز من توحيد المملكة العربية السعودية وحصل على اعتراف بريطانيا بالمملكة دولة مستقلة في اتفاقية عام ١٩٢٧م كانت غالبية الدول العربية لم تزل ترضخ لحكم الاستعمار الأوربي. ولقد حظي الملك في ذلك الوقت باهتمام خاص من مختلف الزعامات الوطنية العربية التي كانت تقاوم الاستعمار في دولها. فلقد جسد الملك عبد العزيز لهذه القيادات الأمل بإمكانية تحقيق الاستقلال والوحدة العربية. كما كان عبد العزيز مصدرًا رئيسًا لتزويد القيادات الوطنية العربية بالدعم السياسي والمالي.

وفي منتصف الخمسينيات الميلادية برزت مصر بوصفها المركز الرئيس في السياسة العربية، وقبل وقوع العدوان الثلاثي على مصر نُسقت المواقف بين مصر وسوريا والسعودية في مجموعة من قضايا السياسة العربية الجوهرية، وبرز في تفاعلات السياسة العربية في ذلك الوقت ما عرف بمحور مصر وسوريا والسعودية الذي سعى إلى تحقيق الأهداف الآتية: توحيد الصف العربي سياسيًا واقتصاديًا

وعسكريًا لمواجهة إسرائيل، والأخطار الخارجية الأخرى. دعم الموقف المصري في مواجهات التحديات البريطانية والفرنسية، ودعم الموقف السوري في مواجهة تحديات تركيا وإسرائيل. معارضة حلف بغداد الذي كانت بريطانيا تسعى إلى تأسيسه في المنطقة لتعويض خسارتها التي نجمت عن جلاء القوات المصرية في عام ١٩٥٤م، وكانت بريطانيا تعقد أملاً كبيرًا على انضمام سوريا للحلف، وتمارس مختلف الضغوط عليها لجرها إليه، ولكن التوجهات الوطنية العربية في سوريا عارضت حلف بغداد، وحصلت على دعم مصر والسعودية في هذه المعارضة، ففي مطلع عام ١٩٥٥م اتخذت الدول الثلاث مواقف مشابهة في الجامعة العربية وخارجها لمعارضة حلف بغداد، وقدمت المملكة قرضين الأول لسوريا في (نوفمبر ١٩٥٥م) قيمته عشرة ملايين دولار، والثاني لمصر في (أغسطس ١٩٥٦م) قيمته مائة مليون دولار؛ وذلك لدعمهما في صفقات شراء الأسلحة من الدول الشرقية.

كانت السعودية قد اتخذت موقفًا معارضًا تجاه الدعوة العراقية للاتحاد مع الأردن منذ مطلع خمسينات القرن الماضي قبل قيام حلف بغداد. وكانت الأطماع العراقية هذه سببا في الاحتجاج السعودي؛ فقد وجه الملك عبد العزيز برسالة إلى بريطانيا يطالبها فيها بممارسة تأثيرها على وصي عرش العراق لمنعه من التدخل في الأردن.(الشلبي، ٢٠٠٦: ١١٧) مع ذلك فقد سعت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا لضم السعودية إلى حلف بغداد وتحت مبررات تهديد بعض البلدان الخليجية، كإيران للسعودية، فبالدخول للحلف يتم التعاون بين دول الحلف لحماية أنظمتها السياسية والدفاع عنها عسكريًا في ظل التهديد الخارجي والسوفيتي لبلدان الشرق الأوسط وفق ما كانت الذهنية (الأنجلو- أمريكية) تصور المخاطر لدول المنطقة رغبة منها في ضم أكبر عدد ممكن من دول المنطقة. (Ruane, Spring 2006: 1-6)

لكن السعودية كان لها رؤيتها وموقفها المعارض والرافض لحلف بغداد، حيث بذلت جهودًا حثيثة بالمشاركة مع مصر لثني العراق عن ذلك، واستمرت في تشجيع وتحريض الدول الأخرى للحيلولة دون دخول الحلف، ولم تتوانى عن تقديم الإغراءات المالية لدعم ذلك. وربما أن دوافع ومبررات تكمن وراء ذلك، ومن بينها علاقات التنافس والصراع على السلطة والنفوذ في منطقة الحجاز بين السعوديين والهاشميين قديمًا. ففي مطلع القرن العشرين أخذ الملك عبد العزيز بن سعود بتوحيد مناطق الجزيرة العربية تحت نظام حكمه، ما دفع به إلى دخول معارك مع القبائل العربية الأخرى، كان من بينها خوض معارك مع قوات الشريف حسين، حيث طلب الشريف على إثرها الصلح ومغادرة البلاد في ١٩٢٥، لينتهي بذلك حكم الأشراف في الحجاز. (صحيفة الشرق الأوسط، ٤ آب ٢٠٠٥)

شهدت منطقة شبه الجزيرة العربية صراعًا بين أمراء القبائل خلال فترة الحكم العثماني على السلطة والنفوذ وصل إلى حد المواجهة العسكرية بين سلطة شريف مكة والعائلة السعودية خلال الحكم العثماني وبعده، انتهت بترحيل الشريف حسين من الحجاز وتوزيع وتعزيز سيطرة ابن أسعود على الحجاز والتحالف مع الحركة الوهابية. وعليه فقد انعكست علاقات الصراع التاريخية تلك على موقف السعودية من حلف بغداد الذي تقوده العائلة الهاشمية الحاكمة في العراق. (Meulen,1957: 4-6) لذلك لم تكن العلاقات العراقية السعودية على ما يرام، انطلاقًا من العداء بين العائلتين المالكتين في هذين البلدين حيث تقف في مقدمة أسبابها إنهاء حكم الشريف حسين ملك الحجاز عام ١٩٢٥ وسيطرة آل سعود على الحجاز. لكن تحسنًا في العلاقات شهدتها الدولتان بتوقيع عدد من الاتفاقيات، ومع ذلك لم يدم هذا التحسن طويلاً إذ اتخذت السعودية فيما بعد موقفًا متشددًا ضد حلف بغداد عام ١٩٥٥. (عليوي، www.alsabaah.com/paper.php)

والسعودية طالما تشككت من الاتحادات الإقليمية خاصةً تلك المرتبطة بالعائلة الهاشمية الحاكمة في كل من العراق والأردن. وكان الملك عبد العزيز قد عارض مشروع سوريا الكبرى أو الهلال الخصيب الذي دعا إليه نوري السعيد لأن في نجاحه تهديداً لاستقرار المملكة. وفي منتصف شهر يناير عام ١٩٤٧ قام ولي عهد الملك عبد العزيز أبنه الأمير سعود بزيارة لمدة شهر للولايات المتحدة وفي لقائه مع الرئيس ترومان عبر في محادثاته عن مخاوف السعودية من وقوف بريطانيا خلف خطة الملك عبد الله ملك الأردن لإقامة سوريا الكبرى. ثم أرسل الملك عبد العزيز برقية عاجلة إلى واشنطن يذكر فيها بأنه حصل على معلومات مؤكدة تفيد بأن بريطانيا تخطط لتنصيب الملك عبد الله حاكمًا على سوريا الكبرى وطالب الحكومة الأميركية بالتدخل السريع في القضية وعاد الأمير سعود بعد أن تلقى تطمينات من الإدارة الأميركية بأن الولايات المتحدة ستدعم استقلال وخصوصية الدول الأسيوية في هيئة الأمم المتحدة في حال تعرضها لتهديدات خارجية عدوانية. كما قام الرئيس الأميركي بطلب السفير الأميركي، مسئول الشؤون الخارجية في لندن، بأن يخبر بريطانيا بأن الولايات المتحدة قلقة بناء على التقارير التي وصلت إليها من العواصم الآسيوية بشأن مشاريع الملك عبد الله بإقامة سوريا العظمى وطالب بأن تفصح حكومة بريطانيا عن موقفها حيال هذه القضية. (قراءة في مسيرة التحالفات الإقليمية، www.alhejazi.net/seyasah/012807.htm)

وحسب توضيح المؤرخ الأمريكي (جورج لنشوفسكي) ، فإن المعارضة الشديدة التي أبداها الملك سعود للحلف تعكس خوفه من قيام الهاشميين بالاقتصاص لأنفسهم عن الهزيمة التي لحقت بهم قبل ٣٠ عامًا. وعليه كان رد الفعل السعودي، الذي قال السفير الأمريكي في جدة عنه: "إن الملك سعود بات يشعر أن حلف بغداد ما هو إلا مؤامرة بريطانية تنفذها بيد نوري السعيد لتطيح بالعرش السعودي وتنتزع الحجاز منه" (المميز،١٩٦٣: ٥٩٠- ٥٩١) وكان لمشكلة "البريمي" عام ١٩٤٩ تداعياتها عام ١٩٤٩ على العلاقات البريطانية السعودية. فقد اعتبرت بريطانيا أن السعودية احتلت

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

أراضي في "واحة البريمي" التي تلتقي عندها أراضي المملكة وسلطنة عمان ودولة الإمارات. وتفاقم الوضع يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٥٥ حينما شنت القوات البريطانية هجومًا مسلحًا على واحة البريمي، وطردت الحامية السعودية منها، الأمر الذي دفع الأمير" فيصل" إلى الحضور في اليوم التالي إلى القاهرة لعقد اتفاقية دفاعية مع مصر. وظل موضوع البريمي لبعض الوقت موضوعًا شائكًا خلّف آثارًا سلبية على العلاقات بين لندن والرياض. (أبو شقرا، ١٧ حزيران ٢٠٠٧)

إن الموقف السعودي من حلف بغداد يعود إلى أن فكرة الحلف كانت فكرة إستراتيجية بريطانية في أساسها، وكان انضمام الملك سعود لهذا الحلف شبه مستحيل خاصةً وأن العلاقات السعودية البريطانية كان مقطوعة بسبب تأزم مشكلة واحة البريمي منذ عام ١٩٥٥. وهذا ما أشارت إليه الوثائق البريطانية السياسية المتعلقة بموقف المملكة العربية السعودية من حلف بغداد في١١ كانون الأول ١٩٥٧، حيث أشارت إلى أن هناك اختلافًا في وجهات النظر حول إمكانية إشراك الملك سعود في حلف بغداد (بن عبد العزيز، ٢٨ حزيران ٢٠٠٧).

بهذا فإن دوافع ذاتية تمثلت في علاقة الصراع التاريخية بين العائلة المالكة السعودية والعائلة الهاشمية وما انتابها من نزاعات لفرض النفوذ والهيمنة وتوسيعها في المنطقة كانت وراء الموقف السعودي تجاه حلف بغداد. كما وكان لهاجس التوجس من الحلف وأبعاده الاستعمارية والأطماع الصهيونية والعداء العربي الإسرائيلي، دافعًا موضوعيًا لبناء تحالف سعودي مصري للوقوف في وجه العراق وتوجهاته المتناقضة مع المصلحة العربية. ومن هنا أخذت السعودية بالعمل على بذل كل الجهود المكنة لإفشال الحلف والتحريض عليه.

إن السعودية طالما توجست من مشروعات العراق السياسية خشية أن تصبح أداة لانتزاع الأراضي الحجازية من سلطتها. وكانت السعودية تتتبع خطوات بغداد، وأخذت بمراسلة مصر وسوريا ولبنان؛ وأول الرسائل كانت في ١٧ أيار ١٩٥٤ المرسلة إلى جمال عبد الناصر تطلب منه رأيه في قبول العراق الانضمام إلى الحلف التركي الباكستاني والتدابير التي يمكن اتخاذها لتحول دون تحقيق هذه الغاية سواء عن طريق التفاهم مع الحكومة العراقية أو التحريض عليها في أوساط الشعب العراقي. وقد رأت السعودية أن دوافع العراق لدخول الحلف هي الضغوط الأمريكية البريطانية للتفاهم مع إسرائيل. كما وطلب الملك السعودي سعود من سفيره بالقاهرة لقاء عبد الناصر وإعلامه بأن قبول العراق بعدم استعمال السلاح ضد إسرائيل التي لا يوجد غيرها عدو للعرب، يدل على خروج العراق عن التضامن الجماعي وتخليهم عن التزاماتهم العربية، وما ذلك سوى خطوة للانضمام للحلف والسير وراء المستعمر لتحقيق مصالحه.

وفي مؤتمر وزراء الخارجية العرب المنعقد في القاهرة في ٢٢ كانون الثاني ١٩٥٥ طرح المندوب السعودي الأمير فيصل سؤالًا على المؤتمر عما يمنع تطبيق معاهدة الدفاع العربي المشترك، وأكد الأمير فيصل من جانبه استعداد السعودية تطبيق بنود هذه الاتفاقية. واستمر فيصل في إصراره على الطلب من المؤتمر اتخاذ قرارات جادة لمواجهة هذا الحلف ودوره في هدم كيان الأمة العربية. وعاد المندوب السعودي التأكيد على العراق عدم اتخاذ موقف مخالف لإجماع الدول العربية ومصالحها ورغبتها.

(www.moqatel.com/openshare/indexf.html المبحث الرابع: مكونات الحلف ونشاطه)

ولقد كان للعلاقات الودية بين مصر والسعودية والمصالح المشتركة بينهما أثرها في اتخاذ موقف المعارضة من الحلف. فقد لاحظ "جون بادو" السفير الأمريكي الأسبق في القاهرة أن العلاقات بين الأسرة السعودية المالكة، والنظام الثوري في مصر كانت ودية في بدايتها. والأسباب التي تكمن وراء ذلك ارتباط بعض الضباط المصريين الذين قادوا الثورة بعلاقات ودية بعض أفراد العائلة المالكة السعودية وانتسابهم لجماعة الأخوان المسلمين (الزركلي: ٢٣٢) وجاءت التقارير البريطانية التي كان يرفعها الموظفون السياسيون والعسكريون البريطانيون المتواجدون في بلدان المنطقة لتؤكد واقع وحقيقة وخطورة التحالف السعودي المصري على المصالح البريطانية وحلف بغداد.

ففي تقرير سري للغاية مرفوع من وزير الخارجية (هارولد ماكميلان) إلى رئيس الحكومة (انتوني إيدن) حول مؤتمر حلف بغداد، مؤرخ في ٢٥ كانون الثاني ١٩٥٥، حمل الوزير البريطاني على السياسة السعودية، بقوله "إن النقطة الجديدة التي برزت بوضوح شديد من كل ما سمعته في بغداد، ثم في بيروت، هي أن الوضع في الشرق الأوسط يتعرّض للنسف والإفساد بواسطة المال السعودي، وليس من قبيل المبالغة القول إن الأموال الأميركية (آرامكو) تنفق على نطاق واسع، نحو ١٠٠ مليون دولار سنويًا، للترويج للشيوعية في الشرق الأوسط. (أبو شقرا، ١٧ حزيران ٢٠٠٧) وفي هذا السياق الذي يؤكد على دور المال السعودي في مواجهة المشاريع البريطانية في المنطقة، يستفيض إيدن في التفاصيل ويروي كيف أن السعوديين قد مولوا بأموال النفط التي يدفعها لهم الأمريكان مؤامرات ضد حلفاء الأمريكان، ويطلب من الأمريكان وقف دفع الأموال لمدة ستة أشهر.

(هيكل، تاريخ الحلقة ١٢/ ٤/ ٢٠٠٧، www.portsaid.gov.eg/forum2.aspx?g=posts&t=1643)

في هذه الفترة ١٩٥٦ كانت لندن قلقة جدًا من مصر عبد الناصر، ومتضايقة جدًا مما اعتبرته تحالفًا مصريًا سعوديًا ضد "المحور الهاشمي" الذي كانت تحتضنه وترعاه. وفي ٢٨ تشرين الثاني، كتب الجنرال جون جلوب (جلوب باشا) قائد "الجيش العربي" من ١٩٣٩ إلى ١٩٥٦ مذكرة سرية إلى الخارجية البريطانية، يشرح فيها خطورة الدور الروسي في الشرق الأوسط وتهديده للوجود البريطاني في الأردن.. المعقل الرئيس لبريطانيا في الشرق الأوسط، ومصر

والمملكة العربية السعودية متفاهمتان على طرد بريطانيا من الأردن الأوسط..". (أبو شقرا، ٢٠٠٧) ويوم ٢٠ أيار ١٩٥٦ أعدّت السفارة البريطانية في جدة تقريرًا مستفيضًا عن الملك سعود بن عبد العزيز موجهًا إلى وزير الخارجية (سلوين لويد)، وجاء في التقرير أن السعوديين هم الأشرس في مناوأة حلف بغداد. واتهمت التقارير البريطانية مستشارين الملك بتأثيرهم عليه في تبنيه لهذا الموقف. لذلك نصحت التقارير ببذل الجهود لفصل الملك عن مستشاريه ومحاولة إقناعه بأن المشورة التي يتلقاها منهم سيئة، وتنبيهه إلى أن سياسته الراهنة متطابقة مع سياسة الشيوعيين، وهي تنطوي في نهاية الأمر على تهديد كبير لشخصه وأسرته. (أبو شقرا، ٢٠٠٧)

على هذا النحو اتخذت السعودية مواقفها المعارضة لحلف بغداد؛ فرفضت الدعوات الأمريكية للانضمام إلى الحلف وعملت جنبًا إلى جنب مع مصر على المستوى السياسي بمنع الدول العربية الأخرى من دعوات الانضمام إلى الحلف، سواء بالإقناع أو بتقديم المساعدات المالية للحيلولة دون نجاح الضغوط العراقية والغربية. ولم تتوقف المعارضة السعودية لحلف بغداد فحسب، بل وكان لها رؤيتها المعارضة من الاتحاد العربي الهاشمي الذي قام بين الأردن والعراق عام ١٩٥٨. فقد تم تأسيس الاتحاد العربي الهاشمي بين الأردن والعراق بعد اتصالات ومشاورات ومفاوضات انتهت بتوقيع اتفاقية الاتحاد في ١٤ شباط ١٩٥٨، ويرأس حكومته ملك العراق وفي حالة غيابه يترأس ملك الأردن، ويحتفظ كل ملك بسلطاته الدستورية في مملكته. لكن عقبات هائلة استمرت في مواجهة محاولات الاتحاد بين المملكتين الهاشميتين؛ فكانت هناك أولاً العوامل الجغرافية الواضحة، وهي الصحراء الشاسعة المتداخلة بينهما، وكان هناك تأثير الملك سعود الذي كانت عداوته العائلية مع الهاشميين مرتقبة دائمًا بطبيعة الحال كي تجعله يخاف من أي تقارب وحدوي بين تاجي الأردن والعراق. (جونستون، ١٩٩٦: ١٣٩-١٤٣)

وجاءت ثورة عبد الكريم قاسم بدعم وتشجيع عبد الناصر ردًا على حلف بغداد وتهديدًا لمصلحة بريطانيا في النفط العراقي والكويتي ولمركزها في الخليج الفارسي. وكان عبد الناصر خطر يهدد كل من بريطانيا وأمريكا إلى جانب الاتحاد السوفيتي واقترابه من المنطقة عبر نظام ناصر وليتعزز هذا الصراع في القضاء على الحكم الملكي الهاشمي في العراق وتولي قاسم السلطة المدعومة من ناصر والاتحاد السوفيتي. (Worrall,June 2007:173)

وبعد انسحاب العراق الرسمي من حلف بغداد مطلع ١٩٥٩ وتحول أسمه إلى حلف المعاهدة المركزية CENTO ومقترحات في أحياء فكرة ما يسمى بالنطاق الشمالي The Northern Tier ولكن كل ذلك لم يطل كثيرًا فسرعان ما لفظ الحلف (السنتو) أنفاسه الأخيرة بعد أن فقد مغزاه الرئيسي من وجود العراق ضمن أعضاؤه. (الدباغ، www.myportail.com/actualites-news-web-2-0.php?id=2410)

الخاتمة

من خلال القراءات الموضوعية لحلف بغداد وما أحاط به من تداعيات سياسية واجتماعية خلصت الدراسة إلى أن بعض الدول العربية وجدت أن مصلحتها تكمن في التحالف مع الدول الغربية، بالنظر إلى خصوصية العلاقة والتبعية التي تجمع بينها وتاريخ الاستعمار والهيمنة الغربية في المنطقة. في حين وجدت دول عربية أخرى أن الحلف هو بمثابة خطر على وجودها ومصالحها في المنطقة وهذا الخوف هو في باطنه خوف يرتبط بوجود الأنظمة ومصالحها وعبر عنه بالخوف من التحاف مع الاستعمار مرة أخرى.

فقد تقاطعت مصلحة كل من مصر والسعودية على معارضة الحلف والتحريض عليه، على الرغم من التباين والاختلاف الأيديولوجي والسياسي بينهما، خاصةً وأن السعودية ترتبط بعلاقات جيدة مع الولايات المتحدة، بينما ترتبط مصر في المقابل بعلاقات جيدة مع الاتحاد السوفيتي.

هذه الإشكالية وجدت تفسيرها في الخلاف التاريخي الذي كان قائمًا بين عائلتي الحكم؛ السعودية والهاشمية على النفوذ والسلطة في منطقة الجزيرة العربية خلال فترة الحكم العثماني وما بعدها، بحيث اتجهت العائلة السعودية إلى إنهاء نفوذ وهيمنة العائلات الأخرى بالقوة العسكرية، ذلك ومن ضمنها العائلة الهاشمية بزعامة الشريف حسين وأبناءه، الذين ربما وجدوا قوتهم في التحالف مع القوى الدولية الغربية الفاعلة، وهذا ما دفع إلى التوجس والخشية السعودية من حلف بغداد والدور العراقي الفاعل فيه.

بيد أن الخشية السعودية من دور الهاشميين دفعها ليس إلى معارضة الحلف فحسب، بل والعمل ضده عمليًا بالتحريض الشعبي والرسمي، وبدفع الأموال إلى الدول التي وافقت بداية على العضوية فيه مثل الأردن، حتى لا تقع فريسة تحت ضغط المغريات الغربية والعراقية، وجلبها إلى صف المعارضة أو الحياد على أقل تقدير. كما ويأتي تقاطع كلا الموقفين؛ المصري والسعودي في سياق مصالح سياسية مشتركة، فكلاهما وجد في الحلف سببًا قد يؤدي إلى عزلتهما، في مقابل زيادة قوة ونفوذ الحكم الهاشمي وإضعاف الموقف العربي أمام إسرائيل، بحيث يشكل الحلف قوة طاردة للجهود العربية التي يفترض أن تكون في مواجهة إسرائيل.

يضاف إلى العوامل الدافعة للتحالف السعودي المصري أن بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة المصري، بحسب رؤية بعض أعضاء العائلة السعودية الحاكمة المدعومة من الحركة الوهابية، هم مرتبطون بحركة الأخوان المسلمين، مما سمح هذا في نسج علاقات تعاون وتناغم في موقف المعارضة لحلف بغداد. كما وأضاف الصراع السعودي- الخليجي الحدودي على واحة البريمي والانحياز البريطاني لصالح المشيخات الخليجية وليس للموقف السعودي الذي يعتبر البريمي جزءًا من أراضيه، دوره أيضًا في صياغة الموقف السعودي المعارض لحلف بغداد. بمعنى أن مصالح وطنية داخلية؛ الصراع السعودي - الهاشمي على النفوذ والسيطرة

والمصلحة الجغرافية- السياسية كانت الدافع السعودي لمعارضة حلف بغداد.

لقد تمثلت قوة الموقف السعودي واستمراريته في أن الأغلبية العربية توافقت على معارضة حلف بغداد، فكان ذلك قوة دافعة للموقف السعودي الذي لم يكن ليرغب بوجود تحالف يقوي من سلطة ونفوذ العائلة الهاشمية التي سبق الدخول معها في صراع طويل انتهى بإخراجها من الحجاز. أما الدول الغربية؛ بريطانيا وأمريكا، فقد استمرت في توظيف كل التناقضات العربية لصالح سياساتها وتقاسم الدوار بغية استمرار نفوذها في المنطقة من خلال إعداد الخطط والتصورات التي تعزز إيمان النظام العربي الرسمي بضرورة حماية نفسه بحتمية الارتباط بالقوة الدولية المهيمنة والتحالف معها حتى لو كانت على حساب مصلحة جواره العربي.

ففي سابق عهد حلف بغداد كان وزير الخارجية "جون فستر دالاس" وشقيقه "ألان" رئيس وكالة المخابرات، جاهزين بالخطة "أوميجا omega" والتي تتكون من جزأين: الأول لمعالجة الأسباب الأساسية التي دفعت الملك السعودي إلى التعاون مع عبد الناصر، وتمثلت في استدعاء السفير البريطاني في واشنطن إلى وزارة الخارجية لبحث إيجاد تسوية لمشكلة البريمي. والجزء الثاني بالكتابة للسفير في العراق، بأن يحث نوري السعيد على اتخاذ مواقف إيجابية لإنهاء العداء بين الأسرتين: الهاشمية والسعودية. وفي جدة، راح السفير الأمريكي يقنع الملك سعود "بأن عبد الناصر أشد خطرًا على العرش السعودي من الهاشميين".
(نقيطي، ٢٠٠٦:٢٢-٢٤)

هكذا؛ تقلب القوى الدولية المواقف في الوقت الذي تجده مناسبا، فأمريكا تدخلت في نهاية المطاف وضغطت على السعودية لإنهاء تحالفها مع مصر. لتتجه العلاقة المصرية - السعودية بعد ذلك في بوصلتها من التعاون إلى الكراهية بعد أن تحقق للسعودية هدفها بإفشال وإسقاط الحلف.

الجدير بالإشارة؛ أن الموقف السعودي الرافض وإن ارتبط بشكل واسع بالمصالح السياسية والإستراتيجية السعودية إلا إنه وبالوقت نفسه عبر عن نبض الشارع العربي آنذاك التواق للتحالفات العربية والمعارض بدافع بزوغ حركات التحرر الوطني إلى العداء ضد الاستعمار، والعودة إلى أصول قوة الأمة العربية ببعدها الديني والقومي. لذلك فان الموقف السعودي والموقف المصري وما تبعة من مواقف مشابهه لمعظم الدول العربية اتسق مع تطلعات الشعوب وحالة الوعي العربي من جهة ومع مصالح الأنظمة التي رأت في الحلف مصدرًا خطيرًا يزعزع وجودها واستقرارها، لاسيما وأن معظم هذه الأنظمة كان قد خرج توًا من حروب وصراعات على المستوى الداخلي والاقليمي كما كان مع دول الخليج فيما بينها السعودية وإيران.

إن (حلف بغداد) كانت بداية إرهاصات التحالف في المنطقة وانه المحاولة الأولى والأخيرة لضم دول عربية في التحالف، ويلاحظ إن الحلف أضعف موقف العراق على مستوى الوطن العربي، كما أن الحلف لم يساعد العراق سنة ١٩٥٨م عندما وقع انقلاب ١٤ تموز، ومن الملاحظ أن التيارات المعادية للتحالف داخل الوطن العربي كانت قوية جدًا سواءً أكان هذا التحالف على مستوى دولي، أو مستوى إتحاد، وأن التيارات المعادية للتحالف والوحدة نشطت في الخمسينات ومطلع الستينات، وأنها لم تقم لها قائمة بعد سنة (١٩٦١) إلا في صورة مجالس تعاون وتنسيق. (أبو دية، ٢٠١١)

ويبقى القول؛ أن الموقف السعودي تم التعبير عنه شعبيًا بحالة من الرضا لدى الشارع العربي الأمر الذي أعطى النظام السعودي دفعة إلى الأمام وجاء بالسعودية لتلعب دورًا موازيا للدور المصري رائد القومية العربية، حيث إن الدعم المالي السعودي للدول العربية الخارجة من براثين الاستعمار حديثًا جعلها مرجعية جديدة للدول العربية طالبة المساعدة في مشاريعها التنموية. لقد ترك الموقف السعودي بغداد وحيدة مع الغرب الأمر الذي دفع الغرب بمحركاته الأمريكية الخفية إلى التخلي عن الحلف أصلاً، الأمر الذي أدى إلى إفشاله بعد فترة قصيرة من الزمن لتبحث أمريكا عن بدائل أخرى لتصل فيها إلى مراكز قوى أفضل، وهو ما حصل بالفعل في الفترات الزمنية اللاحقة، لأن أمريكا كانت ترى في المنطقة بعدًا إستراتيجيًا ولوجستيًا مهمًا.

المراجع العربية:

- أبو شقرا، إياد، **الوثائق البريطانية: لندن شعرت بالضيق مما اعتبرته تحالفاً مصرياً سعودياً**، الشرق الأوسط، العدد ١٠٤٢٨، الأحد ١٧ حزيران ٢٠٠٧.
- إيدن، أنتوني، ١٩٥٩، **مذكراته**، ترجمة خيري حماد، القسم الأول، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت.
- بن عبد العزيز، فهدة بنت سعود، **توضيح لبعض الحقائق عن الوثائق البريطانية فيما يتعلق بتاريخ الملك سعود والعلاقات السعودية والعربية البريطانية**، الشرق الأوسط، العدد ١٠٤٣٩، الخميس ٢٨ حزيران ٢٠٠٧.
- حسين، علياء محمد، **قضايا إستراتيجية: الموقف العربي تجاه سياسة نوري السعيد في حلف بغداد**، صحيفة الجريدة، عدد ٢٩ أيار ٢٠٠٦.
- الحمداني، حامد، ٢٠٠٣، **نوري السعيد رجل المهمات البريطانية الكبرى**، دار فيشون ميديا، السويد.
- الحمداني، حامد، ٢٠٠٤، **صفحات من تاريخ العراق الحديث ١٩١٥-١٩٥٨**، الطبعة الأولى، دار نشر فيشون ميديا، السويد.
- جونستون، تشارلز، ١٩٩٦، **الأردن على الحافة**، وزارة الثقافة، عمان.
- زاده، حسن، **حلف بغداد جديد في مواجهة الشيعة**، **صحيفة الأضواء**، السنة الرابعة، العدد ١٠٥، الاثنين ١/ ٩/ ٢٠٠٩.
- الزركلي، خير الدين، **شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز**، ج ١، بيروت.
- الشلبي، سهيلا سليمان، ٢٠٠٦، **العلاقات الأردنية البريطانية ١٩٥١-١٩٦٧**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: ١٠٧-١١٠.
- الشرق الأوسط، **العائلة المالكة السعودية: ثلاث مراحل امتدت من العام ١٧٢٥ واستمرت حتى الآن**، الخميس ٤ آب ٢٠٠٥، العدد ٩٧٤٦.
- عمر، فهمي، **حلف بغداد**، الأهرام العربي، العدد ٥٨٢، السبت ١٧/ ٥/ ٢٠٠٨.
- مقلد، إسماعيل صبري، ١٩٧٩، **الإستراتيجية والسياسة الدولية**، الدار العربية، بيروت.
- المميز، أمين ،١٩٦٣، **المملكة السعودية كما عرفتها**، بيروت: ٥٩٠-٥٩١.
- الناصري، عقيل، **أفاق إستراتيجية: حلف بغداد في ذكرى انهياره**، جريدة الصباح، العدد ١٨٦٦، الخميس ٣ أيلول ٢٠٠٩.
- نقيطي، فوزي أسعد، **العلاقات المصرية السعودية..علاقات مبنية على خصومات ١٨١١-١٩٦٧**، ندوة العلاقات المصرية السعودية وأبعادها السياسية والعقائدية: من التعاون إلى الكراهية، مركز يافا للدراسات والأبحاث، القاهرة، كانون الأول ٢٠٠٦.

المراجع الأجنبية:

- Meulen,1957, Van Der, **The wells Ibn Sa'ud**, Frederick A. Praeger, New York.
- Robins, Philip, 2004, **A History of Jordan**, Cambridge University Press, Cambridge, United Kingdom.
- Ruane, Kevin, **Seato, Medo, and The Baghdad Pact: Anthony Eden, British Foreign Policy and the Collective Defense of Southeast Asia and the Middle East, 1952-1955**, Diplomacy & Statecraft, Mar 2005, Vol. 16, Issue 1.
- Ruane, Kevin, **Anglo-American Relations: The Cold War and the Middle East Defence 1953-1955**, Journal of Transatlantic Studies, Spring 2006, Vol. 4, Issue 1.
- Simons, Geoff, 1996, **Iraqi: From Sumer to Saddam**, Macmillan, Basingstoke.
- Tal, Lawrence, 1997, **The Cold War and the Middle East**, Editor: Yezid Sayigh, Avi Shlaim, Clarendon Press, Oxford.
- Tripp, Sharles, 1997, **The Cold War and the Middle East**, Editor: Yezid Sayigh, Avi Shlaim, Clarendon Press, Oxford.
- Williamson, Daniel C., **Understandable Failure: The Eisenhower Administration, s Strategic Goals in Ieaq 1953-1958**, Diplomacy & Statecraft, Sep 2006,Vol.17,Issue 3.
- Worrall, Richard, Coping with d'Etat': **Britis Policy toward Post-Revolution Iraq 1934-63, Contemporary British History**,Vol.21, No.2, June 2007.

المواقع الالكترونية:

- أبو دية، سعد. **صحيفة عمون الالكترونية**، بتاريخ ٢٠١١/٩/٢٣ www.ammonnews.net
- بت، جيرالد، محلل شؤون الشرق الأوسط في B.B.C، http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/news/newsid_2803000/2803405.stm
- الأقسام/ منظمات وأحلاف وتكتلات، حلف بغداد(الحلف المركزي CENTO) المبحث الثالث: محاولات واشنطن لربط الدول العربية ودول المنطقة بأحلافها. http://www.moqatel.com/openshare/indexf.html
- الأقسام/ منظمات وأحلاف وتكتلات، حلف بغداد (الحلف المركزي CENTO) المبحث الرابع: مكونات الحلف ونشاطه. http://www.moqatel.com/openshare/indexf.html
- الأقسام/ منظمات وأحلاف وتكتلات، حلف بغداد (الحلف المركزي CENTO) المبحث السادس: مواقف الدول وأثر ثورة يوليو ١٩٥٨ على الحلف. قراءة في مسيرة التحالفات الإقليمية، www.alhejazi.net/seyasah/012807.htm
- منظمة الحلف المركزي CENTO www. Marefa.org/index.php
- الدسوقي، عاصم، زمن الأحلاف، **العربي**، العدد، ١١٧٤، ٦/ ٩/ ٢٠٠٩، www.al-araby.com/docs/article1958.html.
- الدباغ، ضرغام عبد الله، تحليل عمل البعثة الدبلوماسية البريطانية في العراق ١٩٥٨-١٩٥٩، http://www.myportail.com/actualites-news-web-2-0.php?id=2410
- رشيد، نذير، حساب القرايا والسرايا، ٩ كانون الأول ٢٠٠٦، عرض بسام بدارين، www.alfikralarabi.org/index/modules
- عليوي، هادي حسن، أفاق إستراتيجية: العلاقات العراقية السعودية ١٩٢١-٢٠٠٣، http://www.alsabaah.com/paper.php
- منصور، تميم، الرؤية المصرية تجاه حلف بغداد، http://www.arabvoice.com/modules.php.
- هيكل، محمد حسنين، عاصفة الأردن ١٩٥٦: الأردن وحلف بغداد، **فضائية الجزيرة**، تاريخ الحلقة ١٢ /٤ /٢٠٠٧، http://www.portsaid.gov.eg/forum2.aspx?g=posts&t=1643

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449







المراكز الثقافية في منطقة الأوراس (١٨٤٨ – ١٩٥٤) "قراءة تحليلية في الفعل الثقافي والفعل السياسي"



د. سفيان لوصيف

أستاذ التاريخ المعاصر

قسم التاريخ – جامعة فرحات عباس

سطيف – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

سفيان لوصيف، المراكز الثقافية في منطقة الأوراس (١٨٤٨ – ١٩٥٤): قراءة تحليلية في الفعل الثقافي والفعل السياسي.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ٣٣ - ٣٩.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخص

كانت فكرة الإدارة الفرنسية أن الشعب الجزائري يتكون في أساسه من مجموعات بشرية تنتمي إلى أعراق مختلفة، وبالتالي يجب النظر إليه لا على أنه شعب واحد ذو أصول بشرية متجانسة استمدت تلاحمها من تفاعل حضاري يضرب بجذوره في أعماق التاريخ ويستند في هذا التلاحم إلى المقوّم الإسلامي لغة ودينًا. بل يجب نفي كل ذلك واعتبار الجزائر تكوينًا جغرافيًا مصطنعًا يتميز باختلاف العناصر وانعدام العامل الموحد، وبالتالي تصبح الإدارة الفرنسية وما تحمله من ثقافة واقتصاد العامل المشترك، وهذا ما يجعل التوجه الفرنكوفوني يتحكم في تصورات المستقبل. ومن خلال هذه النظرة يجب إبعاد التوجه الإسلامي ونفي الهوية العربية عن الشعب الجزائري، وقد أُختيرت بعض المناطق لاتخاذها حقلاً للتجارب، وميدانًا لتطبيق السياسة الطائفية، وذلك للحيلولة دون استعادة الجزائر وحدتها الحضارية. وقد تفتقت عبقرية الإدارة الفرنسية عن اختيار بعض المناطق الجزائرية ذات الكثافة البشرية المرتفعة، أو ذات الموقع الإستراتيجي المتحكم في المواصلات، مثل مناطق بلاد القبائل والأوراس ووسط الصحراء (ميزاب والهقار).

يتناول هذا المقال المراكز الثقافية في منطقة الأوراس خلال الفترة (١٨٤٨ - ١٩٥٤) حيث تنبه أهالي تلك المنطقة إلى خطة العمل الاستعمارية، وعرف رجال الزوايا والطرق بها ما يراد لهم وما يخطط لمستقبل أبنائهم، فأعلنوها في وجه الفرنسيين مُقاومة إسلامية وانتفاضة وطنية.

مُقدِّمة

لقد استطاعت الآلة الاستعمارية المدمرة التي تعرضت لها الجزائر لاثنتين وثلاثين ومائة سنة أن توقف - لفترة معيَّنة - نمو المجتمع الجزائري المتكامل في إطاره الحضاري العربي الإسلامي. ولولا رد فعل الشعب الجزائري المتمثل في الحركة الوطنية والثورة التحررية، لما أمكن الوقوف أمام آليات الاستعمار ووسائله المدمرة، والحد من آثارها وانعكاساتها السلبية على الهوية الوطنية والانتماء الحضاري للجزائر.(١)

بعد احتلال قسنطينة سنة ١٨٣٧، عمل المستعمر الفرنسي على احتلال منطقة الجنوب الشرقي ومنها الأوراس التي اعتصم بها أحمد باي، فقرروا دخولها بجيش كبير قاده جنرالات وعقداء، كان على رأسهم 'Bedeau' والعقيد ماكمهون ' Mac-Mahon '، حيث تم احتلال المنطقة بعد استسلام أحمد باي سنة ١٨٤٨، ولم يتوان السكان فيها مناهضة المخططات الاستعمارية لاسيما الثقافية، بصلابة منذ نزول المحتل أرض الأوراس، ويمكن أن نستحضر الصور المعبرة عن البطولات والأمجاد في التصدي للفرنسيين، فقد كان نفورهم واشمئزازهم من الأجنبي يزداد تبعًا لتزايد السياسة الاستبدادية الاستعمارية، عبر عنها حمدان خوجة بقوله:(٢) "تلك الأفكار السوداء التي كونها عن الطبع الفرنسي، والتي لم يكن يعرفها من قبل، وهي من سوء الحظ، تزداد تفشيًا في أعماق قلوب

الأهالي"، ويرى حمدان خوجة أن الغل المكتسب يعود إلى عوامل نحصرها في:

- كون الجزائريين ومنهم سكان الأوراس يعتبرون أن الفرنسيين لا يقاومون إلا بالتعصب الديني.
- الشعور بالاعتداء من قبل أمة أجنبية، استعملت القوة والتحايل.
- خشية المآل إلى الفاقة نتيجة اغتصاب أملاكهم.(٣)

وإذا كان الفرنسيون ملكوا الأرض وألحقوها بفرنسا، فإنهم لم يملكوا العقول والقلوب التي ظلت تمتلئ حقدًا، وتبحث عن فرصة للانتقام، فانتصارهم العسكري لا يعني إخضاع النفوس، وفشلوا في تحويل شعور الجزائريين إلى فرنسي مسيحي يكون مساويًا لهويتهم وثقافتهم، رد فعل على هذه السياسة كان حاسمًا في شكل صراع "بدأ يوم بدأ المحتل يفرض لسانه، وتفكيره، وأسلوبه في الحياة، مستعملاً المدرسة، والمستشفى، المعلم والطبيب"، لقد كانت مرحلة الاحتلال محل مجابهة بين الطرفين، ينشئ المستعمر مدارس فلا يتردد عليها التلاميذ، يقيم المستشفيات فلا يتردد عليها المرضى، فوجد صعوبات جمة في ذلك،(٤) لقد كان الجهل وراء مغامرة خاضها الفرنسيون، حيث أنهم لم يدركو من قبل حسابًا ما لهذا الشعب من تراكم حضاري عريق، وراحوا يفسرون فشلهم الذريع بعدم معرفتهم بالجغرافيا والمناخ.(٥)

الزوايا والطرق الدينية

نزل جماعة من الآباء البيض في آريس وتمركزوا فيها وشيدوا مقرا يحتوي على مسكن وكنيسة للتعليم ثم أنشئوا فرعًا بالمنطقة ويعرف إلى الآن باسم ضيعة الماربو، ولم ينجحوا في مهمتهم وباعوا مقرهم بآريس إلى السلطة المدنية وحول إلى مقر الدائرة حاليًا وانسحبوا سنة ١٩١٨ بعد بيع ضيعتهم في المزاد العلني سنة ١٩٢٨.(٦) هكذا تبدو شدة المقاومة التي أبداها الأوراسيون في الفترة الأولى التي هي حسب الباحثة الفرنسية "Turin" تزعمتها الزوايا والطرق الدينية التي لعبت دورًا أساسيًا في المعركة، من خلال حشد الجزائريين حولها، وساهمت في تعليمهم وتثقيفهم، وتأليبهم ضد المدارس الفرنسية كي يرفضوا ارتيادها، فلما حاول الفرنسيون إيجاد إجابة عن عوامل عزوف أبناء الأهالي دخول مدارسهم قالوا أن:(٧) «المدرسين المكلفين بتعليم الأطفال كانوا متعصبين وجهلة، وعندهم كانت تظهر معارضة لوجهات نظرنا... وتكمن خطورة مقاومتهم لنا في أنهم يشرفون على تربية جيل جديد، ومن هنا يجب أن يخضع كل المدرسين لرقابة شديدة».

لقد انتشرت في مناطق الأوراس المترامية الأطراف عدة زوايا تتبع طرق صوفية مختلفة، فأصبحت قطبًا للحياة الدينية ومراكز ثقافية تعليمية مهمة، وقيادية تنطلق منها التوجهات والأوامر للمريدين، نذكر منها على سبيل المثال:

- **الطريقة الرحمانية:**

تنتسب إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري الزواوي الجرجري المتوفي سنة ١٧٩٣م، حيث امتدت طريقته إلى منطقة الشرق الجزائري وتونس، مرورًا بمنطقة الأوراس حيث كثر أتباعها، وتعددت مراكزها، خلال العهد الاستعماري وكان لها دورًا إيجابيًا، أنشأ الشيخ الطاهر بن الصادق بن الحاج زاوية رحمانية في جبل أحمر خدو بالأوراس، وهي التي تخرج منها محمد بن عبد الرحمن في ثورة الأوراس عام ١٨٧٩، وفي سنة ١٩٠٦ وصل عدد الإخوان الرحمانيين في زاوية أحمر بن خدو إلى ألفين تضمهم ثلاث زوايا.(٨) وظهر فرع آخر بالأوراس، على يد الشيخ الهاشمي بن علي دردور، وهو من عرش أولاد عبدي، تتلمذ في زاوية الخنقة الرحمانية، وأصبح مقدمًا لها بمدونة ونواحيها، ونتيجة لوقوفه ضد الاحتلال عوقب بالنفي إلى كورسيكا عام ١٨٨٠.

- **الطريقة القادرية:**

تعود في أصلها إلى العالم المتصوف عبد القادر الجيلاني المتوفي في بغداد سنة ١١٦٦م، وهي قاعدة الطرق الصوفية التي جاءت من بعد، وأخذت في الانتشار على يد شعيب بومدين الذي أسس مدرسة التصوف السني في المغرب والأندلس، وفي القرن ١٩م كان شيخ القادرية الحاج محي الدين والد الأمير عبد القادر في منطقة معسكر ونواحي الغرب الجزائري، وقد تفرق القادرية إلى قيادات صغيرة في مختلف مناطق الوطن، منها زاوية تبسة، وزاوية منعة بالأوراس المعروفة بزاوية بالعباس.(٩)

- **الزوايا ذات النظام الداخلي:**

تتكفل بمهمة إيواء وإطعام الطلبة الذين يفيدون من مناطق بعيدة، وهي تعفيهم من نفقات التعليم ومن هذه الزوايا :

- زاوية الشيخ الصادق بن الحاج في تبرمسين بالجنوب الشرقي من جبل أحمر خدو.
- زاوية الشيخ أحمد بن الصادق في غوفي عرش غسيرة.
- زاوية الشيخ المكي بن تازرولت في الدشرة الحمراء قرب آريس عرش أولاد داود.
- زاوية الشيخ علي دردور الكبير في حيدوس وادي عبدي.
- زاوية الشيخ محمد بن بلقاسم في ثنية العابد وادي عبدي.
- زاوية الشيخ بن عباس في منعة وادي عبدي.

- **الزوايا ذات النظام الخارجي:**

تتكفل بالطلبة الأقارب في السكن والأقارب من السكن والمسافة يحضرون إليها في أوقات التعليم والدراسة، وهذه الزوايا هي:

- زاوية الشيخ عبد السلام في تكوت عرش بني بو سليمان.
- زاوية الشيخ عمر بن عبد السلام في القصر قرب تكوت.
- زاوية الشيخ فتح الله في وادي الشرفاء عرش كميل.
- زاوية الشيخ محمد بن عزة قرب آريس عرش أولاد داود.
- زاوية الشيخ بنبوبيش في وادي الأحمر.

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وغيرها من الطرق الصوفية، وقد كان لها دورًا كبيرًا في التعليم، وكذا في مواجهة المبشرين والآباء البيض الذين نزلوا بآريس وضواحيها بعد استيلاء الفرنسيين على الأوراس، وهو المقاطعة التامة حتى اضطروا إلى الرحيل في النهاية، لكن لسيت كل الطرق الصوفية والزوايا سارت في منحى واحدًا، بل كان البعض منها قد ساير المحتل ووقفت إلى جنبه ضد الأهالي.

ومن أمثلة التعاون الوثيق بين شيوخ بعض الزوايا والفرنسيين، والتأثير الكبير لهؤلاء على عامة السكان في المنطقة هو ما حصل في ثورة الأوراس سنة ١٩١٦ التي قام بها سكان عين توتة ضد سلطات الاحتلال، فلم تجد إدارة الاحتلال من وسيلة - لاسيما وأن الفترة هي الحرب العالمية الأولى- سوى رجال الطرق الصوفية السائرين في فلكها والراضخين لإدارة الاحتلال، الذين نجحوا إلى حد كبير في أداء مهامهم فهدءوا نفوس الناس الثائرة يقول الشيخ محمد خير الدين: "خرجوا بأعلامهم وطبولهم يدعون إلى إيقاف القتال ضد فرنسا، فاستجاب الثوار وتوقفت الحرب، وما كان للفرنسيين أن يتمكنوا من إخماد هذه الثورة إلا بمساعدة الطرقيين الذين وقفوا إلى جانب المستعمرين واستجابوا لرغباتهم".[١٠]

قام المستعمر بتخريب مقرات الزوايا وتدميرها، وإلقاء القبض على رجالها وتعذيبهم في سجن قسنطينة والحراش، وأبعد بعضهم من المنطقة كما نفى بعضهم خارج الجزائر مثل الشيخ الصادق بلحاج إلى جزيرة سانت مارغريت، والشيخ الهاشمي دردور إلى كورسيكا ومحمد مزيان إلى كيان بالمحيط الأطلسي، والشيخ محمد بن سي أحمد أحمر خذو إلى كيان رفقة جماعة بعضهم رجعوا وبعضهم استقر هناك،[١١] وهذا خوفًا من انتشار التعليم في وسط الشعب حتى يسود الجهل، فقد جاء في أحد التقارير: «إن هؤلاء القوم الذين يطلق عليهم الطلبة المختلطين بكل عمق بحياة الأعراش والقبائل والعائلات كانوا يعلمون للصغار ما تعلموه هم في مدة سنوات عديدة بتونس وفاس، وفي زوايا بلاد القبائل أو الأوراس ويتعلق الأمر بقراءة وكتابة القرآن... وفي الأعراش الرحل كان لكل دوار خيمة كمدرسة ...».[١٢]

كان هناك صراعًا حادًا بين شيوخ جمعية العلماء المسلمين الهادفين صفاء العقيدة ونقائها ورجال الطرق الصوفية الباحثين توسيع نفوذهم وحماية سلطانهم، فغذت إدارة الاحتلال النزاع بمساندتها الفئة الثانية، إذ عملت على غلق المدارس القرآنية والكتاتيب التي أنشأتها الجمعية، وفي نفس الوقت عمدت إلى إنشاء جمعيات دينية مختلفة مثل التي تم إنشاؤها في تبسة باسم الجمعية الدينية الإسلامية ووضعت على رأسها معمر فرنسي يدير شؤونها ويوجه أهدافها ويبث الدعاية في نفوس الناس ومن جملة ما تدعو إليه: « أن العلماء المصلحين ينكرون وجود الأولياء وقد جاؤوا بدين جديد، ومنذ ظهور الدعوة الإصلاحية انقطعت البركة وأمسك الله المطر...»، ومن دون شك أن لهذا الكلام أثر في نفوس الجهلة وعامة الناس.[١٣]

مدراس الشيطان

والجدير بالذكر؛ أن المدارس التي أنشأها الفرنسيون عدت عند الأهالي مدارس الكافر وسموها مدارس الشيطان وبأسماء لعينة، فازداد السكان صمودًا وتهافتا على ثقافتهم العربية الإسلامية، وإلى حد كبير هناك توافق بين موقف "Turin " و"Colonna" حول رفضهم للثقافة الفرنسية، تقول "Colonna" أن عدد الجزائريين الذين دخلوا المدارس الفرنسية كان في تقلص بنسب ملحوظة،[١٤] ولاحظت أن المراكز التي يكثر بها عدد الزوايا والمؤسسات التعليمية الحرة، يقل فيها إقبال الأهالي على التعليم الفرنسي، ولم تقتصر المقاومة في التعليم فقط بقدر ما أنها اتخذت أشكالا مختلفة فمنهم من عبر عنها بالسلاح من مقاومة أحمد باي حتى ثورة الأوراس وثورة ١٩٥٤ الذي لم يضعه حتى استشهاده ومنهم من اتخذ المقاطعة أو ما يعرف بالمقاومة السلبية خاصة في الأرياف حيث قاطع السكان ثقافة فرنسا واعتبروها كفرًا بسيئاتها وحسناتها دون تراجع في مواقفهم منها التي أصبحت مسلمة بها عندهم.[١٥]

المقاومة والمقاطعة التي أبداها الأهالي، لا يمكن القول من خلالها أن الثقافة الجزائرية بقيت بعيدة عن تأثير ثقافة العدو، لأنها مع مرور الوقت أصابتها صدمة الاحتلال التي ما فتئت تتطور، حتى أصابتها في صميمها، فإن لم تمت فإنها توقفت عن النماء لاسيما بعد خصوبتها وانتعاشها في عهد سابق، فبعد سبعين سنة من الاحتلال حدث الجفاف الثقافي والقطيعة التي حاول الاستعمار فرضها على التراث الإسلامي، ويمكن إضافة التدهور الاقتصادي وسوء الحالة الاجتماعية جعلا منحنى الثقافة يشهد التراجع، وهكذا بدأت المقاومة الصامتة والعلنية التي تبناها الأوراسيون تضعف، فالذين كانوا يرفضون في السابق إرسال أبنائهم إلى المدارس نلاحظ أن هذا الرفض بدأ يتضاءل.[١٦]

مدارس الأوراس

ولهذه الأسباب وغيرها شرع الأعيان في رفع عرائض واحتجاجات، تدعوا إلى التعليم حتى وإن كان فرنسيا مادام أن الهدف هو محاربة الجهل الذي استفحل أمره، ومع ظهور بوادر العمل السياسي والثقافي نشطت الجمعيات والنوادي الثقافية، وأولت ميدان التعليم العناية الفائقة، فقد ظهرت خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى بقليل مدارس عدة في منطقة الأوراس وتخومها، نشير منها على سبيل المثال إلى المدرسة الصديقية التي تأسست سنة ١٩١٣ في منطقة تبسة وكانت أول مدرسة عصرية حرة تشرف عليها الجمعية الصديقية الخيرية للتربية والتعليم العربي والإصلاح الاجتماعي، ترأسها عباس بن حمانة، وقد تحدث عنها محمد علي دبوز، كانت كما ذكر تقع في أربعة طوابق تبرع بها للجمعية الحاج بكير المرموري، وكانت للمدرسة مكتبة وصيدلية، واتبعت في برنامج التعليم منهاجًا حديثًا يهتم ويولي العناية بالتربية الإسلامية والقرآن الكريم والتاريخ الإسلامي، لكن السلطات

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الاستعمارية كانت لها بالمرصاد حيث أغلقتها وحلت الجمعية وسجن بن حمانة ثم اغتيل في ١٦ جويلية ١٩١٤.[١٧]

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

والجدير بالذكر؛ أن فترة العشرينات من القرن العشرين هي بداية مرحلة جديدة من المقاومة الثقافية، فبعد صمود الزوايا والمساجد، ظهرت مرحلة جديدة قادتها كما أشرنا النخبتين العربية والفرنسية، فالأولى قادها العلماء المسلمين الذين هيكلوا أنفسهم ضمن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست عقب احتفالات ذكرى مرور قرن من الاحتلال الفرنسي للجزائر، يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس[١٨]: "من المعلوم أن الأمة الجزائرية هبت بعد مرور قرن من الاحتلال لتأخذ قسطًا من الحياة، من نواحي عديدة، وخصوصًا الناحية الدينية والعلمية"، ويمكن القول أن الجمعية ركزت على الأهداف التالية:

- إصلاح عقيدة الشعب الجزائري، وتنقيتها من الخرافات والبدع، وتطهيرها من مظاهر التخاذل والتواكل التي تغذيها الطرق الصوفية المنحرفة.
- محاربة الجهل بتثقيف العقول والرجوع بها إلى القرآن والسنة، عن طريق التربية والتعليم.
- المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، بمقاومة سياسة التنصير والفرنسة التي تتبعها سلطات الاحتلال.

كان للحركة الإصلاحية في منطقة الأوراس دورًا هامًا في النشاط السياسي منها التوجيه والتأثير في انتخابات كبار الجماعة في كل دوار، وانتخابات جمعيات الفلاحين عن طريق اختيار المترشحين لهذه المجالس والجمعيات الفلاحية، ومن الأعمال الهامة التي قامت بها الجمعيات تأسيس لجان لإصلاح ذات البين، فأدت هذه الطريقة إلى هجر المحاكم الفرنسية وتعطيلها، وذلك بعد أن كانت تمتص أموال المواطنين، والتماطل في البت في القضايا المتنازع في حكم التأجيل.

كان للحركة الإصلاحية صوت قويًا عبر الوطن حتى بلغ صداه منطقة الأوراس، فتحمس الشعب لذلك، ويعود ذلك إلى الأعمال التي كانت تقوم بها جمعية العلماء من التعليم في المدارس وإلقاء المحاضرات والدروس في المساجد الحرة. وبسبب هذا التأثير غادر الأوراس طلاب متوجهين إلى الجامع الأخضر والبعض إلى جامع الزيتونة بتونس هدفهم كسب العلم وطريقة التوجيه والإصلاح المثلى، فالجدول التالي يبين بالاسم الكامل لهؤلاء الطلاب المتكونين في هذه المراكز العلمية وكلهم من آريس وضواحيها،[١٩] أدركت جمعية العلماء أهمية التربية والتعليم في تحقيق مقاصدها العقيدية والفكرية، فركزت على التعليم الإسلامي العربي، وإنشاء المدارس، وحث الأمة وتشجيعها على إرسال أبنائها إلى مدارسها، بغية تعليم وتثقيف أكبر عدد ممكن من أبناء المسلمين، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته.

وهكذا؛ أدرك سكان الأوراس أهمية التعليم كأساس ثقافي وعامل ارتقاء حضاري، الأمر الذي عجل باستيقاظهم في مناطق الأوراس كلها من غفوة الأمية والجهل، والتحقوا بالمدارس لاسيما أن جمعية العلماء أدركت أهمية التربية والتعليم في تحقيق مقاصدها العقيدية والفكرية، فركزت على التعليم الإسلامي العربي وإنشاء المدارس، وحث الأمة وتشجيعها على إرسال أبنائها إلى مدارسها، بغية تعليم وتثقيف أكبر عدد ممكن من أبناء المسلمين، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، ونلخص إلى ذلك من خلال الجدول الذي يبين عدد المتمدرسين من منطقة الأوراس في شهادة التعليم الابتدائي العربي سنة ١٩٥٤.[٢٠]

المركز	عدد المشاركون	الناجحون
باتنة	٥٥	٤١
تبسة، عين البيضاء	٢٨	١٨

بهذه النتائج احتلت منطقة باتنة المركز الأول في عدد المترشحين، والمرتبة الثانية من حيث نسبة النجاح بعد منطقة تلمسان، ثم في سنة ١٩٥٥ حققت المنطقة النتائج التالية:[٢١]

المركز	الناجحون	م. جيد	م.حسن	د . ملاحظة
تبسة	٣٤	٠٦	٠٩	١١
باتنة	٣٧	٠٣	٠٩	٢٥

الشعبة الأوراسية الإصلاحية

الحركة الإصلاحية بحملها فكرة التجديد وتصفية الدين من البدع وإحياء القيم ونشر التعليم، وضعت قواعد وأسسًا لنشرها وكونت رجالاً ضمنوا مواصلة المسيرة التي تبعث النهوض الديني والإصلاحي، وتنمي الروح الوطنية للشعب، وذلك بالمطالبة بحقوقه الدينية والاجتماعية والسياسية، ظهر نشاط الحركة الإصلاحية بحوز آريس في سنة ١٩٣٦ وازدهر سنة ١٩٣٧، وفي شهر أوت ١٩٣٧ تأسست الشعبة الأوراسية الإصلاحية، باسم جمعية العلماء بحيدوس بدوار عبدي من طرف بعض خريجي الجامع الأخضر، وهم من المنطقة وأغلبهم زاول التعليم لدى الشيخ عبد الحميد بن باديس، وأعضاء الشعبة:

- عمر دردور: المعتمد من طرف جمعية العلماء للقيام بالحركة الإصلاحية
- الأمير صالحي: من آريس.
- محمد يكن: المعروف بالغسيري من غوفي.
- أحمد تيملقين: المعروف بالسرحاني من كميل.
- محمد الصالح زموري: من حيدوس.
- عبد الواحد واحدي: من ثنية العابد
- أحمد بهلولي: من بوزينة

دورية إلكترونية مُحكّمة.ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

بعد تكوين الشعبة الأوراسية تقرر أن تكون في كل دوار شعبة محلية وتركيها كالتالي: رئيس الشعبة، نائبه، كاتب وأمين المال، ستة أعضاء مستشارين وأعضاء عاملون وتكونت تسعة شعب مهمتها تكوين الجمعيات الدينية في الدواوير، تكونت جمعية دينية في كل دوار، من أشخاص يؤمنون بمبادئ جمعية العلماء مهمتها كالتالي:

- بناء المساجد الحرة وإصلاحها وتجهيزها وتعيين الأئمة الأحرار.
- فتح الكتاتيب القرآنية، تشييد المدارس الحرة للتعليم الابتدائي.
- تأسيس النوادي.
- تعيين المكلفين بالدروس العلمية، والتكفل بتسديد أجور المعلمين.

الجمعيات التي تأسست بقوانينها وهيآتها:

- الجمعية الدينية الإسلامية: بوادي عبدي مقرها حيدوس.
- الجمعية الدينية الإصلاحية: بدوار بوزوينة مقرها أم الرخاء.
- الجمعية الإسلامية: بدوار غسيرة مقرها غسيرة.
- الجمعية الدينية الإسلامية: بدوار زلاطو مقرها اينوغيسن.
- الجمعية الدينية الإصلاحية: بدوار وادي الأبيض مقرها آريس.
- الجمعية الدينية الإصلاحية: بدوار منعة مقرها منعة.
- الجمعية الدينية الإسلامية: بدوار شير مقرها مدرونة.
- الجمعية الدينية الإصلاحية: بدوار مشونش.
- الجمعية الدينية الإصلاحية: بدوار وادي الطاقة مقرها بوحمار.
- الجمعية الدينية الثانية: بدوار زلاطو مقرها تكوت.

المدارس الحرة، تأسست مدارس عدة منها:

مدرسة حيدوس - مدرسة أم الرخاء - مدرسة منعة - مدرسة بوزينة - مدرسة النوادر - مدرسة آريس - مدرسة غوفي - مدرسة تيفلفال - مدرسة مشونش - مدرسة تكوت - مدرسة اينوغيسن- كميل - مدرسة شير - مدرسة اشمول.

تأسيس النوادي الثقافية

بعد تأسيس المدارس لتعليم النشء الجديد وتنظيم الحلقات الدراسية في المساجد شرع شيوخ الشعبة الإصلاحية في تأسيس النوادي الثقافية، والتي كانت ملتقى فئات من الشباب للتعارف، وتبادل المعلومات ورفع مستواهم الفكري والثقافي والأخلاقي، ووضع خطة ناجعة بغية التصدي للمستعمر، ويتألف مقر النادي من مكتب وقاعة للاجتماعات والمحاضرات وتقديم روايات ومكتبة، ومن هذه النوادي نذكر:

في تبسة: (جمعية الأوتار: تأسست سنة ١٩٣٧ وهي جمعية موسيقية، متعاطفة مع العلماء- نادي الشبان المسلمين: تأسس سنة ١٩٣٠ أشرف عليه الشيخ العربي التبسي).[٢٢]

في باتنة: (نادي الإصلاح تأسس سنة ١٩٣٣، وقد حاضر فيه الشيخ عبد الحميد بن باديس).

نوادي ناحية آريس: (نادي حيدوس - نادي أم الرخاء - نادي النوادر - نادي أولاد عزوز- نادي آريس- نادي منعة - نادي تاقوست - نادي تفلفال).

كان للحركة الإصلاحية فضل كبير، وأثر بارز على مستوى الشعب بالأوراس فقد كانت واضحة من خلال الالتفاف الكبير حول الحركة وتأييدها ومساندتها الكاملة، ودفع أبنائه إلى تلقي التعليم من غير تحفظ وتهذيب السلوك، والقضاء على كثير من مظاهر التنازع والخرافات والخصومات في الأوساط الشعبية، وانصياعه لتوجيهات رجال الإصلاح وإزالة مظاهر البدع والفساد، وقد أمدها بدعم مادي في فتح الكتاتيب القرآنية وبناء المساجد وتشييد المدارس، وإيواء طلبة العلم وتجسيد التوجيه الديني في الممارسة اليومية.

الشيخ عمر دردور

كان من أعلام الحركة الإصلاحية في منطقة الأوراس الشيخ عمر دردور، المولود بقرية حيدوسة بوادي عبدي في ١٣ أكتوبر ١٩١٣، درس في الكتاتيب وعمره ست سنوات وحفظ القرآن بمسقط رأسه على يد معلمه الأول الشيخ محمد دردور، ثم توجه إلى زاوية الشيخ علي بن عمر بطولقة حيث تعلم على يد مشايخها مختلف العلوم لاسيما الدينية منها، في سنة ١٩٣٢ توجه إلى قسنطينة حيث درس ووسع من علمه على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس بجامع الأخضر، وواضب على الدراسة بها إلى حتى سنة ١٩٣٧، حيث كلفه الشيخ عبد الحميد بعدها في بتقديم الدروس على الطلبة في مسجدي سيدي قموش وسيدي بومعزة.

في سنة ١٩٣٦ أسس رفقة جماعة من الطلبة الأوراسيين والعلماء الشعبة الأوراسية لجمعية العلماء المسلمين، وقد قام هو وزملاءه بنشاط هام في مجال التربية والتعليم والتكوين السياسي، مما دفع الإدارة الاستعمارية المحلية لمراقبة نشاطهم التعليمي والتثقيفي، وهدفوا إلى توقيف نشاط الحركة الإصلاحية والانتقام من مؤسسيها وغلق المدارس لأن فتح مدرسة لتعليم اللغة العربية كان ولا يزال في نظر الفرنسيين أخطر من فتح مصنع لإنتاج الأسلحة والذخائر،[٢٣] ولذلك كونت ملفًا من الشهادات مزورة نسبت إلى الشيخ عمر دردور، الذي ألقت عليه القبض بتاريخ ١٩ أكتوبر ١٩٣٩، وسيق إلى المحاكمة والسجن يقول فضيل الورثيلاني: « شهدت المحاكم مناظر مخجلة يساق فيها معلم العربية في مركب اللصوص والقتلة والمجرمين لمحاكمتهم على صعيد واحد »،[٢٤] وكانت التهم الموجهة إليه أثناء التحقيق التالية:

- القيام بحملة دعائية ضد فرنسا أثناء الاجتماعات الرسمية والمهرجانات.
- تحريض الشعب على العصيان والدعوة إلى عدم تنفيذ الأوامر.
- عدم الخضوع للسلطة المحلية وشتم أعوان الحكومة الفرنسية في اجتماعات عامة.

وفي خضم تحقيق الجاري في شخصه وقعت مظاهرات شعبية بمدينة باتنة، خصوصًا في الشوارع المحيطة بالسجن وقصر العدالة، فصدر حكم عليه بأربعة أشهر سجن وغرامة مالية، ورغم معاناته في السجن إلى أنه واصل نشاطه في إطار الشعبة الأوراسية

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



وإلقاء الدروس على الطلبة بقسنطينة حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية،[٢٥] بفضل عمليات التثقيف والتوعية التي انبثقت من مراكز الحركة الإصلاحية فإن الوعي أصبح جليًا من خلال تنمية الشعور الديني، وإلهام الحس الوطني وتأثيره على المواطنين، وذلك من حيث ممارساتهم اليومية في الواقع المعيش، ومنه شعرت الإدارة المحلية للاستعمار الفرنسي وأعوانه بهذه التحولات ومظاهر الاشمئزاز والكراهية التي كان يبديها الناس لهم، الشيء الذي جعلهم يحيكون مؤامرات واسعة لمحاصرة نشاط حركة الإصلاح، بكل الوسائل وتدبير المكائد لها بجميع الأساليب لرجالها للانقضاض عليهم.

الإجراءات الردعية

منذ نشأة الحركة الإصلاحية في آريس ونواحيها، كان الحاكم الفرنسي يقوم بعدة مؤامرات واستفزازات ضدها ومتابعة نشاطها، وبعد فشله في أساليب مع أعوانه التجأ إلى أسلوب العنف والتصفية الجسدية منها:

- اضطهاد الشيخ المكي بن تازرولت بالدشرة الحمراء عدة مرات، إذ يطلب منه إرغام ابنيه على الاستقالة من جمعية العلماء والجمعية الإصلاحية المحلية، ولكنهما لم يستقلا إذ ذاك.
- الاضطهاد المسلط يوميا على الشيخ المسعود بلعقون وبعض المصلحين بآريس.
- اضطهاد الشيخ عبد الواحد وأعضاء الجمعية بمشونش وحتى تلاميذ المدرسة وأوليائهم.
- تحريض القايد أوراغ عمر على منع الجمعية من فتح النادي بآريس، وهو قايد وادي الأبيض.
- إغلاق الكتاتيب القرآنية والمدارس الحرة.
- منع العلماء من إلقاء دروس الوعظ والإرشاد في المساجد.
- تسليط عقوبات مالية على المعلمين.
- تقديم المعلمين إلى المحاكم كمخالفين للقانون.

أمام هذه الإجراءات الردعية ضاعفت الجمعيات والنوادي الثقافية في الأوراس من عملها الجدي، بكل حزم وثبات في المدارس والنوادي والتجنيد في الحركة الإصلاحية. وترسخ العمل الإصلاحي والثقافي في نفوس العلماء، الذين عكفوا برسالة النهوض بالجزائر التي بدأت تشهد صحوة لم تعرفها منذ زمن، فأيقظت الجزائريين من السبات ودفعت الأمة إلى حفظ تراثها من المسخ والتحريف،[٢٦] كل هذا بتنظيمات ووسائل جندتها لنشر فكرتها من مدارس، وصحافة، ونوادي ثقافية ومساجد،[٢٧] وكان أهم ميدان ركزت جمعية العلماء عليه جهودها هو ميدان التربية والتعليم، كونه وسيلة تثقيف وتوعية دينية ووطنية في جميع الفئات صغارًا وكبارًا إناثًا وذكورًا.[٢٨]

نشاط علماء الإصلاح السياسي

لم يقتصر عمل علماء الإصلاح الأوراسيين على الميدان الديني والثقافي فقط على غرار العلماء الآخرين في باقي الجزائر، بل توصلوا بسرعة إلى تغيير نشاطهم لينصب على التوجيه السياسي والديني، وذلك لأسباب مرتبطة بالعمل الروحي والديني في الإسلام ووفقا لمسعى واحد، قام العلماء الإصلاحيون بعمل ميداني قصد التأثير على المواطنين بتوعيتهم سياسيًا، وقد انصبت خطبهم ودروسهم على الحياة الاجتماعية والإدارية وعلى الظروف القاسية التي يعيش فيها سكان الأوراس، والظلم القاسي الذي يرتكبه ممثلو الإدارة المحلية والحقوق التي يجب المطالبة بها من السلطة الاستعمارية، وهذا النص الذي عثر عليه دليلاً على إسهامهم السياسي، جاء فيه: "يا شعب الأوراس نحن نكلمك باسم الأخوة الدينية والوطنية، ونرجو منك الانتباه إلى ما يجري بالأوراس. هناك أناس يبحثون عن غرس الحقد بينكم والشقاق والتفرقة والعدوان بينما يجمعكم دين واحد ولغة واحدة وآمال وخيبات متماثلة. لا تكونوا مغفلين أمام كلام بعض الأشخاص ذوي النيات السيئة – أعوان الإدارة الاستعمارية – الذين يرغبون في بقائكم كالبقر الحلوب وكفريسة سهلة أو ككرة بين أيدي المستغلين الذين يبحثون عن استغلالكم وتدميركم وفقركم. إن جبالكم غنية وسطح أراضيكم جذب وأنتم فقراء وأن أبناءكم يعانون من الحرمان والذئاب تتقاسم ثمرة أعمالكم، هل تقبلون دون احتجاج كل هذه القيود ؟ لا. لقد تبينتم نتائج أعمالكم، وقدرتم قيمة الكنوز التي فقدتموها، وقد بلغتم اليقظة فاستيقظوا. نحن نثبت لكم الاستقامة عندما نراكم تساندون العلماء والمنتخبين الأحرار والداعين لمبادئ العدالة والإخوة المقدسة لدى الإنسان. لا تنسوا بأنكم أمة عربية مسلمة. يا سكان الأوراس الأحرار الكرماء قوموا للعمل واقضوا على كل ما يفرق وحدتكم. يا سكان الأوراس المتمسكين بدينكم الإسلامي انهضوا واستيقظوا لاسترجاع مجدكم".[٢٩]

خلال سنة ١٩٣٧ وفي الوقت الذي كانت تنتشر فيه عبر الجزائر الحركات التي نعرفها، حدثت إثارة شديدة بالأوراس التي أدت إلى التخوف حتى بالنسبة للمحافظة على النظام العام والتي كان سببها عمل العلماء المصلحين هناك مذكرة بـ: "Archives Nationales d'Outre – Mer"، في تقرير وضع تحت عنوان تقدم الحركة الإصلاحية في منطقة الأوراس، جاء فيها: "لقد زاول أربعة أوراسيين، أبناء المرابطين، دراستهم بجامع الأخضر بقسنطينة، تحت إشراف الشيخ عبد الحميد بن باديس، كان هؤلاء التلاميذ الأربعة أعضاء في اللجنة المديرة للشعبة الأوراسية للعلماء المؤسسة في أوت سنة ١٩٣٦م، بينما الأعضاء الآخرون للجنة المديرة يمثلون عائلات مرابطية هامة مناصرة للزوايا الرحمانية لتبرمسين وتلميذ آخر من قرية غوفي".

وهناك تقرير آخر خاص بمنطقة آريس المؤرخ في ٩ أوت ١٩٣٧ تحت رقم/ G ٦٩ تقرير هام لحاكم حوز آريس المؤرخ في ١٣ سبتمبر ١٩٣٧، يحتوي على الظروف التي تكونت فيها الشعبة الأوراسية ومعلومات عن أعضائها وسلوكهم.

خاتمة

واستمرت المجابهات بين الطرفين تزداد حتى قامت ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤م، التي مثلت أوج الصراع الثقافي والحضاري بين الجزائر وفرنسا، والهادفة إلى استعادة الشخصية المسلوبة في قيمها وذاتيتها، فكان العمل الثقافي يساير الكفاح المسلح، وسار جنبًا إلى جنب، حيث انتشر التعليم وعملية محو الأمية، ورغم الأوضاع القاسية فإن جهة التحرير الوطني لم ينسها الاهتمام العسكري العناية بالتعليم داخليًا وخارجيًا، فقد تكفلت بتعليم أبناء القرى والمداشر بإنشاء مدارس التعليم العربي، جاعلة إياها معاقل للكفاح تتصدى لسياسة فرنسا ومحاولتها احتواء الثورة الجزائرية. ومن خلال ما سبق ذكره نستخلص استمرار المقاومة الجزائرية التي تعددت أنماطها والهدف واحد هو صد المشروع الاستعماري، فكان الأوراسيون أكثر عنادًا، وأصلبهم عودًا وأشدهم تمسكًا بشخصيتهم التاريخية العريقة.

الهوامش:

(١) ناصر الدين سعيدوني: **التوجه المعادي للعربية والإسلام في السياسة الفرنسية في الجزائر (١٨٣٠ – ١٩٦٢م)**، مجلة التاريخ العربي؛ ع ٣٢، الرباط. ص ٩٩.

(٢) محمد العربي الزبيري: **مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر:١٩٧٣، ص ١٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٣.١٥٤.

(4)Turin Yvonne: **Affrontement culturel l'Algérie coloniale (école, médecines, religions),1830 - 1900**, E.N.A.L, deuxième édition, Alger .p.35.

(٥) ايفون تورين: **الأشكال الرئيسية للمقاومة في الجزائر إبان القرن ١٩**، الملتقى السادس للفكر الإسلامي، م١، الجزائر ١٩٧٢، ص.٢٥٣.

(٦) جمعية أول نوفمبر: **تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي (١٨٣٧- ١٩٥٤)**، دار الشهاب باتنة، الجزائر، ١٩٨٠. ص ٢٧١.

(7) Turin Yvonne :P.218.

(٨) عبد العزيز شهبي: **الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر**، دار الغرب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧، ص ١٢٩ - ١٣٣.

(٩) المرجع نفسه، ص١٠١ - ١٠٣.

(١٠) محمد خير الدين: **مذكرات الشيخ محمد خير الدين**، المؤسسة الوطنية للكتاب، دون تاريخ، ج ٢، ص ١٣، ١٤.

(١١) **تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي (١٨٣٧- ١٩٥٤)**. ص ٢٤٣.

(12) Turin Yvonne: Op-cit. P١٢٢.

(١٣) عبد الكريم بوصفصاف: **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية ١٩٣١- ١٩٤٥**، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، ١٩٨١، ص ٧٦.

(14)Fanny Colonna: **Les Instituteurs Algériens (1883-1939)**.O.P.U. Alger: 1975, P.27 .28.

(١٥) محمد الطيب العلوي: **التربية بين الأصالة والتغريب**، منشورات دحلب، الجزائر: دون تاريخ، ص ٢.

(١٦) الجمعي خمري: **حركة الشبان الجزائريين والتونسيين (١٩٠٠-١٩٣٠) دراسة تاريخية وسياسية مقارنة**، أطرحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، تحت إشراف الدكتور عبد الكريم بو الصفصاف، جامعة قسنطينة، ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣، ص.١٧٩.

(١٧) أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٣، در الغرب الإسلامي بيروت: ١٩٩٨. ص.٢٤٢.

(١٨) محمد الطيب العلوي: المرجع السابق، ص. ١٢٠.

(١٩) محمود الواعي: **المجابهة الثقافية، في تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي من ١٨٣٧ - ١٩٥٤**. ص ٢٦٨.

(٢٠) **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين**: جريدة البصائر، ع. ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، بتاريخ ٠٣، ١٠، ١٧ سبتمبر ١٩٥٤.

(٢١) جريدة البصائر، ع. ٣٢٩، ٢٩ جويلية ١٩٥٥.

(٢٢)عمار هلال: **أبحاث في تاريخ الجزائر المعاصر ١٨٣٠- ١٩٦٢**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: ١٩٩٥، ص ٢٧٣، ٢٧٥.

(٢٣) فضيل الورثيلاني: **الجزائر الثائرة**، دار الهدى، الجزائر، ١٩٩٢، ص.٩٠.

(٢٤) المرجع نفسه، ص.٩٠.

(٢٥) الشيخ الواعي محمود: **حياة الشيخ عمر دردور ونضاله قبل الثورة المسلحة**، تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي من ١٨٣٧ - ١٩٥٤. ص ٢٦٠، ٢٦١.

(٢٦) محمد الصالح رمضان: **"جمعية العلماء ودورها العقائدي والاجتماعي والثقافي"**، مجلة الثقافة، ع٨٥ الممتاز، الجزائر: ١٩٨٤ .ص.٣٥٩.

(٢٧) عبد الكريم بوالصفصاف: المرجع السابق، ص .١٢٥.

(٢٨) محمد الصالح رمضان: المرجع السابق، ص ٣٦٤ - ٣٦٧.

(٢٩) نص منشور في كتاب: **تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي من ١٨٣٧ - ١٩٥٤**. ص ٢٧٣، ٢٧٤.



اليابان
بين حملة بيري (١٨٥٣ ـ ١٨٥٤) وأسئلة التحدي الغربـي



د. يحيى بولحية

دكتوراه في التاريخ المقارن

أستاذ بالثانوية التأهيلية العيون الجديدة

وجدة – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

يحيى بولحية، اليابان بين حملة بيري (١٨٥٣ – ١٨٥٤) وأسئلة التحدي الغربي.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ٤٠ - ٤٨.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخَص

تتناول هذه الدراسة موضوع اليابان بين حملة بيري (١٨٥٣ - ١٨٥٤) وأسئلة التحدي الغربي، وذلك في نقاط محددة هي: السياق التاريخي لحملة الكومودور الأمريكي بيري على اليابان، وحملة بيري ونتائجها السياسية والدبلوماسية، وحملة بيري وانعكاساتها الداخلية، والتحدي الغربي والاتجاه نحو عهد الإحياء الإمبراطوري، وعهد الميجي وبداية التحول الياباني، والنخبة وصناعة التغيير في يابان الميجي، والتحدي الغربي وجيوب المقاومة اليابانية، واليابان بين مرحلة الدهشة والبناء الاستراتيجي.

مُقدِمة

هل كانت حملة بيري عام ١٨٥٣م العامل الأساس في انطلاق عهد التحديث الياباني؟ وما هو السبيل التنموي الذي كان مقدرا لليابان أن يسلكه، لو بقي في عزلته الطوعية الطويلة التي دامت أزيد من ٢٥٠ سنة؟ ألم يسهم الغرب في إخراجه من عتمات النظام الفيودالي، وتراتبيته الصارمة، وإدخاله إلى "نور" التحديث الغربي؟ يحتاج الأمر إلى تحقيق وتفصيل بعرض الوثائق، وتحليل المعطيات، وتفكيك المقدمات والخروج بالنتائج والتأويلات.

يحاول البحث الاستقصاء عن إحدى أنجح التجارب التاريخية في مواجهة الظاهرة الغربية بقوتها المادية والعسكرية والثقافية، كما يتتبع الخطوات المدروسة التي أقدم عليها اليابانيون وهم يواجهون التحديات الغربية في منطقة الشرق الأقصى منذ أواخر القرن الثامن عشر. وإذ نورد طبيعة الرد الياباني على حجم الضغوط الغربية، نثير، بشكل خفي، مسألةَ تجارب النهوض العربية وإخفاقها في إنتاج أجوبة حضارية مكافئة لما قام به اليابانيون خلال هذه المرحلة التاريخية.

السياق التاريخي لحملة الكومودور الأمريكي بيري على اليابان

أسهم البعد المجالي الجغرافي في اهتمام القوى الغربية بالمسألة اليابانية، فقرب اليابان من الصين دفع الولايات المتحدة وروسيا إلى إيلاء اهتمام متزايد بها،(١) ومنذ ١٧٩٢م أرسلت الحكومة الروسية لاكسمان* Laxman إلى نوميرو* Nemuro وطلب المبعوث الروسي من الباكوفو السماح لبلده بالتجارة، لكن طلبه قوبل بالرفض.(٢) وفي سنة ١٨٠٨م، وضمن الصراع الهولندي الإنجليزي، تمكنت سفينة بريطانية من خرق السيادة البحرية لليابان في ميناء ناكازاكيNakazaki، وتنامى الإحساس بالخطر الغربي بعد اندلاع حرب الأفيون سنة ١٨٤٠م، بين انجلترا والصين حيث تبين لليابانيين بالملموس هولَ الخسائر التي تكبدتها الصين نتيجة لهذه المواجهة غير المتكافئة.

وبعد ذلك بخمس سنوات، أي في سنة ١٨٤٥م صوت الكونغرس الأمريكي لصالح قرار يدعو الحكومة الأمريكية إلى اتخاذ إجراءات، تحقق – بطرق دبلوماسية - بعضَ التوافقات التجارية

مع اليابان، إلا أن الإدارة اليابانية بقيت متشبثة بخيار عزلتها، فرفضت عام ١٨٤٦م استقبال بعثة أمريكية.[٣]

حملة بيري ونتائجها السياسية والدبلوماسية

تسبب الرفض الياباني في توجيه أسطول أمريكي بقيادة الكومودور بيري* commodore Perry عام ١٨٥٣م، الذي "أرسل مذكرة ودية إلى الحاكم العسكري "إيبوشي" يؤكد له أن الحكومة الأمريكية لا تطلب أكثر من فتح بضعة موانئ يابانية في وجه التجارة الأمريكية واتخاذ بعض الإجراءات لحماية البحارة الأمريكيين".[٤]لكن أسلوب بيري Perry ظل مرنا، حيث حدد مهلة عام كامل أمام اليابانيين للتفكير والرد على الرسالة المقدمة للشوجون.

وبعد انتهاء السنة أي في سنة ١٨٥٤م عاد الكمودور الأمريكي إلى السواحل اليابانية "مسلحا بقوة بحرية أكبر، ومزودا بمختلف الهدايا المغرية"،[٥] وضم أسطوله ٢٥٠ مدفعًا، وتمكن – بسبب ذلك - من فتح قنوات التفاوض مع إدارة الشوجون واضطرت حكومة توكوجاواTokogawa إلى "توقيع اتفاقية كاناجاواKanagawa للصداقة مع الولايات المتحدة في ٣١ مارس ١٨٥٤م، والمعروفة باسم معاهدة السلم والصداقة بين الولايات المتحدة واليابان (Treaty of peace and amity between united states and Japan) ونصت المعاهدة على:

"- فتح موانئ شيمودا Shimoda وهاكوداتيHakodaté لإصلاح وتموين السفن الأمريكية.

- معاملة البحارة الأمريكيين الناجين من السفن الغارقة معاملة لائقة وإعادتهم إلى وطنهم.

- الموافقة على تعيين ممثلين قنصليين إذا رأت أي من الدولتين ذلك ضروريا.

- يَعد اليابان بمنح الولايات المتحدة حق الدولة الأولى بالرعاية".[٦]

وفي ١٨ يونيو ١٨٥٧م فرض القنصل الأمريكي على الحكومة اليابانية معاهدة لا متكافئة ثانية تخول للأمريكيين الإقامة بموانئ شيمودا Shimoda وناكازاكي Nakazaki وهاكوداتي Hakodati، لتعاطي التجارة فيها؛ وفي ١٩ يوليوز ١٨٥٨م فرضت الولايات المتحدة معاهدة لا متكافئة ثالثة (معاهدة يدو Yedo) على حكومة الشوجون، سمحت لها بإقامة بعثة دبلوماسية بالعاصمة، وبتمثيل قنصلي بالموانئ المفتوحة للتجارة الأمريكية، وبمد هذه التجارة إلى خمس موانئ من بينها يدو* -Yedo.[٧]

حملة بيري وانعكاساتها الداخلية

ضمن هذا الإطار "فُتحت الموانئ الكبرى للتجارة الخارجية... وحُددت الضرائب الجمركية، وفُصلت مقاديرها وأنواعها، واشتُرطت شروط اتفق فيها على أن يوقف اضطهاد المسيحية في الإمبراطورية اليابانية".[٨]شكل التوافق الأمريكي الياباني بداية سلسلة من الاتفاقيات مع بعض الدول الأوربية كإنجلترا في أكتوبر ١٨٥٤م وفي ١٨٥٩م، ومع روسيا في فبراير ١٨٥٥م وفي ١٨٥٩م ومع هولندا في يناير ١٨٥٦م ومع فرنسا والبرتغال في ١٨٥٩م. "وكانت أخطر نقاط تلك الاتفاقيات البندَ الذي نص على رفض الأجانب المثول أمام المحاكم الأجنبية، وإصرارهم على أن تتم محاكمتهم أمام قناصل دولهم وبالاستناد فقط إلى قوانين الدول التي ينتمون إليها"،[٩] مما كان يعني الانتقاص من السيادة اليابانية، وبداية انتزاع أهم رموزها من إدارة الشوجون.

رأى اليابانيون في هذه المعاهدات تلبس بلدهم بدناسة "البرابرة"، فازدادت "الثورات الداخلية للفلاحين نشاطًا وتوسعًا، كما..إن عناصر من الحكم العسكري القائم آنذاك من مقاطعتي ساتسوما وشوتشو أعلنوا العصيان والاتحاد ضد الإقطاع".[١٠] في هذا الإطار اعتبر اليابانيون أن ما جرى حينها أولُ إهانة عظمى وجهها لهم العالم الغربي وكان تدنيسا لأرضهم وإهانة لشعبها وإمبراطورها.[١١] كما شكل التهديد الأمريكي منعطفا حاسما في آليات الاشتغال السياسي لحكومة توكوجاوا، ذلك بأن هذه استدعت في مناسبة غير مسبوقة، فئة الدايميوDaimyos للتشاور؛ بيد أنه لم يكن من حق هذه الفئة –في السابق- أن تبدي رأيها في الاتجاه السياسي العام؛ فمثّل هذا التحول تعبيرا عن حالة العجز والضعف.[١٢]

"سعت حكومة "إدو" إلى كسب أوسع تأييد شعبي لسياساتها... لكن هذه الخطوة حققت نتيجة سلبية؛ فقد نتج من هذه الخطوة غير المسبوقة وتداخلها مع الأزمة الوطنية القائمة أن فُتح الباب واسعا أمام موجات شديدة من الانتقادات".[١٣] ضمن هذا السياق كره اليابانيون الأجانبَ "لأنهم جميعا كانوا من "غير الأطهار" الذين لا ينبغي لهم أن يطأوا أرض اليابان المقدسة، وبين هؤلاء الكارهين للأجانب كان الساموراي هم الأكثر جرأة".[١٤] وفي مقدمتهم صايغوتاكاموري*.

أورد فوكوزاوا العديد من الأسماء التي تم اغتيالها بسبب تعاطفها مع الثقافة الأجنبية كما "هوجمت المتاجر التي تبيع سلعا أجنبية... لأنها... تسبب خسارة للبلاد"،[١٥] في اعتقاد الحركة الاحتجاجية. "بعد أشهر قلائل من وصول الكومودور بيري... كانت أخبار ظهور الأسطول الأمريكي في "يدو" قد تركت تأثيرها بالفعل في كل بلدة في اليابان، وفي الوقت نفسه أصبحت مشكلة الدفاع الوطني وعلم المدفعية الحديث مناط الاهتمام الأول بالنسبة للساموراي جميعا".[١٦]

أحدث استسلام اليابان للضغوط الغربية رجّةً حقيقية داخل المجتمع الياباني، تطلبت من حكومة الشوجون تقديم تبريرات تفسيرية لما حدث؛ فبفضل اتصالاته بالهولنديين كان المستشار أبي ماساهيروAbe Masahiro*، مدركا حجم القوة التي تتوفر عليها الدول الكبرى المتربصة باليابان، وكان مطلوبا منه توضيح قناعاته هذه لعناصر الدايميوDaimyos، وعلى أن حكومة الشوجون لم تتوفر على الوسائل الكفيلة بمواجهة ذلك. كانت مهمة ماساهيرو صعبة للغاية، فقد كان منتظرا منه الحفاظ على هيبة الحكومة "وعدم منح الفرصة للإقطاعيين الكبار للنيل من ضعف

التوكوجاوا".[١٧] وهم الذين حاولوا التقاط زخم اللحظة التاريخية، لتصفية الخلافات القديمة، وتجاوز التأخر والضعف في مواجهة القوى الكبرى بالمنطقة.

وقف بعض الفيوداليين ضد توقيع معاهدات مجحفة بحق اليابان، وكانوا يقولون إن "ورثة الشمس العظمى قد تربعوا على العرش الإمبراطوري من جيل إلى جيل دون تغيير منذ أقدم العصور، واليوم فإن البرابرة الأجانب القادمين من الغرب يعيثون في البحر فسادا، ويدوسون بأقدامهم الدنسة على بلاد الآخرين".[١٨] ودعا هذا التيار إلى إحياء النظام الإمبراطوري والعودة إلى سياسة العزلة، رافعا شعار "مجدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة".

كان التوقيع على المعاهدات السالفة تحديًا مباشرًا "لإرادة الإمبراطور ومناصريه داخل إدارة الباكوفو، ولعدد كبير من الدايميو من حكام المقاطعات، ولجماعة الرونين *Ronin من الساموراي".[١٩] وضمن هذا السياق أصبح اليابان، يبحث عن منفذ لأزمته، وعن ردود مناسبة لمواجهة تحديات الغرب له. من جانب آخر، "اتقدت المشاعر الوطنية ضد فتح البلاد للأجانب، وتعاظم الشعور الشعبي بضرورة مواجهة التهديد الخارجي بحشد قوى الأمة كلها والتفافها التفافا فعالا حول الإمبراطور، الرمز الشرعي الوحيد للوحدة الوطنية".[٢٠]

كما تزايدت الآراء المطالبة باحترام البلاط الإمبراطوري داخل صفوف التيار الوطني، واستهدفت من وراء شعار "مجدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة" الإطاحةَ بحكومة الباكوفو.[٢١] وقد وقف كبار الدايميو لمنطقة الجنوب الغربي، وخاصة لمقاطعات ساتسوما Satsuma وشوتشو cho-shu وتوزا Tosa، ضد إدارة الشوجون وتوافقاتها مع القوى الغربية، ورأت في الشعار السالف ضالتها لتصفية نزاعاتها وخلافاتها الإقطاعية القديمة مع حكومة توكوجاوا المغتصبة للسلطة الإمبراطورية.

صرح نارياكي دايميو ميتو Mito بأن الأجانب يشكلون تهديدا لاستقلال ووحدة اليابان، وبأن فتح الصين ميناء كانتون أمام الأوربيين تسبب لها في حرب الأفيون.[٢٢] التفت الغالبية العظمى من صناع القرار الياباني حول هذا المبدأ، وحاول هذا التيار "التصدي للهيمنة الأجنبية... بقتل بعض الأجانب، والاعتراض على دخول السفن الغربية الشيء الذي جعل القوى الغربية تتدخل بقصف بعض الموانئ اليابانية، وتفرض فتح اليابان لحدودها بالكامل مع التجارة الغربية مع تحديد الرسوم الجمركية التي تفرض على البضائع عند دخولها إلى هذه البلاد ب ٥% من قيمتها".[٢٣] ونتيجة لمجمل هذه التحولات بدأت التحديات السياسية تفرض نفسها، وأضحت معالم القوة الغربية معطى موضوعيا تحتاج مدافعته إلى خبرة وحكمة وتعقل في بناء المواقف الدبلوماسية وممارستها.

التحدي الغربي والاتجاه نحو عهد الإحياء الإمبراطوري

نستنتج من قراءتنا لهذه الأحداث مجموعة من القضايا، وفي مقدمتها، أن الصدمة الغربية أحدثت بالفعل رجة حقيقية داخل المجتمع الياباني، وأنتجت داخله العديد من الأسئلة والاستفسارات، وفرضت عليه، بناء عليه، تقديم الرد والإجابات المناسبة؛ كما اضطرت النخبة الحاكمة، بكافة أطيافها، إلى التكيف مع الواقع الجديد وأخذه بعين الاعتبار عند كل اجتهاد سياسي وعسكري، أمام الإكراه الذي فرضته السفن العسكرية الأمريكية.

دلت المراحل الأولى، التي رافقت الوجود الأمريكي داخل الشواطئ اليابانية على فوضى الفكر وعدم القدرة على التقاط الخيط الناظم لمقدمات الهجمة الغربية وطبيعتها، وإثر ذلك طرأ نوع من "التعقل" في مساءلة الواقع الجديد المفروض؛ و في ١٨٦٤م حدث منعطف استراتيجي مهم، فقبل هذا التاريخ "كانت الحركة الإمبراطورية تسير بشكل موازي مع حركة العداء للأجانب، لكن بعد ذلك حدث الانفصال بينهما".[٢٤]

ضمن هذا السياق بدأت تبرز، داخل صفوف النخب اليابانية، مواقف تدعو إلى التخلي عن سياسة العزلة، والانفتاح على الغرب. وإذا كان بعض اليابانيين ود مواجهة الأجانب مهما كلف ذلك من تضحيات فإن "بعضهم الآخر كان من رأيه أن تقليد الغرب أجدى من طرده من بلادهم: فالوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها اليابان أن يتجنب الهزائم المتكررة والخضوع الاقتصادي الذي يشبه ما كانت أوربا تفرضه عندئذ على الصين هي أن يتعلم بأسرع طريقة ممكنة أساليب الصناعة الغربية وفن الحرب الحديثة".[٢٥] من جهة أخرى؛ نقرأ في وثيقة موجهة إلى الباكوفو سنة ١٨٥٧م: "يجب أن تفتح موانئنا أمام التجارة مع الأجانب، صحيح أننا لن نجني أرباحاً من وراء ذلك، لكن لا يمكنا أن نفعل غير ذلك، إن هدفنا يكمن في الحفاظ على قوانيننا ومؤسساتنا".[٢٦]

أصبح مطلب الانفتاح على الغرب عنصرًا أساسًا ضمن مكونات التفكير السياسي للعناصر الإصلاحية في اليابان، إلا أن ثمن الانفتاح لم يكن بخساً، ذلك بأن شعار "مجدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة" لم ينمح من المشهد الإصلاحي العام بالبلاد؛ وإذا كان مطلب "طرد البرابرة" والتخلي عن سياسة العزلة متعذرا لأسباب موضوعية، فإن إعادة الاعتبار للبلاط الإمبراطوري بقيت متقدة لدى رواد الإصلاح، واحتاج تحقيق ذلك إلى مجموعة من المواجهات العسكرية؛ فمع "إطلالة العام الجديد في أوائل يناير ١٨٦٨م نشبت معركة فوشيمي* وحلت الهزيمة بجيش الشوجون.. و.. اكتسحت فوضى كبيرة أرجاء البلاد، وشكل هذا بداية الإحياء الإمبراطوري".[٢٧]

أبانت حكومة التوكوجاوا عن عجز كامل أمام الدفاع عن سيادة اليابان، ووقعت في مأزق سياسي وعسكري حرج، وتوازى ذلك مع الدعوة إلى إعادة الاعتبار للسلطة الإمبراطورية، وفي ١٨٦٧م "حمل أمراء الإقطاع "كيكي"* آخر الحكام العسكريين على النزول عن

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية

السلطة". وقد قال كيكي "إن معظم أعمال الإدارة الحكومية معيبة، وإني لأعترف خجلا بأن الأمور في وضعها الراهن يرجع نقصها إلى ما أتصف به أنا من نقص وعجز، وها هو ذا اتصالنا بالأجانب يزداد يوما بعد يوم، فما لم تتول إدارة البلاد سلطة مركزية موحدة انهار بناء الدولة انهيارا من أساسه، وعلى هذا القول أجاب الإمبراطور ميجي في اقتضاب قائلا: "قد قبلنا ما عرضه توكوجاوا كيكي من إعادة السلطة الإدارية إلى البلاط الإمبراطوري".[٢٨]

انتهت الخلافات الداخلية اليابانية، إذن، بهذا الحل التوافقي، الذي يدل على ذهنية اقتصاد الجهد والوقت، وعدم تبديد الطاقات وتبذير الإمكانات. صحيح أن انتقال السلطة السياسية إلى الإدارة الإمبراطورية لم يكن يسيرا، لكن أسلوبه يستدعي وقفات تأملية عميقة. أدرك اليابانيون أن الصراعات الداخلية، لا يمكن أن تحقق المصلحة العليا للبلاد، ورأت في إعادة الاعتبار للإمبراطور وسيلة ضرورية لتجاوزها وتغييرها؛ ويمكن القول إن تمجيد الإمبراطور، وترسيخ صورته في المخيال الياباني، شكلاً انقلابا حقيقيا في التصورات الإصلاحية، وفي انبعاث رؤية جديدة لتنظيم الدولة والمجتمع على أسس ومقاسات جديدة.

عهد الميجي وبداية التحول الياباني

في سياق التحولات الكبرى التي شهدها اليابان إثر حملة بيري، "مثل عهد الميجي مرحلة تغيير سياسية واقتصادية واجتماعية كبرى"[٢٩] في تاريخه الحديث والمعاصر، ويؤكد Pierre Renouvin على أن عملية التحول تمت في زمن قياسي وفريد في تاريخ التحولات العالمية "فلم تمر فترة ٢٥ سنة حتى تم تحديث المؤسسات – ويضيف قائلاً -: "دون الحضور الغربي، ونموذجهم التحديثي، ودون المساعدة التقنية الغربية، لم يكن قطعا لتتحقق عملية التحول".[٣٠]

لا يمكن إنكار القيمة العملية لكتاب "مسألة الشرق الأقصى" « La Question d'extrême orient » وما ورد فيه من تحليلات عميقة ومتميزة لتحولات المجتمع الياباني أثناء عهد الميجي، لكن من المشروعية التساؤل عن حجم الدور الغربي في هذا التغيير، وهل يمكن اعتباره شرط وجوب في انطلاق عملية التحديث الياباني؟ وإذا كان ذلك صحيحًا لماذا فشلت التجربة الصينية، في بداياتها الأولى، رغم تعرضها لنفس التدخلات الغربية بعد حرب الأفيون؟ ولماذا انتكست التجارب العالمثالثية المختلفة، وعجزت عن تقديم نموذج تنموي ، يشبه ما تحقق في مجتمع النيبون!

ضمن هذه الرؤية نقول: "كانت سفن بيري Perry مجرد عامل مساعد، بل يمكن القول إن ذلك العامل لم يكن بناء؛ ففي اللحظة التي وصلت فيها هذه السفن كانت الوسائط الأساسية للتغيير الهائل المرتقب موجودة كلها في الداخل، بل إن حظوظ اليابان كان يمكن أن تكون أقل عجلة في النهوض بالمهمات المرتقبة، ولكانت قد قامت بكثير من منجزاتها على نحو أكثر تأنيا، متجنبة بذلك النتائج المأساوية الكامنة في المستقبل".[٣١]

على مستوى آخر، يفضل كوهاشير وطاكاهاشي Kohachiro Takahashi الحديث عن التحول الاقتصادي للإقطاع الياباني. ويعتبر "المسألة الزراعية حجر الزاوية في ثورة الميجي"؛[٣٢] لكن التأمل ومساءلة تحولات المشهد السياسي الداخلي خلال هذه الفترة، يفصحان عن حضور ذهنية إصلاحية متميزة وديناميّة، وعن أن كافة عناصر التغيير – بما فيها تنظيم المسألة الزراعية - لم تكن سوى إحدى النتائج العديدة لهذه الذهنية المتقدة والمتسمة بالابتكار والتجديد؛ فقد استطاعت هذه الأخيرة استيعاب حجم التحولات، وتوجيهها نحو الفعل الحضاري الإيجابي؛ بل إن النظام الفيودالي والتزاماته الاجتماعية والاقتصادية والجبائية، أُلغي بقرار إداري عندما تأكد مهندسو الإصلاح في عهد الميجي، أن الإبقاء عليه يعني استمرار الأزمة وعدم القدرة على مجاراة التحديات الغربية المختلفة.

وفي ١٤ مارس ١٨٦٨م تم الإعلان عن مبادئ الإصلاح الخمسة، وهي:

"١- كل القرارات أو التدابير يجب أن تتخذ بعد نقاش جماعي للدفاع عن المصلحة العامة.

٢- من حيث المبدأ لا فرق بين أعلى وأدنى في اليابان، بل الجميع واحد مع الحفاظ بدقة على التراتبية الاجتماعية.

٣- من الضروري أن تتوحد السلطتان العسكرية والمدنية في يد واحدة بهدف حماية حقوق كل الطبقات والمصلحة القومية العليا.

٤- يجب التخلي عن التقاليد الشكلية القديمة، والعمل على أن تظهر مساواة طبيعية بين الجميع دون تمييز.

٥- السعي لاكتساب الثقافة والتعليم في أي مكان في العالم واستخدامها في بناء ركائز الإمبراطورية اليابانية".[٣٣]

أدرك اليابانيون "أن الدفاع الوحيد عن بلادهم ضد الغرب لن يتم دون أن يكون لليابان تفوقها التكنولوجي نفسه في المجالين العسكري والاقتصادي".[٣٤] كان الانفتاح اختيارا مفروضا من الخارج، و"اضطر اليابانيون إلى فتح أبوبهم مع بذل الجهود المكثفة لحماية أنفسهم من تكنولوجيا الغرب العسكرية والاقتصادية، وذلك بالحصول على هذه التكنولوجيا لأنفسهم. ومن خلال هذه العملية وجدوا أنه من الضروري إحداث تغييرات ثورية في مجتمعهم ونظامهم السياسي بشرط أن تتم من خلال خصائصهم التقليدية المعروفة من التجانس والمهارة في المشروع الجماعي".[٣٥]

تنبه القادة اليابانيون إلى أن عملية الإصلاح الشامل لا يمكنها أن تتم بدون المدخل السياسي وضرورة تركيز القرار الإداري ومنح السلطة طابع الكاريزماتية والقداسة، وتم ذلك بتولية الإمبراطور الفتى موتسوهيتو MutsuHito (١٨٥٢-١٩١٢م) الحكم في الأيام الأخيرة من عام ١٨٦٧م. وإذا كانت بدايات الإصلاحات بأمر من الفتى الإمبراطور، إلا أنها كانت من صنع كبار قادة الساموراي المؤيدين له".[٣٦] صحيح أن سلطة الشوجون أرجعت إلى الإمبراطور، لكن السلطة الحقيقية كانت لرجال مقاطعات ساتسوما Satsuma وشوتشو Chôshû.[٣٧]

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

النخبة وصناعة التغيير في يابان الميجي

تثار أمامنا في مقدمة هذا المبحث مسألة أساسية تتعلق بدور بعض الفئات أو الطبقات في الدفع بالمجتمع نحو مبدأ التغيير دفعا لا يمكن مقاومته أو التغيير في مساره العام. أبان قادة مقاطعات ساتسوماوشوتشو عن قدرة متميزة على إعادة تشكيل الحقل السياسي الياباني، والاتجاه بالأمة اليابانية نحو التحديث، وتوظيف كل ما تتيحه الثقافة والرموز الأسطورية والثقافية اليابانية لخدمة هذا الهدف الحيوي. لقد أدركوا خصوصية اللحظة التاريخية، واستثمروها إلى أبعد مدى ممكن في التوجه بالمجتمع الياباني نحو آفاق جديدة من الممارسة التنموية.

وضمن هذا السياق وضع "الإمبراطور مايجي وفريق عمله الذي تجاوز الأربعمائة شخصية من ذوي الاتجاهات العامة والاهتمامات المتنوعة، برنامجا طموحا لتحديث اليابان منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر".[٣٨] من جانب آخر تم استبدال شعار "مجدوا الإمبراطور، اطردوا البرابرة" بمبدأ جديد، هو: "بلد غني وجيش قوي" أو "جيش قوي ليابان غنية". وهو شعار أسس البداية الفعلية لنمو الإمبريالية اليابانية وتطورها.

لم تكن عملية الانتقال سهلة، إلا أنه – وعلى خلاف الثورات الكبرى- فإن تحولات الميجي لم تفرز ثورات مضادة ودموية، على شاكلة النموذج الفرنسي سنة ١٧٨٩م أو الروسي سنة ١٩١٧م؛ فقد أقدم حكام مقاطعات ساتسوما Satsuma، وشوتشو Choshô وتوزا Tosa وهيزن Hizen عام ١٨٦٩م على تسليم مناطق نفوذهم للإمبراطور و"قام بقية الدايميو بنهج نفس الأسلوب".[٣٩] وفي المقابل تعاملت الإدارة الجديدة بحكمة وتعقل مع هذا التسليم، إذ تم الاحتفاظ بعناصر الدايميو، الذين سلموا أراضيهم للإمبراطور، كمسيرين جدد لمقاطعاتهم القديمة.

يستدعي نمط هذا الانتقال السلمي في مسير التحولات اليابانية الكبرى، إثارة بعض القضايا التي تفسر نجاح النماذج التنموية وتجارب الثورات والتحولات العالمية. وعلاقة بالموضوع، ما هو المسار الذي كانت ستأخذه التجربة اليابانية لولا ضغط المجموعات القبلية الوازنة في المشهد السياسي الياباني؟ أي مستقبل كان على اليابان مواجهته لولا دور مجموعة ساتسوما وشوتشو؟

تمتعت هذه المجموعات بثقل وازن ومؤثر في الحياة العامة في اليابان، حتى خلال فترة العزلة، ولم يحُدّ من تأثيرها سوى القرارات الصارمة التي لجأت إليها حكومة التوكوجاوا لمنع الاتصال بالأجانب. ومع ذلك تبينت ضآلة حجم هذه السلطة عندما فرضت الولايات المتحدة شروطها التجارية سنة ١٩٥٣م، فاستغلت هذه المجموعات هذا الحدث وأطاحت بالنظام الشوجوني الذي فقد القاعدة المجتمعية المساندة.

وبمقتضى مرسوم ٢٩ غشت ١٨٧١م ألغى الإمبراطور "نظام العشائر الشوجوني الإقطاعي، واستعاض به نظام المقاطعات، فأُسست، إثر ذلك، المجالس المحلية في المقاطعات، وعُين لكل مقاطعة حاكم يستمد سلطته من الحكومة المركزية المؤلفة من الإمبراطور، ومن وزارة بجانبه، ومجلس دولة".[٤٠] وبمقتضى هذا الإلغاء، لم يعد لطبقة الساموراي توهجها القديم؛ وأضحى سلك الجندية مفتوحا أمام جميع مفردات المجتمع الياباني، كما أصبح التعليم الوسيلة الوحيدة للارتقاء الاجتماعي.

يعتبر حل وإلغاء طبقة الساموراي حالة متقدمة في التفكير الاستراتيجي الياباني؛ فقد تسبب هذا الإجراء في الحد من الكوابح التي يفترض أن تحول دون إمكانية نجاح مشروع التحديث السريع، الذي بدأت تسلكه الأوليغارشية الحاكمة. وإذا كان اليابانيون قد نجحوا في ترويض المجال العسكري، فإن الدولتين المغربية والعثمانية لم تستطيعا الحد من نفوذ وسطوة المؤسسة العسكرية وتدخلها السافر في الحياة السياسية، وتعطيلها للتنمية المجتمعية داخل البلدين.

من خلال التأمل في الإجراءات التي اتخذها الحكام اليابانيون الجدد، يبدو التأثير الغربي جليا في تفاصيلها العامة. ذلك أن بصمات الثورة الفرنسية واضحة في هذا المجال، فلم تنجح هذه الأخيرة في تثبيت أركانها إلا بعد إلغاء النظام الفيودالي، وتوابعه الطبقية والسياسية والجبائية. فالقرارات الصادرة عن الجمعية الوطنية الفرنسية في ٤ غشت ١٧٨٩م ، نصت على مبادئ متعددة منها ما يلي:

- يُلغى النظام الإقطاعي عن آخره.
- يُلغى من الآن شراء المناصب الإدارية والبلدية ..
- يمكن لجميع المواطنين دون تمييز شغل المناصب المدنية والعسكرية.

كان اليابانيون يبحثون عن سكة جديدة تسير عليها الخطط التنموية الحديثة، وكان إلغاء النظام الفيودالي بداية السبيل للتخلي عن أنماط العلاقات المجتمعية السالفة، والتحلي بمظاهر التحديث الغربي الوافدة. أدركت الأوليغرشيا الحاكمة ضرورة توقف عجلة نظام التوكوجاوا الفيودالي، بعد أن استنفدت أغراضها التاريخية، وقررت الانتقال بالمجتمع نحو عجلة جديدة مختلفة في جوهرها وأشكال دورانها. ولا شك أن سرعة التحولات والتغييرات التي عرفها عهد الميجي تفصح عن حجم الجرأة التي امتلكها القادة اليابانيون الجدد في صياغة المجتمع بمقاسات جديدة وجريئة؛ وفي مقدمتها إلغاء الامتيازات التي كانت تتمتع بها فئات الحظوة الاجتماعية، "فقد زالت التفرقة القانونية التي كانت تميز طبقة الساموراي عن غيرها من الطبقات الأخرى، خلال سنوات قليلة. إلى أن أصبحت..مجرد مجموعة لها دلالاتها التاريخية فقط في السجلات الرسمية".[٤١]

إذا كان عهد التوكوجاوا قد حاول التوفيق بين اعتبارات الوراثة والكفاءة في إسناد المناصب الحكومية، ففي عهد الميجي "تم إلغاء الامتيازات التي كانت تمنح للأفراد على أساس المركز والتوارث، كما

دورية إلكترونية مُحكَمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

تم التخلي تدريجيا عن معايير القرابة والمصاهرة والمحاباة لصالح معايير الإنجاز والكفاءة".[٤٢]

التحدي الغربي وجيوب المقاومة اليابانية

لم تمر هذه المقدمات بدون نقد؛ فقد خرج، من صفوف النخبة اليابانية، من حمل بشدة على التوجهات الجديدة، وفي مقدمتهم صايغوتاكاموري SaigoTakamori ١٨٢٧-١٨٧٧م، الذي اعتبره فوكوزاوايوكيتشي، "البطل الكبير في عهد الميجي، وأنه لا يمثل حالة خاصة بقدر ما يعبر عن صورة المجتمع الياباني برمته".[٤٣]

ينتمي الرجل إلى مقاطعة ساتسوما Satsuma، وأفرد له إفانموريس Ivan Morris في كتابه La noblesse de l'echec، أوصافا رفعته في نظر اليابانيين إلى مقامات القديسين، وتمكن موريس، بدرجة متميزة، من اختراق نفسيته القلقة والشجاعة من خلال ما قيل عنه من قبل مفكرين ومبدعين يابانيين، أو من خلال تأملاته الفلسفية، وأشعاره المعبرة وقراراته الفولاذية، وانحيازه المطلق لآمال وتطلعات الفئات المعوزة داخل مجتمع التحديث الياباني الذي بدأ في إنتاج الفوارق والامتيازات والاحتكارات.

"اكتسب صايغو شعبية واسعة، وتم اعتباره نموذج الساموراي الأصيل من خلال تمتعه بقيم الولاء والشجاعة والصلابة في مواجهة الموت وعدم الارتشاء وبصفات الرحمة والعدل".[٤٤] اختلف صايغو مع رفاق الأمس حول تحديث اليابان، ودرجة الانفتاح على الغرب، وظل يؤكد على مبدأ تخصيص الإمكانات المالية المتوفرة للمسألة العسكرية،[٤٥] عوض الاستغراق في التحديث المدني ومتطلباته المالية المرتفعة. ومن هنا تحمس بشدة لغزو كوريا، مستغلا الغياب الحكومي في بعثة إيواكارا المشهورة سنة ١٨٧١م.

لم يستسغ الساموراي الأخير، إقدام الحكم الجديد على حل طبقة الساموراي وإلغاء امتيازاتها القديمة المتوارثة. ومن ثم اعتبره بعضهم محافظًا، ونموذجًا حقيقيا للساموراي الأصيل، الذي يبحث عن المعنى، ويعيش لقيم الشهامة والبسالة.[٤٦] ولا غرابة أن يتخلف الرجل عن قادة بعثة إيواكارا عام ١٨٧١م إلى مجموعة من دول العالم المسيحي والإسلامي؛ فقد كانت له مواقفه الخاصة والصارمة من موجة التحديث الذي ازدادت وتيرته باليابان بسرعة مفرطة؛ "ومن بين أفراد الأوليغارشية اليابانية الحاكمة، كان تاكاموري أحد اثنين لم يزورا أبدًا إحدى الدول الغربية".[٤٧]

لم يقدر لأفكار تاكاموري أن تجد لها مكانا مناسبا داخل المشهد التنموي السريع داخل يابان الميجي. وتطور الأمر إلى مواجهة عسكرية بين أنصاره والجيش الإمبراطوري. بُذلت محاولات عديدة لإبقائه وعودته إلى الطاقم الحكومي، واستفادته من امتيازات السلطة. لكن الرجل بقي ثابتا في مواقفه وانحاز إلى الفئات التي همشها العهد الجديد. ويبدو أنه كان واعيا باستحالة العودة إلى الوراء، نتيجة حجم التغييرات التي حدثت في مجتمع النيبون، ودور الكارتيلات - الزايباتسو- المتنامية في الدفع بخيار التحديث نحو مزيد من الانفتاح على الغرب وأدواته المادية.

كان تاكاموري، المتشبع بخصال الساموراي، يبحث عن مكان له في ذاكرة المجتمع الياباني، ليكون موضوعا للتأمل والاستلهام؛ فبعد مواجهات عنيفة، وعندما بقي في قلة من أنصاره قرر ممارسة شعيرة السيبوكو، واضعا حدا لمساره الحافل بالأمجاد ومنتصرا لقيم النبل والعيش للمبادئ والتصورات النابعة من خصوصيات ارض الميكادو.

لم يكن تاكاموري حالة فردية منفصلة عن سياقها المجتمعي، بل مثل شريحة واسعة من أبناء الساموراي؛ وقدر لأفكاره الداعية إلى الحفاظ على منظومة القيم الداخلية، أن تعيش بعد زوال الانبهار بالنموذج الغربي. ألم يقل ياسوموزاكورودا إن القيم تعود من جديد "عندما يبلغ المجتمع مرحلة النضج؟".[٤٨] تحول الشخص بعد انتحاره إلى رمز وذاكرة، ومنحه الإمبراطور العفو، ووضعت له النصب التذكارية، اعترافًا له بالجهد المتميز الذي بذله في الإطاحة بنظام التوكوجاوا، وإرجاع السلطة المغتصبة للإمبراطور، والسماح لليابان بدخول نادي القوى الكبرى عند بداية القرن العشرين.

أنتجت الهجمة الغربية اختلافا في سبل مدافعتها والرد على تحدياتها المادية والمعنوية؛ وكان من الطبيعي أن تختلف النخب الفكرية والسياسية في هذا المجال، وأن يتطور الأمر إلى حد المواجهة العسكرية. كان بإمكان صايغو أن يبقى في الحكومة، متلقيا الدعم من رجال الزايباتسو الداعين إلى مزيد من الانفتاح على الغرب؛ وكان يمتلك من الإمكانات البشرية والعسكرية ما يقايض بها لأجل دعم نفوذه الشخصي والحصول –كما حصل زملاؤه، الذين سماهم بالمرتشين، على الثروة والسلطة. لكن شيئا من هذا لم يحدث؛ وكان الثباتُ على الموقف والدفاع عنه حتى الموت، علامةً مضيئة في تاريخ الرجل ورفاقه من الساموراي.

لكن ما هي حدود دائرة الإشعاع التي مارستها شخصية تاكاموري وما هي القيمة المضافة التي حققتها جهوه وإنجازاته على المستويات الحضارية والإنسانية؟ الأكيد أن ذلك لم يتعد حدود الثقافة اليابانية المحلية. وبقي الرجل بقيمه الشهمة والنبيلة حبيس الانتماء القبلي والوطني الضيق. وفقد خاصية القيم ذات البعد الإنساني، خاصة بعد إلحاحه المستمر على غزو كوريا، مع ما تعنيه من مآسي وآلام اكتوت بنارها شعوب لا تنتمي لأرض الميكادو.

اليابان بين مرحلة الدهشة والبناء الاستراتيجي

إذا كان مهندسو عهد الميجي، الشبان، منجذبين – في بداية مرحلة الانتقال- إلى كل ما هو غربي دون تمييز ونقد، فقد ظهرت بعد ذلك "اتجاهات... تدعو إلى ضرورة تمحيص وتمييز الأنماط الحديثة الوافدة، وعدم التلهف والتسرع بشأنها، كما ترسخت أهمية العناصر المحلية وضرورة التمسك بها وإحيائها".[٤٩]

اجتهد اليابانيون في وضع مسافة معينة بين التقاليد المحلية، والأنماط الثقافية الوافدة منذ فترة القرن الثامن عشر، وفي هذا الإطار "حاول موتوري نوريناغا (١٧٣٠- ١٨١٧)MotooriNorinaga بعث ما سماه الثقافة واللغة اليابانيتين الأصيلتين، في مقابل، إزاحة

الكم الهائل من العناصر الثقافية واللغوية التي تم اقتباسها من الصين".[٥٠] وفي فترة القرن التاسع عشر، وخاصة بعد مرحلة الانفتاح المفروض على اليابان، برزت التحديات الغربية، وبدأت في إثارة أسئلتها وتحدياتها على مجتمع النيبون، "وابتداء من ١٨٨٥م، رفع قادة الميجي شعار«عقلية يابانية، تقنية غربية» مع ما يعنيه ذلك من مبدأ استيراد التقنيات الغربية، دون تبني مقدماتها الثقافية".[٥١] صحيح أن عهد الميجي شكل حدًا فاصلاً بين حكومة الإقطاع والحكومة الإمبراطورية إلا أن "الحكومة الجديدة، وعن طريق الاستخدام الذكي للطاقات الثقافية المتجمعة والمعروفة من عناصر الإقطاع، استطاعت أن تحافظ على ارتباطها بالماضي".[٥٢]

يرتبط نجاح المشاريع التنموية بطبيعة وآليات الدمج بين المعطيات الذاتية المكتسبة والعناصر الموضوعية الوافدة. ويتقرر مآل هذا النجاح في التعرف على معالم القوة التي تختزنها الذاكرة الجماعية للمجتمع، ممثلة في القيم الثقافية. وتشكل هذه الأخيرة المادة الخام التي تحتاج إلى قيادة يحصل لها الاستبصار- بالتعبير الخلدوني- فتستثمر زخم اللحظة التاريخية، وتدرك أهميتها في مطلب التغيير. وعندما تتعرض لخطر خارجي، أو تحدي حضاري، فإنها تنفتح عليه من موقع القوة الذاتية المؤسسة سالفًا.

كان فوكوزاوايوكيتشي معجبًا بمظاهر التحديث الغربي، وتحدث – بتجرد- عن ذلك عندما سجل في مذكراته قائلاً: "من خلال ملاحظاتي في كل من الحضارة الغربية والشرقية، فإني أجد كل حضارة لها نقاط قوة ونقاط ضعف، تدرجها معا في تعاليمها الأخلاقية، ونظرياتها العلمية، ولكني عندما أقارن الحضارتين الغربية والشرقية، بطريقة عامة، فيما يتعلق بالثراء والقوة وتوفير أعظم سعادة لأكبر قدر من الناس، فإنني يتعين علي أن أضع الشرق في أدنى مرتبة من الغرب".[٥٣] إن اعتراف يوكيتشي بتفوق الحضارة الغربية نابع أساساً من مشاهداته العيانية لمظاهرها أثناء رحلاته إلى كل من الولايات المتحدة وبعض دول أوربا أثناء عهد إدارة الشوجون.

ولم تبق أفكاره حبيسة التنظير الفلسفي الجامد والقاتل، بل كان الرجل فاعلاً أساسيًا في مسلسل التحديث الياباني بتأسيسه للعديد من المنابر التعليمية، وبتقديم التوجهات لإدارة الميجي الجديدة، والحمل بشدة على بقايا الثقافة الصينية، وعلى بعض آثار النظام السابق. وتبدو نزعته الليبرالية بوضوح عندما قال: "عندما يفتقر شعب إلى روح الاستقلال الفردي، فإن الحصول على الحق المناظر– حق الاستقلال الوطني- يكون مستحيلاً.

إن الأشخاص الذين يفتقرون إلى روح الاستقلال الفردي لن يكون لديهم اهتمام حقيقي ببلدهم. لابد أن تمتلئ اليابان بروح الاستقلال إذا أردنا أن ندافع عنها ضد التهديدات الخارجية".[٥٤] لا يتحدث فوكوزاوا عن النموذج الليبرالي-كما نشأ وتطور في الغرب - لكنه، ينتقد، من خلال ما ذهب إليه، القيود التي بقيت - في رأيه- تقيد مبادرة التغيير الحقيقي. ولذا لا نستغرب معارضته لبعض أطروحات رجال الميجي، في بداية عهد التغيير، وفي هذا الإطار يحدثنا قائلاً: "لقد كرهت السياسة البيروقراطية والباطشة والمحافظة والمناوئة للأجانب التي أنتجتها حكومة الشوجون، ولن أقف إلى جانبها.

ومع ذلك؛ فإن أنصار القضية الإمبراطورية يظلون أشد عداء للأجانب، وأكثر عنفا في تحركهم، ولذا فإني أكن قدرا أقل من التعاطف لهم".[٥٥] لم يكن فوكوزاوا منظِّراً لشرعية الحضور الغربي باليابان، لكنه، وبسبب وعيه التاريخي والتربوي ومعرفته الجيدة بالظاهرة الغربية، أصبح متأكدا من قوتها الذاتية والموضوعية، فدعا إلى الاعتراف بها والتعامل معها، والتأسيس لنموذج يتعامل بمنطق الندية معها. يمكن تصنيف بعض كتابات يوكيتشي ضمن أدب الرحلة، فقد امتلك الرجل قدرة وصفية متميزة، أثناء زيارته لأمريكا وأوربا كما كان له موقف خاص من الحضارة الغربية.

سعى المصلحون اليابانيون إلى تأسيس دولة عصرية في مختلف المجالات، وأصبح واضحا لدى النخبة اليابانية "أن نقل التكنولوجيا والعلوم العصرية المنتشرة لدى الغرب المتطور لا يشكل خطرًا على اليابان، بل يساعد على تقويتها في مواجهة الضغوط الخارجية".[٥٦] وعلى امتداد ثلاثين سنة، واعتمادًا على نخبة منفتحة على الغرب، ومتشبثة بمطلب المصالح الوطنية، تحولت البلاد إلى رقم صعب في المعادلة الاقتصادية والعسكرية العالمية.

لم تكن حملة بيري حركة عسكرية عادية، فقد مثلت على المستوى النفسي صدمة شعورية قوية، لم تحتملها البنية الداخلية لمجتمع التوكوجاوا. ولم تستسغها العقلية اليابانية، التي تؤمن بنرجسيتها وتميزها عن أمم وشعوب الأرض. تطلب الأمر ردًا يناسب حجم التحديات التي تفرضها، وربما تكون سرعة التحولات ترجمة فعلية لذلك. كما يمكن القول إن الحملة اليابانية العنيفة على الأسطول الأمريكي في بيرل هاربور نوع من أشكال التحرير النفسي لطاقة الكبح التي صبر اليابانيون على الاحتفاظ بها، منذ حملة بيري، إلى حين توفر الظروف التي حسبوها مناسبة لرد الدين الأمريكي.

يستدعي نمط التحول الياباني وقفة خاصة، فبالإضافة إلى سرعة التحول والتغيير التي رافقته، فقد ظل مفارقا للنتائج الدموية، التي لازمت العديد من الثورات العالمية، كالثورة الفرنسية أو الأمريكية أو الروسية، وبقي محافظا على عناصر التوليف بين مفردات المجتمع الياباني، والبحث لها عن أدوار مناسبة في عملية البناء الجديد.

تطلبت هذه العملية موارد مالية مهمة لتعويض الفئات المتضررة ولتطوير المقاولات الصناعية التابعة للدولة،[٥٧] وأدت في آخر المطاف إلى تحطيم أسس النظام الاجتماعي للإدارة الإقطاعية السابقة، "مما أفسح المجال أمام الثورة الإدارية والسياسية".[٥٨] ويثار أمامنا في نهاية هذا المبحث، دور الإدارة اليابانية في الانتقال بالمجتمع ونشاطه الاقتصادي من نمط إنتاج فيودالي إلى نمط إنتاج رأسمالي. وإذا كان فرناند بروديل يقول بعدم "قدرة الرأسمالية على الانتصار بدون انتسابها للدولة".[٥٩] فإن ذلك يصدق حقيقة على

النموذج الياباني، حيث كثفت دولة الميجي والأوليغارشيا الحاكمة من تدخلها في رسم عناوين السياسة الاقتصادية وتفاصيلها، "وفرضت، بشكل جذري، النظام الرأسمالي على المجتمع، وقامت بتغذيته وحمايته وتطويره وترسيخ أسسه بهدف اللحاق بالدول المتقدمة".(٦٠)

يشبه النموذج الياباني، مثيله الألماني في عهد بيسمارك، "فخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، شهد البلدان ثورة معكوسة، قضت بهما على الحواجز الفيودالية، ودعم بيسمارك البورجوازية الصناعية، والمالية، والتجارية.. وفي اليابان نجحت القوى المحاربة القديمة، من خلال رمزية الإمبراطور، في الإطاحة بالنظام الفيودالي.. وفي بداية القرن العشرين، أصبحت ألمانيا أقوى دولة صناعية رأسمالية بأوربا، وبالمثل أضحى اليابان القوة الصناعية الرأسمالية الوحيدة بآسيا".(٦١)

خاتمة

يظن أو يانغ لي O-YoungLee"بأن التحولات الكبرى التي شهدها تاريخ اليابان، قادتها مجموعة أفراد معينين، يحملون مشروعا ذهنيا محددا".(٦٢) وهو قول يستقيم أثناء دراسة عقلية الابتكار لدى قادة عهد الميجي، والأسلوب الذي أداروا من خلاله دواليب الدولة الحديثة في اليابان.

تصدق هذه القاعدة على مجموعة من التحولات الكبرى التي عرفتها الإنسانية في تاريخها الطويل والممتد، حيث يبرز دور النخبة المفكرة في التقاط عناصر القوة والدفع بالتغيير إلى مستوياته العليا والمتقدمة، مستفيدة من ملاءمة الظروف المحيطة، ومن المواد الخام المادية والرمزية المتوفرة.

تقوم عملية الإصلاح والتغيير على قواعد منضبطة بآليات التعاقب التاريخي، وتفيدنا تجربة النهوض اليابانية خلال عهد الميجي في إدراك الأبعاد الاستراتيجية لصناعة التنمية وتجاوز العقبات والتحديات.

نجح اليابان بقادته ونخبه وإمبراطوره في تجاوز عقدة التفوق الغربي في لحظة تاريخية حرجة، ووظفوا من أجل تحقيق ذلك كافة عناصر القوة المادية والمعنوية، واستطاعوا في زمن قياسي بناء دولة حديثة تنافس الكبار في مسرح العلاقات الدولية وفي إنتاج التقانة وأسرارها العلمية.

الهوامش

(1) Pierre Renouvin, **La Question de l'extrême orient (1840-1949) Librairie Hachette**, Paris 1946, p : 49.

Adam ErikovichLaxman*، عقيد في البحرية الروسية، ازداد سنة ١٧٦٦م، أرسلته الإمبراطورة كاترين الثانية، سنة ١٧٩٢م، لإقامة علاقات دبلوماسية مع اليابان، إلا أنه فشل في تحقيق مهمته. بتصرف عن:
http://www.webdico.com/dico/histxtg31.html

Nemuro*، مقاطعة يابانية قديمة، توجد اليوم شرق جزيرة هوكايدو. يبلغ عدد سكانها اليوم ٤٠.٠٠٠ نسمة، ومثلت محطة للصيد البحري منذ عهد الميجي، بتصرف عن:
Dictionnaire en ligne de géographie et voyages au Japon: Ville Nemuro, dans:
http://www.docoja.com:8080/jisho/mainword?dbname=geof&mainword=Ville_Nemuro

(2) René Grousset et Emile Leonard, Le Japon, Editions Gallimard 1985, p: 1544.

(3) Pierre Renouvin La Question..., op.cit..., p : 50.

* **الكومودور بيري**:Matthew Calbraith Perry ازداد ١٠أبريل ١٧٩٤، وتوفي ٤ مارس ١٨٥٨، وهو الكومودور البحري الذي ضغط على اليابان من أجل انفتاحها على التجارة الأمريكية، وذلك بتوقيع اتفاقية كاناغاواKanagawa سنة ١٨٥٤م، تم التعريف به بتفصيل في:
http://en.wikipedia.org/wiki/Matthew_C._Perry

* **إييوشي**: (١٧٩٣-١٨٥٣م)، لم يكن ينتظر قدوم الأمريكيين بقوة السلاح ومحاولة فرضهم اتفاقيات على حكومة الباكوفو، وأصابه مرض شديد توفي على إثره في ٢٧ يوليوز ١٨٥٣.بتصرف عن:
http://en.wikipedia.org/wiki/Tokugawa_Ieyoshi

(٤)ويل ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة زكي نجيب محمود، الجزء الخامس من المجلد الأول، المنظمة العربية للتربية والتعليم والثقافة والعلوم، تونس، دار الجيل للطبع والنشر، بيروت، ١٩٨٨.ص ١٦٦.

(٥) ويل ديورانت، المرجع نفسه، ص: ١٦٦-١٦٧.

(٦)إسماعيل أحمد ياغي، **تاريخ شرق آسيا الحديث**، مكتبة العكيبان، الطبعة الأولى، الرياض ١٩٩٤م.ص: ١٣٤-١٣٥.

(٧) علي المحجوبي، **النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر، لماذا فشلت بمصر وتونس ونجحت باليابان**، سراس للنشر، تونس ١٩٩٩، ص: ٢٠١.

* **يدو**: المدينة التي تحول إسمها إلى طوكيو بعد ١٨٦٨.وتعني أيضا فترة حكم التوكوجاواÉpoque d'Edo (1600 -1868)

(٨) ويل ديورانت، مرجع سابق، ص: ١٦٧.

(٩) مسعود ضاهر، **النهضة اليابانية المعاصرة**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.ص: ٢٣٩.

(١٠) أكيرا تانكا، "**عهد الميجي واليابانيون**"، ضمن **خفايا المعجزة اليابانية**، ترجمة عبد الله مكي، الدار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩، من ص: ٢١ إلى ص: ٢٦، ص: ٢٢.

(١١) فايز صالح أبو جابر، **التاريخ السياسي الحديث والعلاقات الدولية المعاصرة**، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى ١٩٨٩، ص: ١٥.

(12) Pierre Renouvin. La Question..., op.cit, p : 51.

(١٣)أدوين رايشاور، **اليابانيون**، ترجمة ليلى الجبالي، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٣٦، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص: ١١١.

(١٤) فوكوزاوايوكيتشي، **سيرة فوكوزاوايوكيتشي الذاتية ومقدمة أعماله الكاملة**، ترجمة كامل يوسف حسين، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية،٢٠٠١، ص: ٢٦٦.

* **صايغوتاكاموري**: (١٨٢٧-١٨٧٧ م.) قائد عسكري وسياسي ياباني، أحد الثلاثة الكبار مع "أوكوبوتوشيميتشي" (و"كيدوتاكايوشي الذين قادوا الحركة، التي أسفرت على إعادة الحكم للإمبراطور والقضاء على النظام الإقطاعي القديم.

كان في بداية أمره من المعارضين لمظاهر سلطة نظام الـ"شوجون"، فقاد عدة حركات لإعادة السلطة الإمبراطورية، ثم انقلب في آخر حياته ضد حلفائه، فقاد حركة المعارضين وانتهى أمره بأن اختار الانتحار طواعية ("سوبوكو") بعد هزيمته أتباعه. [ترجمة خاصة]

(١٥) فوكوزاوايوكيتشي، مصدر سابق، ص: ٢٦٦.

(١٦) المرجعنفسه، ص: ٥٣.

* **أبي ماساهيرو**:Abe Masahiro ، ازداد ٠٣ دجنبر سنة١٨١٩، وتوفي ٠٦ غشت ١٨٥٧. ينتمي على عائلة نبيلة، تكلف بمهمة التفاوض حول انفتاح اليابان أمام التجارة الأمريكية بعد حملة بيري سنة ١٩٥٣.بترجمة وتصرف عن:
http://en.wikipedia.org/wiki/Abe_Masahiro

(17) Pierre Renouvin, La Question..., op.cit, p : 51.

(١٨) محمد عبد القادر حاتم، **أسرار تقدم اليابان**، مطابع الأهرام التجارية، مصر، ١٩٩٠، ص: ٤٦.

* **الرونين**Ronin: وتعني الكلمة –الرجل التائه، وهو الساموراي، الذي تخلى عن سيده. وقد تطورت أعدادهم خلال فترة الإيدو ١٦٠٠-١٦٨٦م، بسبب الإجراءات الصارمة التي اتخذها الشوجون، ومنها عدم السماح لهم بتغيير السيد، ومنع زواجهم من غير المقاطعات التي ينتمون إليها. تعريف خاص

(١٩) مسعود ضاهر، **النهضة العربية والنهضة اليابانية**، عالم المعرفة، عدد ٢٥٢، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٩مص: ١٦١.

(٢٠) أدوين رايشاور، مرجع سابق، ص: ١١١.

(21) René Grousset et Emile Léonard, **Le Japon**, Histoire universelle 3, Edition Gallimard 1958, p : 1543.

(22) Pierre Renouvin La Question..., op.cit., p : 51.

* **حرب الأفيون**: حرب اندلعت بين الصين و إنجلترا (١٨٣٩ - ١٨٤٢م) انتهت بهزيمة الصين وتوقيع معاهدة نانكين عام ١٨٤٣ التي استولت فيها بريطانيا على هونغ كونغ، وفتحت الموانئ الصينية أمام البضائع الغربية بضرائب بلغ حدها الأقصى ٥%.واستطاعت الولايات المتحدة الأمريكية الدخول إلى الأسواق الصينية ومنافسة شركة الهند الشرقية في تلك الحرب، فوقعت اتفاقية مماثلة عام ١٨٤٤، وكان من نتائج تلك المعاهدات الانتشار الواسع للأفيون في الصين، فوصل عدد المدمنين بها عام ١٩٠٦ على سبيل المثال خمسة عشر مليوناً، وفي عام ١٩٢٠ قدر عدد المدمنين بـ ٢٥% من مجموع الذكور في المدن الصينية.واستمرت معاناة الصين من ذلك النبات المخدر حتى عام ١٩٥٠م عندما أعلنت حكومة ماوتسيتونغ بدء برنامج فعال للقضاء على تعاطيه وتنظيم تداوله.

(٢٣) علي المحجوبي، مرجع سابق، ص: ٢٠٢.

(24) Pierre Renouvin La Question..., op.cit., p : 56.

(٢٥) ويل ديورانت، مرجع سابق...، ص: ١٦٧.

(26) Jean Claude Gaudry, **Les Japonais**, Edition Balafaund, 1979, p : 107.

* **معركة فوشيمي**: وتسمى أيضا بمعركة البوشين La guerre de Boshin، وقد ابتدأت في يناير ١٨٦٨م في عهد الإمبراطور الميجي، واستمرت إلى حدود ماي ١٨٦٩م، وقد جمعت من جهة التحالف الإمبراطوري المكون من قبائل ساتسوماوهيزن وتوزا وشوتشو ومسانديهم، مع الجهة المقابلة التي تشكلت من الجيش الشوجونيومناصريه.الذين انهزموا أمام تحالف البلاط الإمبراطوري.بترجمة وتصرف عن:
http://quelqueshistoires.centerblog.net/1959424-Japon-

(٢٧) فوكوزاوايوكيتشي، مصدر سابق، ص: ٢١٧.

* **كيكي**: يقصد به آخر الحكام الشوجون، وأسرة التوكوجاوا.

(٢٨) ويل ديورانت، قصة الحضارة، مرجع سابق...، ص: ١٦٨.

(٢٩) أكيرا تانكا، مرجع سابق، من ص: ٢١ إلى ص: ٢٦، ص: ٢١.

(30) Pierre Renouvin La Question..., op.cit., p : 17.

(٣١) باتريك سميث، **اليابان، رؤية جديدة**، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٦٨، ٢٠٠١، الكويت، ص: ٦٠.

(32)KohachiroTakahash, « **La place de la révolution Meiji dans l'histoire agraire du Japon** », Du féodalisme au capitalisme, problèmes de transition, Tome II, collection Maspero 1977, p : 24.

(٣٣) مسعود ضاهر، مرجع سابق، ص: ٥٩.

(٣٤) أدوين رايشاور،مرجع سابق، ص: ١١١.

(٣٥) المرجعنفسه، ص:٣٣٧

(٣٦) مسعود ضاهر، مرجع سابق، ص: ٢٤٠.

(37) Jaques Mutel, **La fin du shogunat et la Japon du Meiji (1853-1912)**, Hatier université, Paris 1970, p : 51.

(٣٨) مسعود ضاهر، مرجع سابق، ص: ٢٤٣.

(39) René Grousset et Emile Léonard, Op. cit. p : 1551.

(٤٠) إسماعيل أحمد ياغي، مرجع سابق، ص: ١٣٩.

(٤١) أدوين رايشاور، مرجع سابق، ص: ٢٢٥.

(٤٢) أحمد بهي الدين قنديل، **الثقافة السياسية اليابانية**، مجلة أوراق آسيوية، العدد ٣٠، فبراير ٢٠٠٠، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، مصر ص: ٢٣.

(43) Ivan Morris, **La noblesse de l'echec**.traduit de l'anglais par Suzanne Nitillard.Gallimard, Paris, 1980 page : 269.

(44)Mark Ravina, **The last samurai : the life and battles of SaigoTakamori**, Hoboken, N.J. Wiley 2004, page: 6

(45)En.wikipedia.org/wiki/Takamori_Saigowww.jref.com/glossaire/saigo_takamori.shtml

(47) Ivan Morris, La noblesse de l'echec. op.cit. Page :302

(٤٨)ياسومازاكورودا، **التحديث والاغتراب في اليابان**، مجلة المستقل العربي، عدد ٦٩، سنة ١٩٨٤ من ص: ١٢٢ إلى ص: ١٣٧ ص: ١٣٧.

(٤٩)عبد الغفار رشاد، **التقليدية والحداثة في التجربة اليابانية**، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤، ص: ٩٧.

(50) BernardBernier,**LeJapon,lamodernitéetl'anthropologie**, http://www.ant.ulaval.ca/anthropologieetsocietes/1998-3-presentation.html.page:1

(51) BernardBernier,LeJapon,lamodernitéetl'anthropologie. Op. cit ; Page : 1

(٥٢) أكيرا تاناكا، مرجع سابق، ص: ٢٤.

(٥٣) فوكوزاوايوكيتشي، مصدر سابق، ص: ٢٥٤.

(٥٤) باتريك سميث، ص: ٨٥.

(٥٥) فوكوزاوايوكيتشي، مصدر سابق، ص: ٢٢٦.

(٥٦) باتريك سميث،مرجع سابق، ص: ٨٥.

(57) KohachiroTakahashi, op.cit., p : 50.

(58) Pierre Renouvin, La Question..., op.cit., p : 82.

(59) Fernande Braudel. **La dynamique du capitalisme**, Flammarion. Paris.1985.page :68

(60) Eric Boulanger. **Le nationalisme économique dans la pensée et les politiques publiques du Japon**. Université du Québec à Montréal 2002économie politique intrnationale.cahier de recherche. Site : http://www.unites.uqam.ca/gric/pdf/LE_20NATIONALISME.pdf

(61) **Origines du communisme japonais, débat sur la « révolution par étapes » et l'occupation américaine**.La restauration Meiji : une révolution pro-bourgeoise non démocratique.Spartacist, édition française, numéro 36.site : n° 34, automne 2001 http://www.spartacist.org/print/francais/spf/36/meiji.html

(62)O-Young lee,**Smallerisbetter**, traduit de l'anglais par Jean Martel. Masson. Paris, 1988.page :118.





الدولة العثمانية ونقد نظرية الاستعمار عند جمال حمدان



أحمد سالم سالم علي

مفتش آثار إسلامية

المجلس الأعلى للآثار

الإسكندرية – جمهورية مصر العربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أحمد سالم سالم علي، الدولة العثمانية ونقد نظرية الاستعمار عند جمال حمدان.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ٤٩ - ٥٦ .

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخَص

تناقش صفحات المقال الحكم العثماني للعالم العربي، في ضوء نظرية "الاستعمار والتحرير" للعلامة الجغرافي جمال حمدان (١٩٢٨-١٩٩٣)، وذلك في نقاط محددة هي: السيطرة العثمانية بين الفتح والاستعمار، أثر السيطرة العثمانية في الاقتصاد والتجارة، الحكم العثماني بين العنصرية والتسامح، الأقليات في ظل الحكم العثماني، الحكم العثماني بين الإنصاف والجحود.

مُقدِمة

لم يكن العالم في العصر الوسيط يعرف القوميات والأعراق والتحيز للإثنيات كما هو الحال عليه اليوم، وعلى العكس من ذلك كان الصراع الأيدلوجي على أشده، لم يستثن من ذلك حتى الصراع المذهبي داخل الدين الواحد، وقد أدى هذا إلي انقسام العالم حينذاك إلي تكتلات لا تؤمن إلا بالصراع من أجل العقيدة، حتى ولو لم يكن هذا الصراع حقيقيًا أو متخفيًا وراء ستار الدين كما حدث في زمن الحروب الصليبية على المشرق، لكن ما لبث هذا الوضع أن تغير في العصر الحديث بعد أن دخل الغرب عصر النهضة وبدأت سلطة الكنيسة في التقلص وازداد تبعًا لذلك الشعور بالقوميات والأعراق المختلفة ووضع الصراع الديني والمذهبي جانبًا، وكانت فرنسا هي الدولة الرائدة في ذلك عندما صارعت من أجل تفوق القومية الفرنسية منذ مطلع العصر الحديث، لكن لم تظهر القومية بمفهومها الحالي إلا في أعقاب الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر، ومنذ ذلك الحين بدأت أوروبا كلها تحتذي حزو فرنسا في العمل والصراع من أجل القوميات.

في هذا الوقت بالذات كانت الدولة العثمانية في الناحية الشرقية من أوروبا تتمسك بالتقليد القديم، فهي دولة الإسلام العظمى وسلطانها بمثابة خليفة المسلمين، ومن هنا فهي لا تتحيز لأعراق أو قوميات، لقد ضمت أراضيها الشاسعة العديد من الأعراق بل العديد من الديانات والمذاهب المختلفة التي استظلت بظل الإسلام لعدة قرون، ولو أرادت أن تفرق بين تلك الأعراق والقوميات والشعوب لما انتظرت كل هذا الوقت بل كانت ستبدأ هذا على الأقل منذ زمن قوة الإمبراطورية وتوسعها في القارة الأوروبية، إلا أن الإسلام الذي تدين به تلك الدولة قد أثر في إستراتيجيتها العامة التي تقتضي حرية العبادة والمساواة بين الطوائف والشعوب بعكس ما كان يحدث في الغرب منذ العصر الوسيط، مما أهلها لتكون دولة من أعظم دول الإسلام العامة وأكثرها عمرًا وتأثيرًا في التاريخ الإسلامي خاصة وتاريخ العالم بصفة عامة.

وقد تركزت مصالح الدول الأوروبية بعد أن قويت شوكتها في إضعاف الدولة العثمانية التي ظلت موحدة تصارع للحد من الأطماع الغربية التي أخذت تتطلع من جديد للهجوم على الشرق والتهام خيراته، ولم تجد سبيلاً إلي ذلك إلا بث روح النزاع والفرقة بين مختلف أعراق وطوائف الإمبراطورية التي عاشت بانسجام دون أية مشاكل ومنازعات لعدة قرون من الزمان، واستطاعت الدول

الأوروبية بناءًا على ذلك التدخل بحجة حماية مصالح رعاياها من كافة الطوائف والقوميات الأوروبية، فتدخلت روسيا لصالح البلقانيين السلاف ودعمت القلاقل في الصرب والجبل الأسود وألبانيا، وتدخلت فرنسا وانجلترا لصالح الأرمن وبعض الرعايا الأوروبيين في الولايات العثمانية الأخرى.

وبدأت من هنا تتشكل أولى سلبيات الحكم العثماني في نظر الكثير من المهاجمين والمتبنين للفكر الغربي، حيث بدا لهم أن الدولة العثمانية هي الأخرى آخذة في الاتجاه إلي الفكر القومي والتفرقة بين القوميات داخل الإمبراطورية، بل وقمع بعض هذه القوميات مثل الأرمن، ولم يكتف المهاجمون بهذا بل ادعوا أن الدولة العثمانية هي سبب نكسة المشرق العربي وسبب تخلفه، وأن الأقطار العربية أصبحت منغلقة على نفسها لا تدري شيئا عن العالم الخارجي وما يسير فيه من نمو وتقدم، أي أنه ببساطة لو لم تكن الدولة العثمانية لكان المشرق العربي الآن من الدول المتقدمة، ولما استطاعت القوى الاستعمارية الكبرى السيطرة على معظم أراضيه، لهذا لابد لنا أن نمعن النظر في هذه الادعاءات التي أيدها العديد من الكتاب والباحثين الغربيين فضلاً عن كثير من الباحثين العرب والمسلمين.

ومن أهم وأشهر الشخصيات التي تبنت هذا الاتجاه وبنيت على أساسه النظريات في أنواع الاستعمار ومكوناته، هو الجغرافي الشهير الدكتور جمال حمدان[1]، ففي كتابه "إستراتيجية الاستعمار والتحرير" ناقش أنواع الاستعمار وطرقه المختلفة وصولاً إلي الاستعمار الحديث، حيث تطرق خلال ذلك إلي الحكم العثماني للعالم العربي، وهكذا نستطيع أن نتبين عن طريق نظرية الاستعمار والتحرير لدى د. حمدان، معظم السلبيات التي وجهها الباحثون والمؤرخون للدولة العثمانية ونتائج السيطرة العثمانية على العالم العربي، ثم لنا أن نتساءل بعد ذلك هل كانت هذه الادعاءات صحيحة أم هي محض افتراءات؟

السيطرة العثمانية بين الفتح والاستعمار

ساد منذ فترة لدى بعض الأوساط الثقافية الحديث عن شرعية الحكم العثماني للعالم العربي، وأراد البعض تصنيفه على أنه غزو أدى إلي استعمار وليس فتحًا أدى إلي إعمار، بغض النظر عن دين هؤلاء الغزاة المزعومين، وأراد البعض تعديل عبارة (الفتح العثماني) في مناهج التعليم لتصير (الغزو العثماني)، إلا أن هذه الإدعاءات لم تكن جديدة على الأسماع إذ بدأ طرحها منذ سقوط الدولة العثمانية سنة ١٩٢٤م، وجاء د. حمدان في ستينيات القرن العشرين ليصنف الحكم العثماني على أنه احتلالاً صرفًا لا يفترق عن غيره إلا في الاستتار بشعار الدين، يقول د. جمال حمدان: "**على أن الاستعمار الديني المسيحي لم يكد ينحصر عن الساحل الجنوبي حتى ورثه استعمار ديني آخر وإن اختلف الدين. فمن الساحل الشمالي مرة أخرى من الأناضول جاءت موجة الاستعمار التركي، وهو نوع محير من الاستعمار لأنه كاستعمار ديني اتخذ من وحدة الدين كغطاء يخفي به حقيقته كاستعمار سياسي لاشك فيه**".[2]

كتب د. حمدان هذا الكلام في ظل سيل جارف من النعرات القومية التي تأججت في ستينيات القرن العشرين، وكان من بينها القومية العربية التي كادت أن تبتلع أي هوية أخرى لدى شعوب هذه المنطقة حتى هويتها الإسلامية، لذلك لم يكن الفتح الإسلامي الأول في ظل هذه النظرية إلا فتحًا عربيًا ليس له علاقة بالدين، وإنما كان له علاقة أكبر بالجنس العربي الذي طغى مفهومه حينئذ، فقد أغفل د. حمدان العامل الأيدلوجي الذي سيطر على الصراعات الدولية في القرون الوسطى ومستهل العصور الحديثة، حيث لم يكن للقومية مكانًا واضحًا على الخريطة السياسية، هكذا لم يكن دخول العثمانيين للعالم العربي احتلالاً تركيًا لبلدان عربية بقدر ما هو تجاذب وانصهار بين عالمين اعتنق كل منهما الدين الإسلامي واتخذه منهجًا على مدى قرون، وبالمقارنة لم يكن الفتح الإسلامي للأندلس احتلالاً عربياً لبلاد ذات عرق لاتيني، وإن أطلقنا عليه احتلالاً فهل كان خروج العرب من الأندلس بمثابة الجلاء؟ وهل التطهير الذي مارسته محاكم التفتيش الأوروبية في الأندلس كان ضد العرب وحدهم، أم كان ضد كل من يخالف عقيدتهم سواءً كان عربيًا أو غير عربي؟ وإذا كان هذا هو مفهوم الاحتلال فإن خروج العرب من الجزيرة العربية أصلاً لا يصح لأنه يعتبر احتلالاً وليس فتحًا ونشرًا للدين وضمان حرية العبادة والاعتقاد.

على هذا الأساس لماذا إذن فرق د. حمدان بين الفتح العربي لبلاد ذات خلفيات عرقية وحضارية متعددة في صدر الإسلام وبين الفتح التركي الذي ضم بين جنباته نفس تلك البقاع وزاد عليها بقاعًا أخرى في شرق أوروبا؟ فبالفتح العثماني دخلت شعوب أوروبية في الإسلام لم تعرفه من قبل قط، من أمثال البوسنة والهرسك وألبانيا، فهؤلاء اعتنقوا الإسلام بسبب العثمانيين، وصارعوا بعد انتهاء الحكم العثماني من أجل الحفاظ على هويتهم الإسلامية مثلهم مثل كثير من الشعوب الأخرى - في آسيا وإفريقيا - التي دخلت الإسلام في ظل الفتوحات الإسلامية الأولى وظلت على ولائها للإسلام ومن ثَم مدافعة عنه. وإذا اعتبرنا العثمانيين مستعمرين فلماذا لم يكونوا كالأسبان والبرتغاليين الذين أقاموا حكمهم في الثغور الإفريقية قبل دخول العثمانيين إليها حيث قاموا بالسلب والنهب والتقتيل والتخريب، فضلاً عن الاضطهاد الديني وإهانة المقدسات، كما ذكر صاحب كتاب الإستقصا عن أساليبهم الوحشية في السيطرة على المدن، حتى أنهم اتخذوا من بعض المساجد محلاً للقاذورات[3]، فلماذا نساوي بعد كل هذا الغزو مع الفتح، لقد قام العثمانيون بالدفاع عن هذه الأرض ضد المستعمر المغتصب الذي أراد تطهير هذه البلاد من المسلمين وتنصيرهم كما فعل بالأندلس من قبل، فإذا تصورنا مجرد تصور عدم ظهور العثمانيين على مسرح التاريخ في ذلك الوقت بالذات، أكانت البلدان

العربية ستظل على حالها من الإسلام أم أن مصيرها سيكون كمصير الأندلس التي تنصرت عن كاملها في أقل من قرن من الزمان؟

يستطرد د. حمدان في شرح نظريته فيقول: "**أما من الناحية الحضارية فإن الاستعمار التركي نوع شاذ من الاستعمار. فإذا كان الاستعمار السياسي بالمفهوم الحديث هو سيطرة حضارة راقية على حضارة متخلفة، فقد كان العكس هو الأساس في الاستعمار التركي فقد بدأ كقوة استبسية محاربة بحتة، قوة فرسان هدامة من الرعاة بلا حضارة ولا جذور تاريخية بل وبلا وطن أم محدد. هذا بينما كانت الإمبراطورية تتألف من شعوب عريقة مستقرة وحضارات زراعية راقية**".(٤)

وهنا يرسي د.حمدان قاعدة لا أساس لها من الصحة ألا وهي أن الاستعمار لابد وأن يكون لدولة متقدمة أو حضارة راقية على حضارة أخرى متخلفة، ولكن إذا نظرنا في التاريخ نجد الكثير والكثير من الحضارات الراقية قد استعمرت بل وانتهت على يد حضارة أخرى ناشئة ليس لها أية أصول تاريخية، وأفضل مثال على ذلك العرب الذين لم يكونوا قبل الإسلام سوى مجموعات متنقلة من الرعاة داخل الجزيرة العربية وعلى أطرافها، ولما أعزهم الله بالإسلام خرجوا فاتحين للدنيا، فلم يمض القرن الأول من الإسلام إلا و قد دخلت في ظلهم حضارات عريقة وموغلة في القدم من أمثال الفرس والرومان.

وأما عن وصفه للأتراك بأنهم قوة هدامة من الفرسان الرعاة بلا حضارة ولا جذور تاريخية، فهو بالطبع ينافي التاريخ المثبت الذي يشهد للأتراك بإسهامهم الكبير في الحضارة الإسلامية، فلم يكن العثمانيون إلا فرعًا منبثقًا عن الأتراك السلاجقة الذين سيطروا على مشرق العالم الإسلامي لعدة قرون قاموا خلالها بالذود عن الإسلام ونشره حتى قوضوا سلطان الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى، وكانوا سببًا رئيسيًا في وصول العثمانيين للحكم في الأناضول، هكذا أنتجت هذه القوة الإسلامية – التي وصفها د. حمدان بالهدامة – ازدهارًا كبيرًا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية وأوجدوا استقرارًا سياسيًا وتطورًا في العمران وغيره.

أثر السيطرة العثمانية في الاقتصاد والتجارة

ويذكر د. حمدان في أثناء استعراضه للحياة الاقتصادية للدولة العثمانية وما أنتجته على الصعيد الدولي خطأً تاريخيًا بقوله: "**وقد فرض الأتراك وقد أصبحوا سادة جميع الطرق البرية بين الشرق والغرب سياسة جمركية غبية ولا أخلاقية على أحسن تقدير، ومن الثابت تاريخيًا أن ابتزاز الأتراك لتجارة الأجانب والتجارة العابرة كان أكبر الأسباب التي دفعت الغرب وأوروبا المسيحية دفعًا إلي البحث المستميت عن طريق بديل إلي الشرق حتى جاءت بالفعل الضربة القاصمة وهى طريق رأس الرجاء الصالح وكان طبيعيًا أن يعنى هذا لا الجمود والتوقف فحسب وإنما التدهور الحضاري كذلك**".(٥)

أولاً: هذا الكلام بالطبع يتنافى مع الحقائق التاريخية الثابتة، لأن طريق رأس الرجاء الصالح لم يكتشف في وقت سيطرة الأتراك على مصر والشام، وإنما اكتشفه البرتغاليون في أواخر القرن الخامس عشر أي في وقت سيطرة المماليك، ثانيًا: لم يفرض الأتراك سياسة جمركية غير أخلاقية بعد سيطرتهم على مصر والشام لأنه ببساطة قد تم تفعيل جميع الاتفاقيات التجارية الموقعة بين مصر وبعض الدول الأوروبية مثل جمهورية البندقية في عهد سلطنة المماليك، وقد تم إبرام الكثير من المعاهدات والاتفاقيات الجديدة بين السلطان العثماني وفرنسا مثلاً لتسهيل حركة التبادل التجاري، وحرية التجارة بل وتخفيض رسومها، وقد أدت تلك السياسة إلي تحقيق الكثير من النفع والانتعاش الاقتصادي الذي كان ركوده سببًا في تدهور الحالة الاقتصادية لسلطنة المماليك.

إن السياسة الاحتكارية التي لجأ إليها سلاطين المماليك منذ عهد السلطان برسباي (٨٢٥ – ٨٤١هـ / ١٤٢٢ – ١٤٣٧م) وبالتحديد عندما أصدر مرسومًا يحرم به شراء التوابل من غير مخازن السلطان،(٦) قد أدت بالفعل إلي غلاء السلع غلاءً فاحشًا، والتي كانت تصل إلي أوروبا بأضعاف ثمنها، وهذا ما أدى في الحقيقة إلي بحث الأوروبيين بحثًا مستميتًا عن طريق آخر يصلوا به إلي تجارة المشرق بدون وساطة المماليك، وقد تفاقم الأمر في أخريات أيام السلطنة المملوكية في عهد السلطان الغوري (٩٠٦ – ٩٢٢هـ / ١٥٠٠ – ١٥١٦م) الذي يذكر عنه ابن إياس في حوادث سنة ٩١٨هـ – ١٥١٣م أنه كان يشترى القمح من مصر ويرسله إلي الشام التي كان بها غلاء عظيم،(٧) وهذا بالطبع ليحصل على فرق الثمن حتى وصل الأمر لانعدام الدقيق والخبز من القاهرة والسلطان غير مبال بما يحدث.

ولم يكتف السلطان بذلك، بل فرض الكثير من الضرائب والجمارك على التجارة المارة بالأراضي المصرية، حتى يقول ابن إياس في حوادث سنة ٩٢٢هـ – ١٥١٦م أن نائب جدة كان يأخذ من تجار الهند بالمثل عشرة أمثال، فامتنع التجار من دخول بندر جدة وآل أمره إلي الخراب، وكذلك الإسكندرية ودمياط فامتنع تجار الفرنج من الدخول إلي تلك البنادر من كثرة المظالم، وعز وجود الأصناف التي كانت تجلب من بلاد الإفرنج.(٨)

أما بعد السيطرة العثمانية على مصر سنة ٩٢٣هـ /١٥١٧م، ثم بعد ذلك على الحجاز وموانئ البحر الأحمر، حاول العثمانيون بشتى الطرق إحياء الطريق التجاري القديم، وإحياء دور مصر والشام وموانئهما فضلاً عن موانئ البحر الأحمر التي خلت على عروشها بسبب السياسة الاحتكارية للمماليك. وفي عهد السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ – ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ – ١٥٦٧م) خطت الدولة العثمانية خطوات هامة في سياسة الانفتاح تجاريًا مع عدد من الدول الأوروبية لتنشيط الحركة التجارية التي أصابها الضعف، إذ عقد السلطان سليمان مع فرنسوا الأول ملك فرنسا معاهدة سنة ١٥٢٨م جددت فيها الدولة العثمانية الامتيازات التي سبق أن منحها

سلاطين المماليك الجراكسة للفرنسيين، بل إنها تنظم إقامتهم في أحياء وخانات خاصة مع عدم المساس بكنائسهم وعدم فرض ضرائب عقارية عليها، ولا شك أن إبرام هذه المعاهدة كان مشجعًا لملك فرنسا فرنسوا الأول والسلطان سليمان على عقد معاهدة هامة أكثر شمولاً عرفت باسم (معاهدة صداقة وتجارة بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا)، ولقد عقدت سنة ١٥٣٥م وتقرر فيها منح تجار فرنسا وسائر رعاياها الذين يذهبون إلي أقاليم الدولة العثمانية بعض (الامتيازات) مقابل منح الرعايا العثمانيين امتيازات مماثلة لها، وكانت هذه المعاهدة في سياسة التنشيط التجاري التي تبنتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية وخاصةً المطلة منها على البحر المتوسط لتعويض ما فقدته من نشاط تجاري.[٩]

ولنا أن نلقى بعض الضوء هنا على كلمة (امتيازات) والتي كونت فيما بعد مادة خصبة للهجوم على الدولة العثمانية، حيث بدأت الامتيازات الأجنبية مع المعاهدات - سابقة الذكر- منذ عهد السلطان سليمان القانوني، عندما منح الفرنسيين امتيازات تجارية وسهل لهم الإقامة والدخول والخروج في أقاليم الدولة العثمانية، وهذا بالطبع - كما ذكرنا- لتسهيل وتنشيط الحركة التجارية في أقاليم الدولة، ورجوع التجارة إلي سابق عهدها في تلك المناطق، ولم يتوقف الأمر إلي هذا الحد بل ازدادت تلك الامتيازات مع عظم التواجد العسكري للعثمانيين في مياه البحر المتوسط، حتى أصبح البحر المتوسط مع بدايات القرن السابع عشر شبه بحيرة عثمانية إلي جانب السيطرة الكبيرة على معظم جزر هذا البحر.

ولكن علينا أن نذكر أيضًا أن هذه الامتيازات كانت مماثلة للتجار العثمانيين المتواجدين في البلدان الأوروبية والذين استفادوا بها تمامًا كما استفادت الدول الأوروبية ورعاياها، ولكن ذلك بالطبع كان في زمن قوة الإمبراطورية، فقد أصبحت تلك الامتيازات عبئًا على كاهل الدولة وأقاليمها المختلفة منذ بداية ضعف الدولة العثمانية وعدم إمكانيتها تطبيق تلك المعاهدات كما ينبغي، حيث استفاد بها الغرب بالكامل على عكس الدولة العثمانية، بل لقد استغلت الدول الأوروبية هذه الامتيازات وتدخلت في شئون الدولة العثمانية الداخلية بحجة حماية رعاياها ومصالحهم، وحماية تجارتها وشئونها داخل الدولة. وكما هو واقع اليوم عندما توقع اتفاقية بين دولة قوية وأخرى ضعيفة، تكون الدولة الكبيرة حتمًا هي المستفيد الأكبر وتعجز الدولة الضعيفة عن تفعيل بنود الاتفاقية الخاصة بها، هكذا أصبحت الاتفاقيات والامتيازات التي استفادت بها الدولة في بداية أمرها هي نفسها التي أدت في القرن التاسع عشر إلي تفكك الدولة وانهيارها الإداري والاقتصادي.

وتدل جميع الإحصائيات بالفعل على أن السياسية التي اتبعتها الدولة العثمانية سواءً من ناحية الامتيازات أو المعاهدات قد أتت ثمارها، فقد تحدث "أندريه ريمون" عن المراكز التجارية الهامة في العصر العثماني وقارن حال هذه المراكز وحجم أنشطتها التجارية قبل وبعد السيطرة العثمانية، فعلى سبيل المثال قد توسعت القطاعات المركزية في المدن العثمانية بشكل كبير، ففي تونس مثلاً ازدادت مساحة المنطقة الواقعة حول جامع الزيتونة بزيادة تقدر بحوالي ٦٠٪ ، واتسعت مدينة حلب منذ القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر بنسبة تزيد عن ١٠٠٪، أما بالنسبة للقاهرة، فقد ذكر المقريزي أنه كان يوجد بالقاهرة في النصف الأول من القرن الخامس عشر (٨٧) سوقًا و (٥٧) قسيارة (خان وفندق ووكالة)، وقد أمكن الاستدلال على (١٤٥) سوقًا و(٣٦٠) قيسارية في العصر العثماني، ويتضح من المقارنة أن التقدم كان باهرًا خاصةً بالنسبة للقيساريات التي هي أساس التجارة الضخمة، وتعتبر مؤشرًا هاما للنشاط الاقتصادي في المدينة.[١٠]

هكذا كان حال التجارة والاقتصاد بعد السيطرة العثمانية على العالم العربي، فهل حدث من قبل أن يرتقي الاحتلال باقتصاديات المحتل على هذا النحو؟

الحكم العثماني بين العنصرية والتسامح

يقول د.حمدان: **"لكن القناع الديني الوهمي الذي خدع العالم العربي في البداية لم يلبث بعد قليل أن تمزق فكان رد الفعل القومي عنيفًا في النهاية"**،[١١] ثم يستدرك: **"لقد كان الاستعمار التركي يقوم على نوع من التفرقة العنصرية بين التركية أو الطورانية (الجنس السيد) من ناحية والعرب أو الفلاحين كجنس محكوم- ولا نقول حتى كمواطن من الدرجة الثانية - في الناحية الأخرى"**،[١٢] ويقول: **"أما دينيًا فقد قامت الإمبراطورية الدينية التركية على سياسة طائفية عاجزة ضيقة الأفق هي سياسة الملة التي تفاقمت خاصة في أخريات الإمبراطورية، وقد نشأت سياسة الملة نتيجة لقصر نظر الاستعمار التركي من ناحية، وضعفه وعجزه أمام ضغط القوى الأوروبية من ناحية أخرى، فرغبة في سياسة فرق تسد حدد الأتراك مسئولية الأقليات الدينية في زعاماتها وقياداتها الطائفية، فبدأت من هنا تتبلور شخصياتها داخل جسم الدولة"**.[١٣]

وهكذا؛ نرى ذلك التحامل الشديد القائم على غير أسس وأدلة تاريخية، وهي أقاويل مفتراه على الدولة العثمانية بشهادة المؤرخين الغربيين ولا نقول المؤرخين المسلمين. أولاً: كما ذكرنا آنفا لم تقم الدولة العثمانية أبدًا بالتفرقة العنصرية بين أية أجناس داخل الإمبراطورية خاصةً الجنس العربي، وخير دليل على ذلك ما هم به السلطان سليم الأول (٩١٨ – ٩٢٦هـ / ١٥١٢ – ١٥٢٠م) الذي بلغت عنده القومية الإسلامية مداها حتى أنه حاول أن يجعل اللغة العربية هي اللغة الإسلامية واللغة القومية المعتمدة للأتراك أنفسهم،[١٤] أي تعريب الدولة بالكامل، ولم يمنعه من تحقيق هذا المشروع إلا المفتي أو (شيخ الإسلام) الذي كان له نفوذ كبير على السلطان العثماني نفسه.

ثانيًا: القول بأن الجنس التركي كان الجنس السيد للإمبراطورية، هو من أكبر الأقاويل جحودًا وظلمًا، يقول روبير منتران: "قد كتب بوسبيك أن بوسع ابن صياد سمك أو فلاح أو راع أن يصبح صدرًا

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



أعظمًا استنادًا إلي قدراته وحدها، إن من يتمتع بالشرف الأول بين الأتراك بعد السيد الأكبر هو الذي لا يعرف أصله ولا أصل أبيه وأمه، كما أردف وهكذا فإن كل إنسان يثاب بحسب جدارته والمناصب يشغلها رجال قادرين على شغلها".[١٥] ويدلنا الإحصاء الذي أورده "جلزر" على أن الصدور العظام الذين تعاقبوا على الحكم خلال ازدهار الإمبراطورية (١٤٥٣-١٦٢٣م) كانوا ثمانية وأربعين، خمسة منهم فقط يجري في عروقهم الدم التركي، أما الباقون فكانوا: (إحدى عشر ألبانيًا، إحدى عشر صقليًا، ستة يونانيين، واحد جركسي، واحد إيطالي، واحد أرميني، واحد من جورجيا، عشرة من أصول غير معروفة)،[١٦] وهذا إن دل فإنما يدل على عالمية الدولة العثمانية المستمدة من عالمية الإسلام نفسه، كما كانت الدولة العباسية في صدر الإسلام، والتي وصل فيها الموالي إلي أرقى المناصب حتى نافسوا العنصر العربي في كل نواحي الحياة.

أما قول د.حمدان أن الدولة العثمانية قامت على أسس طائفية، ونعت سياسة الملة بأنها ضيقة الأفق، فهذا أبعد ما يكون عن الصحة، ولو حدث هذا لما استطاعت تلك الإمبراطورية الشاسعة التي ضمت بين أرجائها الكثير من الأعراق والملل والطوائف أن تجمع بينها في ظل استقرار سياسي واجتماعي عدة مئات من السنين، فالدولة الأموية التي قامت في صدر الإسلام مع قوتها العسكرية والسياسية والاقتصادية الكبيرة آنذاك لم تستطع أن تعمر كثيرًا بسبب تفضيلها العنصر العربي على باقي عناصر الدولة الإسلامية في الوظائف والقيادات، وقد أدى هذا في النهاية لتبني الموالي من الفرس الدعوة العباسية المناهضة للحكم الأموي، والتي كانت سببًا مباشرًا في سقوط هذه الدولة وانهيارها في عز قوتها.

ولم تظهر ردود الأفعال القومية داخل الإمبراطورية إلا في أواخر عهدها كرد فعل طبيعي ومباشر لمحاولة جماعة الإتحاد والترقي التي سيطرت على السلطة من فرض الهوية التركية وجعلها متميزة عن باقي الهويات في الإمبراطورية، وهذا لم يحدث إلا بعد تنحية الدور الديني وتبني الحركة القومية التي سادت حينئذ في أوروبا وتبني مختلف شعاراتها مثل العدالة والحرية والمساواة، وهي نفس شعارات الثورة الفرنسية التي اندلعت في أواخر القرن الثامن عشر.

ولكن قبل سيطرة جماعة الاتحاد والترقي على السلطة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣- ١٣٢٧هـ / ١٨٧٦ – ١٩٠٩م)[١٧] سنة ١٩٠٨م لم تجنح الإمبراطورية أبدًا للتمييز القومي أو العرقي بين عناصرها، بل على العكس من ذلك فقد تبنى السلطان عبد الحميد الثاني سياسة الجامعة الإسلامية لجمع شتى شعوب الإمبراطورية تحت ظل الإسلام الذي لا يفرق بين عربي وأعجمي، ولقد أثبتت السياسات القومية فشلها في نهاية المطاف بالحروب الفتاكة التي نشبت بين مختلف القوميات في أوروبا في الحربين العظميين وكادت أن تؤدي إلي هلاك البشرية، لذلك فإن وحدة الدين الذي اتخذته الإمبراطورية العثمانية شعارًا لها حتى أخريات أيامها كان أساسًا ودعامة رئيسية من أسباب طول عمرها وبقائها، فهي أطول دول الإسلام عمرًا.

الأقليات في ظل الحكم العثماني

لقد نعت د.حمدان سياسة الملة التي اتبعتها السلطات العثمانية بأنها سياسة قصيرة النظر، هذه السياسة التي أدت إلي ترك كل طائفة أو ملة تعيش في الدولة العثمانية تدير شئونها الخاصة دون التدخل من قبل سلطات الحكومة، وهذا يعتبر في حد ذاته تسامحًا كبيرًا أدى في نهاية الأمر إلي الضرر بالدولة نفسها، وتحول في النهاية إلي عبء كبير على كاهل الدولة خاصةً في القرن التاسع عشر مع ضعف الهيكل الإداري لها، وعجزه عن السيطرة على كل هذه الأقليات، التي هي بمثابة كيانات لها شخصيتها داخل الدولة يمكن أن تتبلور في أي لحظة، خاصة في أوقات ضعف السلطة المركزية فتلتهم مقومات الدولة من الداخل، وهذا ما حدث بالفعل.

يقول "أليكس جورافسكى" في كتابه الإسلام والمسيحية: "قد ميزت السلطات العثمانية رعاياها المسيحيين في ملل مستقلة مخضعة إياهم ليس لسلطة البطاركة الروحية فحسب ولكن لسلطتهم الزمنية أيضًا، وبهذا الشكل أصبحت (المجالس الملية) وطوائفها كيانات كنسية سياسية ذات سمات وملامح متمايزة، أي أن السلطة المدنية والشئون الاجتماعية والاقتصادية والثقافية أوكلت كليًا أي ما سُمي (بالمؤسسة الدينية) أي هيئة العلماء لدى المسلمين والبطاركة والأساقفة لدى المسيحيين والحاخام الأكبر لدى اليهود، وبمرور الوقت تعاظم ضغط مختلف الكنائس القومية والإثنية في الولايات والمناطق المختلفة، وتنامى عدد الملل التي تدير شئونها الذاتية بصورة رسمية".[١٨] هذا بالطبع قد عجل بانحلال الدولة وسهولة تفككها، خاصةً المناطق الأوروبية في البلقان التي ضمت الكثير من الملل والأعراق.

ويقول المؤرخ كارل بروكلمان: "إذا كانت الدولة العثمانية لا تتدخل من حيث المبدأ في قضايا الدين، فقد انتهت في الواقع إلي أن تصبح ملجأ للحرية الدينية بالنسبة إلي اليهود المطرودين من أسبانيا والبرتغال عند منبلج القرن السادس عشر، فما وافت سنة ١٥٩٠م على وجه التقريب حتى بلغ عدد سكان الحي اليهودي في استانبول نحوًا من عشرين ألفًا".[١٩]

وتعد مسألة الهجرة اليهودية إلي الدولة العثمانية من الأدلة القطعية التي تكشف الوجه العنصري الحقيقي للدول الأوروبية التي تدعى التحضر والتمدين، ففي الوقت التي ادعت فيه الدول الأوروبية وعلى رأسها انجلترا وفرنسا وروسيا أن الدولة العثمانية تفرق بين رعاياها وتضطهد بعضهم، كانت تلك الدول هي أولى الدول اضطهادًا وظلمًا وخاصة لليهود، فقد عملت تلك الدول ومن قبلها أسبانيا والبرتغال على اضطهاد اليهود ومحاولة تنصيرهم وأهانتهم بشتى الوسائل وطردهم من أرضهم وأملاكهم، يذكر د. عبد الوهاب المسيري في دراسته عن اليهود أنهم كانوا يشكلون دومًا أقلية في

دورية إلكترونية، مُحكَّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الغرب وكانوا يعملون في الوظائف المشينة، وساهمت عمليات الطرد المختلفة والتي استمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر ووصلت إلي ذروتها مع وعد بلفور في تدعيم هوياتهم بوصفهم جماعات وظيفية، إذ أنها لم تضرب بجذورها في أي رقعة جغرافية.[٢٠] وذلك بالطبع بسبب العنصرية التي اتبعتها الدول الأوروبية في التعامل معهم.

ويستدرك د. المسيري بقوله: "لم يكن هناك يهود يعيشون بشكل قانوني في انجلترا أو فرنسا أو هولندا أو أسبانيا أو البرتغال أو الدول الاسكندينافية. وكان يهود أوروبا كافة مركزين أساسًا في بولندا أو بعض أجزاء من ألمانيا وإيطاليا، حتى أنه في القرن السابع عشر كان هناك مركزان أساسيان في العالم لليهود: أحدهما الإمبراطورية العثمانية وهو الذي استوعب كثيرًا من اليهود الذين طردوا من أوروبا الغربية وشبه جزيرة أيبيريا، وثانيهما في بولندا وليتوانيا".[٢١]

ولقد ازدادت أعداد اليهود والهجرة اليهودية إلي الولايات العثمانية حتى وصل عدد اليهود في استانبول وحدها إلي أكثر من ثلاثين ألفًا، وفي أزمير حوالي عشرة آلاف وسالونيك وصل تعدادهم إلي حوالي خمسة وعشرين ألفًا.[٢٢] وجاء التشجيع من الغرب للهجرة اليهودية الكبيرة إلي أراضي الدولة العثمانية، فقد كانت السياسة البريطانية على سبيل المثال تؤيد ذلك بشدة، حتى أن انجلترا خاطبت السلطان العثماني بقولها: "سيكون مفيدًا للسلطان دخول يهود مشتتين إلي فلسطين بسبب الثروة وعادات النظام والصناعة التي سيحملونها معهم، وهذا سيؤدي إلي زيادة موارد الدولة العثمانية ويطور التقدم فيها"، وكان هذا بالطبع خدمة للمصالح الأوروبية واليهودية على السواء، لأن أوروبا عملت على التخلص من اليهود بشتى الطرق وفى نفس الوقت عملت على زرع اليهود كمعول هدم في جسد الدولة العثمانية، هكذا ظل اليهود يأملون الاستيطان في أرض فلسطين وتكوين دولة هناك تلم شتاتهم وتحقق حلمهم المزعوم، ولم يدخروا وسعًا منذ القرن السادس عشر في الاستقرار داخل الأراضي الإسلامية بعيدًا عن أوروبا وقريبًا من بيت المقدس، حيث لم ينس هؤلاء اليهود فترات رخائهم في الأندلس خلال الحكم الإسلامي.

ولكل هذه الأسباب وبعد تلك الهجرة اليهودية واسعة المدى إلي أراضي الدولة العثمانية وخاصةً فلسطين في مطلع العصر الحديث، عمل السلاطين العثمانيون منذ القرن السادس عشر، وبالتحديد منذ عهد السلطان سليم الأول الذي أدرك هذا الأمر في فترة مبكرة، فعمل على وضع قوانين خاصة لحماية فلسطين وسيناء من الطمع اليهودي، ومع ذلك بدأ اليهود يهاجرون سرًا إلي فلسطين وسيناء حتى أن رهبان دير سانت كاترين أحسوا بهذا الخطر يهدد المنطقة فشكوا إلي الوالي العثماني بالقاهرة تزايد أعداد اليهود، واستجابت الدولة العثمانية لهذا النداء وأمرت بإخراج اليهود وأسرهم من منطقة الطور وعدم السماح في المستقبل بهجرة اليهود إلي سيناء كلها.[٢٣]

وهكذا ظلت الدولة العثمانية تحافظ على الهوية الإسلامية لفلسطين وسيناء وكل الأراضي المقدسة التي ظلت تحت سيطرتها، حتى تنامت الأطماع الصهيونية في سيناء وفلسطين ووصلت إلي أوجها في أواخر القرن التاسع عشر مع ضعف الإمبراطورية الشديد، ولكن ظلت الإمبراطورية تحافظ على المقدسات الإسلامية بقيادة السلطان عبد الحميد الثاني، الذي علم بالمخططات الصهيونية وعمل على إحباطها وفشل مساعيها.

ومن مساعي السلطان عبد الحميد في إحباط المخططات الصهيونية – الصليبية، أنه أصدر سنة ١٨٨٧م أوامر جديدة بشأن اليهود وجهت إلي متصرفي القدس ويافا تعلمهم بأنه يسمح لليهود بالدخول إلي البلاد كحجاج أو زوار فحسب، وعلى كل يهودي يصل إلي يافا أن يدفع ٥٠ ليرة تركية لقاء تعهد بمغادرة فلسطين خلال ٣١ يومًا، وفي سنة ١٨٨٨م أصدر الباب العالي قوانين جديدة تحت على ضرورة حمل اليهود الأجانب جوازات سفر توضح عقيدتهم اليهودية كي تمنحهم سلطات الميناء تصريحات لزيارة المتصرفية لمدة ثلاثة أشهر، وفي سنة ١٨٩٨م أصدر السلطان عبد الحميد الثاني قوانين جديدة منع بموجبها اليهود من دخول القدس، وقد لاقت هذه القوانين الجديدة المعارضة الشديدة من القنصليات الأجنبية.[٢٤]

يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته: "إن دولاً كثيرة أرادت التخلص من اليهود وأيدت هجرتهم إلي فلسطين، ولكن في دولتنا عدد كبير من اليهود فإذا كنا نريد أن يظل العنصر العربي الإسلامي متفوقًا في فلسطين يجب ألا نسمح بهجرة اليهود إليها، وإذا كان الأمر عكس ذلك وسمحنا بالهجرة فإنهم في فترة قصيرة سيسيطرون على الحكم وتصبح فلسطين تحت سيطرتهم، ونكون بذلك قد قضينا بأيدينا على عنصر ديننا بالموت الأكبر".[٢٥]

يتضح الآن كيف عملت الدولة العثمانية على الحفاظ على هوية الأراضي الإسلامية وخاصةً الأراضي المقدسة من الأطماع الصليبية والصهيونية، وكيف أن تلك القوى وجدت الطريق مفتوحًا بعد إسقاط الخلافة العثمانية في تحقيق مخططاتها كاملة دون اعتراض، فاستطاع الصهاينة اليهود الهجرة إلي فلسطين حتى أقاموا دولة إسرائيل دون أن يقف في وجههم أحد، واستطاعت الدول الاستعمارية الكبرى الدخول بكامل حريتها إلي الأراضي العربية والإسلامية، وللأسف أيضًا لم يقف في وجههم أحد.

أما بالنسبة للمسيحيين فقد وجدوا حرياتهم الكاملة حتى وصل بعضهم إلي أرقى المناصب، ويعلق "أندريه ريمون" على ذلك بقوله: "إن شيخًا مستنيرًا مثل الجبرتي يعرب عند الحاجة عن استهجانه للدور الذي يلعبه المسيحيون والذي يرى أنه زائد عن الحد".[٢٦] هذا لأن الطوائف المسيحية كانت موجودة تقريبًا في جميع دول الشرق العربي، ويتضح أنها استفادت إلي حد كبير من الإمكانيات الاقتصادية الجديدة المتاحة بفضل إنشاء الإمبراطورية العثمانية، وكذلك بفضل نمو التجارة مع أوروبا، وقام المسيحيون بطبيعة الحال بدور الوساطة بين الفرنجة والتجار المحليين، ولعب المسيحيون المحليون أيضًا دورًا هامًا كمعاونين للحكام باعتبارهم

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

أصحاب كفاءات إدارية، كما كانوا كثيرًا يعملون كأصحاب مصارف.[٢٧]

إن الجاليات المسيحية واليهودية حققت تقدمًا ملحوظًا في ظل الدولة العثمانية وأمكنهم أن يديروا شئونهم بأنفسهم بطريقة مستقلة في جو من التسامح الديني الذي دهش له الرحالة الأوروبيون، حتى كتب أحد ضباط البحرية الروسية الذي توقف في تونس نهاية القرن الثامن عشر يقول: "يمكن القول بأن النساك المسلمين ليسوا كالرهبان الأوروبيين في إظهارهم للبغض تجاه مَن يدعون إلي دين آخر، والدليل على ذلك هو أن المسيحيين واليهود الذين يعيشون هنا يمكنهم إدارة شئونهم بحرية وفقًا لقوانينهم الخاصة".[٢٨]

الحكم العثماني بين الإنصاف والجحود

وأخيرًا؛ يتطرق د. حمدان إلي أكثر المواضيع أهمية بالنسبة للسيطرة العثمانية على العالم العربي، وهذا الموضوع ذو أهمية خاصة لدى الكتاب الذين يتبنون الفكر القومي، وهو أن الهيمنة العثمانية على العالم العربي هي سببًا مباشرًا لتخلف هذا العالم عن الركب الحضاري وعزله، بل والزج به في أحضان المستعمر الأوروبي. يقول د. حمدان: "**والواقع أن الاستعمار التركي هو الذي مهد الطريق – حضاريًا وتكنولوجيًا– للاستعمار الأوروبي في العالم العربي، فلقد رأينا أن العالم العربي الإسلامي وقف إلي ما قبل قدوم الأتراك إزاء العالم الأوروبي المسيحي موقف الند للند في حالة زهو عسكري. ومنذ الاستعمار التركي فقط بدأ الافتراق بين المستوى الحضاري والفني للغرب والعرب، الغرب إلي أعلى والعرب إلي أسفل. كان الاستعمار التركي نقطة الانعكاس في المنحنى الحضاري وخط المستقيم بين تقدم الغرب وتخلف العرب**".[٢٩]

لو أن الهيمنة العثمانية هي سبب تخلف العالم العربي عن ركب الحضارة والتقدم، فهل كانت الدولة العثمانية تسيطر على باقي أجزاء العالم الإسلامي الذي كان مستنيرًا في العصر الوسيط ثم تخلف هو الآخر بدوره عن ركب الحضارة؟ بل إن المغرب الأقصى لم يقع يومًا تحت السيطرة العثمانية، فهي الدولة العربية الوحيدة التي سلمت من تلك السيطرة بالإضافة إلي أجزاء من دولة عمان وسواحل الخليج العربي، فلماذا لم يلحق المغرب إذن بركب الحضارة الغربي؟ ولو سلمنا بافتراض أن الدولة العثمانية قد جثمت على روح الشرق ومنعته من التقدم والازدهار، فلماذا تخلف أولائك عن الركب في الأندلس وخبت دولتهم بعد ذلك الازدهار؟ ولماذا ضعفت دولة المماليك بعد قوتها حتى كادت أن تقع فريسة للاستعمار الأجنبي لولا تدخل الدولة العثمانية؟ ولماذا انقسم المغرب العربي على نفسه قبل التدخل العثماني منذ القرن الثالث عشر وأصبح فريسة سهلة للمستعمر الأجنبي فوقعت الكثير من أراضيه لقمة سائغة للأسبان والبرتغاليين؟؟؟

فهل كان إذن العالم العربي - كما يقول د. حمدان - قبل قدوم الأتراك يقف موقف الند للند من العالم المسيحي؟ أم أنه كان في حالة من الانهيار لم يسبق لها مثيل؟ إن كل الدلائل تشير إلي أن الحضارة العربية في مجملها كانت آخذة في الانحدار قبل قدوم الأتراك العثمانيين بفترة ليست بالقصيرة.

يقول "أندريه ريمون": "إن انحدار المدن العربية كان سابقًا للغزو العثماني فالمدن العراقية الكبيرة لم تسترجع قواها إطلاقًا بعد الكارثة التي تمثلت في الغزو المغولي، ويقول المؤرخ المصري المقريزي في القرن الخامس عشر: "بغداد قد تهدمت لم يعد هناك جامع ولا مؤمنون ولا سوق غالبية قنواتها قد جفت ومن الصعب تسميتها مدينة"، أما عن دمشق فيقول: "ذكر سوفاجيه أن قوات تيمورلنك قد نهبت المدينة سنة ١٤٠٠م ثم عانت المدينة من الأزمة الاقتصادية التي شهدتها الإمبراطورية المملوكية، وأضاف بأن السلطان سليم لم يحتل في سنة ١٥١٦م سوى مدينة أكثر من نصفها أطلال"، ويقول عن شمال إفريقيا: "أدى تفسخ دول المغرب الأوسط والشرقية إلي تشجيع المغامرات الاستعمارية الاسبانية والبرتغالية"، وفيما يتعلق بتونس: "فإن القرن الحفصي الأخير كان يمثل مأساة طويلة الأمد، وقد لاق سكان تونس أسوأ معاملة حين احتلها الأسبان سنة ١٥٣٥م، حيث يقول المؤرخ ابن دينار أنه تم قتل نصف السكان وإخضاع ثلث آخر للعبودية"، ويستدرك بقوله: "ولا شك أن إمبراطورية قوية وموحدة مكان مجموعة دول تلهث من الإرهاق كان مفيدًا للمدن التي ظلت تعاني منذ قرون من الزمان من آثار التدهور السياسي، وفي الواقع أنه من المنطقي أن يكون هذا هو ما حدث".[٣٠]

أما بالنسبة لمصر وعاصمتها القاهرة، فقد أصابها التدهور الاقتصادي والاجتماعي على أثر تحول طريق التجارة العالمية عنها إلي طريق رأس الرجاء الصالح في أواخر القرن الخامس عشر، وهذا ينطبق على بعض مدن الشام والحجاز التي تقع على نفس هذا الطريق، فقد أدى انقطاع العوائد الجمركية عنها إلي تدهورها بشكل سريع اقتصاديًا واجتماعيًا، فلم تعد القاهرة وموانئ مصر والشام المطلة على البحر المتوسط والبحر الأحمر كما كانت منذ قرن من الزمان.

وهكذا فإن الدوافع التي دفعت الدولة العثمانية للولوج إلي منطقة الشرق الأوسط وخاصةً مصر والشام للسيطرة على هذه المنطقة لم تكن بالدوافع الهينة، فقد كانت مسألة مصيرية بالنسبة للإسلام والمسلمين، فكانت بحق أعظم خدمة أسدتها الدولة العثمانية للإسلام أنها وقفت في وجه الزحف الصليبي البرتغالي على البحر الأحمر والأماكن المقدسة الإسلامية من الشرق، وفي وجه المستعمر الاسباني من الغرب، ولم تكن دوافع العثمانيين دوافع استعمارية من أجل استنزاف ثروات الشعوب وخيراتها، كما فعلت دول أوروبا منذ بداية العصر الحديث.

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

خاتمة

لقد ظلت الدولة العثمانية طوال تاريخها دولة إسلامية تدافع عن الإسلام وأرضه امتدادًا عظيمًا لتاريخ الإسلام الزاهر، ولم تكن كما روج لها أعداء الإسلام من الغرب ومريديه دولة عنصرية بربرية ذات أطماع استعمارية. لقد شكلت تلك الدولة على مدى تاريخها الطويل سدًا منيعًا أمام الطامعين في النيل من الإسلام، وما لبث هذا السد أن تداعى فتكالبت علينا أمم الأرض جمعاء تريد أن تلتهمنا التهامًا، فهل ما نحن فيه من فرقة إلا من نتائج سقوط الخلافة العثمانية.

يقول مصطفى باشا كامل: "واجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة المقدسة وأن يعززوها بالأموال والأرواح ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم، وفي بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية المقدسة".(٣١)

الهوامش:

(١) **د. جمال حمدان**: هو مفكر وباحث وعالم جغرافيا مصري، ولد عام ١٩٢٨م بمحافظة القليوبية، عين معيدا بكلية الآداب قسم الجغرافيا عام ١٩٤٨م، حصل على الدكتوراه من انجلترا عام ١٩٥٣م، عمل منذ ذلك الوقت مدرسا بجامعة القاهرة، له العديد من الأبحاث والدراسات الهامة التاريخية والجغرافية والتي اختصت معظمها بمصر والعالم العربي، وأهم تلك الدراسات كتابه (شخصية مصر)، والجدير بالذكر أن د.حمدان يعتبر من دعاة الفكر القومي، توفي عام ١٩٩٣م.

(٢) جمال حمدان، **الاستعمار والتحرير في العالم العربي**، المكتبة الثقافية رقم ١٢٣، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٥ ديسمبر عام ١٩٦٤م ، ص ١٣.

(٣) الناصري، (أبو العباس أحمد بن خالد)، **الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب – الدار البيضاء عام ١٩٥٥م ، ج٤/ ص ٩٠: ١٢٠.

(٤) عزيز سامح ألتر، **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، ترجمة د. محمود على عامر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت الطبعة الأولى عام ١٩٨٩م، ص ١٦.

(٥) المرجع السابق ص ١٦ ، ١٧.

(٦) فاروق عثمان أباظة، **أثر تحول التجارة العالمية إلي رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط**، دار المعارف، ص ٥٧.

(٧) المرجع السابق، ص ٥٨، نقلا عن ابن إياس ، بدائع الزهور.

(٨) المرجع السابق، ص ٦٣، نقلا عن ابن إياس، بدائع الزهور.

(٩) المرجع السابق، ص ٦٩ : ٨١.

(١٠) أندريه ريمون، **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع عام ١٩٩١م ، ص ٣٨.

(١١) المرجع السابق، جمال حمدان، الاستعمار والتحرير الخ، ص.١٣

(١٢) المرجع السابق، ص ٤ ، ١٥.

(١٣) المرجع السابق، ص ١٥.

(١٤) أحمد فؤاد متولي، **تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى العصر الذهبي**، ايتراك للنشر والتوزيع عام ٢٠٠٥م ، ص ١٩٨: ٢٠٠.

(١٥) روبير منتران، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ، عام ١٩٩٣م، ج١/ ص ٢٦١.

(١٦) أحمد شلبي، **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**، مكتبة النهضة العربية، الطبعة السابعة، عام ١٩٨٦م ، ص ٨٤٦.

(١٧) **السلطان عبد الحميد الثاني**: هو السلطان الرابع والثلاثين من سلاطين آل عثمان وآخر من امتلك السلطة الفعلية منهم، ولد عام ١٩٤٢م وتولى الحكم عام ١٨٧٦م، ابعد عن العرش من قبل جماعة الاتحاد والترقي عام ١٩٠٩م بتهمة الرجعية، أقام بعدها تحت الإقامة الجبرية حتى وفاته عام ١٩١٨م، له الكثير من المآثر منها وقوفه أمام الأطماع اليهودية في فلسطين وسيناء، ودعوته للوحدة الإسلامية بين شعوب العالم الإسلامي، وإنشائه للجماعة الإسلامية تحت شعار يا مسلمي العالم اتحدوا، وقد لاقت هذه الدعوة رواجا كبيرا لولا قوى الغرب التي قامت بمناهضة تلك الدعوة ومهاجمتها.

(١٨) أليكس جورافسكي، **الإسلام والمسيحية**، ترجمة: خلف محمد الجراد، سلسلة عالم المعرفة رقم ٢١٥، المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب – الكويت ، نوفمبر ١٩٩٦م، ص١٨٧.

(١٩) كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمير فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الخامسة، ص ٨٤٦.

(٢٠) عبد الوهاب المسيري، **دفاع عن الإنسان**، دار الشروق، الطبعة الثانية عام ٢٠٠٦م، ص ٣٠.

(٢١) المرجع السابق، ص ٥١.

(٢٢) صموئيل آتينجر، **اليهود في البلدان الإسلامية**، ترجمة: د. جمال أحمد الرفاعي ، سلسلة عالم المعرفة رقم ١٩٧، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت ، مايو ١٩٩٥م ، ص ٢٠٧.

(٢٣) المرجع السابق، أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي الخ، ص ٨٦٤.

(٢٤) حسان على حلاق، **دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش (١٩٠٨م - ١٩٠٩م)**، الدار الجامعية للطباعة والنشر - بيروت ، ص ٩: ١١.

(٢٥) المرجع السابق، ص ٢٧، نقلاً عن مذكرات السلطان عبد الحميد.

(٢٦) المرجع السابق، أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى الخ، ص ٨١.

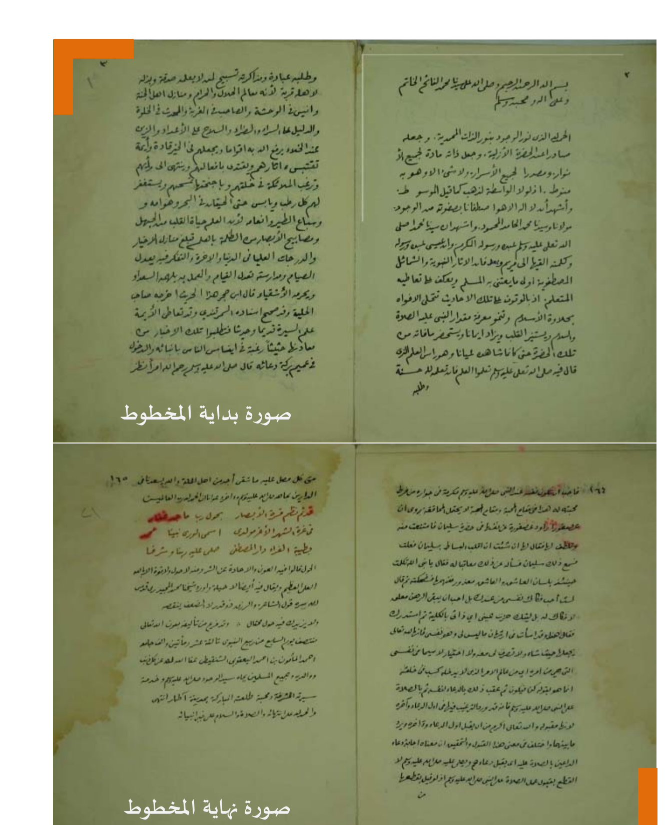
(٢٧) المرجع السابق، ص ٨١ ، ٨٢.

(٢٨) المرجع السابق، ص ١٠١ .

(٢٩) المرجع السابق، جمال حمدان، الاستعمار والتحرير الخ، ص ١٧.

(٣٠) المرجع السابق، أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى الخ، ص ٣٤، ٣٥.

(٣١) مصطفى باشا كامل، **في المسألة الشرقية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٨م، ص٣٦.



صورة بداية المخطوط

صورة نهاية المخطوط

اهتمام الشناقطة بالسيرة النبوية "مخطوط شرح قرة الأبصار في سيرة المشفع المختار أنموذجا"



حمداوي بن عمر

أستاذ محاضر في قسم التاريخ وعلم الآثار بكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية - جامعة وهران. وأستاذ باحث بمركز البحث في الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية CRASC وهران – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حمداوي بن عمر، اهتمام الشناقطة بالسيرة النبوية: مخطوط شرح قرة الأبصار في سيرة المشفع المختار أنموذجا .- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ٥٧ - ٦١.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخَص

الشناقطة جمع مفرده الشنقيطي وهو نسبة إلى مدينة شنقيط الواقعة في شمال موريتانيا. وقد اشتهرت المدينة بكثرة علمائها ومدارسها الدينية حتى باتت قوافل الحجيج في هذا القطر تتخذها منطلقًا باتجاه الحجاز كما أورد العلامة سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم العلوي (ت ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م) في مؤلفه: "صحيحة النقل". وتتناول هذه الدراسة اهتمام الشناقطة بالسيرة النبوية من خلال إلقاء الضوء على الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي، ومخطوطه "شرح قرة الأبصار في سيرة المشفع المختار"، للتعريف بالشيخ وإسهاماته، وعرض محتوى المخطوط وبيان أهميته للمجتمع الشنقيطي.

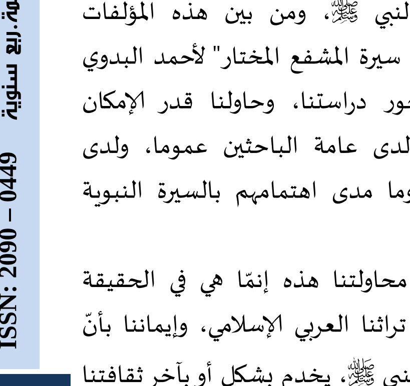
مُقدِّمة

لقد كانت عناية المسلمين في القديم والحديث بسيرة النبي- صلى الله عليه وسلم- من أهم المواضيع التي أفرد لها المؤرخون فصولا لا تنسى عبر مر التاريخ؛ باعتبارها المصدر الثاني بعد القرآن الكريم، الذي يفسر ويشرح أصوله وفروعه، وفق منهج رباني يستعين به الفقهاء وأصحاب السير في استنباط الأحكام الشرعية بأدلتها التفصيلية، كما كانت سندا قويا لدى المؤرخين وعونا لهم في معرفة الحوادث التاريخية وضبطها. إلى جانب استئناس المحدثين والمفسرين بها في جل كتاباتهم. ومن هنا كان التنافس واضحا بين جمهور العلماء حول التأليف في سيرة النبي ﷺ: من مولده ﷺ، دعوته وغزواته، فسيرة أصحابه، إلى غير ذلك من الجوانب التي لها صلة بسيرة المصطفى عليه أزكى الصلاة والسلام.

ومما لاشك فيه: أن الله سبحانه وتعالى يقيض لكل مصر من الأمصار رجالا يوثقون ويحفظون ما تناثر هنا وهناك، من أخبار وآثار ومدونات من سبقوهم، ولذا كانت تآليفهم المخطوطة شاهدة عيان على ما حفظوه لنا، بلل أكثر من ذلك اعتنوا بالتعليق عليها أو تذييلها أو شرحها، كل ذلك اعترافا بفضل السابق على اللاحق؛ وخدمة للتراث العلمي للمنطقة التي ينتمي إليها كل واحد منهم. وكان الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي واحدا منهم، ممن أثروا درس السيرة النبوية شرحا وتعليقا ونقدا، حتى يسهل على طلبة العلم تعاطيه واستيعابه مقاصديا وتاريخيًا وفقهيًا.

ومن هنا برزت إسهامات الشناقطة كإسهامات بالغة الأهمية في هذا المجال لها بعدها التربوي والتوعوي بسيرة خير البشر، فقويت حركة التأليف حول سيرة النبي ﷺ، ومن بين هذه المؤلفات مخطوط "شرح قرة الأبصار في سيرة المشفع المختار" لأحمد البدوي الشنقيطي. الذي جعلناه محور دراستنا، وحاولنا قدر الإمكان التعريف به وبمدى أهميته لدى عامة الباحثين عموما، ولدى جمهور الشناقطة خصوصا وما مدى اهتمامهم بالسيرة النبوية العطرة.

وعلى هذا الأساس؛ فإنّ محاولتنا هذه إنمّا هي في الحقيقة اجتهاد يراد به ردّ الاعتبار إلى تراثنا العربي الإسلامي، وإيماننا بأنّ السعي وراء التركيز على سيرة النبي ﷺ، يخدم بشكل أو بآخر ثقافتنا



العربية الإسلامية ومكوناتها من جهة، ورد الاعتبار لأمتنا العربية والإسلامية من جهة ثانية.

إنّ حب الشناقطة لسيرة النبي ﷺ، زاد من قوة اهتمامهم وتشبثهم بسيرة وفضائل النبي المختار وشمائله، ومما يمكن الإشارة إليه أن تراث الشناقطة على وجه الخصوص، تراث غني ومتنوع المعارف والمشارب؛ فهو يعكس ذاكرة تلك الأمة عبر الأزمنة الغابرة والتواريخ الماضية، إضافة إلى أن هذا التراث يقرأ ذهنيات وعقليات هؤلاء الأعلام من خلال مدوناتهم وكناشاتهم، ومن ثم فهم الواقع من خلالها.

وكون أن هؤلاء العلماء الشناقطة الأعلام أقرب من غيرهم بتفسير كثير من المصطلحات والعبارات والمفردات التي وردت ضمن متون تلك المدونات، وهذا من شأنه يعيننا على إعادة صياغة وفهم كثير من الظواهر المختلفة التي كانت كائنة آنذاك

والسؤال الذي يطرح نفسه هو ما مدى اهتمام الشناقطة بتراثنا العربي والإسلامي؟ وما مدى تشبثهم بسيرة النبي المختار؟ ثم إلى متى يمكننا تحقيق تراث الشناقطة المختلف والمتنوع؟ كل تلك الأسئلة كانت محل عناية واهتمام من لدنا جعلتنا نقدم على إبراز الرؤى والتجليات في أحد مخطوطات الشناقطة.

التعريف بالمؤلف: أحمد البدوي الشنقيطي

أحمد البدوي بن محمد بن أحمد المجلسي النسب[١] اليعقوبي الشنقيطي الأموي المدني، توفى ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م، عالم بالأنساب. من أهل شنقيط. أما عن نسبه:" فهو السيد أحمد بن محمد بن يونس المدعو عبد النبي بن أحمد بن السيد علاء الدين علي ابن السيد الحسيب النسيب يوسف بن حسن بن يس بدر بن محمد بن يوسف بن بدر بن يعقوب بن مظفر بن سالم بن محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسن بن العريض الأكبر بن زيد بن زين العابدين على بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه". تربى في حجر والده فحفظ القرآن الكريم منذ صغره، كما قرأ مبادئ الفقه واللغة والسيرة، كما رحل صحبة والده إلى اليمن للاستزادة في طلب العلم سنة١٠١١هـ فأخذ عن أكثر علمائه وأوليائه خصوصا شيوخ والده.

من أهم مؤلفاته (المغازي البدوية في أصول العرب وفصولها)[٢] منظومة مع شرح لها مجهول المؤلف سمي (الجواهر السنية)[٣] منه نسخة ناقصة الآخر، و(عمود النسب في أنساب العرب)[٤] عبارة عن نظم أيضا. كما له (شرح قرة الأعيان في سيرة المشفع المختار). وكانت وفاته رحمه الله نهار الاثنين آخر سنة إحدى وسبعين وألف ودفن بالبقيع شرقي قبة السيدة حليمة السعدية رضي الله عنهما.

أولاً: موضوع الكتاب

يخدم كتاب **"شرح قرة الأعيان في سيرة المشفع المختار"**[٥] في نسق متكامل وضمن رؤية جامعة بين شخصية العالم الأدبية وفقهه من جهة، كما تجمع بين أدب السير والتاريخ من جهة أخرى، فهو شرح لمنظومة في السيرة والتي هي في الأصل عبارة عن نظم الشيخ عبد العزيز اللمطي الفاسي.[٦]

يتناول الكتاب سيرة النبي ﷺ والكتاب في أصله شرح لمنظومة عبد العزيز اللمطي في السيرة، المعروفة باسم "قرة الأبصار" والتي شرحها الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي، تقع في ثلاثمائة وواحد وأربعون(٣٤١) بيتًا. فتراه في إحدى صفحات الكتاب، بعد الحمدلة والصلاة على النبي المختار، يقول:

وبَعْدُ فاعْلَمْ أنَّ خيرَ ما اقتفَى ... ذو همةٍ سِيرَةُ خَيرِ مُقتفَى
وهَا أَنَا أَذكُر فِي هَذَا الرجزْ ... مِن ذَاك مَا فيه سِدادٌ مِن عَوَزْ
لِمُبتغِي التَحْصِيلِ مِنْ أُولِي الهُدَى ... عَسَى بِنَفْعِهِمِ بِهِ أَنْ أُرْشَدا

إنّ قيامنا على التعريف بهذا الكتاب الذي يعد أحد روائع المؤلفات الشنقيطية المهتمة بسيرة النبي ﷺ، لما يحويه من معلومات تاريخية وأدبية تفيد الباحث والمهتم بالتراث العربي عموما أن يتصور مدى الذهنيات والعقليات التي كان عليها علماء وأدباء ومؤرخوا ذلك العصر من الشناقطة.[٧] من شأنه أن يسهل علينا دراسة سيرة النبي ﷺ بطريقة بسيطة يسهل تناولها لدى الباحثين والمبتدئين على حد سواء.

ثانيًا: عنوان الكتاب

وردت الإشارة إلى هذا الكتاب عند أحمد البدوي الشنقيطي نفسه في المخطوط الذي نحاول التعريف به؛ مشيرا إلى قول عبد العزيز اللمطي صاحب الأرجوزة بقوله:[٨]

سَمَيتُهُ بِقُرَّةِ الأَبصَارِ ... فِي سِيرَةِ المُشَفَعِ المُختَارِ
مُرتباً لَهُ عَلَىَ الأبوابِ ... مُقَرباً مَقاصدَ الطُلاَبِ

والملاحظ على بعض المتأخرين الذين تعرفوا على أحمد البدوي الشنقيطي من خلال مؤلفاته، اعتمدوا على هذا العنوان، وهذا مرده إلى تعدد شروحات مخطوط قرة الأبصار.

أمّا الكتاب الّذي بين أيدينا فإنني أجزم بأن عنوانه هو الأصح وهو الوارد في مقدمة الكتاب التي تقول:"...ويستدرج به المستشرف إلى مدارج العرفان الأرجوزة المسماة بقرة الأبصار".[٩]

ثالثًا: دوافع تأليف الكتاب

يوضح المؤلف في مقدمة الكتاب أن الباعث على تأليفه هو أهمية الآثار النبوية والشمائل المحمدية بقوله: "وبعد فإن الآثار النبوية والشمائل المصطفوية أولى ما يعتنى به المسلم، وينعكس على تعاطيه المتعلم، إذ بالوقوف على تلك الأحاديث تتحلى الأفواه بحلاوة الإسلام، وتنمو معرفة مقدار النبي عليه الصلاة والسلام، ويستنير القلب ويزاد إيمانًا، ويستحضر ما فاته من تلك الحضرة حتى كأنما شاهده عيانا، وهو رأس العلم الذي قال فيه ﷺ "تعلموا العلم فإن تعلمه لله حسنة، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام..".[١٠]

دورية الكترونية.مُحكّمة.ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ويواصل أحمد البدوي ذكر الباعث على غرضه من تأليفه لهذا الكتاب بقوله: "... ويستدرج به المستشرف إلى مدارج العرفان الأرجوزة المسماة بقرة الأبصار، فقد كثر الانتفاع بها في هذه الأعصار والأقطار، وكثر تعاطيها بين الكبار والصغار، فانصرفت إليها الهمم من بين دواوين الأخبار، فتلهف المتعطشون إليها على شرح يوضع عليها وكثيرا ما ينقضون إلي في ذلك رؤوسهم ويعرضون علي فيه بيض الطروس، طانين أهليتي لذلك الأمر الخطر، وهيهات أنا منهم إلا أن يمدني الله تعالى بالعون والتيسير، وينفحني بنفحة من بركاته صلى الله عليه وسلم..."[11]

رابعًا: وصف الكتاب

تقع هذه النسخة في واحد وعشرين ورقة من الحجم المتوسط، بمقياس (٢١×١٧)، حيث تضم كل ورقة ١٧ سطرًا وأحيانًا أكثر من ذلك، بمعدل عشر كلمات أو أكثر في السطر الواحد. خالية من التعليقات والحواشي السفلية. نسخت حوالي القرن الثالث عشر(١٣) هـ تقديرًا، تحت رقم: ٢١٩، وهي نسخة حسنه، خطها رقعة، بها نقص في الوسط، وهي بمكتبة جامعة الرياض بالمملكة العربية السعودية، تحت رقم عام: ٣٤٥٢. والمخطوط مكتمل البداية والنّهاية، حيث نراه يستهل كتابه بالبسملة والحمدلة فالصلاة على النبي ﷺ، ليقدّم شرحًا موجزًا ينوه بأهمّية السيرة المحمدية ومكانتها، والحكمة المتوخاة من دراستها؛ مشيرًا في سياق الكلام إلى تسمية كتابه، ليدخل في الشرح مباشرة.

خامسًا: محتوى الكتاب

لقد عُرف عن الحفاظ الشناقطة عمومًا قوة حفظهم للنصوص ولأمهات الكتب، وهذا من خلال إتباعهم لطريقة مألوفة في مجتمعهم[12] لحفظ النص استيفاء "عشرة المختار" وهي عبارة عن خمس وخمسين نقطة ترسم على الأرض بأصابع اليد الثلاثة (البنصر والوسطى والسبابة) في شكل هرم قاعدته عشر نقاط وقمته نقطة واحدة، كلما قرأ الطالب مرة يمحو نقطة، فإذا استوفى حفظ درسه بهذه الطريقة يقولون إنه لن ينساه بعدئذ، وعليه أن يستوفي العدد كله حتى لو حفظ النص دونه".[13]

إن اهتمام العلماء الشناقطة بسيرة الرسول ﷺ، كانت أهم ما يعتنى به في المدارس الشنقيطية، حيث نجد أحمد البدوي يقول: "من أهم ما هتم به الأئمة الأعلام، ولم تعمر مجالس الخير بعد كتاب الله تعنى بأحسن من أخبار رسول الله ﷺ". وقد قسم كتابه هذا إلى أبواب مرتبة لتقريب مقاصد الطلاب، وذلك بقوله:

مُرتِبًا عَلَى الأَبْوابِ مُقَرِبًا مَقَاصِدَ الطُلاَبِ

وتعد منظومة أو رجز قرة الأبصار من المقررات المعتمدة في السيرة عندهم والتي بلغت حوالي أحد عشر شرحاً شنقيطيا. كما اعتمدوا كثيراً على كتاب "الشفا" للقاضي عياض، فكانوا يتدارسونه في شهر رمضان يومياً فيما بينهم. هذا مما يعكس صورة الشناقطة الواضحة؛ الذين اعتبروا مؤلف الشفا نموذجًا أعلى في السيرة والحديث، إلى جانب رجز قرة الأبصار.

ولقد حوى الرجز على معلومات قيمة أشادت بمكانة النبي ﷺ وبشمائله. منها على سيل المثال عند وضع الحجر الأسود في مكانه، وتنازع قبائل قريش حوله لتحظى بذلك الشرف كان ﷺ ابن خمس وثلاثين عامًا. قال الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في شرح نظم قرة الأبصار في السيرة:

ثم ابن خمس وثلاثين حضر بناء بيت الله إذ بني الحجر
بيده الكريمة الزكية صلى عليه خالق البرية

كما حوى الكتاب دلائل نبوة النبي ﷺ وعجائب معجزاته، من ذلك ما رواه الترمذي والحاكم وابن أبي شيبة أن النبي ﷺ كانت تظله غمامة في سفرة إلى الشام مع عمه أبي طالب، كما ذكره أهل السيرة كابن هشام وغيره، وإليه أشار صاحب شرح نظم قرة الأبصار بقوله:

ثم إلى الشام مع العم ارتحل والعمر في ثلاثة العشر دخل
فرده خوفا من اليهود عليه أهل المكر والجحود
وعاد مع ميسرة للشام وهو من الرحمن في إكرام
تظله الأملاك في المسير حين اشتداد الحر في الهجير

كما قال في موضع آخر:

من القرآن المعجز الذي بهر إعجازه كل العقول وقهر
فلم يجئ بمثله ولن يجئ إنس ولا جن وكم من مزعج
لهم مقرع على الأتيان به وهم فرسان هذا الشأن

يقول أحمد البدوي:" عقد الناظم هذا الباب بمعجزات النبي ﷺ جملة ثم بدا بأعظمها وهو القرآن ثم أنه في شأنه بما يعلم الفطن أنه عقد كلام القاضي عياض في الشفاء وأبدع في اختصاره، قال في الشفاء: "أعلم أن القرآن العظيم منطو على وجوه من الإعجاز كثيرة...".[14]

ثم إن المدة التي قضاها النبي ﷺ بالمدينة كانت حافلة بعدد من الغزوات والبعوث والسرايا... ففي تلك السنوات العشر دخل ﷺ عدة معارك اختلف أهل السير في عددها، من أشهرها: بدر،[15] وأحد،[16] والخندق،[17] وبني قريظة،[18] وبني المصطلق[19] وتسمى المريسع، وبني النضير،[20] وخيبر،[21] وفتح مكة،[22] وموقعة حنين،[23] والطائف.[24] كان النصر[25] حليفه فيها أو في جلها على أقل تقدير. قال صاحب شرح نظم قرة الأبصار:

لقد غزى عشرين بعد خمس فيها وفي سبع بغير لبس
قاتل بدر أحد والخندق بني قريظة بني المصطلق
وغزوة الطائف مع حنين وضعفها البعوث دون مين
وقيل في النضير مع واد القرى قاتل والغابة أيضا ذكرا

وأما تفضيل البقعة التي دفن فيها النبي ﷺ على جميع البقاع، فقد نقله الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في شرح نظم قرة الأبصار فقال:

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وهاجر المختار لما أن وصل خمسين مع ثلاثة حتى نزل
بطيبة الغراء حيث أمرا ثم بها أقام حتى احتضرا
بها فكانت أشرف البقاع أما ضريحه فيها فبالإجماع

والملاحظ هنا؛ أن أحمد البدوي في بحثه هذا، أعطى لنا صورة مبسطة مشروحة المعنى سلسلة الأفكار عن سيرة المصطفى ﷺ؛ التي جعلت من الطالب المبتدئ يعظ على دراسة سيرة المصطفى ﷺ بالنواجذ، ولا يرضى دونها بديلاً.

كما احتوى الكتاب على معلومات قيمة من حيث التعريف بشخصه الكريم، وبأزواجه، وأصحابه، ومعجزاته، وغزاوته،... وصولاً إلى مرضه ودنو أجله فتغسيله وتكفينه وتوديعه وموارته التراب ﷺ واختيار لقاء وجه ربه الأسمى والرفيق الأعلى. وفي الرجز حديث عن جملة من حياته ﷺ ومعاشرته مع أزواجه وأهله وأصحابه.

سادسًا: المصادر التي إعتمد عليها مؤلف الكتاب

اعتمد مؤلف الكتاب على جملة من المصادر الأدبية واللغوية والفقهية والتاريخية العقائدية، من أجل إغناء الكتاب بمعلومات متعددة وفي فنون مختلفة. ومن أبرز المصادر التي وردت الإشارة إليها في ثنايا المخطوط نذكر ما يلي:

أ- المصادر اللغوية والنحوية:

اعتمد أحمد البدوي الشنقيطي في شرحه لرجز قرة الأبصار من الناحية اللغوية على القاموس المحيط للشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي [٧٢٩هـ/٨١٧ هـ] وذلك بنسبة كبيرة جدا، وهذا ربما بحسب طبيعة الموضوع الأدبية، وكان أحمد البدوي الشنقيطي يشير في معظم الأحيان إلى المصدر متصرفا في الشرح بمفردات مختلفة منها: "قال القاموس" أو"وجاء في القاموس" و"في القاموس" و"انظر القاموس". كما اعتمد أحمد البدوي على"معجم الصحاح "للجوهري [؟ ٣٩٣ هـ] بالإشارة إليه مرتين، أما كتاب "المصباح المنير في غريب الشرح الكبير" لصاحبه احمد بن محمد الفيومي الحموي نسبة إلى حماة [؟. ٧٧٠ هـ] فقد ورد ذكره مرة واحدة.

ب- المصادر الأدبية والتاريخية:

إنّ موسوعية أحمد البدوي الشنقيطي تتجلى من خلال اعتماده على ثلة من مصادر أدبية استعان بها على مسائل كثيرة تخص علما من الأعلام أو موقف ما أو تصرف ما، وكذا كتاب" عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير" لابن سيد الناس، وكتاب "الشفا بتعريف حقوق المصطفى"للقاضي عياض، واعتمد كذلك أحمد البدوي على بعض المعاجم مثل "القاموس المحيط" للفيروز آبادي"، كما اعتمد أحمد البدوي على مجموعة من الدواوين الشعرية مثل: ديوان عمر ابن الفارض، ديوان أمية بن أبي الصلت، ديوان امرؤ القيس، ديوان زهير ابن أبي سلمى، ودرة الغواص في لحن الخواص للحريري.

ج- المصادر الفقهية:

من أهم المصادر الفقهية التي اعتمدها أحمد البدوي الشنقيطي في تحليل بعض المسائل الفقهية نذكر كتاب "الموطأ "للإمام مالك، والشروح التي جعلت عليه كالرسالة لابن ابي زيد القيرواني، وشرح خليل وغيره.

د- مصادر أخرى:

لا يمكننا بأي حال من الأحوال حصر جل المصادر التي اعتمد عليها أحمد البدوي الشنقيطي، غير أننا نذكر الأهم منها على حسب استعماله داخل المتن المشروح. فهي لا تقل أهمية عن سابقاتها بيد أن علاقتها بالموضوع أقل. مثل كتاب "الطبراني في معجمه" وسنن الترمذي، وصحيح البخاري، وكتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، وبردة البوصيري. وهذا بطبيعة الحال حسب ما يستدعيه كل مقام.

سابعًا: قيمة الكتاب وأهميته

يعتبر كتاب "شرح قرة الأبصار في سيرة المشفع المختار لأحمد البدوي الشنقيطي". من الكتب الهامة المتعلقة بأدب السير لاسيما سيرة النبي ﷺ وشمائله. نظرًا لاعتماد مؤلفه على عدد من أمهات المصادر المختلفة التي تخدم موضوعه، وبالتالي حفظ لنا مادة لا يستهان بها في هذا النوع من المواضيع، التي قلما تتعرض لموضوع السيرة المحمدية بطريقة مبسطة سهلة وغير مطولة من الناحية الأدبية.

والخلاصة التي يمكن التوصل إليها بعد دراسة مخطوط "شرح قرة الأبصار في سيرة المشفع المختار" والتعريف به؛ هي أنه يعتبر مصدرًا مهما لا يمكن للباحثين والمهتمين بسيرة النبي ﷺ، إذ أنه يحفل بمادة تاريخية وأدبية ولغوية وفقهية كبيرة وفي غاية الأهمية، اقتبسها المؤلف من أهم المدونات الأدبية والفقهية التي أنتجها علماء ممن سبقوه.

خاتمة

لقد كان لهذا الوفاء المعنى السامي، بحيث كانت سمته العلمية أخلاقية راقية تطفو فوق السطح، التفت إليها ذوو النظر البعيد من العلماء والأدباء الشناقطة، داخل بلاد شنقيط وخارجها. والشيخ أحمد البدوي الشنقيطي واحد من هؤلاء الأعلام الذين ذادوا عن حمى تراث أهل بلاد شنقيط. فقد كان الشيخ يكتب عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم عن حس تربوي وفكري وعلمي، لمن يحاول الاقتداء بسيرة المصطفى ﷺ قولاً وفعلاً وتقريرًا.

ثم إن كتاب" شرح قرة الأبصار في سيرة المشفع المحتار" نظرًا لأهميته لدى المجتمع الشنقيطي، ونظرًا لسهولة تركيبه وتعاطيه، لقى ترحابًا واسعًا لدى طلبة العلم الشناقطة، فراحوا يحفظونه عن ظهر قلب، كيف لا وهم العلماء الحفاظ والأدباء النقاد ذاع صيتهم في الآفاق مغربًا ومشرقًا.

الهوامش:

(١) ما يمكن الإشارة إليه هو أن الشيخ أحمد كان دائمًا يخفى نسبه ويكتفي بأمور التقوى والورع، ودون أن يلتفت إلى الفخر وحب الجاه، فكانت ذريته من بعيد تشبهه في أسباب التقى والورع. ولهذا كان يكتب بخطه أحمد المدني الأنصاري وتارة سبط الأنصار.

(٢) خير الدين الزركلي، **الأعلام**، خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م، ج١، ص:٢٤٥. توجد نسخة من المخطوط بدار الكتب المصرية.

(٣) مخطوط دار الكتب المصرية، ج٥، ص:٢٧٢ وج٨، ص:١٨٥.

(٤) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

(٥) أحمد البدوي، **شرح قرة الأبصار في سيرة المشفع المختار**، مخطوط جامعة الرياض، تحت رقم: ٣٤٥٢.

(٦) **اللمطي: (٠٠٠- نحو٨٨٠هـ/٠٠٠-نحو١٤٧٥م)**: هو عبد العزيز بن عبد العزيز اللمطي المكناسي الميموني: نحوي، من فقهاء المالكية، من أهل فاس. نسبته إلى " لمط "من قبائل البربر، بأقصى المغرب. نزل المدينة المنورة. له " ألفية " في النحو، و" تقييد " على مختصر خليل في الفقه و" قرة الأبصار في سيرة المشفع المختار " أرجوزة في المكتبة العربية بدمشق. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٤، ص:٢١. راجع: أحمد بن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام بمدينة فاس**، ج٢، ص:٢٧٠.

(٧) نسبة إلى شنقيط التي تأسست عام ١٦٠هـ/٧٧٦م، واسمها القديم (آبير) والتي عمرّت قرونا ثم بادت، لتظهر للوجود مرة ثانية عام ٦٦٠هـ/١٢٦٢م. وهي موريتانيا الحالية. وقد ورد اسم شنقيط موثقا في مصادر تاريخية مهمة منها تاريخ السودان للسعدي، ونجد تلك النسبة إليها في شجرة النور الزكية عند معرض ذكر محمد الشنقيطي، كما اختلف حول اشتقاق كلمة شنقيط على أوجه عديدة لا يسعنا ذكرها هنا.

(٨) طبعت هذه المنظومة مفردة بتحقيق وتعليق الأستاذ عبد الله ولد إسلم ولد فتى، عام١٤١٨هـ ومن شروحها:سلم الأنوار شرح قرة الأبصار، لـ:محمد بن إياه. بغية الأبرار من شرح قرة الأبصار، لـ: محمد الحسن الخديم. **مرتع الأبرار في التعليق على قرة الأبصار**، لـ: غالي محمد الأمين الشنقيطي.

(٩) أحمد البدوي، **شرح قرة الأبصار في سيرة المشفع المختار**، مخطوط جامعة الرياض، تحت رقم: ٣٤٥٢ ، ورقم :٣.

(١٠) أحمد البدوي، شرح قرة الأبصار في سيرة المشفع المختار، و:٤ ظ.

(١١) المصدر نفسه، و:٤ ظ.

(١٢) المختار بن حامد، **موسوعة حياة موريتانيا**، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط١٩٩٠، ج٢، ص:٥.

(١٣) راجع: الخليل النحوي، **بلاد شنقيط**، المنارة والرباط، تونس، ط١٩٨٧،١، ص:١٧٤-١٧٥.

(١٤) القاضي عياض، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، ج١، ص:١٩٧.

(١٥) **غزوة بدر**: كانت يوم الجمعة سابع عشر من رمضان في السنة الثانية للهجرة. فيها استشهد من المسلمين أربعة عشر، وقتل من الكفار سبعون. أبو عبد الله الذهبي، **العبر في خبر من غبر**، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، ص:٥.

(١٦) **غزوة أحد**: كانت يوم السبت حادي عشر شوال من السنة الثالثة للهجرة. فاستشهد يومئذٍ حمزة عم النبي ﷺ ومصعب بن عمير العبدري، وتتمة سبعين رجلاً، رضي الله عنهم.المصدر نفسه، ج١، ص:٥.

(١٧) **غزوة الخندق**: وهي غزوة الأحزاب وكانت في شوال في السنة الخامسة للهجرة، وسببها أن نفراً من اليهود حزبوا الأحزاب عل رسول الله ﷺ وقدموا على قريش بمكة يدعونهم إلى حربه فلما بلغ النبي ﷺ ذلك أمر بحفر الخندق حول المدينة وعمل فيه بنفسه وفرغ من الخندق وأقبلت قريش ومن تبعها من بني قريظة واشتد البلاء حتى ظن المؤمنون كل الظن وأقام رسول الله ﷺ والمشركون بضعاً وعشرين ليلة لم يكن بين القوم حرب إلا الرمي ثم نصر الله نبيه ﷺ على المشركين وخذلهم واختلفت كلمتهم وأهب الله ريح الصبا. مجير الدين الحنبلي العليمي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، تح: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان ، ط١، ١٩٩٩، ج١، ص:١٩٨.

(١٨) **غزوة بني قريظة**: كانت بعد غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة، حيث نزلوا بعد حصار خمسة وعشرين يوماً على حكم سعد. فقتلت مقاتلتهم، وكانوا ست مئة أو أزيد. وسبيت ذراريهم. أبو عبد الله الذهبي، **العبر في خبر من غبر**، ج١، ص:٥.

(١٩) **غزوة بني المصطلق**: وتسمى غزوة المريسيع وكانت في السنة الخامسة للهجرة. فهزمهم النبي ﷺ. وأصاب يومئذٍ جويرية وفيها مرجعهم من هذه الغزاة كان حديث الإفك. وقيل في سنة ست. المصدر نفسه، ج١، ص:٥.

(٢٠) **غزوة بني النضير**: وهم طائفة من اليهود، كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر. وكانت منازلهم ونخلهم بناحية المدينة. وحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، على أن لهم ما أقلت الإبل إلا السلاح. شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ج٢، ص:١٤٨.

(٢١) **فتح خيبر**: كان سنة سبع من الهجرة في صفر، واصطفى النبي ﷺ من السبي صفية بنت حيي بن أخطب، وجعل عتقها صداقها، واستشهد من المسلمين بخيبر بضعة عشر رجلاً. أبو عبد الله الذهبي، **العبر في خبر من غبر**، ج١، ص:٨.

(٢٢) **فتح مكة**: في رمضان، في أواخره أو وسطه، من السنة الثامنة للهجرة. المصدر نفسه، ج١، ص:٩.

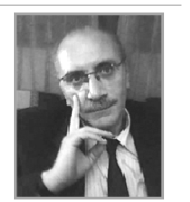
(٢٣) **غزوة حنين**: في شوال من السنة الثامنة للهجرة، كان النبي ﷺ في عشرة آلاف مقاتل أو أزيد، فولى يومئذ المسلمين الأدبار، وثبت النبي ﷺ في طائفة، وتراجع المسلمون، واستشهد يومئذٍ طائفة يسيرة. المصدر نفسه، ج١، ص:٩.

(٢٤) **غزوة الطائف**: من السنة الثامنة للهجرة. قال ابن إسحق: لما فرغ رسول الله ﷺ من حنين سار إلى الطائف فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة ثم انصرف عنها. خليفة بن خياط، **تاريخ خليفة بن خياط**، تح: أكرم ضياء العمري، دار القلم، مؤسسة الرسالة، دمشق، بيروت، ط٢، ص:١٢.

(٢٥) لقد نص أهل العلم على كفر من قال بهزيمة رسول الله ﷺ، وقالوا: أنه يقتل وهل يستتاب أولا؟. قال العلامة خليل المالكي في المختصر:" واستتيب في هزم أو أعلن بتكذيبه". أنظر: خليل بن إسحاق الجندي، **مختصر خليل**، تح: أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥، ص:٢٣٩.



حكاية الخط العربي "من الكتابة المسمارية إلى الكتابة العربية"



أ. د. بشار محمد خليف

كاتب وباحث في تاريخ العالم العربي

خبير دراسات حضارة المشرق العربي القديم

دمشق – الجمهورية العربية السورية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

بشار محمد خليف، حكاية الخط العربي: من الكتابة المسمارية إلى الكتابة العربية.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ٦٢ - ٦٩.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخَص

يتناول المقال رحلة الخط العربي من الكتابة المسمارية إلى الكتابة العربية من خلال ثلاث نقاط رئيسية هي: مراحل اختراع الكتابة والعوامل الممهدة لها، والنقوش العربية الجنوبية بشقيها الجنوبي والشمالي، والكتابات العربية الشمالية.

مُقدَمة

لنا أن نتصور أن عمر البشر على الأرض يتعدى أربعة مليون سنة، وأن البشرية في تطورها الفيزيولوجي والدماغي والحسي والحركي استغرقت زمنًا طويلاً، حتى عبّرت عن هذا التطور في مناحي الحياة كافة، بدءًا من انبثاق اللغة كأداة للتفاعل بين أفراد المجتمع، مرورًا بنشوء الاعتقادات الدينية، ثم تطورت أدوات التفاعل الاجتماعي الاقتصادي المستندة على تعمّق التجذر في الأرض والتفاعل مع البيئة، ما أدى بالنهاية إلى ابتكار الزراعة والتدجين ومن ثم ابتكار الكتابة/ الوجه الوثائقي للغة المنطوقة/ وإنشاء المدن الأولى، ومن ثم ابتكار الأبجدية التي شكلت الأساس والرائز لتقوية أواصر التفاعل الإنساني، والمضي قدمًا في التطور الكتابي حتى وصلنا إلى ما نحن عليه في عصر المعلوماتية. فبين اختراع الكتابة ونشوء الإنسان مسافة زمنية تتعدى الأربع مليون سنة وهذا ما يجعلنا نشير إلى حداثة الكتابة في سياق تاريخ الحضارة الإنسانية. فأهمية الكتابة أنها قسمت التاريخ البشري إلى شقيه الأساسيين: ما قبل التاريخ والتاريخ.[1] وأهمية الكتابة أيضًا أنها وثّقت العالم الشفاهي المنطوق، وساهمت في حفظ التراث الشفاهي من الاندثار بما يحمله من معطيات معرفية وخبرات تراكمت على مد العصور القديمة.

وأهمية الكتابة أنها نقلت الكلام من العالم السمعي إلى عالم حسي جديد هو عالم الرؤية بما أدى إلى حدوث تحول وانعطاف كبير في آلية التفكير والكلام والتفاعل الإنساني. فمن الرمز الشفاهي – الطبيعي انتقلنا عبر الكتابة إلى الرمز الحسي ثم المجرد الذي اختزل عالمًا مليئًا بالرموز والمعطيات الرمزية ما أدى إلى عمق التفاعل والتفاهم بين البشر، ولتبيان أهمية الكتابة نعود إلى الألف الأول قبل الميلاد، حيث يروي هيرودوت حادثة جرت حين اقتحم الملك الفارسي داريوس بجيوشه بلاد الأسقوثيين،[2] وكون أن مجتمع هؤلاء لم يكن مجتمعًا كتابيًا، فقد اعتمدوا في مراسلة الملك الفارسي على الرموز الطبيعية بتأويلاتها المختلفة.

فقد أرسلوا له رسالة تحتوي على طير وفأر وضفدعة وخمسة سهام. وهنا كان على الملك أن يفك الرسالة عبر مستشاريه، حيث توصلوا إلى أن الأسقوثيين يقصدون الحرب، فقد فهموا الرسالة كما يلي: "إذا لم تختفوا في السماء كالطيور، أو تتواروا في الأرض كالفئران، أو تختبئوا في الماء كالضفادع، فإن الموت بانتظاركم". ولم يقتنع الملك بآراء مستشاريه، حيث فهم رموز الرسالة بأنهم يضعون أنفسهم تحت سلطة الملك ويقدمون له السماء والأرض والماء وقد

تخلوا عن الحرب. والذي يبدو أن فهم الملك لرموز هذه الرسالة أدت بجيشه إلى الهزيمة.[3]

إن هذه الحادثة تؤكد على أهمية منجز الكتابة في تعميق التفاهم البشري والتفاعل الإنساني. والحقيقة أن الكتابة لم تظهر كاختراع من العدم، بل سبق ذلك ممهدات تطورية أدت إلى تبلور منجزها في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد في المشرق العربي/ الهلال الخصيب/، فالممهدات الأولى لاختراع الكتابة وجدت في العالم الزراعي حضانتها الأولى، في الألف التاسع قبل الميلاد.

أولاً: مراحل اختراع الكتابة والعوامل الممهدة لها

إن العالم الشفاهي هو عالم مترامي الأطراف، لا يحده حد ولا يمكن تعيينه بقواعد طالما أن هناك غياب في النظم والقواعد والمحددات التي تكفل تحديد بدايته من نهايته. واعتماد هذا العالم على الرموز وهي بطبيعتها رموز نسبية تجعل الاتفاق حولها ضرب من المحال. فالشمس مثلاً في المناطق الباردة مناخيًا هي رمز ايجابي لمجتمعاتها، في حين أنها رمز سلبي في المناطق الحارة وهكذا، فالكتابة في انجازها، حسمت جهة المعرفة واتجاهها وانعطفت بمسار الحضارة البشرية نحو عالم جديد. وثمة عوامل ساهمت في نشوء الكتابة ومهدت الطريق لابتكارها:

أولاً: إن انتقال المجتمعات القديمة من حالة الصيد والتقاط الثمار إلى الزراعة وتدجين الحيوان وبالتالي الاستقرار، أدى إلى تأسيس الظهورات الأولى لعالم الكتابة المنبثق من تطور المجتمعات الاقتصادي والاجتماعي وتفاعلها، وبالتالي ضرورة إيجاد ناظم توثيقي للتفاعلات والتبادلات التجارية.

ثانيًا: إن نمو التجارة الفردية أولاً، ثم تبادل السلع والمنتجات حفّز لابتكار وسائل تجارية بدئية عبر العد والأرقام، وهو ما تطور لاحقًا إلى نمو التفاعل والنشاط التجاري بين المجتمعات الصغيرة.

ثالثًا: يبدو أن الكتابة في تمظهراتها الأولى، انبثقت من عالم الحساب والأرقام فهي الجنين في رحم الرياضيات البسيطة، حيث أن الحاجة أمّ الاختراع.

وتشير المعطيات إلى ارتباط الزراعة وعالمها بظهور الأطوار الأولى الممهدة للكتابة حيث عمدت المجتمعات الزراعية آنذاك إلى استخدام أشكال من الطين لتوصيف منتجات الزراعة من حبوب وفاكهة وزيوت وغير ذلك من الماشية المدجنة، وذلك في عمليات التجارة وتبادل المنتوجات والسلع. وقد عثر على هذه الأشكال الطينية في مواقع عديدة في المشرق العربي/أبو هريرة - المريبط - تل أسود - تل الغريفة - السويات الدنيا من موقع رأس الشمرة - تل براك - تل حلف - ومواقع في فلسطين والرافدين وإيران والأناضول. وقد استمر وجود هذه الأشكال صعودًا حتى الألف الرابع قبل الميلاد.[4]

ويذكر "أوبنهايم" عن نظام للجرد في مدينة نوزي الرافدية في حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، حيث كان إلى جانب الكتابة المسمارية يوجد نظام استخدام لفيش لجأ إليها كتّاب القصر، وهذا النظام مستمد من طرق قديمة تعود لما قبل اختراع الكتابة. حيث أن هذه الفيش كانت ترمز لحيوانات/ كل فيشة ترمز لحيوان/ وفي حال سَوق القطيع إلى مدينة أخرى فكان يتم تحويل الكمية اللازمة من الفيش معها. وقد كشفت التنقيبات عن وجود (٤٨) فيشة وضعت ضمن لوحة طينية مجوفة شبيهة بالمغلف كتب على جدرانها بالإشارات المسمارية (٢١) نعجة، (٦) حملان، (٨) خرفان، (٦) عنزات.....إلخ.[5] وهذا النوع من الجرد الحسابي يعود وفق الدلائل الأثرية إلى حوالي 8 آلاف عام.

كانت الفيش هذه تصنع من الطين وتشوى على النار، تبلغ أحجامها 1 – 3 سم ، وتأخذ أشكالاً كروية، مخروطية، اسطوانية، قرصية، هرمية ثلاثية السطوح. وقد أكدت الأبحاث أن نظام الفيش هذا هو نظام سابق للكتابة، بدليل استمراره حتى الألف الرابع مع ازدياد في معالم تطوره حيث أخذت التقنيات منحى جديدًا عبر ظهور فيش ذات أشكال مثلثية وشبه معين مزودة بإشارات وعلامات إضافية كالحفر والتظليل بحيث أصبحت قادرة على إعطاء معلومات مفصلة عن نوعية المواد المرموز إليها بالنماذج الأصلية من الفيش.[6]

ومع حوالي 3300 ق.م، أصبحت هذه الفيش توضع داخل مغلفات طينية على شكل كرات مجوفة، وقد عثر على هذه في مواقع عدة في الهلال الخصيب/ أوروك – حبوبة كبيرة/ وبين ٣٣٠٠ – 3200 ق.م تطورت هذه التقنية إلى وضع بصمات خاصة على الجدار الطيني للمغلف الكروي لتمييز محتويات الأغلفة. وبقي هذا النمط مستخدمًا حتى 1500 ق.م. وتشير "دينيزا شمندت بيسيرا" إلى أن المغلفات ذات البصمات كانت الأساس الذي قام عليه مجمل نظام الكتابة المسمارية، حيث نجده في مواقع أوروك وخفاجي وحبوبة كبيرة وجبل عارودة وماري.

وعلى هذا الأساس الممهد لاختراع الكتابة المسمارية يمكننا تحديد ورصد مراحل تطور الكتابة وفق ما يلي:

- في 8000 ق.م ظهرت الفيش الثلاثية الأبعاد.
- في 3300 ق.م ظهرت المغلفات الحاوية على الفيش ذات البصمات
- في 3300 - 3200 ق.م ظهرت اللوحات الأولى ذات البصمات.
- في 3100 ق.م ظهرت الكتابة التصويرية التي تطورت إلى الكتابة المسمارية.[7]

B. Copie de Dussaud et Macler, Mission..., 1903

نقش حران اللجاة

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الكتابة التصويرية: PICTOGRAPHY

تعتبر من المراحل الأولى من الكتابة، حيث يتم رسم صورة الشيء أو جزء منه للتعبير عنه. فصورة اليد تعني يدًا، والسمكة سمكة، ورأس الثور ثورًا، وهكذا، كما أن تصوير ثلاث تلال تعني جبلاً أو بلادًا جبلية،[8] فالصورة هنا ليست الغاية بل الشيء الذي تمثله الصورة نفسها. وقد تطورت الصورة فيما بعد إلى رموز أو إلى إشارات مسمارية ليس بالضرورة أن تعبّر عن المعاني الأصلية للصور المرسومة بل تعبر أيضًا عن أفكار ومعان لها علاقة بالمعنى الأصلي للشيء المرسوم وهنا أصبحنا أمام الكتابة الرمزية.

الكتابة الرمزية: IDIOGRAM

في الكتابة الرمزية هنا نجد مثلاً أن صورة الشمس التي كانت تدل على الشمس فقط بدأت تأخذ مدلولات جديدة مثل الضوء والنهار واليوم والحرارة، بمعنى كل ما يتعلق بالمعنى الأول للشمس. كما أن رسم القدم مثلاً صار يدل على الوقوف والمشي والذهاب والركض. وشيئًا فشيئًا صار بالإمكان دمج إشارتين أو أكثر للحصول على معنى جديد فمثلاً:

يتم رسم: (فم + خبز) = يأكل ، (رجل + كبير) = ملك.[9]

وعثر في مواقع عديدة في المشرق العربي على منحوتات عليها خطوط ودوائر وأوعية فخارية وسنابل، وهي تدل على أعداد وكلمات، فالخطوط والدوائر تمثل الأعداد، أما الرسومات كالأوعية والسنابل فتدل على كلمات فالوعاء يشير إلى مادة سائلة والسنابل إلى النباتات، أما الخطوط فتشير إلى الأرقام.[10]

الكتابة المقطعية أو الصوتية: PHONETICS

تبعًا لسنّة التطور، فقد تمخض عن تطور الكتابة الرمزية بُعد جديد تجلى في أن كل رمز أخذ صوتًا معينًا بغض النظر عن مدلوله الصوَري. وصار كل رمز يحمل عدة معان كما يمكن أن يشكل كلمة أو جزءًا من كلمة بإضافته إلى رمز أو رموز أخرى. ففي الكتابة المقطعية أمكن التعبير بشكل أدق عن الأحداث والعواطف والأفكار والمعاني الأخلاقية، وأصبحت المقاطع الرمزية مفرغة من معناها وصارت قيماً صوتية. وقد عرفت هذه الكتابة من مجموعة نصوص تعود إلى حوالي 2800 ق.م في المشرق العربي، واتضح أن اللغة المستخدمة فيها هي اللغة السومرية.

نقش أسيس

الجدير ذكره هنا؛ أن الكتابة المسمارية في مراحلها الأولى كتبت من الأعلى إلى الأسفل بشكل حقول في كل منها جمل نثرت كلماتها كيفما اتفق، وتبدأ القراءة من اليمين نزولاً. ثم انقلبت الكتابة 90 درجة، فأصبحت تقرأ من اليسار إلى اليمين.[11] وقد بلغ عدد الإشارات المسمارية في البداية حوالي ألف إشارة في حوالي 2800 ق.م، ثم أصبح (800) إشارة، ومع بداية الألف الثاني قبل الميلاد أصبح عدد الإشارات (٥٠٠ - ٦٠٠) إشارة.[12]

الجدير ذكره أن سبب تسمية الكتابة بالمسمارية أو الإسفينية CUNEIFORM، لأن شكلها يشبه المسامير أو الأسافين، وهي تسمية حديثة مأخوذة من اللاتينية CUNEUS إسفين، وform شكل.[13] وقد انتشرت الكتابة المسمارية بفضل المشرقيين - الأكديين والعموريين- الكنعانيين في ممالكهم العديدة، واستعملت في بلاد فارس الجنوبية والأناضول وبلاد أورارتو (هضبة أرمينيا) ووصلت حتى مصر (رُقم تل العمارنة)، وكتبت بها بعد السومرية لغات ولهجات عديدة مثل: الأكدية / الأكديون طوروا الكتابة المسمارية، وكذلك الابلائيون والابلائية والأمورية - الكنعانية، وكذلك لغات أخرى كالكاشية والحورية - الميتانية والحثية والعيلامية والأورارتية والأخمينية الفارثية.[14] واستمر استخدام المسمارية حتى القرن الأول الميلادي حيث عثر في أوروك الرافدية على آخر نص مسماري يعود إلى 75 ق.م.

الأبجدية الكنعانية:

إذا كان اختراع الكتابة المسمارية قد تم في الجناح الشرقي للهلال الخصيب ومنطقة الفرات الأوسط الشامية، فإن اختراع الأبجدية حدث في مناطق الوجه البحري للمشرق العربي في أجاريت وجبيل في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد تقريبًا. فعبْر أبجدية أجاريت تم اختزال العلامات المسمارية إلى تسع وعشرين أو ثلاثين علامة، يمكن أن يكتب بها كل نتاج العقل البشري في كل زمان ومكان. وإن الحروف الواردة في رقيم الأبجدية الأجاريتية - الموجود حاليًا في المتحف الوطني بدمشق- هي بالترتيب الذي نجده في الكتابة الآرامية والعربية.

وفي تطور لافت بيّن اكتشاف نص أجاريتي أبجدي يتبع ترتيب الأبجدية العربية الجنوبية لا الشمالية، ما يقدم دليلاً على صلات مبكرة بين جنوب شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام داخلاً وساحلاً، واللحمة المتينة بين الكنعانية والعربية في الألف الثاني ق.م.[15] ففي أجاريت المدينة الأثرية السورية على الساحل السوري تمت الصياغة النهائية لتطور الكتابة المسمارية. فعبر الكتابة الأبجدية استطاع الإنسان تصوير كل صوت من أصوات اللغة برمز خلق من اجله، فأصبح الرمز الكتابي يعكس صوتًا فردًا وصارت مجموعة الرموز تعكس كلمات بألفاظها وأصواتها كاملة. وهكذا أصبح بإمكان كل إنسان أن يكتب لغته كما يتكلمها ويسمعها، وأن يقرأ ما كتب غيره من ذوي اللغات الأخرى.[16]

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

ومع سقوط أجاريت مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد، بدأ بالانتشار الشكل الخطي المتمثل بخاصة في أبجدية جبيل الكنعانية - على الساحل اللبناني - التي تبلورت في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. ومن أقدم النقوش الأبجدية الكنعانية الساحلية، نقش تابوت حيرام - ملك جبيل- الذي يعود إلى نهاية القرن الحادي عشر ق.م. ومن الساحل السوري انتقلت الأبجدية الكنعانية إلى اليونان لتتطور هناك وتؤسس لعالم كتابي عالمي جديد.

وفي المشرق العربي استمدت الكتابة الآرامية، الأبجدية الكنعانية الساحلية/ التي تتفاوت في أشكالها مرونة واستدارة وارتفاعًا وتناسقًا إلى أن وصلت في حدود القرن الخامس ق.م إلى شكل منمق جميل يعرف بالخط الآرامي المربع الذي كتبت به النبطية والتدمرية وكتابات مدنية الحضر، كما كتبت به السريانية مع خطوطها المتعددة وكذلك الخط البهلوي الذي أصبح الخط الرسمي للدولة الساسانية من القرن الثالث الميلادي حتى العصر الأموي، وظلت آثاره باقية على النقود في العصر العباسي الأول.[17] الجدير ذكره هنا؛ أن الكتابات الكنعانية الساحلية تعود أقدمها إلى حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد وأحدثها إلى مطلع العصر الميلادي.

الكتابة الآرامية:[18]

تعتبر الآرامية وليدة الأبجدية الكنعانية الساحلية وقد كتب الآراميون كتاباتهم الأولى بالأبجدية تلك. ويلاحظ المدقق أن النصوص الآرامية التي تعود إلى الفترة ما بين القرن العاشر وحتى القرن السابع قبل الميلاد، تتشابه إلى حد كبير مع الكتابات الكنعانية الساحلية المعاصرة لها. واستمر الأمر على هذا المنوال حتى القرن السادس قبل الميلاد، حيث بدأ الآراميون يطورون كتابة خاصة بهم. وبدءًا من القرن الثالث قبل الميلاد تفرّع عن الكتابة الآرامية كتابات محلية في مختلف أنحاء المشرق العربي.

الجدير ذكره؛ أن آرامي بلاد الشام استعملوا الأبجدية الكنعانية الساحلية في حين أن آرامي بلاد الرافدين اقتبسوا قلمهم الأول من الكتابة المسمارية الرافدية، ثم ما لبث أن تطور لدى الطرفين كتابة آرامية موحدة في مختلف الدويلات الآرامية.[19] ونتيجة للفاعلية التجارية النشطة للآراميين وتحكّمهم بالقوافل التجارية بين الساحل الكنعاني وبلاد الرافدين وفارس والأناضول، فقد انتشرت لغة الآرميين وكتابتهم شرقًا تبعًا للمدى التجاري لهم، وساهمت الآرامية في تكوين بعض كتابات فارس والهند وآسية الصغرى والقفقاس.

نقش زبد

وبين القرن السادس قبل الميلاد والرابع - في ربعه الأخير- قبل الميلاد، أصبحت الآرامية لغة دبلوماسية دولية في مختلف أرجاء الإمبراطورية الفارسية- الأخمينية، وهذه سميت "الآرامية الإمبراطورية". ومع الغزو المقدوني ٣٣١ ق.م للمشرق العربي وإيران انكمشت الآرامية أمام اللغة اليونانية حتى أصبحنا في القرن الأول للميلاد أمام لهجات وكتابات آرامية مختلفة في المشرق العربي، حيث نجد أن هناك مجموعتان:

الآرامية الشرقية، وتتألف من:

١- السريانية بفرعيها النسطوري واليعقوبي/ السريان هم الآراميون الذين اعتنقوا المسيحية/.
٢- لهجة تلمود بابل وقلمها هو الآرامي المربع.
٣- المنداعية: في جنوب الرافدين، عرفوا في العصر الإسلامي الأول باسم "الصابئة ".
٤- الحرانية: نسبة إلى مدينة حران شمال الرافدين.

الآرامية الغربية، وتتألف من:

١- الآرامية الفلسطينية: تحوي كتابات تلمود أورشليم وبعض كتابات المسيحية الأولى من أناجيل وغيرها.
٢- النبطية: كتابات الأنباط، حيث تطور القلم النبطي من القرن الثالث الميلادي حتى نهاية القرن الرابع، وكان له دور مهم مع الكتابة السريانية في ميلاد الخط العربي الحجازي.
٣- التدمرية: وتمثل نقوش دولة تدمر/ 33 ق.م – 272م /.[20]

ويعتبر الخط الشطرنجيلي، من أشهر الخطوط الآرامية، وهذا أقدم الخطوط السريانية وأصلها جميعًا. ظهر هذا الخط في الرها العاصمة الروحية الأولى للسريان، وهذا الخط يذكّر بالخط العربي الكوفي الذي تشير الأبحاث إلى أصله السرياني.[21]

كتابة المسند:

ازدهرت في جنوبي شبه الجزيرة العربية منذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، حضارة عربية طورت كتابات قديمة، أطلق على قلم تلك الكتابات اسم "الخط المسند"، ويعتبر هذا الخط من أقدم الخطوط المعروفة في شبه الجزيرة العربية. وقد ساهم في إبداعه وتطويره أقوام عدة من سبئيين ومعينيين وقتبانيين، وكان آخر من كتب بهذا الخط هم الحميريون. أبجدية المسند تتألف من ٢٩ حرف، وتقرأ كتابات المسند الحميري من اليمين إلى اليسار، كما في الكتابات الكنعانية والآرامية والعربية، ويقرأ أحيانًا من اليسار إلى اليمين.[٢٢]

أما عن أصل الخط المسند، فإلى الآن لم يعرف مصدره وكيف انبثق، خصوصًا أن شكل حروف المسند لا يشبه شكل حروف الأبجديات المعروفة.[٢٣] وتشير بعض الأبحاث إلى أن الكنعانية والمسند مشتقان من أصل واحد، وكلاهما تمتان بصلة إلى الكتابة السينائية، وقد تطور كل منهما في بيئته الخاصة، وتغيرت بعض حروفه.[24]

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الكتابة العربية:

إذا كان التواجد العربي تاريخيًا يرقى إلى الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد، حيث يذكر الملك شاروكين الأكدي، أنه قاتل قبائل عربية تقيم في المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية ثم أن نارام سين الأكدي استولى على أراضي متصلة ببابل، والتي سكانها من العرب، فإن مجال الكتابة العربية لم يكن قد ظهر بعد إلا مع الألف الأول قبل الميلاد. ولمناقشة واقع تطور الخط العربي ينبغي علينا أن نوصّف واقع التواجد العربي منذ الألف الأول قبل الميلاد، وهو تاريخ وجود الكتابات العربية، مع الأخذ بعين الاعتبار جملة حقائق تتصف بالواقع الاجتماعي آنذاك.

فقد كان ثمة عرب رحل بداة يجوبون الفضاء الجغرافي التاريخ الذي يمتد من جنوب شبه الجزيرة العربية وحتى تخوم البادية الشامية وصولاً إلى نهر الفرات. ومن هذه القبائل العربية ما استقر استقرارًا فصليًا تبعًا لأحوال المناخ وأحوال الرعي، ومنها ما بقي على مساق الجولات والترحال، ومنها من تفاعل مع المراكز الحضارية المدينية في المشرق العربي وتمازج مع الآراميين، بما أدى تبعًا لزيادة الكثافة السكانية العربية إلى تأسيس مدن عربية وممالك استندت على الثقافة الآرامية ومعطياتها، وذلك مع الألف الأول الميلادي. وتبعًا لذلك يمكننا مناقشة تطور الكتابة العربية والقلم العربي.

ثانيًا: النقوش العربية الجنوبية بشقيها الجنوبي والشمالي

تتبع هذه النقوش تطور الحضارة اليمنية منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وذلك عبر دولة معين ومملكة قتبان ومملكة حضر موت والدولة السبئية ثم الدولة السبئية الحميرية. ومنذ نهاية الألف الثاني ق.م، أصبحنا أمام كتابات عربية جنوبية كتبت بالخط المسند، مع الإشارة هنا إلى معالم الاختلاف الواضحة بين الخط المسند وبين الكتابة العربية الشمالية التي تطورت عن الكنعانية الآرامية رغم أن اللغة واحدة، وكنا قد أشرنا إلى احتمال أن تكون الأبجدية الجنوبية العربية والأبجدية الكنعانية الساحلية قد تطورتا عن الأبجدية السينائية.[27]

كتبت النقوش على ألواح معدنية أو حجرية وأقدم ما عثر عليه يرجع عهده إلى القرن السابع قبل الميلاد. وبالإضاءة على النقوش السبئية نجد أنها حوت على مواضيع عدة:

- مواضيع نذرية: أقيمت في الهياكل وقدمت للآلهة وهي محفورة على ألواح برونزية.
- نقوش ظاهرة على جدران الهياكل وغيرها تخليداً لذكرى بانيها.
- نقوش تاريخية تنبئ عن أخبار المعارك والانتصارات.
- قوانين زاجرة اجتماعية منقوشة على أعمدة منصوبة في مداخل الهياكل والمؤسسات العامة.
- نقوش جنائزية.
- نقوش شرعية.[28]

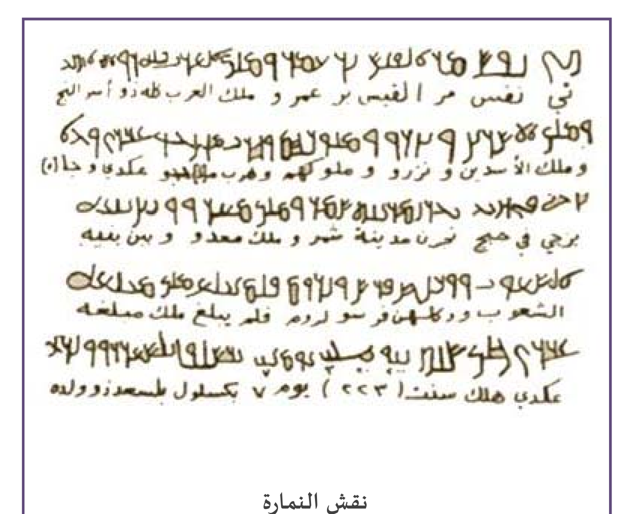
الجدير ذكره؛ أن أبجدية الجنوب تحاكي الأبجديات الشرقية، حيث أنها تتألف من الحروف الصامتة فقط. أما لغة الجنوب في بناء الأسماء وتصاريف الأفعال والضمائر والمفردات، فنجد أنها على صلة باللهجة الأكادية والإثيوبية، ولا ترتبط في هذه الأمور مع اللغة العربية الحجازية. ويبدو أن الخط المسند بكافة أشكاله قل استعماله وذهب أدراج النسيان بعد سقوط الحضارة العربية الجنوبية في القرن السادس الميلادي.[٢٩] حيث ستشهد الجزيرة العربية وبلاد الشام حركة ارتحالات ونزوحات لبني غسان إلى حوران في بلاد الشام ، وبني لخم إلى أرض الحيرة في الرافدين.

القلم اللحياني:

تؤرخ نقوش هذا القلم في حدود القرن الخامس وحتى القرن الثالث قبل الميلاد، وقد عثر عليها بخاصة في منطقة العلا شمال الحجاز. يتميز القلم اللحياني بأنه خال من الشكل والتشديد والمد وغيرها، وهو ما يشكل صعوبة بالغة في قراراته، بحيث لا يمكن التمييز أحيانًا بين الاسم والفعل. كما يلاحظ أن استعمال الفواصل بين الكلمات نادر جدًا، أما سطور هذا القلم فهي على شكل قوس أو دائرة أو أشعة.[30]

القلم الثمودي:

يؤرخ تواجد الثموديين بين القرن الثامن قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي وامتد تواجدهم في المنطقة بين الحجاز وبلاد الشام وسيناء. وقد عثر على ما يقارب (١٧٠٠٠) نقش كتابي ثمودي. يتميز الخط الثمودي بأنه خال من الشكل والتشديد والمد وغير ذلك من إشارات الضبط اللفظي، وقد عثر على بعض الكتابات التي استخدم فيها بعض حروف العلة تعويضًا عن الحركات. ويلاحظ أن أعمدة الفصل بين الكلمات لم تستخدم، مع ملاحظة وجود نقاط بين الكلمات أو بعض الخطوط القصيرة في حالات نادرة. بقي أن نشير إلى أن الكتابات الثمودية ليس فيها اتجاه محدد لبدء السطور حيث يمكن أن نجد البداية في أي اتجاه كما تكون أحيانًا مشتبكة مما يسبب صعوبة في قراءتها وفهمها.



نقش النمارة

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

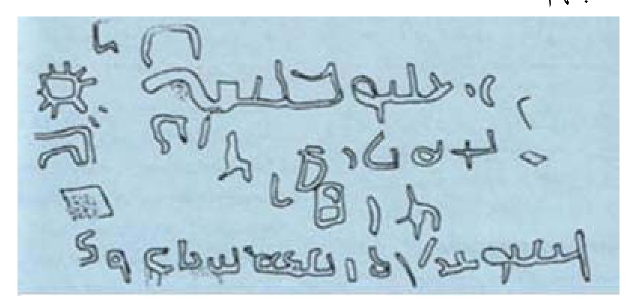
القلم الصفائي:

تؤرخ الكتابات الصفائية بين القرن الأول قبل الميلاد ومنتصف القرن الرابع الميلادي. وقد عثر عليها في مناطق الصفا في منطقة حوارن في بلاد الشام، وكذلك في شبه الجزيرة العربية وجبال لبنان وعلى نهر الفرات. تعتبر لغة هذه الكتابات شديدة الصلة باللغة العربية الحجازية.[٣١] يزيد عدد النقوش المكتشفة عن عشرين ألفًا، ومازالت الاكتشافات مثمرة في هذا المجال. كتبت هذه النقوش من قبل العرب الرحل من عشائر العوذ والسعد وغيرهم. وتشير الدراسات إلى تشابه القلم الصفائي والثمودي وابتعادها قليلاً عن الأصل اليمني في حين أن القلم اللحياني شديد القرب من اليمني.[32] أما لغة هذه النقوش الثلاثة فهي شديدة الصلة بالعربية الحجازية التي انتشرت مع الفتوحات الإسلامية.

الكتابة الآرامية:

الكتابة الآرامية مشتقة عن الأبجدية الكنعانية الساحلية في بلاد الشام، والآراميون تواجدوا في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد في الهلال الخصيب، وتركوا عددًا كبيرًا من النقوش والكتابات أقدمها نقش (بر حدد) الذي عثر عليه في شمال سوريا، ويؤرخ في حدود القرن التاسع قبل الميلاد، ثم نقش ذكير الذي عثر عليه في حماة ويعود تاريخه إلى 800 ق.م، وكذلك نقش (بر راكب) في موقع مدينة شمأل شمالي سورية، ويعود إلى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد. كذلك ثمة كتابات السفيرة قرب مدينة حلب، وتعود إلى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد.

كُتبت الآرامية على الحجارة وعلى الفخار، وفي مصر على ورق البردي واشتهر منها بردي جزيرة الفيلة في صعيد مصر.[33] وظلت الكتابة الآرامية تحتفل بالشكل الكنعاني الساحلي القديم الذي تتفاوت حروفه استدارة وارتفاعًا وتناسقًا، إلى أن وصلت في حدود القرن الخامس قبل الميلاد إلى شكل نحت جميل يعرف بالخط الآرامي المربع الذي كتبت به العبرية، ومن ثَم النبطية وبعدها التدمرية وكتابات مدينة الحضر، وكذلك السريانية بخطوطها المتعددة، وأشهر الخطوط الآرامية هو الخط الشطرنجيلي، والذي يعتبر أقدم الخطوط السريانية وأصلها جميعها، وقد ظهر هذا الخط في مدينة الرها، وهي من أهم مدائن السريان، ويشير "الدكتور البني" إلى أن أهل الرها يغلب عليهم النسب العربي وملوكهم عرب، وحالهم كحال أهل مدينة الحضر وتدمر، حيث استعملوا الآرامية في كتاباتهم.



نقش معبد رم

الكتابة النبطية:

تواجد الأنباط يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد، لكن فاعليتهم السياسية بدأت منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، لتصل ذروتها في القرن الأول للميلاد والذي يليه، حيث سقطت عاصمتهم عام 106 ميلادي بيد الرومان. اتخذ الأنباط اللغة الآرامية والكتابة الآرامية في حياتهم، وقد عثر على الكتابات النبطية بين دمشق وشمالي شبه الجزيرة العربية وسيناء. ومعظم هذه الكتابات يحمل تاريخًا دقيقًا، ويتناول موضوعات مختلفة.

وتُظهر حروف كتابات سيناء النبطية العائدة إلى القرنين الثاني والثالث الميلادي خطوطًا قريبة من الخط العربي الذي اشتق عن الخط النبطي، بحيث يبدو أن الخط النبطي منذ ذلك الوقت يميل إلى ربط الحروف وتعليقها ببعض، والابتعاد عن الطريقة السائدة التي تفصل بين حروف الكلمة الواحدة.[34] وحسب "الدكتور محمد محفل" في دراسته "العربية كتابة ولغة"، يشير إلى أن القلم النبطي/ الآرامي/ راح يبتعد تدريجيًا عن أصله الآرامي بعد سقوط دولة الأنباط 106 ميلادية، وأخذ يقترب أكثر فأكثر من القلم المسند الحميري والخطوط المشتقة منه - اللحياني، الثمودي، صفائي- وبذلك راح يتكون قلم نبطي متأخر له دور جذري في نشوء القلم العربي القديم بفرعيه الكوفي والنسخي.

الكتابة التدمرية:

تألقت تدمر بحضارتها في القرون الميلادية الثلاثة الأولى، واستطاعت في القرن الثالث الميلادي أن تنتقل من حيز المملكة إلى الإمبراطورية بحيث شملت مصر والأناضول والهلال الخصيب وشمال شبه الجزيرة العربية. وقد كتبت النقوش والكتابات التدمرية بالآرامية، وتكلم التدمريون اللغة الآرامية، وشيئًا فشيئًا مع ازدياد الفاعلية البشرية العربية، نلاحظ أن كتاباتها أخذت تكتب باللغة العربية تبعًا لتزايد الفاعلية البشرية العربية. ويبدو من المعطيات الكتابية واللغوية، أن اللغة العربية بلهجاتها الشمالية كانت لغة أصيلة في تدمر، يتخاطب بها التدمريون في حياتهم اليومية.

ثالثًا: الكتابات العربية الشمالية

تعددت الفرضيات حول تطور الكتابة العربية الشمالية، فمن قائل أنها تطورت عن الكتابة اليمنية (ابن خلدون – ابن النديم). ومنهم مَن رأى (لاسيما الإخباريين العرب: ابن النديم في كتابه الفهرست وأبو فرج الأصفهاني في كتابه الأغاني) أن أول كتابة عربية عرفت في مدينة الحيرة في الرافدين، وأن أهل الحيرة تعلموا الكتابة من أهل الأنبار. وثمة رأي يقول أن الخط العربي انتقل أولاً بشكله المسند الحميري إلى الأنبار، وهناك تم جزمه واختزاله وتشذيبه، حيث تم ابتكار الخط العربي. وهناك من يقول أن الحروف العربية اشتقت من الحروف الآرامية المتطورة وخاصةً من الكتابة اللينة، حيث أصبحنا أمام رأيين، الأول يقول بتطور الكتابة العربية

الشمالية عن الخط السرياني بأنواعه، والثاني يشير إلى الخط النبطي في أطواره المتأخرة.

الدكتور عدنان البني يرى أن الكتابة العربية الشمالية تمت في وسط حجازي – شامي حضري، والبحث عن أصول تلك الكتابة في المسند هو أمر صعب ومعقد، لاسيما أن تطور المسند أعطى كتابات عربية معروفة لدى الثموديين والصفائيين واللحيانيين. وبالمقابل، فإن التشابه واضح بين الكتابة العربية الشمالية من كوفية ونسخية مع الآرامية ومولداتها كالنبطية والسريانية والكتابات التدمرية والحضرية، وعليه فإذا ما تتبعنا الكتابات العربية ما قبل الإسلام وهي ثمان كتابات تتضمن نصًا عربيًا أو جاءت بكتابات عربية ولغة عربية لوجدنا أن سبعًا منها قد وجدت في القسم الجنوبي الغربي من بلاد الشام وفي منطقة الأنباط حصرًا، وهي:

١- كتابة عبادة: تعود للقرن الأول الميلادي، وعثر عليها في منطقة النقب، وهي كتابة نبطية تحمل نصًا عربيًا.

٢- كتابة أم الجمال الأولى: عثر عليها شمال شرق الأردن، تعود للقرن الثالث الميلادي، نبطية وتحمل نصًا عربيًا.

٣- كتابة النمارة: عثر عليها في شرق جبل العرب في الشام، تعود إلى مطلع القرن الرابع الميلادي، وهي نبطية تحمل نصًا عربية.

٤- كتابة معبد رم: تعود للقرن الرابع الميلادي، وتشكل مرحلة انتقالية بين النبطية والعربية و عثر عليها شرق العقبة.

٥- كتابة أم الجمال الثانية: تعود لمطلع القرن الخامس الميلادي، وتعتبر مرحلة بين النبطية والعربية.

٦- كتابة جبل أسيس: في جنوب شرق دمشق، عربية لغة وكتابة، وتعود لأواخر القرن السادس الميلادي.

٧- كتابة حران: في منطقة اللجاة، شمال جبل العرب في الشام، تعود لأواخر القرن السادس الميلادي، وهي عربية الكتابة واللغة.

نقش أم الجمال

ومقابل هذه الكتابات، نجد كتابة ثامنة، هي كتابة خربة زبد، عثر عليها في شمال الشام بين حلب والفرات، تؤرخ في مطلع القرن السادس الميلادي، هذه الكتابة مغايرة للكتابات ذات الأصول النبطية، وهي عامة أقرب شكلاً إلى الكتابة السريانية والكوفية وكتابات النقود الإسلامية الأولى. وبناءً على ذلك؛ يقترح "الدكتور البني" أن هناك وسطان لبداية الكتابة العربية هما: نبطي في جنوب بلاد الشام، وسرياني في شمالها، وقد عمل كلاهما وتطور مستقلاً عن الآخر. "فالعرب كانوا يملئون المنطقة الشمالية والرافدين، ويوطدون ثقافتهم الذاتية في أرجاء الهلال الخصيب، ويكتبون عربيتهم بكتابتهم الخاصة، بعد أن استخدموا في مراكزهم الحضرية في البتراء وتدمر والحضر والرها وغيرها، الآرامية لغة وكتابة."[٣٧]

فإذا ما قارنا كتابة زبد ما قبل الإسلام أو نص مبكر بالخط الكوفي من كربلاء وفي معبد بل بتدمر والكتابات الأموية إجمالاً، وعلى النقود، نجد من حيث الشكل العام والأسلوب تشابهًا قويًا بينها وبين الخطوط السريانية الشطرنجيلية، والسرطو والنسطوري.. حتى يظن للوهلة الأولى أن النص السرياني هو عربي وبالعكس، وبينما المقارنة مع الخط النبطي تظهر الاختلاف واضحًا، ولا ننكر وجود تشابه في بعض التفاصيل بين الاثنين.[٣٨]

خاتمة

إذن نصل من مجمل هذا الاستعراض الكتابي إلى نتيجة تقول أن العرب بعد أن كتبوا الخط المسند، استعملوا خطًا عربيًا شماليًا متأثرًا بالخط النبطي المتأخر، حيث أن القلم الآرامي أسهل في الكتابة من المسند، وذلك في المنطقة الممتدة من الحجاز إلى الشام، حيث كتبوا نصوصًا في القرون الخمسة للميلاد، ثم جاء خط آخر من الأنبار فالحيرة، حيث وصل إلى الشام، فالحجاز متأثرًا بالخطوط السريانية والآرامية اللينة عُرفت فيما بعد باسم الخط الكوفي، وبعد فترة صاحبهُ خط آخر عرف بالنسخي (يرى بعضهم أنه امتداد للخط النبطي). وقد نشأ عن الخطين الأول والثاني أصناف وتلاوين الكتابات العربية المعروفة، المختلفة تبعًا للفوارق الجغرافية من شرقية ومغربية وفارسية وتركية.[٣٩]

الجدير ذكره؛ أن الخط الكوفي استخدم في الأغراض التذكارية وفي سك النقود والنقش على الحجارة والمعادن بعامة، وفي نسخ القرآن حتى القرن الثاني عشر الميلادي. كما ظهر الخط النسخي الحجازي، ويبدو أن النسخ الحجازي أقدم من الكوفي. وقد تنوعت الخطوط تبعًا للانتشار الإسلامي في الجهات الأربع، فظهرت أنواع عديدة أهمها: الثلث - النسخ - الرقعة - الديواني- الكوفي- الفارسي، ومازال النسخي يتقدم الخطوط الأخرى ويستخدم أكثر من غيره.[٤٠]

والكتابة العربية أصبحت كتابة إسلامية، وصلت حيثما وصل القرآن، فانتشرت عند الفرس والأتراك والهنود والملايو وبعض شعوب أفريقيا الشمالية والوسطى والشرقية والغربية. ونتج عن انتشار الخط العربي بين الشعوب ظهور أنواع جديدة من الخطوط، ففي المغرب العربي والأندلس ظهر الخط المغربي، وتمكن الفرس من ابتكار خط رشيق أسموه "نِستعلق"، حيث استخدموه في المخطوطات وطباعة الشعر، أما الأتراك فابتكروا خط الرقعة السلس وخط الثلث والاجازِت.[٤١]

إن قصة الكتابة العربية تبدأ من المشرق العربي في طور الكتابة المسمارية والتي أضحت كتابة المشرق العربي القديم في عصوره التاريخية، وكتابة الشعوب المجاورة، ثم تطورت هذه الكتابة عبر الأبجدية الكنعانية الساحلية، ليتلقفها الآراميون ثم يستمد العرب المنجز الكتابي الآرامي، ثم السرياني بوجوهه المختلفة، ليصيغوا الكتابة العربية التي صارت في القرآن كتابة عالمية محفوظة في سفر الحضارة الإنسانية.

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) البني، عدنان، **المدخل إلى قصة الكتابة في الشرق العربي القديم**، دمشق ٢٠٠١ – إصدار خاص، ص٩.
(٢) بلاد الأسقوثيين تقع الآن في سهوب أوكرانيا.
(٣) خليف، بشار، **دراسات في حضارة المشرق العربي القديم**، مركز الإنماء الحضاري – حلب ٢٠٠٤، ص٥٣.
(٤) البني، مرجع سابق، ص١٠.
(٥) خليف، مرجع سابق.
(٦) **الجديد حول شرق القديم**، دار التقدم، موسكو ١٩٨٨.
(٧) مرجع سابق.
(٨) مرعي، عيد، **الكتابة والتعليم في بلاد الرافدين**، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، ١٩٩٢ (العددان ٤١ – ٤٢)، ص٩.
(٩) المرجع السابق، ص٩.
(١٠) أبو عساف، علي، **آثار الممالك القديمة في سورية**، وزارة الثقافة، سورية ١٩٨٨.
(١١) البني، مرجع سابق، ص٣٣.
(١٢) مرعي، مرجع سابق، ص١٢.
(١٣) مرعي، مرجع سابق، ص٨.
(١٤) البني، مرجع سابق، ص٣٤.
(١٥) مرجع سابق، ص١١٠.
(١٦) خليف، مرجع سابق.
(١٧) البني، مرجع سابق، ص١٤٨ – ١٤٩.
(١٨) نشأت الممالك الآرامية في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، وامتدت من الفرات حتى حدود فلسطين والساحل الكنعاني.
(١٩) محفل، محمد، **العربية لغة وكتابة**، موقع دورية كان التاريخية الإلكترونية، مجلة التراث العربي.
(٢٠) المرجع السابق.
(٢١) البني، مرجع سابق، ص١٤٩.
(٢٢) محفل، مرجع سابق.
(٢٣) **النقوش الثمودية**: تم اكتشافها في أماكن مختلفة من وسط شبه الجزيرة العربية وشمالها ويعود تاريخها بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الخامس الميلادي.
النقوش الصفائية: نسبة إلى تكون الصفا في منطقة حوران في الشام ويتراوح تاريخها بين القرن الأول قبل الميلاد ومنتصف القرن الرابع الميلادي. لغة هذه النقوش شديدة الصلة بالعربية الحجازية التي انتشرت مع الفتوحات الإسلامية.
(٢٤) **الكتابة السينائية**: عثر عليها في جبل سيناء وكتابها من الكنعانيين الذين كانوا يعملون في مناجم الفيروز والنحاس لحساب مصر. وقد وجد الباحثون أنها ربما تكون هذه الكتابة هي حلقة الوصل بين الكتابة التصويرية والكتابة الألفبائية. التصويرية المصرية الهيروغليفية والألفبائية الكنعانية الساحلية. انظر: الدكتور أحمد هبو، **الأبجدية**، دار الحوار، سورية، ١٩٨٤، ص٦٨.
(٢٥) علي، جواد، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، دار الساقي، بيروت ٢٠٠١، ص٤.
(٢٦) محفل، محمد، مرجع سابق.
(٢٧) البني، عدنان، **قصة الكتابة**، ٢٠٠٧. (إصدار خاص)
(٢٨) حتي، فيليب، جبرائيل جبور، ادوار جرجي، **تاريخ العرب**، دار الكشاف للنشر، بيروت ٢٠٠٧، ط ١٢.
(٢٩) محفل، محمد، العربية كتابة ولغة.
(٣٠) البني، موجع سابق.
(٣١) محفل، مرجع سابق.
(٣٢) هبو، أحمد، **الأبجدية**، دار الحوار، ص٩١.
(٣٣) المرجع السابق، ص٨٣.
(٣٤) هبو، مرجع سابق، ص٨٤.
(٣٥) محفل، مرجع سابق.
(٣٦) محفل، مرجع سابق.
(٣٧) البني، مرجع سابق.
(٣٨) البني، مرجع سابق.
(٣٩) البني، مرجع سابق.
(٤٠) هبو، مرجع سابق، ص٨٨.
(٤١) هبو، مرجع سابق، ص٩٠.

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449





العلماء والسلطة بالمغرب الأقصى "مسـألة التجنيـد خـلال عصـر السـلطان العلـوي المـولى إسماعيـل[١] نموذجًا (١٦٧٢ - ١٧٢٧م)"



د. الحاج ساسيوي الفيلالي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

المركز الجهوي للتكوين

مكناس – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الحاج ساسيوي الفيلالي، العلماء والسلطة بالمغرب الأقصى: مسألة التجنيد خلال عصر السلطان العلوي المولى إسماعيل نموذجًا (١٦٧٢-١٧٢٧م).- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ٧٠ - ٧٦.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخَص

إن الحديث عن شخصية عسكرية مغربية ارتبط اسمها بإنشاء أول جيش مغربي نظامي ومحترف، خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر والعقود الثلاث الأولى من القرن الثامن عشر، يدفع الباحث في المجال العسكري إلى ضرورة استحضار الظروف العامة التي سبقت ومهدت الطريق نحو الرغبة الأكيدة التي انتابت السلطان العلوي المولى إسماعيل (١٦٧٢ – ١٧٢٧م) ودفعته نحو التفكير بجدية لتأسيس جيش قوي يعيد للدولة هيبتها، ويضمن استقرار البلاد، ويقف أمام كل خطر يهدد سلامتها وأمنها. غير أننا سوف نتناول عبر هذه الصفحات علاقة العلماء بالسلطة في المغرب الأقصى من خلال مسألة تجنيد العبيد المتواجدين في البلاد لتأسيس جيش نظامي، لإلقاء الضوء على عملية الجميع والتأسيس لهذا الجيش ومعارضة العلماء لهذا الأمر، والمراسلات التي تمت بهذا الشأن بين المولى إسماعيل وعلماء مصر.

مُقدِّمة

من المعلوم، أن أية دولة تبتغي الاستمرارية والحفاظ على استقرارها واستقلالها، وفق تراتبات معينة، تعمل على تأسيس جيش نظامي، لذلك ارتأى المولى إسماعيل، ضمن سياسته العسكرية، تجنيد كل العبيد المتواجدين بالبلاد، هذه السياسة التي نهجها السلطان، تكون قد وضعت حدًا فاصلاً بين مكونات "المؤسسة العسكرية" في عهد سلفه المولى الرشيد،[٢] والمعتمدة في الغالب على التحالفات القبلية، وبين تشكيل قوة عسكرية مستقلة لها ارتباط وحيد ومباشر بالسلطان.

فما هي السبل والوسائل التي سلكها المولى إسماعيل لبلوغ هذا الهدف؟ وما هي الأسس والدعائم التي ارتكزت عليها فئة العلماء (النخبة المثقفة) للوقوف في وجه المشروع الاسماعيلي؟ هل هي تجريد القبائل من السلاح، وبالتالي حرمناهم من واجب الجهاد على حد قول الحسن اليوسي؟[٣] أم أن المسألة تتعلق بنصرة واجب شرعي، قد تكون هي حرية الإنسان، كما ذهب إلى ذلك جسوس؟[٤] أم غير ذلك؟.

أولاً: عملية الجمع والتأسيس

يذكر المؤرخون أن المولى إسماعيل قد ولع بجمع العبيد، قصد تنظيمهم في سلك الجندية، فانطلقت العملية من مدينة مراكش وأحوازها، وقبائل الدير تحت إشراف الباشا عليليش،[٥] "... فلم يترك بتلك القبائل أسودًا، سواء مملوكًا أو حرطانيًا،[٦] فجمع في سنة واحدة ثلاثة آلاف نفس، منهم المتزوج وغيره، فكتبهم في دفتر، ووجهه للسلطان"؛[٧] ثم عممت هذه العملية لتشمل باقي أنحاء البلاد، حيث أنيطت مهمة ذلك بقواد الدولة الكبار، "... فجمعوا كل ما وجدوه، حتى لم يبق أسود بالمغرب، في حاضرة ولا بادية، ولو كان حرا أسود أو حرة سوداء..."[٨]

ولما كان المولى إسماعيل يعتبر "... اتخاذ الجند عدة الله في أرضه، وبه حماية بيضة هذه الأمة"،[٩] فقد عمل على تنظيم حملات نحو تخوم السودان، لجلب المزيد من العبيد "... وامتدت الطاعة والحمد لله لنا - يقول المولى إسماعيل- في بلاد القبلة، وما والاها من بلاد الأكوار والسودان".[١٠] ويشير "دولفوس" إلى حملة أخرى قام بها ابن أخ السلطان إلى تومبوكتو، عاد على إثرها بالعديد من السود.[١١]

وبعد انتهاء عملية الجمع أضفى السلطان وسامًا على جيشه، ذا مسوح شرعية كرمزية تنسب إلى "صحيح البخاري"، فقد أورد الناصري أن "سبب تسمية هذا الجيش بعبيد البخاري، أن المولى إسماعيل... جمع أعيانهم، وأحضر نسخة من "صحيح البخاري"؛ وقال لهم: أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله، وشرعه المجموع، في هذا الكتاب، فكل ما أمر به نفعله، وكل ما نهى عنه نتركه، وعليه نقاتل. فعاهدوه على ذلك، وأمر بالاحتفاظ بتلك النسخة، وأمرهم أن يحملوها حال ركوبهم، ويقدموها أمام حروبهم كتابوت بني إسرائيل... فلهذا قيل لهم: عبيد البخاري".[١٢]

وفيما يخص الاعتناء بهذا الجيش، فإن المولى إسماعيل لم يكتف بجمعهم فقط بالمحلة المذكورة، بل عمل على تربيتهم وتدريبهم وفق النموذج العسكري التركي.[١٣] وتجدر الإشارة إلى؛ أن السلطان قد سلك في سبيل الحصول على هؤلاء السود المملوكين والأحرار طريقين: الأولى، كانت تتم عن طريق الشراء، يقول أكنسوس: "ومن كان مملوكًا لصاحبه أعطاه عشرة مثاقيل"،[١٤] "للعبد وعشرة للأمة"؛[١٥] أما الثانية، فقد كانت تتم قسرًا أو طواعية؛ وبدون مقابل، إذ "من كان غير مملوك أخذه بلا شيء".[١٦] وبذلك يكون المولى إسماعيل قد جمع من العبيد" إلى أن لم يبق عند أحد عبد".[١٧]

وعمومًا، يتضح أن القواد الذين كلفوا بعملية الجمع لم يحسنوا التصرف، لدرجة أنهم لم يتركوا في "القبائل كلها أسود، سواءً كان مملوكًا أو حرطانيًا أو حرًا أسود، واتسع الخرق وعسر الرتق".[١٨] وهذا يبين بجلاء مدى الفزع الذي ساد سكان البلاد، خاصةً ذوي اللون الأسود، يقول محمد الفاسي: "فقد أصاب المغاربة الذعر والرعب، وخاصةً من كان لون جلدهم أسودًا، أو قريبًا من السواد"،[١٩] الشيء الذي أفرز ردود فعل قوية من قبل "نخبة مثقفة"، حملت مشعل المعارضة للمشروع السلطاني.

ثانيًا: معارضة العلماء

من البديهي، ألا يحصل الاتفاق بالإجماع دائمًا بين العلماء وسلاطينهم، وهو ما يعطي لمبدأ الشورى مضمونه الحقيقي، فالاتفاق معطى شرعي، غير أن الاختلاف في بعض الأحيان ممكن شرعًا،[٢٠] وبذلك تكون مسألة تمليك الأحرار من المسائل التي أثارت نقاشًا حادًا بين العلماء والسلطان، وكثر فيها الأخذ والرد، فأصبح التوافق والتكامل بينهما استثناء.[٢١]

لقد استاء العلماء بزعامة القاضي الشيخ بردلة[٢٢] على ما أسموه بـ "استرقاق المسلمين الأحرار".[٢٣] وحيال هذا العصيان، انتقص المولى إسماعيل من كفاءة هذا القاضي، وأمر بعزله من منصب القضاء، كإجراء عقابي له، أو على الأقل تحذيري.

وسلك السلطان مع العالم محمد بن عبد القادر الفاسي[٢٤] أساليب مختلفة للحصول منه على فتوى تزكي مشروعه، من بينها الإعلاء من قدره والحط من مكانة غيره من العلماء، فخاطبه قائلاً: "ومن أجل هذا، فلابد من نظركم فيما أجاب به الغير، وتصحيحكم لما تضمنته الأجوبة التي وردت من قبل القاضي بردلة، وصاحبه، إذ لا يمكن الاعتماد على مجرد فتاويهما دون مطالعتكم، وقبولكم أوضح القبول، لأنه وإن كان متسمًا بسمة العلم فإنه مقصر فيه".[٢٥] فالهدف إذن هو القضاء على وحدة العلماء، إلا أن هؤلاء كانوا ينظرون إلى المشروع الاسماعيلي كمؤسسة غير شرعية، فعارضوه بشدة، كل حسب أسلوبه الخاص.

وقد طال الجدال بين العالم محمد بن عبد القادر الفاسي والسلطان، وكانت بينهما مكاتبات ومراجعات كثيرة، فاختار الأول أسلوب المماطلة كوسيلة لاتقاء شر السلطان، ذلك أنه "كان فقيها بأساليب الدهاء والسياسة، وبقي اثنا عشر سنة يراوغ السلطان، إلى أن توفي سنة ١١١٦هـ، دون أن يفتيه".[٢٦] وللكشف عن هذا الأسلوب أكثر، نجد في إحدى رسائل الشيخ المذكور أجوبة عامة، من ذلك الرسالة المطولة التي خص الثلثين منها للتأكيد على مكانة العلم وأهله، ويعتذر عن إبطاء الجواب. ولم يتناول مسألة العبيد كموضوع في رسالة السلطان إلا في الثلث الباقي منها.[٢٧] وفي محاولة أخرى، نهج السلطان أسلوبًا آخر مع الفاسي، اعتمد من خلاله تبيان نقائص ومساوئ هؤلاء العبيد -حسب زعمه- من قطع للطرق، ...إلخ، إلا أن محاولته هذه باءت بالفشل.[٢٨]

ويظهر أن هذه الأساليب التي اتبعها السلطان مع هذا العالم، لم تؤت أكلها المرغوب، ففضل العاهل نهج أسلوب آخر، غير المعتاد في شخصه، فبعد أسلوب المراوغة وألوان الحيل، نهج هذه المرة أسلوبًا لينا لعله يفي بالمطلوب؛ وهذا ما جاء في إحدى رسائله للفقيه المذكور "... تمعنوا النظر في هذا الرسم الموجه إليكم منا، صحبة حامله، وطالعوه، فإن كان سالم القواعد والفصول، ولا فيه لأحد ما يقول، فلتصنعوا خطكم لنا عليه...".[٢٩] إلا أن المتصفح لأجوبة الشيخ، يلاحظ أن خط يده هو الغائب في رسائله الموجهة للسلطة المخزنية. ورغم ذلك فإن السلطان رفع من درجة تودده للعلماء إذ يقول في إحدى رسائله: "... فالمطلوب من سادتنا هو إطفاء هذه النَّائِرَةِ بفتاو لائقة، وعبارة صريحة. ونحن حرمة العلم، والشيخ سيدي عبد القادر رحمه الله تعالى، ما أرحمتمونا من هذه الكلفة، وأزلتم عنا هذه الغصة، لله تعالى، والله يديم علاكم بمنه آمين".[٣٠]

ولما كانت النازلة تحتاج إلى موقف شرعي صريح، لا يحتاج إلى تأويل، فإن الفقيه التزم أسلوب المماطلة، رغم ما خصه به

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

السلطان من ألقاب وتباجيل، توحي كلها بطابع التعظيم، من قبيل "أنتم القضاة، ونحن المنفذون".[٣١] ولعل رغبة السلطان في ذلك، هو إخماد نار الفتن التي أشعلتها مسألة تمليك الحراطين، وهذا ما تكشف عنه إحدى العبارات السلطانية التي توحي بأن الأمر يتطلب "إطفاء هذه النَّائِرَة" إلى درجة أن المولى إسماعيل شعر بما اقترفه من فعل، لذلك كان مراده هو "البيان عما ارتكبه سيدنا نصره الله من هذا الإنشاء للجند، هل هو سائغ أم لا؟ وأيضًا هذا البحث، وهذا التحري والاحتياط، ما قولكم فيه ببيان شاف للغليل، كاف في المقصود... إذ المعتمد هو خطكم، ولا يكفي قولهم في كتبهم، ظهر الحق كل الظهور...".[٣٢] إلا أن أسلوب اللين والمهادنة لم يجد في الحصول على الفتوى المذكورة، بالشكل التقريري، لذا نجد السلطان قد غير من لهجة خطابه السابق، وفق تسلسل تصاعدي، حيث نسجل في إحدى رسائله إلى الشيخ سيدي محمد أسلوبًا ينم عن سخطه وتوبيخه للعلماء، إذ يقول: "... حسبنا أنكم تقومون معنا، وتقعدون بالأقلام والأقدام، وما في النوازل والأحكام، وما قاله الأئمة والأعلام، فلم تفعلوا... وما ذلك إلا من قلة اعتنائكم، وضعف هممكم واهتمامكم، وعدم غيرتكم".[٣٣]

وإذا كان سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي غامضًا في موقفه، متحفظًا في جوابه عن النازلة، فإن هناك من فضل الانزواء والعزلة كشكل من أشكال التعبير، وذلك بالهجرة خارج مدينة فاس، والتزم الصمت كأسلوب للمعارضة؛ ومن أبرز أعلام هذا الاتجاه نذكر العالم محمد المشاط.[٣٤] ومنهم من أدعى المرض، في حين ذهب بعض آخر إلى التظاهر بفقدان العقل، تفاديًا لشغل بعض المناصب السلطانية، كوظيفة القضاء، حتى لا يوافق على المشاريع المخزنية، من قبيل تمليك الحراطين. وفي هذا الصدد يذكر القادري أن أحمد بن علي الجرندي[٣٥] كان قد عين بعد عزل "القاضي محمد العربي بردلة على قضاء مدينة فاس فلم يقبل، فاستعفى- المولى إسماعيل- فأعفاه"[٣٦]: "واحتال لنفسه بأن تحامق وصار يظهر من نفسه البله والأفعال الخسيسة"،[٣٧] "وجعل يفعل بنفسه فعل من لا يعقل، ويرتكب المحظورات من الأعمال، حتى تركوه، وذلك منه فرارًا من تقلد حقوق المسلمين، واختار السلامة لنفسه"،[٣٨] فتركه السلطان.[٣٩] أما العالم الحسن اليوسي، فإنه لم يعارض فكرة تجنيد الأحراء فحسب، بل جاهر بانتقاداته للسياسة الإسماعيلية،[٤٠] كجملة لا تنفصم حلقاتها، مركزًا على ثلاثة محاور، شكلت مآخذه، فاعتبر تجريد القبائل من السلاح والخيل، إضعافًا للأمة، ومحطة لأطماع العدو المتربص بها. ثم فرض الضرائب والمغارم إثقالاً لكاهل السكان، فضلاً عن الدعوة لنبذ الجور والتزم العدل والمساواة، كأساس لاستقام أحوال الملك.

ويتضح من خلال هذه النصوص التي لا تحتاج إلى تأويل، أن مسألة تمليك الحراطين كانت تبذل لأجلها كل الحلول الممكنة، سواءً كانت شرعية أو غير ذلك، وبهذا يكون الجرندي قد اختار لنفسه علة تسقط عنه بموجبها كل التكاليف الدينية، فبالأحرى الدنيوية، لأن مناط التكليف يستدعي أن يكون الإنسان عاقلاً.

وعلى كل، وأمام عدم استجابة العلماء للطلب السلطاني، أمر المولى إسماعيل باستدعائهم إلى عاصمته مكناس، "فحضر من الفقهاء الشيخ أبوعلي اليوسي، والشيخ أبو محمد عبد السلام بن حمدون جسوس، والشيخ أبوعبد الله محمد بن أحمد المسناوي الدلائي، والشيخ أبو عبد الله محمد الشاذلي الدلائي،[٤١] والعلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن زكري،[٤٢] وأبو عبد الله محمد بن المشاط، وأبو عبد الله محمد بن العافية، وغيرهم. وحضر كبراء فاس، فكانت بينهم وبين السلطان محاضرة أغضبته، وقام من بينهم، فأخذ الشيخ جسوس بطرف برنوسه، وقال له: اجلس تسمع ما قال جدك رسول الله ﷺ، فاستشاط غضبًا وخرج".[٤٣]

ومن خلال أجوبة سيدي العربي بردلة، وعبد السلام جسوس كنموذج للعلماء المعارضين، نتمكن من التعرف على رأي العلماء في الموضوع، فقد أكدوا على أن عملية جمع الحراطين، ما هي إلا استرقاق للمسلمين الأحرار، كما ألحواعلى شفافية وصراحة النصوص الشرعية التي لا تحتاج إلى تأويل في هذا الباب. يقول بردلة في رده على إحدى رسائل المولى إسماعيل: "... وأما أمر الملك، فالبيع للمشتري ولا إشكال في ذلك،...وذلك مجمع عليه... وأما المبيع فهو المملوك، فمن اشتراه من مالكه صح بيعه بشروطه ولزم، ومن اشتراه من غير مالكه فسخ بيعه، ورد لمن تملكه، ثم الأصل في الناس الحرية، وهو مما لا خلاف فيه، بل حكى بعضهم الإجماع عليه"،[٤٤] وبهذا يكون بردلة قد عارض عملية التمليك وفق أسلوب مختلف عما عهده باقي العلماء. حيث كان سبيله في ذلك القلم والرسائل، فيما يمكن أن يؤطر بلغة العصرب "المواجهة الإعلامية"؛ دليلنا على ذلك ما أورده القادري قائلاً: "... أكثر من مخاطبة السلطان بالكتابة، وكان إذا شافهه لا يتكلم، بل يقتصر على ما يكتب له بالقلم، في الأجوبة والرسائل وغيرها"،[٤٥] هذا من جهة ومن جهة أخرى، فقد شاطر جسوس رأي المولى إسماعيل في تكوين جيش نظامي، يستجيب لتطورات العصر والمرحلة؛ ولكنه عارض تلك الطريقة التي تظل، حسب رأيه، منافية للشرع. وإن كان المولى إسماعيل قد حاول إقناعه بأن عملية التجنيد لا تعني استرقاق الناس الأحرار، لأن الالتحاق بالجندية أمر تطوعي.[٤٦]

وهذا ما أدى بأحد الدارسين إلى اعتبار القضية المختلف حولها قد ينفسح فيها الباب للاجتهاد وللأخذ والرد. ولعل المولى إسماعيل بعد أن تم له الاقتناع بصواب مسلكه في ذلك، حمل موقف العلماء الذين خالفوه فيه على أنه مجرد معارضة، لا تسند إلى أساس قوي غير قابل للمناقشة؛[٤٧] بينما اعتبر جسوس أن المسألة لا تحتاج إلى اجتهاد ما دام النص الشرعي حاضرًا وواضحًا، لذلك يقول ".... إلا لأني لم أجد له وجهًا ولا مسلكًا، ولا رخصة في الشرع".[٤٨] ومن ثم كان إصراره على أن الحراطين أحرار كباقي المسلمين، وحريتهم شيء معروف، ولا جدال فيه، وأي اعتراف من

قبلهم برقيتهم، وأي شهادة من الغير تتهمهم بالرقية، هي من قبيل الضغط والإكراه، مما لا يتوفر له إثبات، يقول جسوس:[٤٩] إذ الوارد في فتاوى العلماء أن "مَن لم تثبت رقيته لأحد فلا كلام لنا فيه... ولا تسلط لأحد عليه ببيع ولا بغيره".[٥٠] ويوضح جسوس في موقع آخر، أن الشخص الذي كلف بجمع العبيد، صرح أمام الملأ بما فيه من عالم وجاهل، بأنه سيعطي المثال بهم، إذا لم يقبلوا بعملية الاسترقاق هذه، وحذرهم باتخاذه عقوبات زجرية كالقتل، وهتك أعراض عائلاتهم، وفرض الغرامات المالية القاسية.

وعليه يرى هذا الفقيه العالم، أن الاعترافات التي تمت تحت القهر لا أساس لها من الصحة. ثم يضيف متسائلاً، كيف يمكن للمرء الاعتماد على هذه الاعترافات والقبول بها؟ وكيف يمكن استرقاق شخص أو تخليصه من الرقية بالاعتماد على مثل هذه الاعترافات والشهادات؟. إن السنة وفتاوى الأئمة زاخرة بالنصوص التي تحرم الاعتماد على الاعترافات المنتزعة بالضغط والإكراه.[٥١] وهذا ما جعل المشرفي يصف أعمال الجمع القهرية، التي قام بها عليليش بالطابع الشيطاني"... وسبب ذلك كله ما فعله عليليش في جمع الحراطين، مما لا يفعله إلا الشيطان، فإنه تسلط على كثير من الأحرار ظلمًا وأدخلهم في [ربقة] الرق رغما، وأخذ الأموال ووقعت بسببه أهوال، والأمر لله الكبير المتعال".[٥٢]

وعلى هذا الأساس، اعتبر جسوس اعتراف الحراطين بأصلهم الرقي غير جائز شرعًا، ولو صدر منهم عن طواعية ودون إكراه، ولهذا لا يمكن استرقاقهم... فالحرية حق أنعمه الله عليهم، وليس لهم الحق في اختيار الرقية.[٥٣] وبهذا يكون هذا العالم مقتنعا بحرية هؤلاء، إذ يقول: "نعرفهم حق المعرفة، نعرفهم كأحرار ولا تغيب عنا أحوالهم الخاصة".[٥٤] ونظرًا لهذه المواقف المبدئية للشيخ المذكور، كان لابد أن يتحمل تبعات ذلك، إذ تم سجنه ثلاثة أشهر بمكناس، من ٤ يوليو إلى ٨ سبتمبر ١٧٠٨م، على إثر انفضاض الاجتماع الذي كان يعقد بحضرة السلطان، واشترطت السلطة المخزنية على الفقيه المسجون مقابل إطلاق سراحه، دفع غرامة مالية، والالتزام بعدم التدخل في مسألة التمليك، حيث يذكر صاحب "الاستقصا" أنه تم القبض على "أولاد جسوس واستلب أموالهم، وأجلس –أبو محمد عبد الله الروسي- فقيهم الشيخ محمد بن عبد السلام بالسوق مقيدا، يتطلب الفداء، ثم حمل مسجونا إلى مكناس".[٥٥]

ونظرًا لموقعه الاجتماعي تسارع الناس إلى إفدائه، وخاصة بنو جلدته من البلديين،[٥٦] أقدموا على جمع المال بهدف تحريره، وإطلاق سراحه، خاصة بعدما "حقد عليه السلطان، فاستصفى عامة أمواله، وأجرى عليه أنواع العذاب، وبيعت دوره، وأصوله، وكتبه، وجميع ما يملك هو وأولاده، ونساؤه؛ ثم صار يطاف به في الأسواق وينادى عليه: من يفدي هذا الأسير؟ والناس ترمي عليه بالدرهم والحلي، وغير ذلك من النفائس، إياما كثيرا... وبقي على ذلك قريبا من سنة".[٥٧] ويعد هذا الابتلاء الذي تعرض له جسوس، الثاني من نوعه، إذ تم إطلاق سراحه كما هو معلوم سنة ١١٢١هـ/٨ سبتمبر ١٧٠٨م، "فعفا عنه السلطان... وسرحه وبعث به إلى فاس، ليزعج الحراطين الذين بها إلى مكناسة، فقدم وأزعجهم في ربيع الأول من السنة المذكورة ١١٢١هـ".[٥٨]

وعلى أي حال، فقد قتل العالم أبو محمد عبد السلام بن حمدون جسوس مخنوقًا" من ليلة الخميس لخمس ليال بقيت من ربيع الثاني سنة ١١٢١هـ/٤ يوليو ١٧٠٩م";[٥٩] "... فكان في ذلك محنة عظيمة له ولعامة المسلمين وخاصتهم" على حد تعبير الناصري.[٦٠] وقبيل اغتياله ترك بخط يده شهادة أذاعها في الناس، هذا نصها:

"الحمد لله، يشهد الواضع اسمه، عقبه على نفسه، ويشهد الله تعالى وملائكته وجميع خلقه، أني ما امتنعت من الموافقة على تمليك من ملك العبيد، إلا لأني لم أجد له وجها ولا مسلكا، ولا رخصة في الشرع، وأني إن وافقت عليه طوعا أو كرها، فقد خنت الله ورسوله والشرع، وخفت من الخلود في النار بسببه، وأيضا فإني نظرت في أخبار الأئمة المتقدمين حين أكرهوا على ما لم يظهر لهم وجهه في الشرع، فرأيتهم ما آثروا أموالهم ولا أبدانهم على دينهم خوفا منهم على تغيير الشرع، واغترار الخلق بهم، ومن ظن بي غير ذلك، وافترى علي ما لم أقله، وما لم أفعله، فالله الموعد بيني وبينه، وحسبنا الله ونعم الوكيل؛ والسلام". وكتب عبد السلام بن حمدون جسوس غفر الله ذنبه، وستر في الدارين عيبه، صبيحة يوم الثلاثاء الثالث والعشرون من ربيع الثاني سنة ١١٢١هـ ثم بعد ذلك بيومين أمر أبو علي الروسي بقتله، فقتل رحمه الله خنقا بعد أن توضأ وصلى ما شاء الله، ودعا قرب السحر من ليلة الخميس، خمس وعشرين ربيع الثاني ١١٢١هـ، ودفن ليلاً على يد القائد أبي على الروسي"،[٦١] في روضتهم قرب سيدي علي بن أبي غالب، داخل باب الفتوح من فاس الأندلس.[٦٢]

ثالثًا: علماء مصر والمولى إسماعيل

إن فتاوى العلماء كانت تشكل "سلطة" في تهدئة الرأي العام من جهة، وتستقر بها دعائم الفئة التي تمتلك زمام الحكم من جهة ثانية، وهذا ما يبين حرص السلطان للحصول على فتوى خطية من العلماء تبيح له تأسيس جيش نظامي، لذلك راسل علماء مصر، يستفتيهم في مسألة التمليك قائلاً: "... وقد أردنا وفقكم الله استفتاءكم... في مسألة مهمة في الدين، ابتغينا فيها سلوك سنن المهتدين... وهي أن هذه الأقطار المغربية... كلها ثغور ورباط، لقربها من مجاورة العدو الكافر، واحتياجها إلى... جند كثيف... يتأتى به الدفاع عن البيضة الإسلامية... وحين جاء الله بنا لهذا المغرب... وجدناه فارغًا من الجيش والعيش، وخفيف العمارة، بعيد العهد بالخلافة والإمارة".[٦٣]

وقد ساق مجموعة من التبريرات، من قبيل أن "الأحرار" لا يصلحون للانخراط في الجيش النظامي باعتبار طابعهم المتحضر، الذي كان من نتائجه التكاسل والتخاذل، وغلبة الشهوة، وكثرة الأطماع المركوزة منهم في الطباع";[٦٤] كما أنهم (الأحرار) يحتاجون

إلى نفقات باهظة، لسد حاجياتهم بحيث لا يكفي الواحد منهم القليل.(٦٥) وبالتالي أعفاهم من الخدمة نظير إلزامهم بتوظيف مالي يحمل لبيت مال المسلمين.(٦٦)

وفي مقابل ذلك؛ واعتقادًا من السلطان بأن العبيد يملكون من "النجدة والحزم، والقابلية والصبر، ما ليس في غيرهم من الأحرار"،(٦٧) كما أنهم بمجرد شرائهم وتسجيلهم في الديوان، يهبون أرواحهم في خدمة الجندية؛(٦٨) فإنه – السلطان- بسط لعلماء مصر مميزاتهم، ذلك أنهم "ألفوا هذا الرق، وعرفوه وأدركوه... فيخرج الواحد منهم عن سيده ويتولى غيره، ويتجاوز إلى قبيلة أو يستند إلى شيخ أو كبير ذي عصبية، فيتعصب به... وتشتتوا هكذا في البلدان... هذا مع أن أصلهم من كفرة السودان المجاليب، من هناك عن طريق الشراء".(٦٩) إضافة إلى أن "هذا الجنس قليل المؤونة، راض بما تيسر من المعيشة، قنوع بما يجده دون كلفة".(٧٠)

وبالجملة، فإن السلطان ورغبة منه في الحصول على سند شرعي يعضد مشروعه، فإنه دعم رسالته للعلماء المصريين بمعطيات غير مقطوع بصحتها، بل إنها تصل إلى درجة الافتراء في غالبيتها، إذ يقول: "... وشاورنا وتفاوضنا مع العلماء والفقهاء والقضاة وأهل الفتوى... وخاصةً أهل هذا المغرب أمنه الله... في مسألة هؤلاء المماليك... وبينا ذلك حتى فهموه... فعند ذلك أجابوا كلهم بالفور من غير توقف ولا تلعثم بهذه الأجوبة المحررة، الجارية على مذهب المالكية، الواصلة إليكم إن شاء الله".(٧١)

وهكذا؛ يكون المولى إسماعيل قد نهج أسلوبًا يتسم بالمراوغة والدهاء، إذ يوهم علماء مصر أن فتواهم لن تكون هي الأصل، ما دام علماء المغرب – حسب السلطان- "في غنى عنكم... ولا نحتاجكم لأجلها"،(٧٢) وذلك حتى لا يعطي أهمية بالغة لفتواهم، لكي لا يستعظموها، ويدققوا في فقراتها، وإنما أطرها في باب الاستئناس، قائلاً: "ولكن أردنا مشاركتكم في أخبارها، والاستظهار بما عندكم من العلم في أمرها، فإن الحق لا يخفى على اثنين، ولا على من أمعن النظر فيه بعينين".(٧٣)

وللإشارة؛ فإننا لم نعثر على جواب علماء مصر بخصوص هذه النازلة بشكل صريح، سواء إيجابًا أو سلبًا؛ وإن كان القارئ لرسائل السلطان يكاد يلمس بأنه حصل على الفتوى التي استعصت عليه داخليًا؛ ويبقى الحسم في المسألة لما قد تجود به الوثائق التاريخية استقبالاً.

خاتمة

على الرغم من الأدوار الإيجابية التي قد يكون "جيش عبيد البخاري" لعبها، فإننا نسجل الملاحظات التالية:

- إن عناصر "جيش عبيد البخاري" تسلقوا السلم المخزني، وأصبحوا من أقرب المقربين للسلطان، وشغلوا الوظائف الإدارية والعسكرية والسياسية،(٧٤) مما جعلهم محط حقد من قبل إخوانهم في العقيدة (البيض)، إذ حمل هؤلاء السلطان مسؤولية تسويد المخزن".(٧٥) ونشب صراع خفي بين الطرفين، إلا أنه سيتطور بعد وفاة المولى إسماعيل بشكل مكشوف، كان من إفرازاته دخول المغرب في "فترة الأزمة"، أزمة الثلاثين سنة، كما يحلو للمؤرخين تسميتها، والتي اعتبرت فترة مفصلية كادت أن تعصف بمقومات الدولة العلوية الفتية.
- إن اتخاذ قرار تأسيس هذا الجيش اتسم بالغلو من قبل الحاكم/السلطان؛ وعدم التوافق بين هذا الأخير والمكونات الرئيسية للمجتمع، وبالأخص فئة العلماء؛ مما خلق جوًا مشحونًا بالتوتر والصراع، وصل إلى درجة التصفية الجسدية بين مؤسستي: العلماء والمخزن/السلطة.

الهوامش:

(١) سلطان علوي، حكم المغرب من سنة ١٦٧٢ إلى ١٧٢٧م، للإطلاع على تفاصيل حياته، أنظر على سبيل المثال: الإفراني محمد الصغير، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، طبعة ١٩٨٨م، ص٥٠٤. الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف (ذ جعفر وذ.محمد)، دار الكتاب،الدار البيضاء، سنة ١٩٥٥م، ج٧، ص٤٥ وما بعدما. المشرفي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية**، تحقيق إدريس بوهليلة، طبعة ١٩٩٢/١٩٩٣م،ج٢، ص٤١٨ - ٤١٩ وما بعدها. الزياني، **الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب**، تحقيق وتقديم محمد غسان عبيد، الرباط،١٩٩٤م، ج٣، ص٧٢. أحمد بن الحاج السلمي، **الدر المنتخب المستحسن، في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن**، مخطوط الخزانة الملكية، الرباط، رقم: ١٩٢٠ز.

(٢) المؤسس الحقيقي للدولة العلوية المغربية (ت١٦٧٢م)، للمزيد عن سيرته أنظر: نفس المصادر التي ترجمت لأخيه المولى إسماعيل في الإحالة السالفة.

(٣) هو أبو علي الحسن اليوسي، ينسب إلى قبيلة آيت يوسي، من قبائل البربر، ولد سنة ١٠٤٠هـ، اتصل بالزاوية الدلائية وهو ابن العشرين من عمره سنة ١٠٦٠ هـ، ولم يغادرها إلا بعد أن قضى عليها المولى الرشيد، يقول عنه الناصري: "كان رضي الله عنه غزالي وقته، علمًا وتحقيقًا وزهدًا وورعًا". وفي سنة ١١٠١هـ زار مصر، وأدى فريضة الحج، ثم رجع إلى قبيلته حيث وافته المنية سنة ١١٠٢ هـ بتامزيزت ناحية صفرو، وهناك دفن. وذكر "جاك بيرك" في كتابه عن اليوسي ثلاثة وثلاثين كتابًا، منها شعر في رثاء عبد القادر الفاسي، ثم "زهر الأكم في الأمثال والحكم". وللمزيد من التفصيل، راجع مقال عباس الجراري، "**بيبليو غرافيا اليوسي أو سيرته البيبليوغرافية**"، مجلة المناهل، الرباط، ١٩٧٩م، العدد ١٥، ص٥٤ - ١١٣. وانظر كذلك: الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا**، الرباط، طبعة ١٩٦٧م، ص ٥٥-٦١-١٠٠. الناصري، المصدر السابق، ص١٨- ١٠٩. ليفي بروفنسال، **مؤرخو الشرفاء**، تعريب عبد القادر الخلادي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ص ٢٦٩. عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ج١، ص ٦٨. الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م، ج٢، ص٢٩٧.

(٤) كان إمامًا بالمسجد الأعلى، من العقبة الزرقاء من فاس القروين، درس على يد عبد القادر الفاسي، وأبي علي اليوسى، وأبي عبد الله بردلة، وأبي سالم العياشي، توفي قتيلاً في سجن فاس يوم ١٥ ربيع النبوي،١١٢١هـ، ودفن في روضتهم قرب سيدي علي بن أبي غالب، داخل باب الفتوح من فاس الأندلس. القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٧/١٩٨٦ م، ج٣، ص٢٠٧-٢٠٨.

(٥) يشير الضعيف بأن عليليش هو محمد بن قاسم، في حين تتفق باقي المصادر في كونه عمر بن قاسم وليس محمد بن قاسم، كان والده كاتبًا عند المنصور السعدي، ومع أولاده من بعده، وتعلق عمر بخدمة السلطان المولى إسماعيل، وهو الذي أطلعه على دفتر أسماء العبيد، توفي سنة ١١٢٣هـ **تاريخ الدولة السعيدة**، تحقيق أحمد العماري، الرباط ١٩٨٦م، ص ٨٦. الناصري، المصدر السابق، ص٧٠. القادري، نشر المثاني، ج٣، ص٢٠٤. المشرفي، المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٠.

(٦) يقول الناصري في تعريفه للحرطاني: "... معناه في عرف أهل المغرب: العتيق، وأصله الحر الثاني، كأن الحر الأصلي حر أول، وهذا العتيق حر ثان، ثم كثر استعماله على الألسنة، فقيل: الحرطاني على ضرب من التخفيف". المصدر السابق، ص٥٨.

(٧) أكنسوس، **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا على السجلماسي**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقمه: ٢٦، ص٦٩.

(٨) القادري، **التقاط الدرر**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص ٣٣٥.

(٩) **رسالة المولى إسماعيل إلى محمد بن عبد القادر الفاسي بتاريخ ٢٥ ذي الحجة ١١٠٨هـ** هسبريس تامودا، طبعة ١٩٦٢، ص ٤٨ - ٤٩.

(١٠) ابن الشريف إسماعيل، **إلى ولدي المأمون**، المطبعة الملكية، ١٩٦٧م، ص١٢.

(11) **Les débuts des troupes noires du MAROC**, in hespéris, Revue de l'institut des hautes études marocaines, Tome 3,1924.p10.

(١٢) المصدر السابق، ص ٥٨.

(١٣) هذا النموذج شبيه إلى حد ما بالشكل الذي كان السلاطين العثمانيون يربون عليه عناصر جيش الإنكشارية، إذ كان هؤلاء يؤخذون من المسيحيين كضريبة الدم، ثم يتلقون تربية إسلامية ويختار النجباء والأذكياء منهم لتسلم أمور القيادة، والباقي يوظفون في صفوف المشاة من الانكشارية.

(١٤) الجيش العرمرم، ص٦٩. الناصري، المصدر السابق، ص٥٧.

(١٥) الزياني، **الروضة السليمانية**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم: د١٢٧٥، ص٥٩.

(١٦) أكنسوس، المصدر السابق، ص٦٩.

(١٧) الزياني، الروضة، ص ٦٠.

(١٨) الناصري، المصدر السابق، ص ٥٦.

(١٩) مجلة تطوان، عدد خاص، ١٩٦٢، ص١٤.

(٢٠) محمد المهناوي، **الشورى في دولة الإسلام**، العلم الثقافي، السبت ١٧ مارس، ١٩٩٠، عدد ٩٦٥، ص٢ - ٧.

(٢١) وإن كان الأستاذ المهناوي يذكر أن الأصل والقاعدة هي التوافق والتكامل بين السلطان والعلماء، وتبادل الاحترام والتبجيل، وهو الأساس نظريًا وواقعيًا. نفس المصدر، ص٧.

(٢٢) هو أبوعبد الله العربي بردل، الأندلسي الأصل، ثم الفاسي مولدًا ووفاة، كان أكبر علماء عصره، شغل منصب القضاء في فاس، وعزل منه عدة مرات بسبب معارضته للتجنيد الإجباري للحراطين؛ توفي سنة ١١٣٣هـ/١٧٢١م. عنه أنظر: محمد بن جعفر الكتاني، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس، ممن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، طبعة فاس (د.ت)، ج٣، ص١٥٨. القادري، **نشر المثاني**، ج٢، ص٢٠٠. الحجوي، **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، مطبعة إدارة المعارف، الرباط، ١٣٤٠-١٣٤٥هـ، ج٤، ص ١١٨. وترجم له كذلك عزيز عبد الله بطران، **علماء فاس والمولى إسماعيل ومشكلة حراطين فاس**، ترجمة عبد الله بن الأمين ومحمد المهناوي، مجلة أبحاث، ع٢٦، ص٧٩.

(٢٣) عبد الله بطران، المرجع السابق، ص٧٥.

(٢٤) ولد سنة ١٠٤٢هـ/١٦٣٢م وتوفي سنة ١١١٦هـ/١٧٠٤م، وهو فقيه مالكي من أهل فاس، كان ممن يرجع إليه في الحوادث الوطنية الوقتية والدينية والدنيوية، وهو ابن العالم عبد القادر الفاسي، المتوفى سنة ١٠٩١هـ/١٩٨٠م. الناصري، المصدر السابق، ص١٨.

(٢٥) **رسالة من المولى إسماعيل إلى الشيخ محمد بن عبد القادر، تحمل تاريخ ١١٠٩هـ/١٦٩٨م**. هسبريس تامودا، ص ٥٣.

(٢٦) المرجع نفسه، ص ٤٨. وانظر كذلك: مجلة تطوان، ص١٥.

(٢٧) **رسالة إلى المولى إسماعيل من محمد بن عبد القادر الفاسي**، المرجع السابق، ص ٢٨ - ٢٩.

(٢٨) المرجع نفسه، ص٦١. عبد الله بطران، المرجع السابق، ص١٥.

(٢٩) محمد الفاسي، مجلة تطوان، ص٤١.

(٣٠) الفاسي، هسبريس تامودا، ص٧١ - ٧٢.

(٣١) **مجموع مخطوط بالخزانة الوطنية**، الرباط، رقم: ج٤١٩، ص٧٧.

(٣٢) الفاسي، المرجع السابق، ص٧١-٧٢.
(٣٣) رسالة من محمد بن عبد القادر الفاسي، ص ٢٨ – ٢٩. هسبريس تامودا، ص ٧١ – ٧٢.
(٣٤) الضعيف، المصدر السابق، ص٣٥.
(٣٥) هو أبو العباس، أحمد بن علي بن عبد الرحمان الجرندي، الأندلسي، الفاسي دارًا ومنشئًا ووفاة، كان إمامًا بمسجد الشرفاء، ودرس فيه علومًا، وصحب في الطريق أحمد بن عبد الله معن (شيخ الزاوية المخيفة)، وتوفي في عاشر محرم ١١٢٥هـ، ودفن بفاس. للمزيدعن حياته، أنظر: نشر المثاني، ج٣، ص١٥٠-٢١٥. تاريخ الدولة السعيدة، ص٨٠.
(٣٦) نشر المثاني، ج٣، ص١٥٠. الاستقصا، ج٧، ص٩٥.
(٣٧) نشر المثاني، ص٢٥٠.
(٣٨) تاريخ الدولة السعيدة، ص ٨٠.
(٣٩) نشر المثاني، ج٣، ص ١٥٠.
(٤٠) نشر المثاني، ج ٣، ص ٣١-٣٥. رسالة من اليوسي إلى المولى إسماعيل.
(٤١) هو الفاسي، المتوفى سنة ١١٣٧هـ/١٧٢٥م، أديب، وله اهتمام بفنون أخرى نشر المثاني ج٣، ص٢٨١. محمد حجي وأحمد التوفيق، **موسوعة أعلام المغرب**، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٧/١٩٩٦م، ج٢، ص١٨.
(٤٢) توفي سنة ١١٤٤هـ/١٧٣١م، فقيه محدث، وصوفي من أهل فاس. نشر المثاني، ج٣، ص٣٣٨،٣٣٩. سلوة الأنفاس، ج١، ص١٥٨ - ١٦١. الأعلام، ج٦، ص١٩٧.
(٤٣) الحلل البهية، ج٢، ص٤٤٨-٤٤٩. تاريخ الدولة السعيدة، ص ٨٦.
(٤٤) هسبريس تامودا، الرسالة السابقة, ص ٥٣.
(٤٥) نشر المثاني، ج٣، ص ٢٤٧.
(٤٦) عبد الله بطران، مجلة أبحاث، المرجع السابق.
(٤٧) عبد القادر الصحراوي، على هامش **رسائل الحسن اليوسي للمولى إسماعيل**، دعوة الحق، السنة ١٩٦٩، العدد ٤، ص٦٧.
(٤٨) الاستقصا، ج٧، ص٩٥.
(٤٩) عبد الله بطران، المرجع السابق.
(٥٠) محمد الفاسي، هسبريس تامودا، ص ١٩-٢٠.
(٥١) عبد الله بطران، المرجع السابق.
(٥٢) الحلل البهية، ج٢، ص ٤٥٠.
(٥٣) عبد الله بطران، المرجع السابق.
(٥٤) المرجع نفسه.
(٥٥) الضعيف، المصدر السابق، ص ٨٦. الاستقصا، ج٧، ص٩٤.
(٥٦) هم فئة متميزة داخل المجتمع الفاسي التقليدي؛ وتطلق هذه التسمية على ذوي الأصل اليهودي الذين اعتنقوا الإسلام خلال حقب مختلفة، وقبل أن يسموا بالبلديين كانوا ينعتون بـ "المهاجرون"، أو بـ"الإسلاميين" أو "العوام"؛ ومن البيانات التي تقدم لتفسير مصطلح المهاجرين أن اليهود الذين رفضوا تبديل دينهم خلال عهد المرينيين، أصبحوا ينعتون إخوانهم الذين اعتنقوا الإسلام بالمهاجرين أي الذين هاجروا اليهودية إلى الإسلام، إلا أن هذه التسمية اختفت بعد القرن ١١م، لتحل محلها تسمية البلديين. ولم يكن المولى اسماعيل ينظر إليهم بعين الرضى، وكان يرى فيهم قوة تعارض سياسته، لهذا نجده يتخذ موقفا جد قاس في حق العالم عبد السلام جسوس. أنظر: معلمة المغرب، ج٤؛ محمد المنصور، البلديون، ص ١٣٣٤.
(٥٧) نشر المثاني، ج٣، ص ٢٠٥.
(٥٨) الاستقصا، ج ٧، ص ٩٤. الترجمان المعرب، ج٣، ص ٧٤١-٧٤٢.
(٥٩) الضعيف، المصدر السابق، ص ٨٣.
(٦٠) الاستقصا، ج ٧، ص ٩٤.
(٦١) الاستقصا، ج٧، ص ٩٥. نشر المثاني، ج ٣، ص ٢٠٨. تاريخ الدولة السعيدة، ص ٨٦.
(٦٢) نشر المثاني، ج٣، ٢٠٧-٢٠٨.
(٦٣) رسالة من المولى إسماعيل إلى علماء مصر، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم: ج ٤١٩، ص ٧٧-٧٨.
(٦٤) المرجع نفسه.
(٦٥) المرجع نفسه.
(٦٦) المرجع نفسه.
(٦٧) الفاسي، هسبريس تامودا، ص ٤٣.
(٦٨) أكنسوس، المصدر السابق، ص٧٤.
(٦٩) رسالة من المولى إسماعيل إلى علماء مصر، ص٧٧-٧٨.
(٧٠) نفس المصدر، ص ٧٨-٧٩. والنص مقتطف من فتوى للطرطوشي حسب المولى إسماعيل.
(٧١) المرجع نفسه.
(٧٢) المرجع نفسه.
(٧٣) المرجع نفسه.
(٧٤) المختار السوسي، المعسول، البيضاء، ١٩٦١م، ص ٢٨٦-٣٢٨.
(٧٥) المهناوي، **التنظيم العسكري وعلاقته بالمجتمع في العصر الاسماعيلي**، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، أعمال الدورة الثانية، مركز البحوث والدراسات العلوية، الريصاني، دورة دجنبر ١٩٩٠.



علمـاء من تنبكت في المغرب الأقصى

د. لحسن تاوشيخت
أستاذ التعليم العالي
رئيس قطب تدبير المجموعات وخدمة العموم
المكتبة الوطنية المغربية
الرباط – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
لحسن تاوشيخت، علماء من تنبكت في المغرب الأقصى.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ٧٧ - ٨٤ .

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449
خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخَص

حظيت مدينة تنبكت بأهمية خاصة بين مراكز العمران والاستقرار، لأنها أصبحت ملتقى الحضارة العربية الإفريقية بعد تأسيسها على يد قبائل (مقشران) الطارقية، في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وكان لموقعها المهم على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى بما يطلق عليه منحنى نهر النيجر، أغلب الأثر في ازدهارها السياسي، والاقتصادي والاجتماعي، والفكري عبر الزمن. وتعرض صفحات المقال لعلماء أفذاذ من تنبكت في المغرب الأقصى لم يدخروا وسعًا في نشر المعرفة في هذه الربوع، وضحوا بالغالي والنفيس من أجل إسماع كلمتهم والذود عن الحضارة العربية الإسلامية، وعلى رأسهم العلامة أحمد بابا التنبكتي ومؤلفاته من مخطوطات، ومطبوعات حجرية، بالإضافة إلى جانب من مخطوطات الكنتيين وهي: مؤلفات المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي الشنقيطي التنبكتي، ومؤلفات أبو عبد الله محمد بن المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي التنبكتي، ومؤلفات أحمد البكاي بن محمد بن المختار الكنتي التنبكتي القادري.

مُقدِّمة

اتسمت العلاقات بين المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي منذ بداياتها الأولى وخاصةً على المستوى العقائدي والفكري بجاذبية التأثير والتأثر. ومن مظاهر هذه الجاذبية أن مجموعة من العلماء المغاربة لم يجدوا غضاضة في الاستقرار بأهم الحواضر السودانية وخاصة بتنبكت، كما وفد على المراكز العلمية المغربية كفاس ومراكش على الخصوص العديد من رجالات وطلبة العلم والفقه السودانيين. ومن بين علماء تنبكت الذين أثروا بشكل كبير على الحركة العلمية ببلاد المغرب لما تركوه من مشاركات فكرية ومن مؤلفات زاخرة، يمكن ذكر أبي العباس أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت التنبكتي المالكي المزداد ليلة الأحد (٢١ ذي الحجة عام ٧٦٣ هـ / ٢٦ أكتوبر ١٥٥٦ م) بتنبكت والمتوفى بمسقط رأسه في (٧ شعبان سنة ١٠٣٢ هـ / ٦ يونيو ١٦٢٤ م).

كما لا يمكن أن نتجاهل الأسرة الكنتية العالمة وعلى رأسها العالم المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي التنبكتي المزداد ببلدة "كتيب أغال" من قرى منطقة أُوزاد [شمال تنبكت] سنة ١١٤٢ هـ / ١٧٢٦ م، قبل أن ينتقل إلى تنبكت التي توفي بها سنة (١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م) وتاركا بها ذريته المشهورة بالعلم وبإتباعها للطريقة الصوفية القادرية. من هذه الذرية الصالحة يمكن أن تكلم عن العالم أبو عبد الله محمد بن المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي التنبكتي المتوفى سنة (١٢٤١ هـ / ١٨٢٨ م)، وأيضًا عن العالم والشاعر أحمد البكاي بن محمد بن المختار الكنتي التنبكي القادري المتوفى سنة (١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م) رحمة الله عليهم أجمعين.

أولاً: مؤلفات أحمد بابا التنبكتي

لقد كان لمجيء العلامة أحمد بابا التنبكتي إلى بلاد المغرب الأقصى خلال عهد السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي وبالضبط في سنة ١٠٠٢ للهجرة / ١٥٩٤ للميلاد واستقراره بمدينة مراكش إلى حين رجوعه إلى بلدته تنبكت سنة ١٠١٦ هـ / ١٦٠٧م، إيذانا بفتح صفحة جديدة من العلاقات المتينة بين المغرب وبلاد السودان الغربي وخاصةً في المجالات العلمية والفكرية والدينية. ولم تكن إقامة هذا العلامة ببلاد المغرب فقط من أجل طلب المزيد من العلم، وإنما تعتبر بمثابة قيمة مضافة أغنت التراث المغربي الإفريقي المشترك. لقد ترك أحمد بابا رحمه الله مؤلفات عديدة تهم مختلف العلوم الدينية، وهي مؤلفات تتوزع على عدة خزانات ومكتبات سواء بالغرب الإسلامي أو ببلاد السودان أو بلاد المشرق. إن التفاتة سريعة لفهارس هذه الخزانات والمكتبات، تقدم الدليل على العلم الغزير والفكر الموسوعي لهذا العلامة الذي كان منارة عصره، اعتبارا لمكانته العلمية ولما حظي به من حظوة وعطف من طرف المنصور السعدي، بالرغم من الغربة التي قد يشعر بها وهو في وطنه الثاني. فقد ترك هذا العالم الفذ للخزانة العربية الإسلامية ما بين ستين وثمانين مخطوطا تهم مختلف العلوم من فقه وحديث وسيرة وعقائد وتراجم وتاريخ ولغة عربية وتصوف فضلا عن الفتاوى التي تناولت قضايا متنوعة.

(١) المخطوطات

١/١- في التراجم والمناقب:

١/١/أ- نيل الابتهاج [أو وجه الابتهاج] بالذيل على الديباج [أو نيل الابتهاج بتطريز الديباج]:(١)

المخطوط بمثابة تكملة لكتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب [المالكي] الذي ألفه قاضي المدينة المنورة أبو إسحاق برهان الدين إبراهيم بن علي بن فرحون اليعمري الأندلسي المتوفى سنة ٧٩٩ هـ/ ١٣٩٦م. في هذا الكتاب حاول أحمد بابا كما أورد في الديباجة استدراك ما غفل عنه ابن فرحون من الأعيان ومضيفًا إليه تفصيلاً وتبسيطًا مناقب وتراجم من جاءوا بعده من الأعلام المغاربة بفاس وتلمسان وقسنطينة وتونس. وفي هذا المؤلف يورد أحمد بابا التراجم مرتبة حسب التسلسل الأبجدي مبتدئا بترجمة ابن فرحون صاحب الديباج ثم من اسمه "أحمد" إلى آخره. يقول أحمد بابا في مستهل نيل الابتهاج: "الحمد لله الذي انفرد بالبقاء، وقضى على خلقه بالفناء، وأختص بالإحاطة والإحصاء..." وقال في آخره: "ووافق الفراغ منه وقت الضحى يوم الجمعة سابع جمادى الأولى سنة خمس وألف. أرانا الله تعالى ختامه في عافية، بدرب عبيد الله من مدينة مراكش المصونة..." قال: وكتبه جامعه ومؤلفه العبد الفقير إلى رحمة ربه أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت التنبكتي المالكي، خار الله تعالى له في أموره وحفظه من غي الدهر وشروره، آمين". وكتب بخط مغربي جيد، لا يستبعد أن يكون من يد المؤلف نفسه. يقع في ٢٣٨ ورقة، مسطرته ١٩ سطرا ومقياسه: ٢٢ × ١٥،٥ سنتمترا. وأنجز مختصر لهذا الكتاب تحت عنوان "مختصر كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج"(٢) من طرف مؤلف مجهول كان معاصرا لأحمد بابا. ويقع هذا المخطوط ضمن مجموع من الورقة ٣٢١/ب إلى الورقة ٣٣٥/أ مسطرته ٢٤ سطرًا، مقياسه (٢٠،٥ × ١٦سم)، وقد كتب بخط مغربي وسط، مطلعه: "هذا ما قضى الله سبحانه بنقله على سبيل الاختصار من تأليف العالم المحقق المتفنن الصالح المحدث السيد أحمد بابا ابن أحمد بن عمر بن محمد أقيت التنبكتي بارك الله للمسلمين في عمره الذي ذيل به ديباج ابن فرحون". كما عمل على نسخه المختار بن عيسى بن عمر بن يحيى العلوي في مستهل جمادى الثانية عام ١١١٩ هجرية / ١٧٠٨ ميلادية. تتكون هذه النسخة من ١٢٤ صفحة ذات مسطرة ٣٣ سطرا ومقياس: (٢٢،٥ × ١٦سم)، وقد كتبت بخط مغربي لا بأس به.

١/١/ب- تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء:(٣)

وفيها يتناول أحمد بابا فضائل العلماء والأخيار بما ورد من الآداب والأخبار وما خصوا به من أنواع الإكرام والاعتبار في كل الأعصار. يقع هذا المخطوط ضمن مجموع من الورقة ٣٠٢/ أ إلى الورقة ٣٢١/ أ مسطرتها ٢٤ سطرًا ومقياسها: (٢٠،٥ × ١٦سم). ويتكون المخطوط الذي دُون بخط مغربي وسط من ثلاثة فصول وخاتمة: يتناول الفصل الأول فضل العلماء وما ورد في ذلك من الآيات في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والسنة النبوية العطرة. في الفصل الثاني يذكر أفضلية العلماء على غيرهم من العباد بأدلة الحديث الشريف وأقوال الصحابة والأئمة. أما الفصل الأخير فيحاول أن يفك إشكالية المفاضلة بين العلماء وبين الأولياء العارفين، مبرزًا أن العلم المعتبر هو الباعث على العمل. أول المخطوط: "الحمد لله الذي اختار من شاء من خلقه لعبادته واصطفاهم وجعلهم بفضله من أهل خدمته..." وجاء في آخره: "والحمد لله رب العالمين لا إله إلا الله الملك الحق المبين".

١/١/ج- اللآلي السندسية في الفضائل السنوسية:(٤)

مخطوط اختصر فيه أحمد بابا المواهب القدسية في المناقب السنوسية لمؤلفها أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عمر ابن علي الملالي المتوفى عام ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢ م. وقد فرغ التنبكتي من تأليفه بمدينة مراكش في ضحى يوم السبت سابع ربيع الثاني عام ١٠٠٤ هـ/ ١٥٩٦م، وعمل العلامة أحمد المقري التلمساني بنسخه عشية عام ١٠٦٦ هـ/ ١٦٥٨ م، كما نسخت منه نسخة أخرى بتاريخ يوم الثلاثاء ثامن شعبان عام ١١٤٩ هـ/ ١٧٣٩م. يقع المخطوط ضمن مجموع من الصفحة ٢٤٩ إلى الصفحة ٢٦٩، وقد كتب بخط مغربي وسط، مسطرته ٣٦ سطرًا ومقياسه: (٢٣ × ٣١ سم) أوله: "ربنا أتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله". كما توجد منه نسخة بيد العباس بن محمد بن عبد الرحمن بتاريخ ١٦ ربيع الثاني عام ١٣٠٦ هـ/ ١٨٩٠م، وهي تقع ضمن مجموع من الورقة ٨٣ إلى الورقة ١٣٧.

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



٢/١- في الفقه وملحقاته:

٢/١/أ- شرح على مختصر خليل:[٥]

الجزء الأول منه يقع في ٢٢٣ ورقة، مسطرتها ٣٥ سطرًا ومقياسها: (٢٠ × ٢٩،٥ سم). وقد كتب بخط مغربي وسط، أوله: "قوله...بسم الله، أول ما كتب القلم في اللوح بسم الله الرحمن الرحيم". الجزء الآخر يضم ١٦١ ورقة ذات مسطرة ٣٥ سطرًا. وهو مبتور في البداية ويبتدئ عند الكلام عن أوائل البيوع، كان الفراغ من نسخه في ١٦ ربيع الأول عام ١٠٠٤ هـ/ ١٥٩٦ م، وقد كتب بخط مغربي وسط.

٢/١/ب- معراج الصعود إلى نيل مجلب السود أو الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان:[٦]

وفيه يبين حكم تملك وبيع العبيد المجلوبين من السودان وقد كتبه جوابًا عن سؤال ورد عليه من منطقة توات، وهو عبارة عن رسالة في إجازة استرقاق بعض الأصناف من السود. يقع المخطوط ضمن أربعة مجامع: الأول يبدأ من الورقة ١/ب إلى الورقة ٧/أ مسطرته ٢٣ سطرًا ومقياسه: (٢٥ × ١٩ سم). وقد كتب بخط مغربي جيد مزين بالألوان، أوله: "الحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيد المرسلين وبعد فيقول فقير ربه أحمد بابا..." إلى آخره. المجموع الثاني يبتدئ من الورقة ٢٦ إلى الورقة ٣٨ مسطرته ٢١ سطرًا. وكان الفراغ من تأليفه عام ١٠٢٣ هـ/ ١٦١٤م، وكمل نسخه في ١٦ صفر عام ١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٦ ميلادية. المجموع الثالث يضم من الورقة ٨٣/أ إلى الورقة ٨٧/ب ذات مسطرة ٢٤ سطرا ومقياس: (١٥،٥ × ٢٠،٥ سم). وفرغ من نسخه في ثالث شوال عام ١٢٩٩ هـ/ ١٨٨٧م، وقد كتب بخط مغربي وسط. أوله: "الحمد لله رب العالمين، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين". أما المجموع الرابع فيقع بين الورقة ٢٣٠ والورقة ٢٤٢ مسطرتها ٢٤ سطرًا، ولم يرد في أخره تاريخ التأليف أو النسخ حيث كتب فقط: انتهى ما وجد منه.

٢/١/ج- جلب النعمة ودفع النقمة بمجانبة الولاة الظلمة:[٧]

وهو مخطوط في الفقه يقع ضمن مجموع من الورقة ١٩٨ إلى الورقة ٢٢١ مسطرته ٢١ سطرًا وكان الفراغ من تأليفه عام ٩٩٧ هـ/ ١٥٩٠ م.

٣/١- في الوعظ:

٣/١/أ- تقييد فيما جاء في التحذير من قرب الظلمة ومصاحبتهم طلبا لحطام الدنيا:[٨]

يقع ضمن مجموع من الصفحة ٣٩٥ إلى الصفحة ٧٣٩ مسطرته تتراوح ما بين ٢٣ و٢٥ سطرًا ومقياسه: (١٢،٥ × ٢٠،٥ سم). وقد كتب بخط مغربي رديء مزين باللون الأحمر في بداية كل فقرة. أوله: "الحمد لله الهادي بفضله من شاء إلى الطريق المستقيم الغالب بقدرته على ذي خطب جسيم..." إلى آخره، ويختمه المؤلف بقوله: "وقد كان ابتدائي لهذا الجزء في أثناء السادس والتسعين وتسعمائة، فكتبت منه نحو ثلثه ثم أهملته إلى أن من الله تعالى بالفراغ منه في السنة بعده، فوافق الفراغ منه يوم الخميس ثاني ذي الحجة الحرام، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين". وعمل محمد بن عبد الله الكيكي على نسخه في رابع ذي الحجة عام ١١٧٧ هـ/ ١٧٦١م.

٤/١- في التوحيد:

٤/١/أ- تنوير القلوب بتكفير الأعمال الصالحة للذنوب:[٩]

وفيه تكلم المؤلف عن الإشكال الواقع فيما ورد في بعض أحاديث الفضائل من تكفير الذنوب ببعض الأعمال، مع ما أجمع عليه العلماء من كون أن الكبائر لا تكفر إلا بالتوبة. المخطوط يقع ضمن مجموع من الورقة ٢٩٥/ب إلى الورقة ٣٠٢/أ ذات مسطرة ٢٤ سطرًا ومقياس: (٢٠،٥ × ١٦ سم)، وقد كتبت بخط مغربي صعب القراءة، أوله: "الحمد لله الذي غفر بالتوبة كبائر الذنوب..." إلى آخره.

٥/١- في الأذكار والأوراد:

٥/١/أ- الدر النضير في كيفية الصلاة على الشفيع البشير:[١٠]

وهو كتاب تصوف أورد فيه المؤلف ٩١ صنفا من التصليات. يقع المخطوط ضمن مجموع من الورقة ١٣ إلى الورقة ٣١ مسطرته ٢٣ سطرًا ومقياسه: (٢٥ × ١٩ سم)، وقد كتب بخط مغربي جميل محلى بالألوان، أوله: "باسم الله الذي بعث سيدنا محمدا رحمة للأمم وأشرق بنور رسالته كل حلك وظلم وشرف قدره بصلاته عليه أزلا قبل خلق اللوح والقلم..." وهو مبتور في الآخر. يتضمن المخطوط مقدمة وأربعة فصول: تناولت المقدمة فضائل الصلاة على الرسول، الفصل الأول ذُكرت فيه ٣٢ تصلية ذات سند من الحديث الشريف، الفصل الثاني وردت فيه ٣٦ تصلية مأثورة عن الصحابة والسلف الصالح، الفصل الثالث عرضت فيه ١٣ تصلية لمشاهير العلماء والفصل الأخير خصص للصلوات العشر لمحي الدين الجنيد.

(٢) مؤلفات أخرى

كان لأحمد بابا مؤلفات أخرى موزعة بين العديد من الخزانات المغربية: ففي الخزانة الحسنية بالرباط يمكن ذكر المخطوطات التالية: "نيل الابتهاج في الذيل على الديباج"[١١] ويوجد في ثمان نسخ كتبت كلها بخط مغربي جميل وغالبا ما تكون ملونة ومشكولة ومجدولة وتتراوح صفحاته ما بين ٤٥ و٤٤٢ ومسطرتها ما بين ٢٣ و٣١ سطرًا. "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج"[١٢] وهو عبارة عن مختصر لنيل الابتهاج وفيه اقتصر على ترجمة مشاهير الأئمة وأولي التصانيف دون غيرهم لتيسير تحصيله وتقريب تناوله مبتدئًا بترجمة الأحمدين ومعرفا بنفسه مع ذكر مصادر كتابه، أوله: "الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان أجمعين وبعد فهذا جزء اختصرته من الذيل الذي ذيلت به كتاب الديباج المذهب..." وآخره: "معرفة أفاضل الأمة من صحابي وتابعي وفقيه من شأن أهل العلم ومعرفة تاريخ موتهم وولادتهم ليتبين من سبق عمن لحق...". "تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء"[١٣] وتوجد في ثلاث نسخ كتبت بخط مغربي حسن ملون وتقع ما بين ١٠ ورقات و٥١ ورقة

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ذات مسطرة مختلفة ومقياس متباين. "أجوبة في شأن القوانين العرفية."[١٤] وفي الخزانة الصبيحية بسلا يمكن ذكر المخطوطات التالية: "تنبيه الواقف على تحرير وخصصت نية الحالف"،[١٥] "تنوير القلوب بتكفير الأعمال الصالحة للذنوب"،[١٦] "منية المريد آخذ ورد شيخنا السديد"،[١٧] و"رسالة في التحذير من قرب الظلمة ومصاحبتهم"[١٨]. وفي خزانة ابن يوسف بمراكش نجد: "حاشية على المختصر"،[١٩] و"كفاية المحتاج بما ليس في الديباج".[٢٠] وفي مؤسسة علال الفاسي بالرباط توجد نسختان من "جلب النعمة ودفع النقمة بمجانبة الولاة الظلمة"،[٢١] و"حكم بيع العبيد المجلوبين من السودان، جواب عن سؤال وارد من أهل توات."[٢٢]

(٣) المطبوعات الحجرية لأحمد بابا

٣/أ- نيل الابتهاج بتطريز الديباج:[٢٣]

طبع بفاس، المطبعة الحجرية الجديدة عام ١٣١٦ هـ/ ١٨٩٨م. يقع في ٣٠٤ صفحات ذات مقياس: (٢٣ × ١٨ سم).

٣/ب- إرشاد الوقف لمعنى نية الحالف:[٢٤]

فاس، المطبعة الحجرية (بدون تاريخ)، يقع ضمن مجموع وبه ١٦ صفحة.

٣/ج- إفهام السامع بمعنى قول الشيخ خليل في النكاح بالمنافع[٢٥]

فاس، المطبعة الحجرية (بدون تاريخ). يقع ضمن مجموع، المقياس: (٢٢ × ١٦ سم).

٣/د- أنفس الأخلاق في فتح الاستغلاق من فهم الشيخ خليل في درك الصدق:[٢٦]

فاس، المطبعة الحجرية (بدون تاريخ)، يقع ضمن مجموع ويضم ١٦ صفحة.

٣/هـ- فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق:[٢٧]

فاس، المطبعة الحجرية (بدون تاريخ)، يقع ضمن مجموع ويشمل ١٦ صفحة ذات مقاس: (٢٢ × ١٧ سم).

٣/و- شرح أحمد بن محمد السوداني على متن محمد بن محمد ابن أجروم:[٢٨]

فاس، المطبعة الحجرية ١٣٠٥ هـ/ ١٨٩٠م.

ثانيًا: مخطوطات الكنتيين

(١) مؤلفات المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي الشنقيطي التنبكتي:

١/١- الأذكار الكنتية:[٢٩]

يقع في ٨٨ صفحة مسطرتها ١٩ سطرًا ومقياسها: (٢٢ × ١٧.٥ سم). انتهى من نسخ ما وجد من الأذكار في يوم ٢٠ شوال عام ١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٦م، كما عمل محمد بن المدني العمري الشرقاوي بنسخها في ٨ شعبان عام ١٣١٨ هـ/ ١٩٠٠ م، وقد كتبت بخط مغربي جيد، وهي تقع ضمن مجموع من الصفحة ٧١ إلى الصفحة ٣٢٥ ومسطرتها ١٠ سطورًا. أوله: "بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى، اللهم حققني بحقائق العبودية..." إلى آخره.

٢/١- نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب أو لب الألباب في الصلاة على النبي الأواب:[٣٠]

يقع ضمن مجموعين: الأول من الصفحة ١ إلى الصفحة ٧١ والثاني من الصفحة ٥٤٣ إلى الصفحة ٦١٣ مسطرته ١٠ سطورًا، ومقياسه: (١٢ × ١٠.٥ سم). وقد كتب بخط مغربي وسط مزين بالألوان، وكمل نسخه في ٢١ شعبان عام ١٣١٨ هـ/ ١٩٠٠م. أوله: "بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على حبيبنا النبي الأواب وعلى آله وصحبه، الحمد لله منزل الخيرات والصلاة والسلام على القائل لم يبق من النبوة إلا المبشرات".

٣/١- تفسير فاتحة الكتاب:[٣١]

وهو مخطوط حاول فيه المؤلف أن يقدم تفسيرا كاملا لسورة الفاتحة ويتضمن المخطوط ٢٤٠ ورقة ذات مسطرة ٢١ سطرًا، وقد كتبت بخط مغربي جيد.

٤/١- الأجوبة المهمة لمن له بأمر دينه همة:[٣٢]

يقع ضمن مجموع من الورقة ١/أ إلى الورقة ٥٧/ب مسطرتها ٢٠ سطرًا، ومقياسها: (١٨ × ٢٢.٥ سم). وفرغ من نسخها في عشرين جمادى الأولى عام ١٢٩٨ هـ/ ١٨٨٢م، وقد كتبت بخط مغربي لا بأس به. أولها: "الحمد لله الذي أوجب التمسك بالكتاب".

٥/١- الكوكب الوقاد في فضل ذكر المشائخ وحقائق الأوراد:[٣٣]

يقع ضمن مجموع من الورقة ١٥/ب إلى الورقة ١٦١/أ مسطرتها ٢١ سطرًا، ومقياسها: (١٨ × ٢٢ سم). وقد كتب بخط مغربي جميل، أوله: "الحمد لله المنفرد بالعظمة والجلال".

٦/١- هداية الطلاب:[٣٤]

يقع في عدة أجزاء لم يتبق منها سوى الجزء الثالث ويضم ٩٣ ورقة ذات مسطرة ١٨ سطرًا، ومقياس: (١٧ × ٢١ سم). وفرغ من كتابته عشية يوم الاثنين ٩ رجب الفرد عام ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٥م، وهو مكتوب بخط مغربي جميل. أوله: "باب البيع معاوضة بمعلومين تعودت ملكيتهما".

٧/١- فوائد نورانية في اسم الله الأعظم:[٣٥]

وهو مخطوط في علم الأسماء ويقع ضمن مجموع من الورقة ١٩٦ إلى الورقة ٢٢٢ ومسطرتها ١٩ سطرًا، وقد كتبت بخط مغربي وسط.

٨/١- حزب النور:[٣٦]

وهو مخطوط في الأذكار والأوراد ويقع ضمن مجموع من ورقتين ١٠٦ – ١٠٧.

٩/١- حزب بسم الله:[٣٧]

وهو كذلك مخطوط في الأذكار والأوراد يقع ضمن مجموع من ورقتين ١٠٧ – ١٠٨.

دورية إلكترونية. مُحكَّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



(٢) مؤلفات أبو عبد الله محمد بن المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي التنبكتي:

٢/١- رسالة في اسم الله الأعظم:[٣٨]

يقع ضمن مجموع من الصفحة ٤٨١ إلى الصفحة ٥٢٣، مسطرته ٢٠ سطرًا ومقياسه: (١٦ × ٢١ سم). كمل نسخه صبيحة الأحد ١٣ رمضان عام ١٣١٢ هـ/ ١٨٩٤م، بقلم محمد بن علي بن عمرو الأغزاوي الفاسي، وقد كتب بخط مغربي حسن مزين بالألوان. أوله: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على نبينا سيدنا محمد وعلى آله وصحبه حمدا لمن أطلع نجوم الفهوم وأسطع أقمار العلوم في فضاء القلوب المنيرة..." إلى آخره.

٢/٢- الروض الخصيب بشرح نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب:[٣٩]

وفيه يحاول المؤلف تفسير نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب الذي ألفه والده الشيخ المختار بن أحمد. يقع المخطوط في جزئين: الأول به ١٨٤ ورقة مسطرته ٢٠ سطرًا ومقياسه: (١٨،٥ × ٢٨،٥ سم). أما الجزء الثاني فيشمل على ٢٢٢ ورقة من مسطرة ٢٠ سطرًا ومقياس: (٢٠ × ٢٩ سم). وفرغ من كتابته يوم الاثنين ٢٨ شوال عام ١٢٢٥ هـ/ ١٨١٠م، وقد كتب بخط مغربي جيد. أوله: "الحمد لله الذي اختص نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم بكتاب أخرس الفصحاء وأعجز البلغاء..."

٢/٣- الفتوحات اللدنية الشرعية في شرح التصلية الناصرية الدرعية:[٤٠]

يقع المخطوط ضمن مجموع من الصفحة ١/ب إلى الصفحة ٣١/ب مسطرته ٢٢ سطرًا ومقياسه: (٢٢ × ١٨ سم). وقد كتب بخط مغربي جيد محلى بالألوان، وكمل نسخه عشية يوم الأحد سابع جمادى الأولى عام ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣م. أول الشرح: "حمدا لمن أطلع في سماء الأزل شمس معارف النبوة المحمدية..." إلى آخره. وأول التصلية: "بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل على طلعة الذات المطلسم".

٢/٤- جنة المريد دون المريد:[٤١]

وهو مخطوط في التصوف ويقع ضمن مجموع من الورقة ١/ب إلى الورقة ١٦٨/أ مسطرتها ١٧ سطرًا ومقياسها: (١٧ × ٢٢،٥ سم). فرغ من كتابته في يوم الجمعة ١٢ ربيع الثاني عام ١٢٢٧ هـ/ ١٨١٢م، وتم نسخه يوم الأربعاء فاتح ذي القعدة عام ١٢٨١ هـ/ ١٨٦٧م وقد كتب بخط مغربي جميل. أوله: "الحمد لله ونعم المولى والشكر له على ما أسبغ وأولى".

٢/٥- الجرعة الصافية والنفحة الكافية:[٤٢]

وهو كذلك مخطوط في التصوف ويقع ضمن مجموع من الورقة ١ إلى الورقة ١٢٠ وذات مسطرة مختلفة، فرغ من تأليفها في فاتح ذي القعدة عام ١٢٠٧ هـ/ ١٧٩٢م وكمل نسخها عام ١٢٧٢ هـ/ ١٨٥٥م على يد إبراهيم بن محمد بن أحمد بن إبراهيم.

٢/٦- أوثق عرى الاعتصام للأمراء والوزراء والحكام:[٤٣]

وهو كتاب يهتم بمواضع سياسية ويقع ضمن مجموع من الورقة ٧٣/ب إلى الورقة ١٣٧/ب مسطرتها ٢٢ سطرًا ومقياسها: (٢٢ × ١٨ سم). وقد كتب بخط مغربي جيد مزين بالألوان، كان الفراغ من نسخه ضحى يوم الثلاثاء ٢٨ جمادى الثانية عام ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣م. أوله: "حمدا لمن أناب الأقلام مناقب الأقدام وأقام مكاتبة البنان مقام مشافهة اللسان..." إلى آخره.

٢/٧- أجوبة في التفسير والحديث والفقه والتصوف:[٤٤]

وفيها يحاول المؤلف أن يرد على الأسئلة التي ترد عليه والمتعلقة بمختلف العلوم الدينية وهي كما حددها في العنوان التفسير والحديث والفقه والتصوف. يقع المخطوط في ١٥٨ ورقة ذات مسطرة ٢٤ سطرًا وقد كتبت بخط مغربي وسط. نسخها أحمد بن محمد ابن فقيرة للعالم الفقيه المختار ابن الوزير عبد الله بن الوزير أحمد بن موسى.

٢/٨- وصية بالتقوى:[٤٥]

وهي عبارة عن رسالة في الوعظ وتقع ضمن مجموع من الصفحة ١٣٠ إلى الصفحة ١٣٦ مسطرتها متفاوتة ما بين ٢٣ و٢٩ سطرًا ومقياسها: (٢٤ × ١٨ سم)، وقد كتبت بخط مغربي وسط. أولها: "حمدا لمن أمر بالإيصاء وأوجب الأجر على صحة الإنجاء وقال جل من قائل « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »".

٢/٩- أجوبة فقهية:[٤٦]

وهي عبارة عن ردود للمؤلف عن النوازل التي عرضت عليه، وتقع ضمن مجموع من الورقة ٣٢/ب إلى الورقة ٧٢/ب مسطرتها ٢٢ سطرًا مقياسها: (٢٢ × ١٨ سم). وقد كتبت بخط مغربي جيد محلى بالألوان، وكان الفراغ من نسخها في يوم الاثنين ٢٢ جمادى الأولى عام ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣م. أولها: "الحمد لله واجب حمده والشكر له على ما أولانا من رفده والصلاة والسلام على رسول الله وصحبه وجنده..." إلى آخره.

٢/١٠- دعوات وابتهالات:[٤٧]

يقع ضمن مجموع من الصفحة ٣٢٦ إلى الصفحة ٣٤٥ مسطرتها ١٠ سطرًا وقد كتبت بخط مغربي جيد.

(٣) مؤلفات أحمد البكاي بن محمد بن المختار الكنتي التنبكتي القادري:

٣/١- قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم:[٤٨]

تقع ضمن مجموع من الورقة ١٦٨ إلى الورقة ١٧٢ ومسطرتها ٢٠ سطرًا وقد كتبت بخط مغربي وسط.

٣/٢- جواب أحمد البكاي بن محمد بن المختار الكنتي القادري على رسالة محمد بن أحمد أكنسوس المراكشي التجاني:[٤٩]

وهو مخطوط عبارة عن قصيدة شعرية منظومة يبين من خلالها الكنتي مزايا الطريقة الصوفية القادرية ويدعو الفقيه أكنسوس إلى اتباعها ونبذ التجانية وما سواها من الطرق المتصوفة.

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وقد رد عليه محمد بن أحمد الكنسوسي باسم الجواب المسكت في الرد على من تكلم في طريقة الإمام التجاني بلا تثبت.[٥٠] يتكون المخطوط من سبع صفحات ذات مسطرة ١٤ سطرًا، وقد كتب بخط مغربي جيد ولم يرد في آخره تاريخ التأليف أو النسخ.

(٤) مؤلفات أخرى

وتجدر الإشارة إلى أن للأسرة العلمية الكنتية مؤلفات أخرى بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية ومنها على سبيل الذكر لا الحصر:

١/٤- مؤلفات الشيخ المختار:

كشف النقاب عن أسرار فاتحة الكتاب،[٥١] جذوة الأنوار في الذب عن مناصب أولياء الله الأخيار،[٥٢] حاشية على نفح الطيب،[٥٣] فتح الودود في شرح المقصور والممدود،[٥٤] كتاب في العقائد،[٥٥] نزهة الراوي وبغية الحاوي،[٥٦] وحزب الإسراء.[٥٧]

٢/٤- مؤلفات محمد بن المختار:

حقيقة الخامسة من الطلسمة،[٥٨] الطرائف والتالدة من كرامة الشيخين الوالد والوالدة.[٥٩]

٣/٤- مؤلفات أحمد البكاي:

رسالة إلى أهل مراكش،[٦٠] رسالة في التصوف،[٦١] وفتح القدوس في الرد على أبي عبد الله محمد أكنسوس.[٦٢]

خاتمة

لقد حاولتُ من خلال ما سبق أن أستعرض نماذج مما تتوفر عليه المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط من مؤلفات رجالات علم من تنبكت وعلى رأسهم العلامة أحمد بابا فضلاً عن الكنتيين، ولا أدعي أنني أحطتُ بكل ما يوجد منها بالمكتبة الوطنية خاصةً إذا علمنا أن العديد من المجامع المهمة لم تكشف لنا بعد عن خباياها الغميسة، كما أن المطبوعات الحجرية لم تُفهرس كاملة حتى الآن.

الملحق رقم (١)

الصفحة الأولى من مخطوط الدر النضير في كيفية الصلاة على الشفيع البشير[٦٣]

الملحق رقم (٢)

الصفحة الأولى من مخطوط تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء[٦٤]

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الملحق رقم (٣)

صفحة من مخطوط كفاية المحتاج
لمعرفة من ليس في الديباج(٦٥)



الهوامش:

(١) هذا المخطوط مسجل في المكتبة الوطنية تحت أرقام: ٢٢٢٩ (٧٦٦ د)، ٣٩٤٤ (١٩٧٥ د)، ٢٢٣٠ (١٦٤١ د) ورد ذكره في المجلد الخامس من فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بالخزانة العامة طبعة ١٩٩٧ (ص ٨٩ – ٩٠) وفي الجزء الثاني من القسم الثاني الطبعة الثانية ٢٠٠١ (ص ١٨٧ – ١٨٨).

(٢) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٢٢٣٠ (١٦٤١ د) ورد ذكره في الجزء الثاني للقسم الثاني من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة الطبعة الثانية ٢٠٠١ (ص ١٨٨).

(٣) هذا المخطوط مسجل في المكتبة الوطنية تحت رقم ٢٢٦١ (١٦٤١ د). ورد ذكره في الجزء الثاني للقسم الثاني من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، الطبعة الثانية ٢٠٠١ (ص ٢٠٠ – ٢٠١) وذكره بروكلمان في ملحقه الجزء الثاني (ص ٧١٦) وسركيس في معجم المطبوعات (ص ٣٨٠). هذا المخطوط حقق من طرف سعيد سامي ونشر من طرف معهد الدراسات الإفريقية سنة ١٩٩٢ ويتكون من ٨٤ صفحة بالعربية و٨٠ صفحة بالفرنسية. [رقمه بالمكتبة الوطنية: ٩٢٢ / C36720/3.bis].

(٤) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت أرقام: ٤٠٧ (٤٧١ د/٢)، ٢٢٤١ (٩٨٤ د) و٣٩٤٢ (٨/٢١٠٠ د). ذكره بروكلمان في ملحقه الجزء الثاني (ص ٣٥٢) ولفي بروفنصال في كتاب مؤرخو الشرفاء (ص ٢٥٣) وورد في المجلد الأول من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، الطبعة الثانية ١٩٩٧/١٩٩٨ (ص ١٢٥) وفي الجزء الثاني من القسم الثاني طبعة ٢٠٠١ (ص ١٩٢-١٩٣) وفي المجلد الخامس طبعة ١٩٩٧ (ص ٨٩)

(٥) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقمي: ١٨١ (٤٢٠ د) و١٤٩٢ (١٣٦٠ د) ورد ذكره في المجلد الأول من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة الطبعة الثانية ١٩٩٧ –١٩٩٨ (ص ٦٠) وفي الجزء الأول من القسم الثاني، الطبعة الثانية ٢٠٠١ (ص ٢٩٠). كما ورد في فهرس الكتب العربية لخزانة القروين تحت رقم ١٠٢٥ وأورده ابن أبي شنب في إجازة عبد القادر الفاسي رقم ٩٤، الصفحة ٣١٠.

(٦) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت أرقام: ٥٠٨ (١٩٤ د/٣)، ٥٣٤ (٤٧٨ د/٧)، ١٤٤٧ (١٠٧٩ د) و٣٣٩٨ (١٧٢٤ د/١) ورد ذكره في الجزء الأول للقسم الثالث من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة طبعة ١٩٧٣ (ص ٢١٩ - ٢٢٠)، وفي المجلد الأول الطبعة الثانية ١٩٩٧ – ١٩٩٨ (ص ٢٠٤ وص ٢٤٨) وفي القسم الثاني (الجزء الأول) الطبعة الثانية ٢٠٠١ (ص ٢٧٨) وقد نشر من طرف معهد الدراسات الإفريقية تحت عنوان: معراج الصعود. تحقيق فاطمة الحراق وجون هانويك، الرباط ٢٠٠٠ (١٨٣ صفحة بالعربية).

(٧) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٥٤٣ (٥١٧ د/١٦) ورد ذكره في المجلد الأول من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة الطبعة الثانية ١٩٩٧ –١٩٩٨ (ص ٢٦٧)

(٨) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٢٠٩ (٨٤ ق) ورد ذكره في المجلد السابع من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، طبعة ٢٠٠١ – ٢٠٠٢ (ص ٢٠٦).

(٩) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٣٠٥٥ (١٦٤١ د/١١) ورد ذكره في الجزء الأول للقسم الثالث من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة الرباط، مطبعة التومي ١٩٧٣ (ص ١٠١).

(١٠) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٤٥٣٥ (١٧٢٤ د/٢) ورد ذكره في المجلد الخامس من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة الرباط، طبعة ١٩٩٧ (ص ٢٧٥) وتمت دراسته وطبعه من طرف حسن جلاب تحت عنوان: "أحمد بابا السوداني وكتابه الدر النضير" مراكش، طبعة ١٩٩٢ (٧٧ صفحة).

(١١) هذا المخطوط مسجل بالخزانة الحسنية تحت أرقام: ٢٣٥٨، ١٨٩٦، ٤٢٠٦، ٢١٣٩، ٩٩/مجموع، ٩٩٠٢، ١١٣١١ و١٣١٤٤.

(١٢) هذا المخطوط مسجل بالخزانة الحسنية تحت أرقام: ٦٨١، ١٩٧٠/مجموع، ١٧٤١، ٩٩٠٢، ١١٦٢٦، ٤٥٣، ٢٠٤٥، ٣٠٢٩ و٨٠٧٧.

(١٣) هذا المخطوط مسجل بالخزانة الحسنية تحت أرقام: ٥٦٧٥، ٦٣٠٨ و٥٥٣٤/مجموع.

(١٤) هذا المخطوط مسجل بالخزانة الحسنية تحت رقم: ٥٨١٣.

(١٥) هذا المخطوط مسجل بالخزانة الصبيحية تحت رقم: ٣٨٦/٣.

(١٦) هذا المخطوط مسجل بالخزانة الصبيحية تحت رقم: ١٩٨/٨.

(١٧) هذا المخطوط مسجل بالخزانة الصبيحية تحت رقم: ٢٧٨/٢.

(١٨) هذا المخطوط مسجل بالخزانة الصبيحية تحت رقم: ١٢٤/٢٤ .

(١٩) هذا المخطوط مسجل بخزانة ابن يوسف تحت رقم: ق ٣٧.

(٢٠) هذا المخطوط مسجل بخزانة ابن يوسف تحت رقم: ق ٣٤.

(٢١) هذا المخطوط مسجل بخزانة مؤسسة علال الفاسي تحت رقم: ٣٧٩ ع.

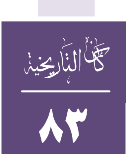
(٢٢) هذا المخطوط مسجل بخزانة مؤسسة علال الفاسي تحت رقم: ٧٦٤ ع .

(٢٣) هذا المطبوع مسجل تحت أرقام: الخزانة العامة A802608 و A80 2890

(٢٤) هذا المطبوع مسجل تحت أرقام: الخزانة الكتانية ٤٥٣٤/١، خزانة التهامي الكلاوي ١٠٧٣/١، خزانة محمد بوطالب ٢٨/٣)

(٢٥) هذا المطبوع مسجل تحت أرقام: الخزانة الكتانية ٤٥٣٤/٣، خزانة التهامي الكلاوي ١٠٧٣، خزانة محمد بوطالب ٢٨/٣)

دورية إلكترونية محكّمة ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449



(٢٦) هذا المطبوع مسجل تحت أرقام: الخزانة الكتانية ٤٥٣٤/٤، خزانة التهامي الكلاوي ١٠٧٣، خزانة محمد بوطالب ٢٨/٤)

(٢٧) هذا المطبوع مسجل تحت أرقام: الخزانة الكتانية ٤٥٣٤/٤، خزانة التهامي الكلاوي ١٠٧٣، خزانة محمد بوطالب ٢٨/٤)

(٢٨) هذا المطبوع مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: الخزانة العامة A١٥٤٦٧.

(٢٩) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقمي: ١٠٦ (١٢٧ د/٢) و٤٥٧٤ (١٧٥٤ د) ورد ذكره في المجلد الأول من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، الطبعة الثانية ١٩٩٧ - ١٩٩٨ (ص ٤٠) وكذلك في المجلد الخامس طبعة ١٩٩٧ (ص ٢٨٧).

(٣٠) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقمي: ١٠٦ (١٢٧ د/١) و٤٥٧٥ (٢٢٥٧ د / ٨) توجد نسخة منه مع شرح عليها يسمى الروض الخصيب لمحمد بن المختار مرتبة بالمكتبة الوطنية تحت رقم ١٢٤٠ (٧٣٠ د) وورد ذكره في المجلد الأول من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، الطبعة الثانية ١٩٩٧-١٩٩٨ (ص ٤٠) وكذلك في المجلد الخامس طبعة ١٩٩٧ (ص ٢٨٧).

(٣١) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٧ (٣٤٣ د) ورد ذكره في المجلد الأول من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، الطبعة الثانية ١٩٩٧-١٩٩٨ (ص ١٢).

(٣٢) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقمي: ٩٩ (٢٢٦ د) و١٣٣٥ (١٤٢٩ د) ورد ذكره في الجزء الأول من القسم الثاني من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، الطبعة الثانية ٢٠٠١ (ص ٢٤٥).

(٣٣) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ١٢٩٠ (١٦٦١ د) ورد ذكره في الجزء الأول من القسم الثاني من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، الطبعة الثانية ٢٠٠١ (ص ٢٣١).

(٣٤) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ١٦٣١ (٣٧٢ د) ورد ذكره في الجزء الأول من القسم الثاني من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، الطبعة الثانية ٢٠٠١ (ص ٣٣١).

(٣٥) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٥٠٩ (٢٠٩ د/٣) ورد ذكره في المجلد الأول من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، الطبعة الثانية ١٩٩٧-١٩٩٨ (ص ٢٠٧).

(٣٦) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٥١٢ (٢٥٣ د/٩) ورد ذكره في المجلد الأول من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، الطبعة الثانية ١٩٩٧-١٩٩٨ (ص ٢١٤).

(٣٧) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٥١٢ (٢٥٣ د/١٠) ورد ذكره في المجلد الأول من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، الطبعة الثانية ١٩٩٧-١٩٩٨ (ص ٢١٤).

(٣٨) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٤٤٣٥ (٢٠٠٠ د /١٨) ورد ذكره في المجلد الخامس من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة ١٩٩٧ (ص ٢٤٨).

(٣٩) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقمي: ٣٠١ (١٦٤ ك) و١٢٤٠ (٧٣٠ د) ورد ذكره في الجزء الأول من القسم الثاني من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، الطبعة الثانية ٢٠٠١ (ص ٢١٧) وفي المجلد السادس طبعة ١٩٩٩ – ٢٠٠٠ (ص ١٤٠).

(٤٠) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٤٥٧٩ (١٨٥٥ د / ١) ورد ذكره في المجلد الخامس من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة ١٩٩٧ (ص ٢٨٨).

(٤١) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ١٠٦٣ (١٠٣٨ د) ورد ذكره في الجزء الأول من القسم الثاني من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، الطبعة الثانية ٢٠٠١ (ص ٢٤٨).

(٤٢) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ١٢٥ (٣٦٠ د) ورد ذكره في المجلد الأول من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، الطبعة الثانية ١٩٩٧-١٩٩٨ (ص ٤٦).

(٤٣) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٤٠٤٠ (١٨٥٥ د / ٣) ورد ذكره في المجلد الخامس من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة ١٩٩٧ (ص ١٢٧).

(٤٤) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٩٩ (٢٢٦ د) ورد ذكره في المجلد الأول من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، الطبعة الثانية ١٩٩٧-١٩٩٨ (ص ٣٨).

(٤٥) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٣٥٠١ (٢٢٥٤ د/٨) ورد ذكره في الجزء الأول للقسم الثالث من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة الرباط، مطبعة التومي ١٩٧٣ (ص ٢٥٧)

(٤٦) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٣٤١٧ (١٨٥٥ د/٢) ورد ذكره في الجزء الأول للقسم الثالث من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة الرباط، مطبعة التومي ١٩٧٣ (ص ٢٢٦)

(٤٧) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ١٠٦ (١٢٧ د/٣) ورد ذكره في المجلد الأول من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة، الطبعة الثانية ١٩٩٧-١٩٩٨ (ص ٤٠).

(٤٨) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٨٣ (٤٩٢ د/٥) ورد ذكره في المجلد الأول من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة الطبعة الثانية ١٩٩٧-١٩٩٨ (ص ١٢).

(٤٩) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقمي: ٣٩٥ (٢٠٦ د) و١٠٨٦ (١٠٧١ د) ورد ذكره في المجلد الأول من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة الطبعة الثانية ١٩٩٧ –١٩٩٨ (ص ١٢٢)

(٥٠) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٣٦٨٠ (١٦٠٤ د/) ورد ذكره في الجزء الأول للقسم الثالث من فهرس المخطوطات العربية بالخزانة العامة الرباط، مطبعة التومي ١٩٧٣ (ص ٣١٧ - ٣١٨) وطبع على الحجر بالجزائر سنة ١٣٣١ هجرية / ١٩١٣ ميلادية (٧٨ صفحة).

(٥١) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٣٤٣ د.

(٥٢) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٢٥٧٩ك.

(٥٣) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٢٢٢٠ ك

(٥٤) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٢٥٧٢ ك و٢٩٤٠ د

(٥٥) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٢٤٧٢ ك

(٥٦) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٢١٤٨ كو١٣٢٧ ك

(٥٧) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٩٦٢ ج

(٥٨) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٧٥ ج

(٥٩) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ١٤ ج و٢٢٩٤ ج

(٦٠) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ١٠٧١ د مكرر.

(٦١) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٢٨٣١ د

(٦٢) هذا المخطوط مسجل بالمكتبة الوطنية تحت رقم: ٢٤٥٥ ك

(٦٣) جلاب (حسن): أحمد بابا السوداني وكتابه الدر النضير. مراكش ١٩٩٢ (الصفحة ٣٦).

(٦٤) جامعة محمد الخامس : تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء لأحمد باب التنبكتي (٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م – ١٠٣٦ هـ / ١٦٢٧ م. تحقيق سعيد سامي، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، نصوص ووثائق –٣- ١٩٩٢ (الصفحة ٩ والصفحة ١٢).

(٦٥) مطيع (محمد): "أحمد باب السوداني التنبكتي"، معلمة المغرب. المجلد الأول، مطابع سلا ١٩٨٩ (الصفحة ١٦٦).

صلات الفقيه المالكي عبد الوهاب البغدادي بفقهاء المغرب والأندلس

"حلقة من حلقات التواصل بين المدرستين المالكيتين في المغرب والمشرق"



أ. د. إبراهيم القادري بوتشيش
أستاذ التاريخ الإسلامي – كلية الآداب
جامعة مولاي إسماعيل
مكناس – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
إبراهيم القادري بوتشيش، صلات الفقيه المالكي عبد الوهاب البغدادي بفقهاء المغرب والأندلس: حلقة من حلقات التواصل بين المدرستين المالكيتين في المغرب والمشرق.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ٨٥ - ٩٠.
www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449
خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخَص

حاز القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي من ذيوع الصيت وجهارة الشأن ما لم يحزه غيره من فقهاء المدرسة العراقية، ذلك أن شهرته تجاوزت حدود موطنه وبلده إلى آفاق من الدنيا واسعة متراحبة، هشت لفقهه، وبشت لآثاره، حتى أصبح حجة في الفقه المالكي، ومرجعًا يعول عليه في الفتاوى وأحكام الحلال والحرام، فمن أهل الأندلس والمغرب وإفريقية فقهاء كبارًا أفسحوا للقاضي حيزًا غير يسير في مروياتهم وكتبهم، ومنهم مَن أخذ عنه وسمع منه مباشرةً، ومنهم مَن حمل عن أصحابه وتلامذته، ومنهم مَن اتصل سنده في الرواية به. ويتناول هذا المقال شخصية القاضي عبد الوهاب ومدرسته البغدادية، وعلاقته بعلماء المالكية بالمغرب والأندلس، والصور والمشاهد التي أنتجتها هذه العلاقة.

مُقدِمة

يعتبر الفقيه المالكي عبد الوهاب البغدادي من أبرز الوجوه اللامعة التي تركت بصمة واضحة في علاقة المدرستين المالكيتين بالمغرب والمشرق، ورسخت عرى التواصل العلمي والتبادل المعرفي بينهما. فرغم خصوصيات المدرستين، فإنهما تلتقيان في مرجعية المذهب المالكي، وهو ما ولّد صلات وطيدة بين الشيخ المذكور وأقطاب الفكر المالكي بالمغرب والأندلس، وأفرز مناخًا من التحاور والأثر والتأثير. وتهدف هذه السطور إلى تسليط الضوء على مجموعة من المشاهد التي تعكس علاقة الشيخ المنوّه به بمجموعة من علماء المالكية بالغرب الإسلامي. وقد تنوعت تلك المشاهد بين المشيخة حيث تتلمذ على يدي الشيخ البغدادي ثلة من علماء المغرب والأندلس الذين أعجبوا بعلمه، فشدوا الرحال إليه أو تلقوا عنه الأسانيد ، كما عملوا على تدريس كتبه التي عرفت رواجا منقطع النظير، بل بلغ إعجاب المغاربة بالقاضي عبد الوهاب أن جعلوه مرجعًا في الفتاوى التي أصدروها، واستمر حضوره في مؤلفاتهم وشروحهم حتى بعد وفاته. كما انبرى بعضهم لترجمة سيرته، وكلها صور تعكس التلاقح والتواصل الفكري بين مالكية المغرب والمشرق.

أولاً: القاضي عبد الوهاب البغدادي ومدرسته المالكية بالعراق

هو أبو محمد عبد الوهاب بن نصر بن أحمد بن الحسين بن هارون البغدادي ، قطب المدرسة المالكية بالعراق، و"أحد من صرّف وجوه المذهب المالكي بين لسان الكناني ونظر اليوناني، فقدّر أصوله، وحرر فصوله وقرر حمله وتفاصيله."[1] وعلى الرغم من كثرة المصادر التي ترجمت له، فإن معظمها قد طواه الزمن، وما بقي منها يتسم بالشح والتقتير، باستثناء ما خصه به ابن بسام من ترجمة مطولة، لكن معظمها اكتفى بتغطية مناحيه الشعرية. ومن تلك التراجم المقتضبة، يمكن الإشارة إلى سنة ميلاده التي حددها المترجمون لحياته في عام ٣٦٢ هـ ببغداد التي درس فيها ودرّس بها، وتولى القضاء بالدينور، ثم هاجر بعد ذلك تحت ضغوطات

وإكراهات إلى مصر التي بلغت فيها شهرته عنان السماء، فنشط في سلك التدريس بها، وكانت له مراسلات مع حكامها حصل من خلالها على نصيب من الحرية الفكرية،[٢] وبها استقر إلى أن وافته المنية سنة ٤٢١ أو ٤٢٢ هـ على اختلاف الروايات.[٣] وكان فقيهًا أصوليًا متمكنًا بقواعد المذهب المالكي، بارعًا في الجدل والمناظرات،[٤] حتى أن شيخه أبا بكر الباقلاني قال في حقه: "لو اجتمع في مدرستي أبو عمران وعبد الوهاب لاجتمع علم مالك: أبو عمران يحفظه، وعبد الوهاب ينصره".[٥]

ويستخلص من نصوص التراجم الأخرى أنه كان عالمًا موسوعيًا جمع بين علم الفقه وعلم الحديث، بل برع حتى في نظم الشعر، وهو ما جعل البعض يصنفه في خانة الأدباء.[٦] وقد تخرّج على يديه العديد من العلماء الذين طارت شهرتهم في الآفاق، نذكر من بينهم أبو علي الصدفي شيخ القاضي عياض المعروف بابن أبي سكرة، وعبد الحق الصقلي، ويحي بن إبراهيم اللواتي، وأبي العباس بن قشير الدمشقي، وغيرهم من علماء المشرق والمغرب. كما ترك عددًا كبيرًا من المصنفات التي ذاع صيتها، وأصبحت تدرّس في طول بلاد الإسلام وعرضها.

وعلى الرغم من أن عصره شهد ذروة الانقسامات السياسية والتفتت على شكل إمارات مستقلة، وظهور قوى شيعية طامعة في اقتناص الخلافة، وشحوب دور السلطة المركزية في العصر العباسي، وسيادة الإقطاع العسكري المنحط على المستوى الاقتصادي، فإن الأوضاع العلمية لم تتأثر بهذا الوضع العام، بل على العكس من ذلك، كان ثمة عوامل محفزة على النهضة العلمية، لعلّ أهمها يتجلى في تأسيس المدارس النظامية، وانتشار الكتب بفضل رخص صناعة الورق، وما نجم عن كل ذلك من انتشار للمناظرات العلمية بين مختلف الفرق والأديان والفقهاء والنحويين وتشجيع الأمراء البويهيين لمثل هذه المناظرات.[٧] ومن الراجح أن هذا المناخ العلمي قد أمد الفقيه عبد الوهاب البغدادي بطاقة علمية جبارة جعلته أحد الأدمغة الكبرى في عصره، وشجعته على البذل والعطاء في المجال العلمي حتى صار رمزًا من رموز المدرسة المالكية في العالم الإسلامي برمته.

والجدير بالإشارة؛ أن المدرسة المالكية العراقية التي ينتمي إليها القاضي عبد الوهاب لعبت دورًا مركزيًا في إشاعة العلم والذبّ عن المذهب منذ عهد تلامذة الإمام مالك من أمثال ابن الماجشون، وأبي مصعب الزهري، وإسماعيل القاضي، إلى عهد القاضي عبد الوهاب، ثم تلامذته الذين حملوا مشعل المذهب بعده قبل أن ينقرض الفرع البغدادي من هذه المدرسة ليتجدد بعد ذلك على يد علماء القرن الثامن الهجري كابن عسكر وطبقته.[٨] ويستشف من النصوص أن هذه المدرسة عرفت قبل ظهور القاضي عبد الوهاب انكماشًا وانكفاء على صعيد الاجتهاد إلى أن بعث فيها هذا الأخير الحيوية وضخها بدم جديد، وهو ما يفهم من قول ابن بسام: "ونهج فيه – المذهب المالكي– سبيلاً كانت قبله طامسة المنار، دارسة الآثار".[٩]

وقد بلغ عدد فقهاء المدرسة المالكية البغدادية ما ينيف عن ١٣٠ رجلاً شغلوا ثمان طبقات كان آخرها طبقة تلامذة القاضي عبد الوهاب. وكانت هذه المدرسة مصدرًا للوهج العلمي، ولتخريج المنظرين في المذهب. بيد أن القاضي عبد الوهاب كان – دون مدافع – محطة مشعة في مسارها العلمي، وإليه يعزى الفضل في ربط المدرستين المالكيتين في المغرب والمشرق.

ثانيًا: علاقة القاضي عبد الوهاب بعلماء المالكية بالمغرب والأندلس

(١) علاقة تقدير ومحبة متبادلة:

من الملفت للنظر أن الفقهاء المغاربة والأندلسيين كانوا يكنون تقديرًا عظيمًا واحترامًا عميقًا للقاضي عبد الوهاب البغدادي؛ ولا غرو فقد اعتبره الفقيه المغربي الونشريسي (ت٩١٤هـ) من بين الأئمة المجددين الذين يبعثهم الله على رأس كل مائة سنة لتجديد دينها وإصلاح أحوالها، فعدّه من هؤلاء الأئمة المجددين الذين جاءوا على رأس المائة الرابعة.[١٠] بينما وصفه النباهي وهو من قضاة الأندلس المتميزين بعبارات تعكس هذا التقدير حيث قال: "ومن أعلم العلماء وصدور القضاة والرواة الشيخ الفقيه المالكي، أبو محمد عبد الوهاب بن نصر بن أحمد بن الحسين بن هارون البغدادي".[١١] وبلغ من تبجيل علماء المغرب والأندلس لهذه الشخصية ما جعلهم أحيانًا يكتفون بالاعتماد عليه في فتاواهم دون غيره، وهو ما يبدو واضحًا من خلال ما لخصه الونشريسي بقوله: "ونقله هؤلاء الأشياخ الجلة – يقصد فقهاء المغرب – عن عبد الوهاب فقط".[١٢] ولا شك أن التفرد بالنقل عن هذا العلامة ما ينهض قرينة على التقدير الذي كان يكنّه علماء المغرب له، باعتباره حجة لا تضاهيها حجة بعده.

ولا ريب أن المكانة العلمية التي اكتسبها القاضي عبد الوهاب كانت وراء هذا التقدير الذي كان يكنه له علماء الغرب الإسلامي. حسبنا أنه كان محط عناية وإكرام المغاربة حتى أن طائفة من العلماء المغاربة المستقرين في مصر استقبلوه بعد خروجه من بغداد ووصوله إلى مصر بحفاوة وتقدير، وكان آنذاك في شدة وضيق الحال – حسب بعض الروايات - ، فأخذوا بيده وساعدوه على تجاوز تلك الظرفية الصعبة. وفي هذا السياق يشير ابن كثير[١٣] إلى أن المغاربة "أعطوه ذهبًا كثيرًا، فتموّل جدًا"، وهو نص يشي بالمكانة السامقة التي كان يحتلها الشيخ البغدادي في صدور العلماء المغاربة وتقديرهم الكبير له.

ولم يكن هذا التقدير من جانب واحد، بل إن الشيخ المذكور كان بدوره يبدي إعجابًا بتلامذته المغاربة والأندلسيين، ويكن المحبة لأهل المغرب والأندلس. حسبنا أنه ألف شرحًا حول رسالة أبي زيد القيرواني حسبما ورد في المدارك، وهو ما زاد من ترسيخ عرى المودة بينه وبين أبي أبي يزيد القيرواني المالكي مؤلف الرسالة حتى أنهما خاطباه - عندما كان مقيمًا في مصر - في القدوم والاستقرار بالقيروان.[١٤]

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ومما ينهض قرينة أيضًا على تقديره لعلماء المغرب، أنه بعد رحيله عن بغداد واستقراره في مصر، عقد العزم على القدوم للمغرب، لولا أنه زهد فيه عندما وصفت له أوضاعه السياسية، وفضل بدلاً من ذلك الأندلس التي كان يعتزم الاستقرار فيها نهائيًا، "وقد كان خاطب فقهاء القيروان ورام القدوم على الأندلس، وكتب أيضًا في ذلك إلى مجاهد الموفق صاحب دانية فعالجته منيته وتوفي بمصر في شعبان سنة ٤٢٢هـ".[١٥]

من خلال القرائن السالفة الذكر يتضح؛ أن علاقة القاضي عبد الوهاب البغدادي بعلماء المغرب والأندلس كانت مبنية على التقدير والاحترام والمحبة المتبادلة من خلال عدة مؤشرات أبرزها:

- تقدير العلماء المالكيين بالمغرب والأندلس له، وتفانيهم في إكرامه والاعتماد عليه في رصيدهم المعرفي.
- اهتمام القاضي عبد الوهاب بفقهاء الغرب الإسلامي، وشرحه لبعض مصنفاتهم في الفقه المالكي.
- عزمه على الإقامة بين ظهرانيهم في الأندلس، لولا أن المنية اخترته قبل تحقيق أمنيته.

(٢) تتلمذ المغاربة والأندلسيين على يد القاضي عبد الوهاب البغدادي:

تتمثل الصورة الثانية من صور الصلات التي جمعت القاضي عبد الوهاب البغدادي بعلماء المغرب والأندلس في تتلمذ مجموعة منهم على يديه. فثمة إشارات تشير إلى أن العلماء المغاربة والأندلسيين شدوا الرحال إليه سواء عندما كان مقيمًا في بغداد، أو عندما استقر في مصر. وفي هذا الصدد سجل القاضي عياض[١٦] حضور العلامة المغربي أبو عمران الفاسي الغفجومي في المجالس العلمية التي كان يعقدها القاضي عبد الوهاب في مصر. فبعد أن رحل أبو عمران إلى العراق ودرس الأصول على يد أبي بكر الباقلاني، مرّ بمصر فسمع من القاضي عبد الوهاب. وفي نفس المنحى ذكر النباهي[١٧] أن جماعة من أهل الأندلس من بينهم القاضي ابن شماخ الغافقي ومهدي بن يوسف تفقهوا على يديه. بينما يذكر ابن عطية[١٨] في ترجمة الفقيه المقري أبو الحسين يحي بن إبراهيم بن أبي زيد المرسي أنه رحل سنة ٤٢١هـ إلى مصر، فالتقى هناك بالقاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي، وسمع منه كتاب التلقين. كما رحل إليه الفقيه الأندلسي ابن أبي سكرة شيخ القاضي عياض، وسمع منه مصنفاته.[١٩]

والراجح أن رحلة العلماء المغاربة نحو هذا الشيخ دليل على سمو مكانته العلمية، وقرينة على نظرة التقدير العلمي التي كان يكنها له المغاربة، حتى أنهم كانوا يتجشمون عناء الرحلة ومخاطرها في سبيل الارتواء من فيض نبعه.

(٣) رواج مؤلفات القاضي عبد الوهاب وتدريسها بالمغرب والأندلس:

نظرًا للمكانة العلمية التي كان يتبوأها القاضي عبد الوهاب البغدادي، والاحترام الذي كان يكنه له أهل المغرب والأندلس، فقد راجت معظم مؤلفاته بهذه المنطقة من العالم الإسلامي، وأصبحت تشكل حجر الزاوية في المناهج الدراسية بها. وقد دخلت عن طريق تلامذته الذين رحلوا إليه، وسرعان ما انتشرت كالنار في الهشيم، واستطاع مالكية الأندلس أن يطوروا بها مناهجهم.

في هذا المنحى، يذكر القاضي عياض[٢٠] في ترجمة شيخه ابن أبي سكرة أنه سمع منه العديد من المصنفات، وخاصةً كتاب "تلقين المبتدئ" للقاضي عبد الوهاب. ومن جهته، يذكر ابن عطية[٢١] في ترجمة الفقيه أبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب الأموي صاحب الشورى بقرطبة أنه درس على أحد المشايخ الذي أخبره بمؤلفات أبي محمد القاضي عبد الوهاب. ولعلّ ورود مصطلح "مؤلفات" بصيغة الجمع وليس المفرد، دليل على رواج مجموعة كبيرة من كتب القاضي عبد الوهاب في الأندلس.

وفي نفس السياق، يسرد النباهي عناوين مؤلفات القاضي المذكور التي كانت رائجة في الأوساط الثقافية، من بينها كتاب "التلقين"، وكتاب "شرح الرسالة والنصرة لمذهب دار الهجرة"، و"كتاب المعونة"، و"أوائل الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الملة"، وكتاب "الإشراف على نكت مسائل الخلاف"، وكتاب "الإفادة في أصول الفقه"، ثم كتاب "التلخيص" وغيرها من الكتب، مما ينم عن كثرتها وشهرتها ورواجها في أوساط المغاربة والأندلسيين حيث كانت معتمدهم في الدراسة والتلقين.[٢٢]

بيد أن الأمر الراجح هو: أن كتابه "التلقين" كان من أكثر الكتب رواجًا في المغرب والأندلس حتى أن بعض علماء الأندلس انقطعوا له انقطاعًا كليًا، نذكر من بينهم عبد الرحمن بن عبد الله بن منتيل الذي شغف حبًا بهذا الكتاب، حتى أنه كان يحفظه عن ظهر قلب، وقد عبّر عن مشاعره وعلاقته به في هذين البيتين:

سأقطع بنفسي عن علائق ... جمة وأشتغل بالتلقين نفسي وباليا
وأجعله أنسي وشغلي وهمتي ... وموضع سري والحبيب المناجيا[٢٣]

ولم يقتصر الأمر على الإعجاب بالكتاب وقراءته والاشتغال به، بل بذل علماء المغرب والأندلس جهدًا محمودًا في شرحه أو التقييد عليه، ويكفي أن نذكر أن أحد علماء تلمسان صنف شرحًا لكتاب التلقين في عشرة مجلدات.[٢٤] ويبدو أن شهرة هذا الكتاب ورواجه في الوسط الثقافي المغربي – الأندلسي، إنما يعزى إلى طبيعة طرحه العلمي والتبسيط المنهجي للمذهب المالكي، ولا غرو فإنه يعتبر أنموذجًا لمختصرات المالكية المستوعبة لفقه الإمام مالك، والمتميزة بالوضوح والأسلوب السهل غير الممتنع عن الفهم والإدراك. ولا شك أن عنوانه "تلقين المبتدئ" قرينة على ما نذهب إليه.

حسبنا أن الرعيل الأول ممن أخذوا عن القاضي عبد الوهاب كانوا يجعلون هذا الكتاب بفضل طبيعته المنهجية المبسطة مرجعًا أساسيًا في التدريس، ففيه يقرأون وبه يروون ويجيزون. والقول نفسه ينسحب على كتابي "المعونة على مذهب عالم المدينة" و"الإشراف على مسائل الخلاف" اللذان عرفا بدورهما رواجًا منقطع

النظير، ومن خلالهما ذاع صيت القاضي عبد الوهاب في ربوع المغرب والأندلس، وتعددت أسانيد رواياته.[٢٥]

ومن الملفت للانتباه أن كتابات المغاربة والأندلسيين لم تقتصر على إظهار الجوانب الفقهية المتميزة عند القاضي عبد الوهاب فحسب، بل أسهمت في إبراز الجانب الشعري في شخصيته العلمية، فقد أورد محمد بن عياض مجموعة من الأبيات الشعرية الغزلية التي نظمها القاضي المذكور في صباه.[٢٦] ومن جهته أبرز أبوه القاضي عياض شاعرية القاضي عبد الوهاب في الرواية التي ذكر فيها أن هذا الأخير دخل قرية تدعى أسعرد من بلاد الكرد بالقرب من جبل الجودي، فحلّ ضيفًا على ابن علون رئيس القرية، ووجد عنده مجموعة من الشعراء ينشدونه شعرًا في كل فصل من فصول السنة، فعرض أشعارهم على القاضي عبد الوهاب. وفي أحد الأيام تعمدوا التقليل من مكانته، وقدموا الرئيس عليه ليجربوا ما إذا كان يحسن الشعر، فنظم شعرًا طويلاً من البحر الكامل[٢٧] نقتبس منه هذه الأبيات:

يا شاعرا ألفاظــه في نظمها	دررا غدت وزبرجدا وزمردا
خذها فقد نسّقتها لك ساهرا	فيها وحق لمثلها أن يؤخــذا
حتى تظل تقول من عجب بها	من قال شعرا فليقله هكذا

وقد أفاض ابن بسام في الترجمة التي خص بها القاضي عبد الوهاب في إبراز إبداعاته الشعرية ووصفها بقوله "وجدت له شعرًا معانيه أجلى من الصبح، وألفاظه أحلى من الظفر بالنجح"،[٢٨] وخصص لقصائده عدة صفحات.

من خلال ما تقدم؛ تتضح صلة القاضي عبد الوهاب البغدادي بعلماء المغرب والأندلس سواء عن طريق إبراز هؤلاء لمختلف الجوانب الثقافية المكونة لشخصيته العلمية، أو من خلال سرد أخبار رحلة علماء الغرب الإسلامي إليه، أو سرد مؤلفاته في الفقه المالكي وقصائده الشعرية.

(٤) اهتمام علماء المغرب والأندلس بكتابة سيرة القاضي عبد الوهاب البغدادي:

يتجلى المشهد الرابع من صلة القاضي عبد الوهاب بعلماء المغرب والأندلس في اهتمام هؤلاء بترجمة حياته والاهتمام بذكر مؤلفاته، فضلاً عن سرد جزئيات أخرى من شخصيته، قد لا توجد في مصادر أخرى تناولت سيرته؛ ولا غرو فقد أورد النباهي ترجمته ضمن قائمة القضاة الذين ترجم لهم، فذكر أنه درس على يد العلامة علي بن أبي بكر الباقلاني، وأنه تولى القضاء بعده بعدة مواضع ومنها الدينور التي علا فيها كعبه وشاع في الآفاق ذكره،[٢٩] ووصفه بأنه كان فقيهًا متأدبًا، وأنه خرج في آخر عمره إلى مصر، فحصل له حال من الدنيا، كما ذكر شيوخه وتلامذته. ومن جهة أخرى؛ أورد لنا هذا القاضي الأندلسي في ثنايا الترجمة التي خصصها للقاضي عبد الوهاب أسباب خروج هذا الأخير من بغداد، موضحًا أنه نقل عنه كلام قاله في الشافعي وطلب لأجله، فخرج مضطرًا عنها نحو مصر،[٣٠] كما بيّن الفكرة التي كانت تراوده في الاستقرار بالأندلس كما سلف الذكر.[٣١] وإذا كان قد حدّد سنة وفاته في ٤٢٢هـ، فإن ابن عطية وهو فقيه مغربي عاش في عصر الموحدين أورد في ترجمته للقاضي المذكور أنه توفي سنة ٤٢١هـ[٣٢] كما اهتم ابن بسام[٣٣] بسيرته فوصفه بـ "ناصر دين المالكية"، وأبرز علو كعبه ونبوغه في حقل الشعر. وعزا أسباب هجرته من بغداد إلى مصر في افتقار حاله، وغلاء المعيشة فيها.

ويبلغ أوج اهتمام المغاربة بسيرة القاضي عبد الوهاب، من خلال ما قاموا به من تصحيح للمعلومات التي وردت خطئًا عنه في مصنفات كتاب آخرين، وهو ما سعى إليه القاضي عياض السبتي (ت ٥٤٤هـ) حين صحّح كلام الشيرازي في كتاب التعريف الذي زعم فيه أن القاضي عبد الوهاب رأى أبا بكر البصري، دون أن يسمع منه شيئا، في حين أن الصواب كما ورد عند القاضي عياض أنه حدّث عنه إجازة.[٣٤]

وإلى جانب النباهي وابن عطية وابن بسام، نجد جماعة من كتاب التراجم المغاربة والأندلسيين يترجمون للقاضي عبد الوهاب، نذكر من بينهم محمد بن عياض بن القاضي عياض سالف الذكر الذي عرض له في كتاب "التعريف بالقاضي عياض".[٣٥] كما ترجم له ابن فرحون في "الديباج المذهب"،[٣٦] وعرض لسيرته كل من ابن الأبار في كتابه التكملة[٣٧] وابن عبد الملك في الذيل والتكملة.[٣٨] وكل هذه النماذج تعكس مدى علاقة القاضي عبد الوهاب بفقهاء المغرب والأندلس حيث ظل اسمه منحوتًا في الذاكرة المغربية والأندلسية.

(٥) اعتماد الفقهاء المغاربة والأندلسيين على فتاوى القاضي عبد الوهاب:

شكلت فتاوى القاضي عبد الوهاب مرجعًا أساسيًا لفقهاء المغرب والأندلس ممن عاصره ومن لم يعاصره، وحسبنا أن الفقيه المغربي الونشريسي اعتمد اعتمادًا كبيرًا على كتابيه "المعونة" و"الإشراف" لإصدار مجموعة من الفتاوى.[٣٩] فمن خلال تصفح مجموعة من النوازل والفتاوى الواردة في كتاب المعيار، يتضح اعتماد الونشريسي وغيره من علماء المغرب والأندلس على هذا القاضي، ويمكن تلمس ذلك عبر النماذج الآتية:

٥/١- في مجال العبادات والمعاملات:

أورد الونشريسي ما ذكره ابن الماجشون في فتوى نقلها ناقل عن القاضي عبد الوهاب في مسألة الرجل المسلم الذي يشتري ثوب ذمي، هل يستوجب ذلك غسله والصلاة به. فجاء نص جواب الفتوى مطابقًا لما أفتى بها القاضي عبد الوهاب من أن الثوب إذا كان رفيعًا يفسده الغسل، فإن ذلك لا يستلزم غسله، ويمكن للمسلم أن يصلي به.[٤٠] ولعلّ هذه الفتوى تبرز مراعاة القاضي المذكور ضرورة المزج بين المحافظة على أحكام الشريعة ودفع الضرر عن المسلم.

من جهة أخرى؛ نجد فقيهًا مغربيًا آخر وهو سيدي محمد بن مرزوق يعتمد بدوره على حكم القاضي عبد الوهاب في أن الجمع

بين الصلاتين في السفر لا يختص بالمسافة الطويلة. علمًا بأن مجموعة من علماء الغرب الإسلامي كانوا قد سبقوا سيدي محمد بن مرزوق في اعتماد نفس حكم القاضي عبد الوهاب كالفقيه الباجي وابن محرز واللخمي.[٤١] ولعلّ إجماع المشايخ المغاربة على أحكام هذا القاضي واستقاء فتاواهم منه دليل على رسوخ قدمه ومكانته في مجال الإفتاء من جهة، وحجة على الصلات التي كانت تجمعهم بهذا الشيخ البغدادي.

وفي مجال العبادات، دائمًا طُرحت في نوازل المغاربة قضايا أخرى تم الاستناد فيها على القاضي عبد الوهاب، نذكر من بينها استناد الفقيه الونشريسي على فتواه حول عدد البيوتات التي تستلزم إقامة صلاة الجمعة داخل قرية معينة، فبعد أن بيّن حكم الإمام مالك الذي يرى أن "الجمعة لا تجب إلا في القرية الكبيرة المتصلة البنيان التي فيها الأسواق"، يردف إلى هذا الحكم حكم القاضي عبد الوهاب بأن معيار وجوب إقامة الجمعة في قرية من القرى، تستلزم أن يكون أهلها من العدد الذي يمكنهم الثواء وتتقرى بهم القرية.[٤٢]

وفي موضع آخر من كتاب المعيار، تم الاعتماد على القاضي عبد الوهاب أيضًا في نازلة تدور حول إمكانية إقامة الجمعة في جامعين بمدينة بسطة الأندلسية، فكان الجواب على النازلة يسير في اتجاه المنع، اعتمادًا على أحكام القاضي عبد الوهاب. ويورد الونشريسي الحجة التي استدل بها القاضي عبد الوهاب حول هذا المنع من أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقم الجمعة إلا في مسجد واحد، ولو جازت في أكثر لبيّنه صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً.[٤٣]

ورغم طول باع ابن رشد الجد في مجال الفقه المالكي، فقد كان بدوره يحيل على القاضي عبد الوهاب ويعتبره أقواله في "التلقين" حجة ينبغي الاستناد إليها، لذلك لم يتجاوز دوره مستوى شرح أقوال القاضي عبد الوهاب، ومنها على سبيل المثال ما ورد عنده في سؤال طرح عليه وطلب منه توضيح حول ما ذكره الشيخ البغدادي في الخصال التي تفسد الصلاة، فشرح بتفصيل ما أجمله القاضي المذكور في كتاب "التلقين".[٤٤]

وتجدر الإشارة إلى؛ أن صاحب "المعيار" أورد أيضًا فتاوى لابن بشتغير، ولابن الحاج وغيرهم من فقهاء المغرب والأندلس حتى عصره (القرن ٩ هـ)، وجل هؤلاء الفقهاء كانوا يحيلون على القاضي عبد الوهاب البغدادي، مما يمكن اعتباره مرجعًا أساسيًا لا غنى عنه في التراث الفقهي للغرب الإسلامي. ويمكن الرجوع إلى تلك النوازل المتناثرة في "المعيار" للاستفاضة في الموضوع.

٢/٥- في مجال العلاقات مع "دار الحرب":

شكلت العلاقات بين "دار الإسلام"، و "دار الحرب" اهتمامًا واسعًا في أوساط فقهاء المغرب والأندلس، وكثيرًا ما أثارت هذه العلاقات إشكاليات معقدة طرحت عليهم، فكانوا يستأنسون بفتاوى القاضي عبد الوهاب البغدادي، من ذلك على سبيل المثال اعتماد الونشريسي عليه في مسألة الرهائن المشركين الذين يدخلون الإسلام هل يردون إلى أصحابهم، وهو ما يتجلى في قول هذا الفقيه المغربي: "فإني رأيت في المعونة وفي الإشراف لعبد الوهاب في كتاب الجهاد حين ذكر أخذ المسلمين رهائن من المشركين، وأسلموا بين أيدينا أنا نردهم إليهم، ولا يجوز لنا حبسهم خلافًا لمن أبى ذلك ما نصه، ولأنا إذا لم نردهم لم نأمن من غدرهم بالمسلمين لأنهم إنما يتهمون ما داموا على دينهم"؛[٤٥] وواضح من هذه الفتوى أن القاضي عبد الوهاب كان بعيد النظر، مراعيًا مصلحة المسلمين، فضلاً عن روح الاحتياط والحذر من الغدر بالمسلمين أكثر من الاهتمام بأسر مجموعة من أفراد العدو الذين بإمكانهم أن يلعبوا دورًا مخربًا يضر بمصلحة الجماعة الإسلامية.

وفي نازلة أخرى، استند الونشريسي إلى حكم القاضي عبد الوهاب في مسألة هامة تتعلق بإمكانية المسلمين القيام بشن غارات على أطراف مراكز العدو الذي دخل معه السلطان المسلم في صلح، مع بقاء بعض المناطق الساحلية في يد العدو. فكان جواب النازلة – اعتمادًا على رأي القاضي عبد الوهاب– جواز الجهاد،[٤٦] وهو جواب يدل على الحس المرهف الذي كان يشعر به هذا الأخير تجاه أمته الإسلامية، والترجمة الأمينة لمشاعر المسلمين تجاه العدو النصراني، ولو كان في حالة صلح مع سلطان المغرب.

٣/٥- في مجال المعاملات الاقتصادية والاجتماعية:

من بين المشاكل الاجتماعية التي كانت تُطرح في الأسواق المغربية خلال العصر الوسيط، مسألة البيع بالغبن، أو البيع المضغوط الذي يكون البائع ضحيته نتيجة إكراهات اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، وهي المسألة التي تعرض لها فقهاء المغرب والأندلس، وأفردوا لها أبوابًا خاصة تشمل مجموعة من الأحكام التي صيغت حفاظًا على مصلحته. وفي هذا الصدد شكلت كتب القاضي عبد الوهاب مرجعيات أساسية لفقهاء المغرب؛ ولا غرو فقد أحال عليه الونشريسي حين تعرض لمسألة البيع بالغبن، ورجع إلى كتاب "المعونة" الذي أورد فيه قيام بعض الباعة البغداديين بالغبن المسترسل.[٤٧] وبالمثل اعتمد عليه كذلك في مسألة خلط الزيت والخل والعسل واللبن، حيث جوّز هذا الخلط ما لم تكن نتيجته تؤدي إلى حالة السكر.[٤٨]

وفي نفس المجال – مجال المعاملات الاجتماعية – استعان الونشريسي بالقاضي عبد الوهاب في تحريم وصل الشعر عند المرأة، ووصل الشعر معناه أن تقطع امرأة جزءًا من شعر رأسها، وتعطيه لامرأة ثانية. وقد برّر منعه – استنادًا إلى حكم القاضي عبد الوهاب – الذي اعتبره ضربا من التدليس.[٤٩]

من حصاد هذه المجموعة من النوازل التي اعتمد فيها الونشريسي وغيره من فقهاء المغرب والأندلس على القاضي عبد الوهاب، يتضح مدى الثقة التي وضعها فيه هؤلاء. كما أن إحالاتهم على أجوبته وأحكامه تدل على ما كان يتمتع به من مكانة علمية وأمانة لم تكن موضع شك لديهم، وتعكس في الوقت نفسه الصلة

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية

العلمية التي كانت تربط هؤلاء بعمدة المدرسة المالكية القاضي عبد الوهاب البغدادي.

خاتمة

خلاصة القول؛ أن القاضي عبد الوهاب البغدادي جسد إحدى حلقات التواصل بين المدرستين المالكيتين في المشرق والمغرب، نتيجة تتلمذ مجموعة من أقطاب المذهب المالكي بالمغرب والأندلس على يديه، وانتشار مؤلفاته بهذه الأصقاع، واستعمالها في مجال التدريس، أو كمصادر كان يعتمد عليها القضاة المالكيون المغاربة والأندلسيون في إصدار أحكامهم وأجوبتهم، حتى أن فتاوى القاضي عبد الوهاب أصبحت مرجعيات لا محيد عنها، خاصة في النوازل التي كان يستعصى حلها بسهولة.

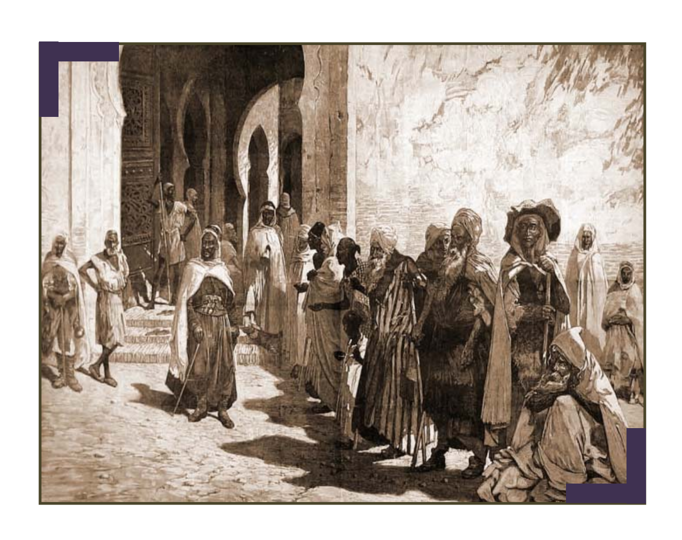
ولا يمكن تقدير وزن العطاء الذي ساهم به في تطوير المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلا من خلال معاينة رصيد التراث الفقهي المتراكم الذي خلفه فقهاء المالكية بالمغرب والأندلس، والذي ينطق بمدى التأثير المالكي المشرقي في المدرسة الفقهية المالكية بالغرب الإسلامي، ويثبت بصمات القاضي عبد الوهاب البغدادي في تطويرها، وهو وَرْشٌ سيظل يفتح دائمًا شهية الباحثين، ويشي بالجديد والقابلية للبحث المستمر.

الهوامش:

(١) ابن بسام، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ١٩٧٩، ق٤، مج ١، ص ٥١٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ٥٢٠-٥٢١.
(٣) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٧، ج٣، ص ٢٢٢. ويجعل ابن عطية سنة وفاته في ٤٢١ هـ، انظر: **فهرست ابن عطية**، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، بيروت ١٩٨٠ (ط١)، دار الغرب الإسلامي.
(٤) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، مكتبة الغانجي المكتبة العربية ببغداد، القاهرة ١٩٣١، ج١١، ص ٣١.
(٥) القاضي عياض، **ترتيب المدارك**، تحقيق سعيد أعراب . فضالة – المحمدية ١٩٨١-١٩٨٣، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج ٧، ص ٢٤٦.
(٦) ابن بسام، الذخيرة... م.س، ق٤، مج ١، ص ٥١٥.
(٧) شوقي ضيف، **العصر العباسي الثاني**، القاهرة، دار المعارف، ص١٢٤.
(٨) إدريس السفياني، **أثر القاضي عبد الوهاب على الدرس الفقهي المالكي بالغرب الإسلامي**، مستلة من بحث قدم للمؤتمر العلمي الأول الذي نظمته دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي ١٦ - ٢٢ مارس ٢٠٠٣، ص٣.
(٩) الذخيرة....م.س، ق٤، مج ١، ص ٥١٥.
(١٠) **المعيار المعرب**، تخريج مجموعة من المحققين، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨١، ج١٠، ص ٩.
(١١) **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٠ هـ. ١٩٨٠ م، دار الآفاق الجديدة، ص ٤٠.
(١٢) المعيار...م.س ، ج١، ص ٢٠٥.
(١٣) **البداية والنهاية**، دار الريان للتراث ١٩٨٨، ج ١٢، ص ٣٥. وتفيد رواية النباهي أنه كان يعيش في بحبوحة من العيش في مصر وهو ما يفهم من قوله: "فحصل له بها حال من الدنيا". المرقبة العليا...م.س، ص ٤١. لكن يبدو أن هذا الوصف لا يتعلق بوضعيته في بداية مجيئه إلى مصر حيث تكون الأحوال عادة صعبة في بداية الغربة.
(١٤) القاضي عياض، المدارك ...م.س، ج ٧، ص ٢٢٥ – ٢٢٦.
(١٥) النباهي، المرقبة....م. س، ص ١٤٢.
(١٦) القاضي عياض، المدارك....م.س، ج٨، ص ٧١-٧٤.
(١٧) المرقبة...م.س، ص ٤١.
(١٨) فهرست ابن عطية... ، م.س، ص ٨٤.
(١٩) القاضي عياض، **كتاب الغنية**، تحقيق ماهر زهير جرار، بيروت ١٤٠٢ هـ-١٩٨٢م (ط١)، دار الغرب الإسلامي، ص ١٣٥.
(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٣٥.
(٢١) فهرست ابن عطية، ص ٨١.
(٢٢) المرقبة....م.س، ص ٤١.
(٢٣) كتاب الغنية ....م.س، ص ١٦٧.
(٢٤) عبد الوهاب بن منصور، **أعلام المغرب العربي**، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٧٩، ج١، ص ١٠٦.
(٢٥) قطب الريسوني، **القاضي عبد الوهاب وأثره في المدرسة المالكية بالغرب الإسلامي**، مستلة من بحث قدم للمؤتمر العلمي الأول الذي نظمته دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي ١٦ - ٢٢ مارس ٢٠٠٣، ص ١٢.
(٢٦) **التعريف بالقاضي عياض**، تحقيق محمد بن شريفة، طبعة فضالة – المحمدية ١٩٨٢ – ١٤٠٢ هـ (ط٢)، ص ٦٦. ومن هذه الأبيات الشعرية:

فجد بالوصال فدتك النفوس   فلست على الهجر بالقادر
وفيك تعلمت نظم القريض   فلقبني القوم بالشاعر

(٢٧) الغنية، ...م.س، ص ١١٤-١١٥.
(٢٨) ابن بسام، الذخيرة ....م.س، ق٤، مج ١، ص ٥١٥.
(٢٩) النباهي، المرقبة....م. س، ص٤٠-٤٢.
(٣٠) نفسه، ص ٤١.
(٣١) نفسه، ص ٤٢.
(٣٢) فهرست ابن عطية...م.س، ص ٨٤.
(٣٣) ابن بسام، الذخيرة ...م.س، ق٤، مج ١، ص٥١٥-٥١٦.
(٣٤) النباهي، المرقبة...م.س، ص ٤١.
(٣٥) محمد بن عياض، التعريف ...م.س، ص ٦٦.
(٣٦) **الديباج المذهب**، تحقيق محمد أبو النور، نشر دار التراث بمصر، ج٢، ص ٢٦.
(٣٧) **التكملة لكتاب الصلة**، نشر عزت العطار، طبعة القاهرة، ج٢، ص ٦٧٣.
(٣٨) **الذيل والتكملة**، السفر٨، قسم الغرباء، تحقيق محمد بن شريفة، ص ١١٠.
(٣٩) المعيار ...م.س، ج١، ص ٢٧١، ج٢، ص ١٠٩.
(٤٠) نفسه، ص ٨٢.
(٤١) نفسه، ج١، ص ٢٠٤-٢٠٥.
(٤٢) نفسه، ج ١، ص ٢٢٥.
(٤٣) نفسه، ج١، ص٢٣١-٢٣٩.
(٤٤) ابن رشد، **فتاوى ابن رشد**، تحقيق المختار التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٧، ج١، ص ٥٥٨ – ٥٦١.
(٤٥) المعيار.....م.س، ج٢، ص ١٠٩.
(٤٦) نفسه، ج٢، ص ٢٠٨.
(٤٧) نفسه، ج٥، ص ٣٧٦.
(٤٨) نفسه، ج١١، ص ٨٣.
(٤٩) نفسه، ج١١، ص ١٤٦.



الفقيه أحمد بن قنفذ بن الخطيب القسنطيني (٧١٠ - ٨١٠ هـ/ ١٣٤٠ - ١٤٠٧م)



محمد قويسم

أستاذ مساعد – قسم التاريخ

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

المسيلة – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد قويسم، الفقيه أحمد بن قنفذ بن الخطيب القسنطيني (٧١٠ - ٨١٠ هـ/ ١٣٤٠- ١٤٠٧م).- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ٩١ – ٩٤.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخَص

يندرج هذا الموضوع ضمن تاريخ العلم في بلاد المغرب الأوسط في العصر الوسيط، وهو يتضمن محاولة الإجابة عن إشكالية مفادها: من هو أحمد بن قنفذ القسنطيني؟ وما هي مؤلفاته في ميادين العلم؟ وما هي أهم مميزات فكره العلمي؟ وينطلق في الإجابة عن هذه الإشكالية من مؤلفاته السبعة في الفقه والتي مازالت موجودة في معظمها.

مُقدِمة

يمثل موضوع دراسة الموضوعات الفقهية عند المؤرخين العرب والمسلمين أهمية بالغة مند القرن الأول الهجري، وقد برز في القرن الثامن الهجري الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي الفقيه احمد ابن قنفذ ابن الخطيب القسنطيني، وهذه الدراسة تحاول التعريف بابن قنفذ هذا ومؤلفاته الفقهية، وذلك على ضوء المصادر الأساسية التي ألفها والمعاصرة له، وقد رأينا أن نتناول أولا التعريف بشخصيته العلمية، ثم نتطرق إلى مؤلفاته الفقهية التي مازال معظمها موجودًا.

(١) شخصية ابن قنفذ العلمية

أبو العباس احمد بن حسن بن علي الشهير بابن الخطيب وبابن قنفذ القسنطيني: توفي سنة (٨١٠هـ/١٤٠٧م) نسبه من آل قنفذ من قبيلة أسجع العدنانية اسجع بن حلاوة بن سبيع بن أشجع، ولد أبو العباس احمد الخطيب بمدينة قسنطينة سنة ٧٤١هـ/١٣٧١م، أبوه حسن بن علي بن قنفذ(ت٦٦٤هـ/١٢٦٥م) الفقيه والمحدث والخطيب المالكي، وجده أيضًا علي بن حسن(ت٧٣٣هـ١٣٣٣م) كان خطيبًا بمسجد القصبة بالمدينة لمدة ستين سنة وتولى خطة القضاء حتى استقال منها، وكان جده والد أمه يوسف بن يعقوب الملاري(ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م) صاحب زاوية ملارة الغوتية بفرجيوة وخطيب مسجد القصبة أيضا بأمر من السلطان الحفصي.(١) [ينظر الملحق رقم ١]

بدأ دراسته في مدينة قسنطينة على يد والده، لكنه توفي وعمره عشر سنوات، فكفله جده يوسف الملاري خريج مدرسة أبي مدين الغوثي وصاحب زاوية الملارة بتسدان فرجيوة قرب ميلة، فتأثر بجده كثيرًا وببعض الشيوخ مثل العالم الفقيه حسن بن خلف بن باديس(ت٧٨٤هـ/١٣٨٢م)، والفقيه الحافظ حسن بن أبي القاسم بن باديس(ت٧٨٧هـ/١٣٨٥م)، ثم رحل في طلب العلم إلى المغرب الأقصى وعمرة ثمانية عشر عامًا سنة ٧٥٩هـ فقصد في طريقه مدينة تلمسان الزيانية، والتقى بعلمائها ووقف عند زاوية شيخها أبي مدين بالعباد وتبرك بضريحه، ثم غرب نحو مدينة فاس عاصمة بني مرين حيث وجد ابن قنفذ ضالته المنشودة في جامع القروين، فأخذ يتعمق في دراسة العلوم التجريبية والتجريدية ويتوسع فيها لمدة زادت عن ثماني عشر سنة.(٢)

وفي المغرب التقى بعلماء ذلك العهد وبأقطاب التصوف وشيوخه في مناطق عديدة من المغرب الأقصى: آسفي، وسلا مدينة أبا العباس أحمد بن عاشر، ومدينة دكالة التي كان يعقد فيها

سنويًا مؤتمر للصوفية في شهر ربيع الأول، حيث التقى بأخيار العلماء والصلحاء ما شردت به عينه حسب وصفه في انس الفقير، وزار مراكش، حتى صار من المالكية البارزين، فقلد خطة قضاء دكالة سنة(٧٦٩هـ/١٣٦٧م) وعمره تسعة وعشرين عامًا، أي بعد عشر سنوات من إقامته بالمغرب الأقصى، وظل ابن قنفذ بالمغرب إلى غاية سنة(٧٧٦هـ/١٣٧٥م) التي كانت سنة مسغبة في معظم المدن المغربية.(٣)

حيث قرر العودة في هذه السنة إلى أهله وبلدته المفضلة مدينة قسنطينة، وعند عودته إلى مدينته وجد مجالاً طيبًا عند عائلته، وحظوة مميزة عند البلاط الحفصي، فسرعان ما أستدعي لتولي عدة وظائف وخطط سامية بقسنطينة، فتقلد الخطابة بالمسجد الجامع بالقصبة وخطة القضاء فضلاً عن التدريس ونشر العلم والتأليف، وهي والوظائف التي ظل ابن قنفذ يشغلها إلى أن أدركته الوفاة (٨١٠هـ/١٤٠٨م)، ومن مدينة قسنطينة زار مدينة تونس وجامع الزيتونة وأخذ عن علمائه عدة مرات منها سنة ٧٧٧هـ أي بعد سنة فقط من رجوعه من المغرب حيث أجازه العلامة ابن عرفة بجامع الزيتونة، وكان قد أجازه أيضًا أبو القاسم محمد بن أحمد الحسني السبتي المعروف بالشريف الغرناطي.(٤)

٢) مؤلفاته الفقهية

ألف ابن قنفذ ما يزيد عن ثلاثين كتابًا في شتى العلوم في: التاريخ، والفقه، والأدب، واللغة، والمنطق، والفلك، والحساب، والتصوف، والتراجم، والعروض، والأنساب، دونها صاحبها في آخر كتاب شرف الطالب في أسنى المطالب، مما يدل على سعة الاطلاع وموسوعيته وعمق تفكيره وتعدد معارفه وتنوعها فزاحم بذلك الدارسين المختصين في علومهم، وفي الفقه ألف خمس مؤلفات في الفقه والحديث هي:

٢/أ- تقريب الدلالة في شرح الرسالة:

في الفقه وكان شرح رسالة أبي زيد القيرواني في أربعة أسفار وهو مفقود.(٥)

٢/ب- اللباب في اختصار الجلاب:

في الفقه وهو مفقود وهو التفريع في فروع المذهب المالكي ألفه عبيد الله بن الحسين الجلاب من فقهاء المالكية ببغداد (ت ٣٧٨هـ) وشراح التفريع كثيرون منهم ابن قنفذ القسنطيني،(٦) واللباب في اختصار الجلاب:من الكتب المدرجة في برنامج التعليم بجامع الزيتونة التي اختصرها ابن قنفذ.(٧)

٢/ج- تفهيم الطالب لمسائل أصول ابن الحاجب:

في الفقه قال عنه في كتاب شرف الطالب وهو غريب قال قيدته في زمان قراءتي على الشيخ أبي محمد عبد الحق الهسكوري بمسجد البليدة من مدينة فاس وكان الابتداء في أول سنة٧٧٠هـ، أن الحاجب هو أبو عمرو عثمان بن عمرو (ت ٦٤٦هـ) من أكراد مصر كان أبوه حاجبا فنسب إليه برع في الفقه والأصول والعربية والقراءات وعنوان الكتاب منتهى السول في الأصول.(٨)

٢/د- أنوار السعادة في أصول العبادة:

في الحديث وعلومه وهو شرح لقول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بني الإسلام على خمس، وفي كل قاعدة من القواعد الخمس أربعون حديثًا وأربعون مسألة، وهو ما يزال مخطوط ذكره الكتاني في فهارسه دون توضيح مكانه.(٩)

٢/هـ- علامات النجاح في مبادئ الإصلاح:

هو كتاب في مصطلح الحديث مخطوط في المكتبة الوطنية بالجزائر.(١٠)

٢/و- تحفة الوارد في اختصاص الشرف من قبل الوالد:

عالج هذا الكتاب قضية النسب الشريف في بلاد المغرب بعد سقوط الدولة الموحدية سنة ٦٦٨هـ، لكثرة المنتحلين والمدعين لهذا اللقب وذلك طمعا في الوصول إلى مكانة اجتماعية متقدمة ببلاط الزيانيين والحفصيين والمرينيين، وقد استغرقت هذه النقاشات والمجادلات عشرات السنين شارك فيها علماء وفقهاء المدن الكبرى تونس وبجاية وتلمسان وفاس وقسنطينة حيث ورد السؤال على ابن قنفذ أبو العباس احمد بن علي بن حسن بن الخطيب سنة ٨٠٣هـ وهو قاضي وخطيب ومفتي مسجد قصبة قسنطينة، فكان السؤال عن ثبوت الشرف من الأم وهل يسوغ التسوية بينه وبين الشرف من الأب.(١١)

وجاءت إجابته رافضة للشرف من الأم لهذا سمى كتابه بـ: تحفة الوارد في اختصاص الشرف من الوالد وعلل موقفه هذا بان الشرف بالأب دون إلام الشريفة كما كان في الزمن الأول، وأيده في ذلك قاضي الجماعة في تونس أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن عبد الرفيع الربعي، رغم أن فتوى ابن قنفذ كانت عكس فتوى محمد بن عبد الله المراكشي الضرير أو الأكمه القسنطيني بعنوان إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم، وفتوى عبد الرحمن التونسي(٨٠١هـ/١٣٩٩م) بعنوان طراز الكم وتحرير الحكم بإثبات الشرف من قبل الأم، كما أن علماء فاس وتلمسان(محمد ابن مرزوق الحفيد) وبجاية عارضوا كل فتوى من قسنطينة وتونس ترفض إثبات الشرف من ناحية الأم.(١٢)

٢/ز- شرح الطالب في أسنى المطالب:

في الحديث وعلومه وهو شرف الطالب في أسنى المطالب،و هو في مصطلح الحديث،(١٣) وهو في قسمه الأول شرح لمنظومة ألقاب الحديث التي وضعها ابن فرج الاشبيلي المتوفى سنة ٦٩٩هـ/١٣٠٠م وهي عشرون بيتا في أنواع علوم الحديث بعنوان غرامي صحيح، ونشر الشرح لأول مرة على يد المستشرق ريش بهولندا سنة ١٨٨٥،(١٤) ومطلعها:

غرامي صحيح والرجا فيك معضل	وحزني ودمعي مرسل ومسلسل
وصبري عنكم يشهد العقل أنه	ضعيف ومتروك وذلي أجمل
ولا حسن إلا استماع حديثكم	مشافهة يملى علي فأنقل

أما القسم الثاني هو تراجم حققه محمد حجي بالمغرب.(١٥)

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية   ISSN: 2090 – 0449



خاتمة

وفي نهاية القول يمكن الوصول إلى جملة من النتائج؛ أولها أن ابـن قنفـذ القسـنطيني يعتبر مـن الفقهـاء الكبـار بـالمغربين الأوسـط والأدنى في نهايـة العصـر الوسـيط (العصـر الحفصـي)، ثانيًـا بـرز بعلومـه الموسـوعية ونبوغـه في الفقـه وعلـم الحـديث، حيـث تعـد كتاباته الفقهية (شرح الطالب وتحفة الوارد وعلامات النجاح وأنوار السـعادة وتفهيـم الطالـب واللبـاب وتقريـب الدلالـة) مصـادر أساسـية لدراسـة الفقـه في المغـرب خـلال القـرن الثـامن الهجـري/ الرابـع عشـر الميلادي. وثالثًا تميز منهجه الفقهي بخصوصيات هامة، فهـو مسـتقل، ويتناول مواضيع مختلفة، مثل قضية إثبات الشرف من قبل الأم أو الأب، حيـث أفتى بالشـرف مـن قبـل الأب ولـيس الأم معارضًـا بـذلك فتوى الأكمه الضرير وعبد الرحمن التونسي وعلماء فاس وتونس.

ملحق رقم (١)

جدول أسرة ابن قنفذ

الشخصية	الخاصية
حسـن بـن علـي بـن ميمـون بـن قنفذ (ت٦٦٤هـ/١٢٦٥م)	فقيـه مـالكي مـن أعيـان مدينـة قسنطينة، هو جد والد أحمد بن قنفذ الخطيب
حسن بن علي بن حسن بن علي بــن ميمــون بــن قنفــذ (ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م)	صاحب كتاب المسنون في أحكام الطاعون،المسـائل المسـطرة في النوازل الفقهية.
علي بن حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ (ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م)	خطيــب الجــامع الأعظــم ٦٠ ســنة وقاضــي قســنطينة واستقال.
أحمـد بـن حسـن بـن علـي بـن حسـن بـن علـي بـن ميمـون بـن قنفــذ الشــهير بــن الخطيــب (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م)	فقيه قاضي مؤرخ رياضي طبيب فلكي أديب منطقي رحالة سياسي المدرس ألف أكثر من ثلاثين كتاب
أبـو عبـد الله محمـد ابـن قنفـذ القسنطيني(ت١٠١٥هـ/١٦٠٦م)	صاحب كتاب إدريسية النسب في القرى والأمصار وبلاد العرب

المصدر:

١. ابن قنفذ القسنطيني: أنس الفقير

٢. ابن قنفذ القسنطيني: الوفيات

٣. ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية

الهوامش:

(١) ابـن قنفـذ القسـنطيني: **الفارسـية في مبـاديء الدولـة الحفصـية**، تقـديم وتحقيـق محمـد الشـاذلي النيفـر، عبـد المجيـد التركي، الـدار التونسـية للنشـر تـونس ١٩٦٨، ص٤١-٤٢، التمبكتي أحمـد بابـا: **نيل الابتهـاج بتطريز الديباج**، دار الكتــب العلميــة بيــروت (د ت)،ص٧٥، فيلالــي عبــد العزيــز: **مدينــة قسـنطينة، تـاريخ معـالم، حضـارة** دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع عين مليلـة أم البـواقي الجزائر ٢٠٠٧، ص١٤٢-١٤٩،عبـد العزيـز فيلالي: **ابـن قنفـذ مؤرخــا لأســرته وبلدتــه**، مجلــة ســيرتا، الســنة السابعةــ العــدد ١١ــ محـرم١٤١٨هـ/ماي١٩٩٨م، جامعـة منتـوري قسـنطينة، ص١١٠، عمار هلال: **العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشـرين الميلاديـين (٣هــ/١٤هـ)**، ديـوان المطبوعـات الجامعيـة الجزائـر، ١٩٩٥، ص١٥٩، علي علواش: ابن قنفذ، **معجم مشاهير المغاربة**، تنسيق أبو عمران الشيخ، تقرير ناصر الدين سعيدوني، جامعة الجزائر ١٩٩٥، ص٣٩٦، محمد حجي: **موسوعة أعلام المغرب**، ج٢، دار الغرب الإسلامي بيروت١٩٨٠، ص٨٣٣، محمـد المهدي بن علي شـغيب: **أم الحواضـر في الماضي والحاضـر، تـاريخ مدينـة قسـنطينة**، مطبعـة البعـث، قسـنطينة الجزائـر ١٩٨٠، ص٧٥، زهيـر حميـدان: **أعـلام الحضـارة العربيـة الإسـلامية في العلـوم الأساسـية والتطبيقيـة في الأنـدلس والمغـرب والجزائـر وتـونس وليبيـة، مـن عـام ٣٨هـ ـ٧٥٥م ــ١٣١٧هـ ــ١٨٩٩م**، مج٥، منشـورات وزارة الثقافـة دمشـق ١٩٩٠، ص٤٧.

(٢) ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية...ص٤١-٤٢ ، **أنس الفقير وعز الحقير**، تحقيق أبي سـهل نجـاح عـوض صيـام، تقديم علي جمعـة دار المقطم للنشر والتوزيع القـاهرة ٢٠٠٢، ص٦٣-٦٤، التمبكتي أحمـد بابـا: **نيل الابتهـاج**...ص ٧٥، عبـد العزيز فيلالي: **مدينة قسنطينة**...ص١٤٥، عبد العزيز فيلالي: **ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته**، مجلة سيرتا، العدد١١، ص١١٠. علي علواش: المرجع السابق.. ص٣٩٦، محمد حجي: المرجع السابق، ص٨٣٣، محمد المهدي بن علي شغيب: المرجع السابق، ص٧٥.

(٣) ابن قنفذ القسـنطيني: **الفارسية**... ص٤١ ــ ٤٢، أنس الفقير...ص ٦٣ ــ ٦٤، التمبكتي أحمـد بابـا: **نيـل الابتهـاج**...ص ٧٥،عبـد العزيـز فيلالـي: **مدينـة قسـنطينة**... ص ١٤٥،عبـد العزيـز فيلالي: **ابـن قنفـذ مؤرخًـا لأسـرته وبلدتـه**، مجلة سيرتا، العدد١١...، ص١١٠، نجاة المريني: **ابن قنفذ من خلال رحلته أنـــس الفقيـــر وعـــز الحقيـــر**، الســـنة السابعةـــ العـــدد ١١ـــ محـرم١٤١٨هـ/مـاي١٩٩٨م، جامعـة منتـوري قسـنطينة، ص١١٥-١١٩، علي علـواش: المرجـع السـابق، ص٣٩٦،السـلاوي: **كتـاب الاسـتقصـاء لأخبـار دول المغـرب الأقصـى، الدولـة المرينيـة**، ج٤، تحقيـق جعفـر الناصـري، محمـد الناصـري، دار الكتـاب الـدار البيضـاء المغـرب١٩٥٥، ص٨٣، محمـد حجي: المرجع السابق، ص٨٣٣.

(٤) ابــن قنفــذ القســنطيني: **أنــس الفقيــر**...ص٧١، **الوفيــات**...ص ٦٣، ٣٦١، التمبكتي أحمد بابا: **كفاية المحتاج**، ج١، تحقيق محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشـؤون الإسـلامية الربـاط المغـرب ٢٠٠٠،ص١٠٣-١٠٤،عبـد العزيـز فيلالي: **مدينـة قسـنطينة**... ص ١٤٤، عبـد العزيـز فيلالي: **ابـن قنفـذ مؤرخـا لأسـرته وبلدته**، مجلة سيرتا، السنة السابعة ـ العدد ١١. محرم١٤١٨هـ/ماي١٩٩٨م، جامعة منتوري قسنطينة، ص١١٠ عمار هلال: المرجع السابق، ص١٥٩. علي علـواش: **ابـن قنفـذ**،معجـم مشـاهير المغاربـة، ص٣٩٦، محمـد حجي: المرجـع السـابق، ص٨٣٣، لكن الزركشي ذكر وفاته ليلة الجمعة الثانية عشرة لربيع الأول سـنة ٨٠٩هـ والموافـق لـ٢٨ أوث ١٤٠٦ وأيـده في ذلـك الصفاقسـي ينظر الزركشي: المصـدر السـابق، ص١٢٣، الصفاقسـي محمـود بـن سـعيد مقيـدش: **نزهـة الأنظـار في عجائـب التـواريخ والأخبـار**، تـونس ١٣٢١هـ ص٢٣٩، علي علواش: المرجع السابق،ص٤٥١.

(٥) ابن قنفذ القسنطيني: **شرف الطالب**...ص٩١، التمبكتي أحمد بابا: **نيل الابتهاج**...، ص١٠٩، أحمد بن القاضي: **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الإعلام مدينة فاس**، القسم الأول، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط ١٩٧٣، ص١٥٤ . ١٥٥، إبراهيم حركات: **مدخل تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن ٩/١٥**، ج٢، الشرعيات والعقائد، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء، المغرب٢٠٠٠، ص٢٦٣، محمد المهدي بن علي شغيب: المرجع السابق، ص٧٥.٧٨. الحفناوي: المرجع السابق، ج١، ص٣٣.٣٦، ينظر أبي زيد القيرواني: **الرسالة**، دراسة وتحليل مزيان وشن، دار النشر جيطلي برج بوعريريج ٢٠٠٩، ص١٨٥.

(٦) ابن قنفذ القسنطيني: **شرف الطالب**... ص٩١، ابن مريم: المصدر السابق، ص ٣٠٨.٣٠٩، أحمد بن القاضي: **جذوة الاقتباس** ...القسم الأول، ص١٥٤-١٥٥، إبراهيم حركات: **مدخل إلى تاريخ العلوم**، ج٢، ص٢٣٠، محمد المهدي بن علي شغيب: المرجع السابق، ص٧٥ - ٧٩ ، الحفناوي: المرجع السابق، ج١، ص٣٥.

(٧) ابن قنفذ القسنطيني: **شرف الطالب**، ص٢٣٨، ابن مريم: المصدر السابق، ص٣٠٩، أحمد بن القاضي: **جذوة الاقتباس** ... القسم الأول، ص١٥٤ - ١٥٥،عادل نويهض: المرجع السابق، ص٢٦٨ - ٢٦٩، أحمد الطويلي: **ابن قنفذ القسنطيني(٧٤٠ - ٨١٠هـ) مؤرخًا للحضارة الحفصية ومشاركًا فيها**، مجلة سيرتا، السنة السابعة . العدد ١١. محرم١٤١٨هـ/ماي١٩٩٨م، جامعة منتوري قسنطينة، ص١٢١.١٢٥.

(٨) ابن قنفذ القسنطيني: **شرف الطالب**، ص٩٢، ابن مريم: المصدر السابق، ص٣٠٩، أحمد بن القاضي: **جذوة الاقتباس** ...القسم الأول، ص١٥٤ـ١٥٥، عادل نويهض: المرجع السابق، ص٢٦٨.٢٦٩. محمد مختار اسكندر: **المفسرون الجزائريون عبر القرون**، ج١، إصدار حلب للنشر (د ت) ص٨٩. إبراهيم حركات: **مدخل إلى تاريخ العلوم**، ج٢، ص٢٣٣- ٢٣٤، ٣٢٦ ، محمد المهدي بن علي شغيب: المرجع السابق، ص٧٥ـ٧٩. الحفناوي: المرجع السابق، ج١، ص٣٦.

(٩) ابن قنفذ القسنطيني: شرف الطالب، ص٩٢، ابن مريم: المصدر السابق، ص٣٠٩، أحمد بن القاضي: **جذوة الاقتباس** ...القسم الأول، ص١٥٤ـ١٥٥، عادل نويهض: المرجع السابق، ص٢٦٨- ٢٦٩، محمد المهدي بن علي شغيب: المرجع السابق، ص٧٥.٧٩، الحفناوي: المرجع السابق، ج١، ص٣٣ . ٣٦.

(١٠) ابن قنفذ القسنطيني: **شرف الطالب**، ص٩٣، ابن مريم: المصدر السابق، ص٣٠٩، أحمد بن القاضي: **جذوة الاقتباس** ...القسم الأول، ص١٥٤.١٥٥، عادل نويهض: المرجع السابق، ص٢٦٨ - ٢٦٩، محمد المهدي بن علي شغيب: المرجع السابق، ص٧٥.٧٩، الحفناوي: المرجع السابق، ج١، ص٣٣ - ٣٦.

(١١) ابن قنفذ القسنطيني: **شرف الطالب**، ص٩٣، ابن مريم: المصدر السابق، ص٣٠٩، عادل نويهض: المرجع السابق، ص٢٦٨ - ٢٦٩، بوبة مجاني: **تحفة الوارد في اختصاص الشرف من الوالد لأبي العباس أحمد بن علي بن حسن بن الخطيب المعروف بابن القنفذ القسنطيني(ت.٨١٠هـ/١٤٠٧) مقاربة أولية**، مجلة سيرتا، مجلة تاريخية اجتماعية فلسفية معهد العلوم الاجتماعية، السنة السابعة - العدد ١١- محرم ١٤١٨هـ/ماي ١٩٩٨، جامعة منتوري قسنطينة، ص١٥١، محمد المهدي بن علي شغيب: المرجع السابق، ص٧٥ـ٧٩. الحفناوي: المرجع السابق، ج١، ص٣٣، خير الدين الزركلي: **الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، المجلد الأول، ط١٥، دار العلم للملايين بيروت لبنان ٢٠٠٢، ص١١٧.

(١٢) بوبة مجاني: المرجع السابق، ص ١٥١ـ١٥٦، فيما يخص مخطوط تحفة الوارد في اختصاص الشرف من الوالد لابن قنفذ ذكرت الدكتورة الباحثة بوبة مجاني أن نسخة منه عند الشيخ محمد الشاذلي النيفر ونسختين بدار الكتب المصرية ضمن مجموع واحد رقمه ٢١٣٥ تاريخ أو ٢١٣٠ تاريخ وذكرت أنها تعمل على تحقيقه ونشره مع دراسة وافية عن الأشراف في بلاد المغرب من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين /الثالث عشر السادس عشر الميلاديين. إبن مرزوق محمد الحفيد: **إسماع الصم في إثبات الشرف للام**، تحقيق مريم لحلو، مطبعة الشرق وجدة المغرب ٢٠٠٦ ص ٢٢٣ - ٢٥٤.

(١٣) ابن قنفذ القسنطيني: **شرف الطالب**... ص٩٢ - ٩٣، هذا الكتاب حققه بالمغرب حجي وفي السعودية ومازالت نسخ من مخطوطاته في عدة أماكن منها خزانة عائلة باشيخ بتقراف باقليم توات وهي من كتابة أو نسخ الشافعي بن عمار البلغثي ينظر عبد الكريم عوفي: **مراكز المخطوطات في الجنوب الجزائري إقليم توات نموذجا**، مجلة آفاق الثقافة والتراث مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث السنة التاسعة، العدد الرابع والثلاثون، ربيع الآخر ١٤٢٢هـ/ يوليو تموز ٢٠٠١ دبي الإمارات العربية المتحدة، ص١٢٠.

(١٤) ابن قنفذ القسنطيني: **شرف الطالب في أسنى المطالب**، تحقيق عبد العزيز صغير دخان، مكتبة الرشيد ناشرون الرياض المملكة العربية السعودية٢٠٠٣، ص٤١، وما بعدها، طبعة المغرب ص٩٣، ابن مريم: المصدر السابق، ص ٣٠٨.٣٠٩، أحمد بن القاضي: **جذوة الاقتباس** ...القسم الأول، ص١٥٤ - ١٥٥، إبراهيم حركات: **مدخل إلى تاريخ العلوم**، ج٢، ص٩٢. عبيد بوداود: **المخطوطات الجزائرية بالمغرب الأقصى** (المكتبة العامة بالرباط والمحفوظات بمدينة تطوان)، مجلة عصور،ع٣، جامعة وهران السانية ٢٠٠٣، ص١٣٦، محمد المهدي بن علي شغيب: المرجع السابق، ص٧٥- ٧٩. الحفناوي: المرجع السابق، ج١، ص٣٦، الزركلي: المرجع السابق، مج١، ص١١٧.

(١٥) ابن قنفذ القسنطيني: **الوفيات**، ص ٦٣، حيث ذكر هذه الأبيات، **شرف الطالب**...ص٩٣، حيث ذكر تقييدات في مسائل مختلفة وينظر أبو العباس أحمد بن فرج الاشبيلي: **منظومة غرامي صحيح في ألقاب الحديث**، سلسلة المتون العلمية، متون مصطلح الحديث، دار المستقبل القاهرة، دار الإمام مالك الجزائر ٢٠٠٥، ص١٥٥- ١٥٩.



الظاهر بيبرس رجل السيف والعُمران "مشاهد من مواقفه"



أ. د. حسن محمد الربابعة

أستاذ أدب ونقد عباسي

قسم اللغة العربية - كلية الآداب

جامعة مؤتة

الكرك – المملكة الأردنية الهاشمية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسن محمد الربابعة، الظاهر بيبرس رجل السيف والعُمران: مشاهد من مواقفه.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ٩٥ – ١٠٦.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخَص

تتناول هذه الدراسة مواقف شاهدة للظاهر "بيبرس بن عبد الله التركي الشركسي" المملوك طفلاً لشاريه الأمير علاء الدين الصالحي البندقداري، وقد ظل إليه ينتسب، إلى أن حرَّره المالك الصالح نجم الدين أيوب، وجعله في خدمته بالقاهرة، بعد أن تفرَّس فيه النجابة والذكاء، ولم يُخيِّبْ ظنُّ نجم الدين به، فترعرع في سلك الجندية، إلى أن صار سيد السيف والعمران، كما تشهد له مواقفه خلال واحدة وخمسين سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م - ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) تنفَّس فيها أنسام الحياة.

مُقدِّمة

يُعدُّ ركن الدين بيبرس العلائي البندقداري الصالحي النجمي الملقب بـ "أبي الفتوح"، سلطان مصر وبلاد الشام،[(١)] خامس السلاطين في الدولة المملوكية البحرية، بعد شجرة الدر أرملة الصالح أيوب ت(٦٤٨هـ)، وتورانشاه الذي ولي بعد وفاة أبيه ٦٤٨هـ، وقد لمس تمكن سلطة المماليك وزوجة أبيه شجرة الدر، فسعي في عزلهم واستبدالهم برجال من خاصته، فأدرك خطره الظاهر بيبرس فقتله،[(٢)] ثم تولى الحكم بعده المعزُّ عز الدين أيبك المعظم، أحد الأتابكة (القائد العام للعساكر) وتزوَّج شجرة الدر، التي كانت تمثل الصفة الشرعية في الحكم، فثار جيش الشام بقيادة الناصر يوسف حفيد صلاح الدين الأيوبي من حلب، حيث كان واليها، مرورًا بدمشق، للانتقام من المماليك الذين قتلوا سيدهم، "توران شاه" الذي هزم ملك الفرنجة في معركة المنصورة، وجهَّز سُفنا حملت أخشابها الجمال وبناها سفنًا حربية خفيفة على ضفة نهر النيل، فرع دمياط، فأسر بها سفنَ الفرنجة الحربية والإدارية، وأحدق المسلمون بجيوش "لويس التاسع" فاستسلم، مأسورًا، فأعاد لويس الأسير دمياط مرغمًا دون قيد أو شرط.[(٣)]

أما عزُّ الدين أيبك فهزم جند الشام في معركة "العباسة"،[(٤)] وتسلطن بعده المنصور نور الدين علي ابن الملك المعز أيبك، يوم الخميس سادس عشر ربيع الأول، سنة (٦٥٥هـ) خمس وخمسين وستمائة، وكان كثير اللهو، ولم يكن له التفات إلى تدبير المملكة، وكانت والدته تديِّر ملكه تدبير نساء، فرأى الأمير قطز أن الأمور تؤول إلى فساد، فخلا لقطز الجو، بذهاب الأمراء للصيد فاعتقله، وأرسله إلى سجن في دمياط، في برج السلسلة في وسط البحر، وكانت مدة حكمه سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام . وتوفى سنة (٦٥٥هـ)،[(٥)] والمظفر سيف الدين قطز قائد عين جالوت، وكان برفقته الظاهر بيبرس سنة (٦٥٧هـ).[(٦)]

وقفات من سيرة بيبرس

بيبرس: تركي من القبجاق (كازاخستان حاليًا)، أُسر وهو غلام، وبيع في سوق الرقيق بدمشق، وهو ابن أربع عشرة سنة، اشتراه الأمير علاء الدين الصالحي البندقداري، وبقي عنده، وإليه نسب، إلى أن قبض الملك الصالح نجم الدين أيوب على علاء الدين، فأخذه فجعله في خاصة خدمه،[(٧)] في مدينة القاهرة، بعد أن أعتقه

ومنحه الإمارة فصار أميرًا، وتعني كلمة "بيبرس" الأسد الأبيض" في اللغة التركية.[٨] شارك قائدًا فذا مع جيش المماليك في معركة المنصورة ضدّ الصليبيين في رمضان عام (٦٤٧هـ)الموافق لعام (١٢٤٩م) وفيها أُسر الملك الفرنسي لويس التاسع، وسجنه في دار ابن لقمان، وخابت حملته، وقد وثقها سميُّه بيبرس المنصوري، في كتابه "التحفة الملوكية"[٩] محتجًّا بأبيات لجمال الدين يحيى بن مطروح معاصر الحدث، كما ترجم له القلقشندي[١٠] منها قوله:

قلْ للفرنسيس إذا جئتَهُ	مقالَ ذي صدْقٍ صريحٍ نصيحْ
آجرَكَ اللّهُ على ما جرى	من قتْل عُبَّادِ يسوعَ المسيح
أتيتَ لمصرا تبتغي ملكها	تحسبُ أنَّ الزَّمرَ يا طبلُ ريحُ
فساقك الحِينُ إلى أدهمٍ[١١]	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكلُّ أصحابك أوردتْهم	بحسن تدبيرك بطنَ الضَّريح
وفّقك الله لأمثالها	لعلّ عيسى منكمُ يستريح
إن يكنِ البابا بذا راضيا	فربَّ غِشٍّ قد أتى من نصيح
خمسون ألفا لا يُرى منهم	إلا قتيلاً أو أسيرًا جريح
فقل لهم إن تضمروا عودة	لأخذ ثأر[١٢] أو لقصد صحيح
دارُ ابن لقمانَ[١٣] على حالها	والقيدُ باقٍ، والطواشي "صبيح"[١٤]

ففي النصِّ درج تاريخي لأبرز أحداث المعركة البحرية، بدليل "أدهم" التي تعني السفن لطلاء بواطنها بالقار منعًا من نفاذ الماء إليها، في المنصورة، بين الأتراك المسلمين، والفرنسيين بقيادة ملكهم المسمى ريدا فرنس[١٥] وقد أخذ أسيرًا، كان ذلك في المنصورة، قرب دمياط، بعد وفاة الملك الصالح سنة (٦٤٧هـ) وفشل ولده توران شاه في القيام بواجب الجهاد، لردّ العدو على أعقابه، إلى أن قيَّض الله لهم المماليك، فهزموا الفرنسيين وغنموا، وأُحصى من خسائرهم خمسون ألفًا، بين قتيل وجريح وأسير.

وقد كان للقائد بيبرس دور حاسم في النصر على لويس التاسع وجنده، ذلك أنه في صبيحة يوم الجمعة الموافق للحادي عشر من شهر شباط عقد بيبرس مجلسًا مع مستشاريه، وقرَّر الهجوم على بقية الجيش الصليبي ذي الفرق السبع، وترك لويس لنفسه فرقة احتياط خلفها، فما كان من بيبرس إلا أنه ابتدع فنًا جديدًا في الحرب هو تعبئته جيشه مقدمة وقلبًا وساقة، واستغنى عن الجناحين؛ لضيق المكان، من جهة، وليعطي فرسانه مجالاً للمناورة يمينًا وشمالاً، من جهة أخرى، وبدأ يحرك قواته بإشارات متفق عليها، فمنحه سرعة تقدم في دقة وانتظام، ثم وجه هجومه الأول نحو جناح لويس الأيمن المكشوف والمحروم من حماية الرماة، من الذين كانوا على الضفة الشمالية من دلتا النيل، وراح يسدد ضرباته في خفة وسرعة، ومهَّد لكل هجوم برماية قذائف من النار الإغريقية، فدمر بيبرس فرقتين من سبع، هما فرقة كونت أنجو، والفرقة الثانية التي كانت بقيادة الكونت دي بوليتيه، وقد أسر الكونت في المعركة، مما يدلُّ على عبقرية بيبرس العسكرية باعتراف عدوِّه.[١٦]

وقد أدرج القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى" شعرًا عن هذه الحادثة و لكنه لم يذكر الشاعر، لكن محقِّقَ كتاب التحفة عيَّن الشاعر معاصر الحدث وبيَّنه مرجعًا عند القلقشندي، وبرز في النص تحدي الشاعر للفرنسيين، فإن يعودوا يجدوا غدا ما حلَّ بهم اليوم من قتل وأسر وتشريد، كما يشهدونه إذ ذاك في هذه المعركة، وذكَّر مليكهم بأسره في دار لقمان، لردعه عن مجازفة أخرى.

ولمَّا تولَّى عزُّ الدين أيبك حُكمَ مصرَ، بعد زواجه من شجرة الدر،[١٧] لم يكن الظاهر بيبرس على وفاق معه، فذهب للشام والتحق بخدمة أمرائها من بني أيوب، وظلَّ في دمشق، إلى أن آل الأمر إلى سيف الدين المظفر قطز،[١٨] فاستدعاه قطز وعيَّنه قائدًا لمقدمة جيشه الملوكي المصري.

(١) دور الظاهر بيبرس في هجوم التتار على بغداد وبلاد الشام

ما إن سقطت بغداد في يد المغول بقيادة هولاكو ٢٠ محرم سنة (٦٥٦هـ)، حتى عاثوا فيها فسادًا؛ قتلوا الكثير من أهلها، ونهبوهم سبعة أيام، وأخذوا مالاً لا يُحصى، وقبض هولاكو على الخليفة العباسي الملقب بـ"المستعصم بالله بن منصور (المستنصر) ابن محمد (الظاهر)،[١٩] وأمر بأن يداس ويرفسَ إلى أن يموت،[٢٠] وهكذا انتهى أمر الخليفة المستعصم فقيل فيه شعر متهكمًا عليه:[٢١]

يا فرقةَ الإسلامِ نوحوا واندبوا	أسفا على ما حلَّ بالمستعصم
دَسْتُ الوزارةِ كان قبل زمانهِ	لابنِ الفُرات فصار لابن العلقمي

فطمع هولاكو في احتلال بلاد الشام، لإذلال المماليك حكام مصر مستغلاً العداوة بين الملك الناصر بن محمد(العزيز) ابن الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي[٢٢] والمماليك، فأرسل الملك الناصر ابنه الملك العزيز إلى هولاكو، وبصحبته بعض الأمراء، معهم هدايا لهولاكو ملتمسين منه مساعدته، ضدَّ المماليك، بسبب انتزاعهم السلطة الأيوبية منهم، فلم يعجب هولاكو الأمر، بل كان على الناصر في نظر هولاكو أن يقدُمَ ممتثلاً إليه شخصيًا، لا أن يرسل مندوبًا عنه، فأسرع هولاكو مستغلاً الفرصة، وسياسة "فرِّق تسدْ" سياستُه لتفريق خصومه، فأرسل فرقة من عشرين ألف فارس إلى الشام، تمهيدًا لاحتلالها، وقتل هولاكو الكاملَ بن الشهاب بن الملك العادل صاحب حِصْن ميَّافارقين[٢٣] لما اعترضه، ورفض تسليم الحصن لهولاكو، بل لأنه تجرأ أيضًا، وقتل رسول هولاكو إليه، وهو قسيس يعقوبي، ولم يكتف بقتله بل صلبه! وتجنَّب الردَّ على رسالة هولاكو، فما كان من هولاكو، إلا أن حاصر "ميَّافارقين" وقضى على مقاومتها الضارية، وأدار هولاكو مذبحة رهيبة ذبح فيها المسلمين ذبحًا بحقده المعهود، وأبقى على حياة المسيحيين، ربَّما لأنَّه مسيحي، أو لإيقاع الفتنة، بين المسلمين والمسيحيين، أو لتشجيع المسيحيين على التعاون مع هولاكو، في نشوة نصره، أو استبقاهم؛ جزاءً وفاقًا لتعاونهم معه ضد المسلمين.[٢٤]

وتعرض الملك "الكامل"، لما أُسر، لتعذيب قاس، وتنكيل متوحش، بأن أرغمه هولاكو على أن يأكل الكاملُ من لحم جسده حتى مات،[٢٥] وقُطع رأسه وأمر بأن يُطافَ به في البلاد للإرعاب،[٢٦]

فلما علم المماليك؛ ممن كانوا في دمشق، غضبوا ورحلوا إلى الملك المغيث ملك الكرك،[٢٧] وعرضوا عليه الاستيلاء على مصر، فاستجاب لطلبهم، غير أنَّ الأمرَ انتهى بعودة المماليك البحرية إلى مصر، منهم الظاهرُ بيبرس، الذي دخل بطاعة المظفَّر قطز، ولمَّا علم قطز، بمسير نجدة التتار إلى دمشق، بعث برسالة إلى الملك الناصر يطمئنه، بأنه لا يريدُ منه ملكًا ولا ينازعُه على كرسي آل أيوب، وأنه هو (يعني نفسه) ليس إلا نائبًا للناصر في مصر، وأنَّ الملك الناصر متى حضر إلى مصر، سيجلسه على دست المملكة، كان ذلك في رسالة مطمئنة له منها :"وإنْ اخترْتَنِي خدمتُك، وان اخترتَ قدمتُ ومن معي من العسكر إليك، نجدة لك، فانْ كنتَ لا تأمنُ حضوري، أرسلتُ العساكر صحبة من تختاره".[٢٨] مما يعني حرص المظفر قطز على الوحدة واستعداده للتنازل عن السلطنة، مقابل ألا يلجأ الناصر إلى هولاكو لنجدته، أو الانضواء تحت بطشه، ضد المماليك وأمته الإسلامية.

وتسارعت الأحداث، بقدوم العزيز نجلِ الملك الناصر من عند هولاكو ومعه رسالة منه، ملأى تهديدًا ووعيدًا وغرورًا، منها: "الذي يعلم به الملك الناصر صاحبُ حلبَ، أَنَّا نحن قد فتحنا بغداد، بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانَها، وهدمنا بنيانَها، وأسرنا سكَّانها، كما قال تعالى في كتابه العزيز "إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزَّةَ أهلِها أذلة وكذلك يفعلون".[٢٩] ثم تابع في رسالته :"واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات، فكذب فواقعهُ الندم، واستوجب منه العدم، وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه نحيسة، فجمع المالَ ولم يعبأ بالرِّجال، وكان قد نما ذكره وعظم قدره، ونجن نعوذ بالله من التمام والمال ثم ضمن رسالته أبياتًا من الشعر منها:

إذا تمَّ أمرٌ دنا نقصـُهُ ... توقَّ زوالًا إذا قيلَ تمّْ
إذا كنتَ في نعمةٍ فارعها ... فانَّ المعاصي تزيلُ النِّعمْ
وكم من فتى باتَ في نعمةٍ ... فلم يدرِ بالموتِ حتَّى هجم

ثم ختم رسالتهُ بأمر حازم جافٍّ للناصر، بأن يسرعَ برجاله وماله وفرسانه بطاعة سلطان الأرض هولاكو.[٣٠] فلما قرأ الناصر الرسالة ارتعب، وشرع الناس بالرحيل من دمشق إلى مصر، وسيَّر الناصر حريمه إلى الكرك، وأرسل الناصر إلى المظفر قطز يطلب منه النجدة. وعبر هولاكو نهر الفرات إلى بلاد الشام، وأرسل إلى قطز رسالة وعيد، فيها غرور كبير، وترهيب منها قوله فيها :"من ملكِ الملوك شرقًا وغربًا القان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض، ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك، الذين هربوا من سيوفنا، إلى هذا الإقليم؛ يتنعّمون بإنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه، أناَ نحنُ جندُ الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلَّطنا على من حلَّ به غضبُه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، واسلموا لنا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعودَ عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم مَن بكى، ولا نرقُّ لمن شكا، فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب، فأي أرض تؤويكم؟ وأي طريق تنجيكم ؟ وأي بلادٍ تحميكم ؟ فما من سيوفِنا خلاصٌ، ولا من مهابتنا مناصٌ؛ فخيولُنا سوابق، وسهامُنا خوارق، وسيوفُنا صواعق، وقلوبُنا كالجبال، وعددُنا كالرِّمال، فالحصونُ لدينا لا تَمنعُ، والعساكر لقتالنا لا تنفعُ، ودعاؤكم علينا لا يُسمعُ، فإنكم أكلتم الحرامَ، ولا تقفون عند كلامْ، وختنم العهود والإيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فابشروا بالذل والهوان "فاليوم تُجزونَ عذابَ الُهونِ بما كنتم تستكبرون في الأرضِ بغيرِ الحقِ وبما كنتم تفسقون".[٣١] ثم ختمها بالسلام على من أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى، متوعدًا بالشعر أيضًا، فيه من معاني التيه والغطرسة، ما لا يحتمله مسلمٌحرٌّ، طالبًا من قطز الاستسلام الكامل، والانصياع لسيادة المغول القادمة، بحجة أن ذلك تنفيذ للإرادة الإلهية،[٣٢] متضمنة شعرًا مهددًا متوعدًا بنشوة نصر[٣٣]

ألا قلْ لمصرَ ها هلاوون قد أتى ... بحدّ سيوف تنتضي وبواترِ
يصير أعزُّ القوم منها أذلـةٌ ... ويلحقُ أطفالاً لهم بالأكابرِ

وكان هولاكو لمَّا أرسلها إلى قطز على أبواب غزو الشام، لعوامل أعانته على إرسالها بتبجح تام منها؛ توافر قواعد غنية وقوية تحمي ظهر القوات التتارية المتقدمة غربًا مثل مدن العراق، والجزيرة بين نهري دجلة والفرات وجميعها محتلة وخاضعة لسلطان هولاكو، هذا أولاً، وثانيًا وجود إمارات صليبية قوية معادية للوجود الإسلامي والعربي في المنطقة، تشارك المغول رغبتهم في ضرب دولة المماليك والقضاء عليها، وكانت إمارة عكا أخطرها، وثالثًا وجود بعض القيادات المحلية تورطت لأسباب شتّى؛ فأذعنت لهولاكو، ووعدت بمساعدته على المماليك، ورابعًا وجودُ أقلياتٍ متعاونةٍ قبلا مع هولاكو، مثل النُّصيرية في نواحي اللاذقية والأرمن في أعلى بلاد الشام، يمكن الإفادة منهم؛ بشأن ما فعلوه أثناء احتلال هولاكو دمشق،[٣٤] فاستشار قطز أولي الشورى من الأمراء في الأمر، يلخص لهم الموقف قائلاً: "لقد توجَّه هولاكو من توران إلى إيران بجيش جرَّار، ولم يكن لأي مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته، فاستولى على جميع البلاد، وترك في هذه النواحي" كبتوبوقانوبان" الذي هو كالأسد الهصور، والتنين القوي في الكمين".[٣٥] وبعد التشاور أوصاه بعض الأمراء بالجلاء عن مصر (الوطن)، ومنهم مَن أوصى بالدفاع عن مصر فحسب؛ عند دخول المغول حدودها الإقليمية،[٣٦] أمّا بيبرس فأشارَ بالمبادأة والتعرض ونقل المعركة خارج مصر، ولتكن في فلسطين، لأنها مفتاحُ مصر وبوابتها من الشرق، فاخذ قطز برأيه، الذي قال بيبرس فيه: "إني أرى أن تقتلَ الرُّسلَ ونقصدَ كتبغا متعاونين، فإن انتصرنا أو هزمنا فسوف نكونُ في كلتا الحالتين معذورين".[٣٧]

كان ذلك بعد أن اتفق الأمراء على عزل السلطان المنصور علي بن المعز أيبك لصغر سنِّه، وللظروف المحيطة، فعزل واعتقل الملك الصغير في قلعة القاهرة،[٣٨] واختاروا المظفر سلطانًا، وبعدها استعدَّ المظفرُ قطز للجهاد، معتمدًا على أسس منها؛ أولاً توافرُ قواتٍ كبيرةٍ في مصرَ، يمكن أن تعبأ تعبئة عسكرية ومعنوية؛ تهيِّ لها

ISSN: 2090 – 0449

الوقوف في وجه الهجمة التتارية الشرسة، وثانيًا معرفةُ القيادة المصرية بالطرق الداخلية لبلاد الشام تُمكِّنُها من أن تسلكَ الطرق المفاجئة للتتار، أو تتصدَّى لحركاتهم من أي طريق سلكوها، لخبرتهم في حروب متعددة؛ خاضوها في زمن الأيوبيين، وثالثًا توافرُ عناصر استخبارية عربية؛ تُعينُهم على رصدِ حركاتِ المغول خاصةً في فلسطين، وقد كانوا مرتبطين إداريًا وروحيًا إسلاميًا بسلطتها المركزية في القاهرة، برغم من تعرض إقليمهم "غزة" للاحتلال التتاري.[٣٩]

ولما لم يجد هولاكو ردًا حاسمًا على غاراته، أرسل هولاكو أميره "بايدر" فاحتلَّ غزة واستمكن بها،[٤٠] ورابعًا، انحيازُ السكَّانِ العربِ من أهل المدن والقرى للجانب المصري، ونفورُهم الشديد من الاحتلال المغولي ووسائله، وخامسًا قصرُ خطوط الإمداد المصري عند وجوده في فلسطين من مناطق تحشد المماليك في الرَّيدانية قرب القاهرة والصالحية شرقها، قياسًا بخطوط إمداد المغول من أربعة آلاف ميل وزيادة، وسادسًا، عدمُ وجود خيار آخر للمماليك غير الحرب، إذ لم تعد لهم قوى خارجية تمدُّ لهم يد العون.[٤١]

واستعدَّ الملك الناصر في دمشق أن يقدِّم المساعدة للمظفر قطز، واعترت قطز مشاكل مالية، فجمع الفقهاء واستشارهم، منهم العزُّ بن عبد السلام[٤٢] فأوجب العزُّ قتالَ التتار، وأجاز أن يأخذ السلطان المالَ من الرعية، بعد أن يستنفد ما في بيت المال من مال، أما جذبُ قطز الأمراء للجهاد، فلسياسته الحكيمة وخطورة الوضع، وخطبه الدينية المتحمسة شأنه في إحداها: "يا أمراءَ المسلمين، لكم زمانٌ تأكلون أموالَ بيتِ المال، وأنتم للجهاد كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذالك يرجع إلى بيته، فانَّ اللهَ مطَّلعٌ عليه، وخطيئتهُ حريمُ المسلمين في رقاب المتأخرين".[٤٣]

وكان يُكثِرُ الالتقاءَ بالأمراء المخلصين، لحثهم على الجهاد، وكان يجدُ حماسة من أنصاره؛ فشكلوا سلاحًا أدبيًا على المترددين، فكسبهم قطز جميعًا لصالح الجهاد في سبيل الله.[٤٤] وكان قطزُ يخرجُ أحيانًا إلى أمرائه ليلاً؛ يحثهم على الجهاد بقوله: "أنا خارجٌ ألقي التتار بنفسي".[٤٥] وتوجه قطز رحمه الله تعالى ـ إلى الشعب مباشرةً ينفخ فيهم جذوة الجهاد، بغية خروجهم للجهاد في سبيل الله، ونصرة دين رسول الله صلى الله عليه وسلم،[٤٦] ولهذه الأسباب وغيرها استطاع قطز أن يحبِّب الجهاد إليهم، فوعدوه به وقد صدقوا يوم النزال.[٤٧]

ثمَّ أعلن المظفر قطز لما قتل رسل هولاكو حالة النفير العام، ولم يكن للمصريين عهد به من قبل.[٤٨]

أمَّا المقارنة بين القوى، فيمكنُ أن نبدأ بالمغول إذ قدَّرهم المؤرخ الأرمني ابن العبري بعشرة آلاف فارس،[٤٩] وفي تقديره ذاك حيف وعدم دقة لأسباب منها أن رتبة كتبغا هي (نوين) التي تناط بها المهمات الكبار، وهي أعلى رتبة عسكرية، وكان يتلقَّى الأوامر من هولاكو، وهو صديقه وصهره، فلا يعقل أن يتولى كتبغا جيشًا صغيرًا بهذا العدد لمهمة كبيرة، وإذا أخذنا برأي ابن العبري أوليًا فيمكن أن يكون ذلك عندما دخل بلاد الشام، ولكنه ليس العدد ذاته في عين جالوت، لأن عدده لا يتناسب مع مهمة كتبغا، إذ سانده جموع مما تفرق من التتار في بلاد الشام،[٥٠] يضاف إلى ذلك أن رتبة (نوين) تعني حرفيًا مقدم عشرة آلاف، وربما اعتمدها ابن العبري دليلاً، ونسي أنه عدد اصطلاحي، يزيد حسب المهمة المسندة، بدليل أنَّ جنكيز خان أنفذ مع سنتاي نوين (٢٠٠٠٠) عشرين ألفًا، لغزو سمرقند مع أنه(نوين)[٥١] أيضًا من قبل، ومهمته أقلُّ شأنًا من من مهمة كتبغا، أمَّا قوات المماليك فتقدر ب(٢٤٠٠٠) أربعة وعشرين ألفا[٥٢] يضاف إليها المتطوعون، والقوات القبليَّة، وحملة الأثقال، بما يبلغ مجموعه العام نحو (٤٠٠٠٠)أربعين ألفا.[٥٣]

أمَّا أبرزُ أسلحة التتار، فالرِّماح وهي سلاح الخيالة والمشاة، وكانت تمتاز بالقصر نسبة إلى الرماح العربية، أما الزَّردُ فلم يكن لباسَ الفارس التتري، وكانت خيولُهم صغيرة الحجم سريعة صلبة وشديدة، وكان جيشُهم يتألف من المشاة، وحاملي السيوف، والهراوات والدبابيس والرِّماح، وناقلي المعدات، ولا تُعرَفُ نسبة الخيالة إلى المشاة.[٥٤] وكان الجيش المملوكي مثل الجيش المغولي، يتكون من مشاة وفرسان، وكان لكلِّ فارسٍ عددٌ من الأتباع المسلَّحين بالسيوف والرِّماح، وكان الفرسانُ ينمازون بسرعة الحركة.[٥٥]

أمَّا منطقة حشد "كتبغا" فكانت في سهل البقاع، وبعض البحثة قال بل هي في جنوب بحيرة طبريا،[٥٦] وهذا الموقعُ لا يتيح لـ"كتبغا" أنْ يستخدم الطرق الداخلية لبلاد الشام الداخلية، بسرعة وكفاءة، واتخذ كتبغا منطقة غزة منطقة حشد أمامية، لتكون طليعة الجيش المغولي.[٥٧] أمَّا المماليك فاتخذوا الصالحية "قرب القاهرة"[٥٨] منطقة حشد، وفيها تم استقبالُ القواتِ من مختلف صنوف القتال، وفيها تمَّ تجهيزُ أدوات القتال والنقل، وما يحتاجه الجيش من معدات وخدمات أخرى، وفيها تمَّ تعزيزُ المعنويات للإيمان بنصر الله تعالى.[٥٩]

أمَّا حركةُ مسير قطز فكانت عبرَ شبهِ جزيرةِ سيناء، على طريق صحراوية حديثة جنوبي الطريق التجارية المألوفة، على ساحل البحر المتوسط، لإخفاء تحركاته[٦٠] ودفع قطز- رحمه الله- بيبرسَ قائدًا لمقدمة جيشه من الخيالة، فتقدَّم بيبرس بسرعة، وخفة فائقة، في طرق آمنة، حتى وصلت قوات بيبرس إلى غزَّة، في الأسبوع الأول من رمضان سنة ٦٥٨هـ[٦١] فحرَّرَ بيبرس غزَّة من التتار، وانسحب قائدها "بايدر" المغولي إلى الشَّمال، باتجاه نهر العاصي في رواية[٦٢] فارتفعت معنويات المسلمين، وحصل بيبرس على روح المبادأة، وهدَّد مواصلات كتبغا التتري، وستر تقدُّم حركة الجسم الرئيسي بقيادة قطز، واستطلع بيبرس قواتِ التتار، وعرف مدى استعدادهم للمعركة[٦٣] من جهة، وتحرَّك باتجاه عكَّا من أخرى فحقَّق بيبرس أهدافًا منها؛ أولاً ترك قواتِ "بايدر" تتراجع مهزومة، بينما قام بيبرس بمباغتة الجيش المغولي في شمالي فلسطين، وثانيًا حالت حركة بيبرس دون إجراء تعاون بين قيادات المغول، والقيادات الصَّليبية على ساحل البحر المتوسط، وثالثًا حيَّد الصليبيين من أن يقوموا

بتطويق مشترك مع المغول، لقوات المماليك التي يقودها قطز، فوصل الجيش المملوكي سالمًا إلى عكَّا، وبُذلت جهود دبلوماسية للحصول على حياد الإمارة الصليبية، ولوَّح المماليكُ للصليبيين بإمكانية الإفادة المشتركة من الغنائم المغولية التي سيبيعها المماليك للصليبيين بعد هزيمة المغول الوشيكة على أيديهم.(٦٤)

وما إن سمع "كتبغا" بنبأ وصول المماليك إلى عكَّا من جهة، وهزيمة "بايدر" من غزة من أخرى، حتى استشاط غضبًا، وبدا يُرغي ويزبد حنقًا وغضبًا، وبدأ بالتحرك من بعلبك باتجاه مدينة دمشق التي استعرت فيها ثورة شعبية ضدّا! حامية المغول فيها، مما اجبره على تغيير حركة كتبغا من شمال فلسطين لملاقاة المماليك في عكا، إلى حركته إلى دمشق لقمع حركة التمرد فيها، فصرفه الأمر عن عكَّا إلى دمشق، ما أفسح المجال للمماليك أن يخلوا عكّا بسرعة في اليوم الثالث والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ باتجاه الجنوب الشرقي إلى بيسان، فوصل المماليك عين جالوت في اليوم الرابع والعشرين من رمضان الموافق لليوم الثاني من أيلول سنة ١٢٦٢م، حيث اختار المماليك ساحة المعركة المقبلة،(٦٥) وأفرز قطز مجموعة من الخيالة بقيادة بيبرس لتعقب فلول "بايدر" المهزوم من غزة، من جهة، ولاستطلاع قوة المغول المهاجمة من ثانية، ولثالثة هي لاستدراج قوات المغول بقيادة كتبغا نحو عين جالوت غربي بيسان.(٦٦)

أمّا وصف طبيعة المنطقة في ساحة عين جالوت،(٦٧) فتقع بين سلسلتي جبال الجليل، وجبال نابلس، وفيها تمضي طرق المواصلات بين بيسان وعكًّا، وعلى ذلك؛ فالسيطرة على عين جالوت، تعني السيطرة على المنافذ المؤدية إلى فلسطين، والناصرة شمالاً، وجنين جنوبًا وعكًّا غربًا.(٦٨) وفي منطقة عين جالوت، جبل يدعى "الدُّحي"(٦٩) يعترضه طريق داخلي إلى الوادي، وثمة جبل "جلبوع"(٧٠) المتدرجة روابيه من وادي الجالوت، وهناك كان مزرعة قصب بالقرب من ساحة المُنازلة، وما تزال المزارع المماثلة لها ماثلة، وكانت هذه الجبال والمزرعة تشكل للمماليك تخفية وتسترًا، مما أودت بإيقاع جيش كتبغا في كمين، وأعاق حركتهم في مزرعة القصب، وتم أسر كتبغا في مزرعة القصب، ثم قتل فيها، كما هيأت طبيعة المنطقة إلى الإطباق على جيش كتبغا، بعد أن جرَّهم بيبرس بخدعة منه، إذ اشتبك مع طلائعهم، ثم راوغهم منسحبًا لخداعهم، فجرهم لمنطقة تقتيل، فتابعوه إلى كمين أعدَّهُ لهم بذكاء، مستغلا طيات الأرض، ومنابت القصب، من جهة، ومن أخرى، أطبق عليهم جيش قطز مستفيدًا من موقعه، ما أدَّى إلى تطويق جيش كتبغا وهزيمتهم بعد أن وقعوا في ساحة المعركة بين قتلى وأسرى.

وتفصيل ذلك، أنَّ قطز قَسَّم جيشه جناحين، وفرقة قلب بقيادة قطز، أمَّا الجناحان فغير متكافئين، حجمًا وسلاحًا، فالجناح الأيسر يتشكَّل من فرقة خفيفة، من الخيالة بقيادة بيبرس، أمَّا الجناح الأيمن، وهو الأكبر فكان يتألف من المشاة والخيَّالة، وكان مختفيًا وراء أكمات جبل الدحي، ولم يبرز دوره إلا في الساعات الأخيرة من نهار يوم الجمعة الموافق لليوم الخامس والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة ٦٥٨هـ، الموافق للثالث من أيلول سنة ١٢٦٠م.(٧١) إذ بدأ يغادر مواقعه الأولى في الوادي الصغير، ويمضي متقدمًا في داخل الوادي الرئيس، ملتفًا من أمام تل القيادة، بحيث جعل الجبل محورًا ثابتًا لحركته، ولإيقاف انسحاب الجناح الأيسر(٧٢) بقيادة بيبرس، ولتثبيت الجبهة أمام المغول، وبعدها أعطى قطز إيعازًا لفرقة القلب بمغادرة مواقعها في أكمات جبل الدجى، وتعزيز الجناح المذكور،(٧٣) فهبطت تلك الفرقة ومن ضمنها مقر القيادة إلى الوادي، وقاتلوا بشجاعة، فأوقفوا التراجع، وبدأ؛ القلب والجناح الأيسر بالتعرض معا، في حين كان الجناح الأيمن أكمل التفافه على مؤخرة جيش كتبغا في مدخل الوادي الرئيس، فأطبق على جهتي الوادي بينما أطبقت باقي الجبال أو أكماتها على الجهتين الأخريين، فأغلق على جيش كتبغا من الجهات الأربع، وساعد ضيق الوادي على إتمام عملية التفاف قوات المماليك، مما دفع قوات المماليك المتدربة على المعارك الثابتة، من خوض معارك ضارية، وبعد قتال شديد أبيد من المغول ما لا يحصى عدده(٧٤) وبين تقرير رفع لهولاكو عن خسائر المعركة أنَّ "أكثر التتار قد قتلوا وأسر من بقي".(٧٥)

ولم يستطع المغول تنظيم انسحابهم من المعركة، لأنَّ كتبغا قُتل فيها،(٧٦) وأُسر أبنه،(٧٧) وقتل قطزُ الملك السعيد ابن الملك العادل بن أيوب لأنه ساعد التتار، وكان فاسقًا(٧٨) بعد أن وقع أسيرًا في جالوت، واستطاع بيدرا أنْ يتسلل بعدد من جنوده، إلى خارج ساحة المعركة، تاركًا بقية جيشه؛ تواجه مصيرها بنفسها، وتسلق بعض الجنود المغوليين، رؤوس الجبال المجاورة، واعتصم بعضُهم الآخر بالتل المجاور للموقعة، فأحدقت بهم قواتُ المماليك، وما برحوا حتى أفنوهم قتلاً ونجا من نجا،(٧٩) واختفى فوج من خيالة المغول في مزرعة قصب، بالقرب من ساحة القتال، فأمر قطز جنوده "بأن يضرموا النار فيها، فاحرقوهم جميعًا".(٨٠) وما أن انتهى مساء يوم الجمعة من رمضان، حتى انتهت أشكال المقاومة التترية، وأعلن اندحار المغول، وأعلن النصر الإسلامي الكبير عليهم.(٨١)

أمَّا مطاردة فلولهم، فكان إلى بيسان(٨٢) إذ حشد المغول لمعركة أخرى لوجود قوات مغولية احتياطية، لم تشترك في عين جالوت، وبينما كانت تحاول إعادة تنظيمها، فاجأتها قوات المماليك، بتعرض كبير وسريع وصف بأنه اشدُّ من عين جالوت، فانتصر المماليك وقتلوا عددًا من أكابر التتار، ولكن بعد أن تزلزلوا،(٨٣) واتجه قطز إلى بيسان سالكًا الطريق المحاذي لبحيرة طبريا، ثم عبر نهرَ الأردن، متجهًا إلى دمشق، في اليوم الرابع من شوال بعد عشرة أيام من انتصارهم على التتار، فاستقبل بحفاوة بالغة، فأنجز بدخوله دمشق، المرحلة الثانية من تحرير بلاد الشام من المغول، أمَّا المرحلة الثالثة فطردهم من بلاد الشام والجزيرة، إذ أوكل المهمة إلى ركن الدين بيبرس، وفرقته ، فتقدم إلى حمص، وتعرض على حاميتها المغولية، وانتصر عليهم فقتل منهم وأسر الباقي، واتجه إلى حلب وفعل فعلته بها شأنه في حمص، ففرَّ المغول باتجاه ساحل البحر

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

المتوسط، إلا أن الأنصار قبضوا عليهم،[٨٤] وبعد شهرين من معركة عين جالوت، حاول التتار في إقليم الجزيرة الهجوم على حلب، إلا أن أميري حمص وحماة ردا التتار على أعقابهم، في معركة قرب حمص، وبعدها استقرت الأوضاع وجرى دفعُ المغول إلى شرقي الفرات.[٨٥] وقد خلَّد الشيخ شرف الدين المنصور نصرَ قطز في عين جالوت وأبرز مشاهد من تحريره حماة والمعرة بعد أن نازل التتار وهزمهم شر هزيمة منها قوله:[٨٦]

رُعتَ العدى فضمنتَ ثلَّ عروشِها
ولقيتَها فأخذتَ ثلَّ جيوشها
نازلتَ أملاكَ التتارِ فأُنزلتْ
عن فحلِها وعن اكديشها
فغدا لسيفكَ في رقابِ كُماتها
حصدَ المناجلِ في يبيس حشيشها
فُقتَ الملوكَ ببذل ما تحويه إذ
خُتمت خزائنُها على منقوشِها
وطويتَ عن مصرٍ فسيحَ مراحلَ
ما بين بِركتها وبين عريشها
حتى حفظتَ على العبادِ بلادَها
من رومِها الأقصى إلى احبوشها
فرشتْ حماةُ لوطء نعلِكَ خدَّها
فوطئتَ عينَ الشمس من مفروشِها
وضربتَ سكَّتها التي أخلصتها
عما يشوبُ النقدَ عن مغشوشها
وكذا المعرة إذ ملكتَ قيادَها
دُهشتْ سرورا سار في مدهوشها

(٢) بيبرس السلطان بعد معركة عين جالوت

بينما كانت مدينة القاهرة تتزيَّن لاستقبال قائدها المظفر قطز قاهرَ المغول، فوجئ المماليك بمقتل قائدهم، وأعلن نبأ تسلطن الظاهر بيبرس، كما يأتي لاحقًا، وقد سجل حسين الكردي بعض مزايا المظفر قطز بعد انتصاره على التتار، في عين جالوت، وأنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرض له من هولاكو بعد انتصاره على كلّ مَن هاجمه ومن أربعة آلاف ميل.[٨٧]

هلك الكفرُ في الشآم جميعا	واستجدَّ الإسلامُ بعد دحوضه
بالمليك المظفرِ البطلِ الأر	وع، سيف الإله عند نهوضه
ملك جاءنا بحزم وعزم	فاعتززنا بسمْرِه وبيضه
اوجب الله شكر ذاك علينا	دائما مثل واجبات فروضه

وقال أبو شامة المقدسي في هذه المناسبة: "ومن العجائب أن التتار كسروا واهلكوا بأبناء جنسهم من الترك" وقال في ذلك:[٨٨]

غلبَ التتارُ على البلاد فجاءهم	من مصرَ تركيٌّ يجودُ بنفسهِ
بالشام أهلكهم وبدَّد شملَهم	ولكلّ شيء آفةٌ من جنسهِ

وبتفصيل: فما كاد قطز يصل إلى دلتا النيل وهو في طريقه إلى دست التتويج، حتى بدأ المنادي يطوفُ في الشوارع، يسألُ الناس أن يترحموا على المظفر قطز، ويطلب منهم أن يدعوا للسلطان الملك ركن الدين الظاهر بيبرس،[٨٩] ويعتقد بأنَّ الظاهر بيبرس قتله، أثناء عودته إلى مصر، قبل أن يتوَّج ملكًا، وشيعَ ذكره، ويصعبَ قتلُهُ، ويعزى أيضًا لأنَّ المظفر قطز لم يعيّن بيبرس نائبًا على حلب، كما كان وعده، فأوغر صدره عليه، وكان كل منهما يحاذر الآخر، فكان هذا حافزًا من حوافز بيبرس لإكمال المؤامرة، فقتله بمكيدة لما ابتعد عن معسكره خارجًا إلى صيد أرانب في ٢٣ تشرين الأول سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م فتقدم أحدهم منه كأنه يهمُّ بتقبيل يده، وأمسك بيده، فاندفع بيبرس فغرس سيفه في ظهر قطز، فقضى عليه، وأعلن المتآمرون نبأ مقتل السلطان قطز، وتتويج الظاهر بيبرس ملكًا على بلاد مصر والشام.[٩٠]

(٣) تصدِّي بيبرس للتوسع التتاري

ما إن سمع التتار بمقتل قطز حتى ظنوا فتنة وقعت، أو أوشكت أن تقع بين الأمراء المماليك، فاغتنمها بيدارا التتري فرصة في ظنه فهاجم البيرة،[٩١] وانتصر على نجدة أرسلها الملك السعيد من حلب لقلة عدد الجند المسلم، فندم الملك السعيد على مخالفته آراء أمرائه، فجفلت حلب، وأضربت، وتوجَّه الناس نحو الجنوب، في حين وصلت رسالة من البيرة تذكر أنَّ طائفة من العدو التتاري اتجه نحو منبج،[٩٢] فهاجم الظاهر بيبرس البيرة وحاصرها، ثمَّ هاجم التتار على نهر الفرات، فأعدَّ سفنًا لازمة لعبوره، وحمل خشبًا كافيًا على ظهور الجمال، بعد أن استعلم خبر التتار في منبج، وقدروا قواتهم بنحو ثلاثة آلاف فارس على شطِّ الفرات، وهناك أعدّ المراكب وشحنها بالمقاتلين واشتبكوا مع التتر، واقتحموا نهر الفرات، وعبره الظاهر بيبرس بعضه سباحة إلى الضفة الشرقية، فانهزم التتار بعد معركة بالسهام، فصلّى الظاهر بيبرس ركعتي شكر لله تعالى، ووزَّع جنده شرقيَّ الفرات فقتلوا من التتار عددا، وأسروا عددا آخر، وانهزم البواقي فغنم المسلمون من أثقالهم وأقواتهم كثيرًا، واستولى أهل البيرة على كل ذلك فاكتفوا بالغنائم بعد أن حوصروا فترة من الزمن، ثم عاد الظاهر بيبرس إلى ضفة الفرات الغربية، ثم سار إلى البيرة وخلع على نائبها وترك بها جماعة من عسكره لحفظها، وعاد الظاهر بيبرس إلى دمشق وبين يديه من أسرى التتار عدد كبير.[٩٣]

وقد خلع بيبرس على الأمراء المجاهدين خلعًا وتشريفات بلغت نحو (٣٠٠٠٠) ثلاثمائة ألف دينار، فخلد شهاب الدين أبو الثناء، كاتب الإنشاء انتصار بيبرس على التتر بعد أن خاض نهر الفرات على سفن وخيل و سباحة وهو يتابع التتار المنهزمين من غربي الفرات إلى شرقيه بقصيدة منها:[٩٤]

خُضْتَ الفراتَ بسابحٍ أقصى مُنى	هُوجُ الصَّبا من نعلهِ آثارُ
حملتْكَ أمواجُ الفُراتِ ومن رأى	بحرا سواك تقلُّهُ الأنهارُ
وتقطَّعتْ مزقا ولم يكُ طودُها	إذ ذاك الا جيشُك الجرَّارُ

دورية إلكترونية مُحكَّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وقد أتمَّ ابن كثير القصيدة، وعرَّف بالشاعر وهو القاضي شهاب الدين محمود الكاتب، وأولاده يقال لهم بنو الشهاب محمود في خوض الظاهر بيبرس الفرات بجيشه[٩٥]

سِرْ حيثُ شئتَ لك المهيمنُ جارُ — واحكمْ فطوع مرادِكَ الأقدارُ
لم يبقَ للدِّين الذي أظهرتَه — يا ركنَهُ عند الأعادي ثارُ
لَمّا تراقصتِ الرؤوسُ تحرَّكتْ — من مطربات قسيِّك الأوتارُ
وتقطَّعتْ فَرَقا ولم يكُ طودَها — إذ ذاك لا جيشُك الجرارُ[٩٦]

ويبدو أنّ هذه المعركة النهرية قد شهد لها غير شاعر، إذ ثمة شاعر شهد تسكير الفرات بالقنا والصَّوارم، فأوقف التيار من بدء دخول المسلمين لحي عودتهم بالغنائم التترية من شرقي الفرات فيقول:[٩٧]

ولما تراءينا الفرات بخيلنا — سكرناهُ منا بالقنا والصَّوارم
فأوقفتِ التيار عن جريانه — إلى حينِ عُدنا بالغنى والغنائم

وشهد للظاهر بيبرس شاعر آخر اقتحامه نهر الفرات ليطفئ حرارة قلبه من المغول فيقول في نتفة (بيتين):[٩٨]

الملك الظاهرُ سلطانُنا — نفديه بالأموالِ والأهل
اقتحم الماءَ ليطفي به — حرارةَ القلبِ من المُغل

أمَّا موقفه من تحالف التتر مع الفرنجة بساحل البحر الأبيض المتوسط، فكان سنة ٦٦٨هـ إذ علم الظاهر بيبرس بغارة التتر على منبج قرب نهر الساجور"شرقي منبج"، فأمر الظاهر بيبرس أحد قواده أن يرابط في الشام، ويكون على أهبة الاستعداد لمنازلة التتار، ولم ينتظر الظاهر بيبرس في مصر، فتحرك من القاهرة في نفر يسير إلى غزة ثم إلى دمشق فوافته الأنباء أن التتار انهزموا لما سمعوا بحركة الظاهر بيبرس، "فكان اسمه يرد الأعداء من كل جانب"،[٩٩] وعلم بيبرس بمراسلة أبغا بن هولاكو الفرنجة للهجوم على المسلمين، وأنهم قادمون إلى سيس[١٠٠] للاشتراك في مهاجمة المسلمين، لكن ريحًا صرصرًا عاتية هبت على سفنهم فأغرقتها،[١٠١] ودخل الظاهر بيبرس بلدة سيس بعد أن عبر النهر الأسود في أرمينية، على سفن نقلت أخشابها الجمال، ودمَّر قصر الملك فيها ثم بعث قوات أخرى له إلى طرسوس وإلى بلدة إياس في أرمينية، فغنموا وقتلوا وأسروا ثم عاد بيبرس إلى دمشق.[١٠٢]

(٤) بيبرس وإزالة الوجود الصليبي من بلاد الشام

كان للصليبيين بالشام عدة مدن وإمارات صغيرة من أيام صلح الرملة وقد اتسعت هذه الأملاك عندما وقع الخلاف بين أمراء الشام ومصر قبل معركة "عين جالوت" فلما تولى بيبرس عمل على تصفية الوجود الصليبي بالشام، فاستطاع أن يطهر كلاً من قيسارية وأرسوف،[١٠٣] وصفد، وقتل كل فرسان المعبد "الداوية"المتحصنين بها، وطهَّر كلاً من يافا وطبرية من الوجود الصليبي.

أما أعظم انتصاراته على الصليبيين فكان فتح أنطاكية، وهي أكبر المدن المحتلة بالشام وكان حاكمها الصليبي من أشد الناس أذية للمسلمين فاستطاع بيبرس فتحها سنة ٦٦٥هـ، وبفتحها فتحت وسلمت كثير من الحصون الصليبية وسارع أمراء الصليبيين في عقد معاهدات صلح معه، إذعانا بالخضوع والطاعة، وانتصر على الروم في معركة ابلستين.[١٠٤] وقد مدحه شهاب الدين أبو الثناء محمود في أبيات منها:[١٠٥]

سرَتَ من حمى مصرَ إلى الرُّوم فاحتوتْ
عليـه وســوراه الظُبـا واللهــاذمُ[١٠٦]
بجـيش تظـل الأرض منــه كأنــها
على سـعة الأرجـاء في الضـيق خـاتمُ
كتـــائبُ كـــالبحر الخضـــمّ جيادُهـــا
إذا مـــا تهـــادت موجـــه المـــتلاطمُ
يحـــيط بمنصـــــور اللـــواءِ مظفـــرٌ
لـــه النَّصـــرُ والتأييـــدُ عبـــدٌ وخـادمُ

إن الشـاعر يحـدد حركـة الظاهر بيبرس مـن مصـر إلى بلاد الـروم، ومعه سوران من أسلحته هما: السيوف القاطعة والرَّماح المشرعة، وجيشـه ضخم كبير تضيق الأرض بـه على سعتها، وكتائبـه كأمواج البحـر المتتابعـة، تحـيط بعلم المسلمين المظفر المرفوع يخدمه نصر وتأييد.

(٥) إصلاحات بيبرس الداخلية

لقد منع بيبرس بسرعة حركته بين الصليبيين والتتار التنسيق بينهم، ومن ناحية أخرى استفاد من سرعة حركته وتنقله بين المدن أسبوعيًا، بتفقد شؤون مملكته، وللاطلاع على أحوال رعيته في كل من مصر وبلاد الشام، والحجاز، ولتأدية مناسك الحج والعمرة، فكان يُرى في لباس الإحرام، حينا أو يُرى حينا آخر، في لباس الحرب مستعدًا للجهاد، أو يُرى مُتحرِّكا بين المدن ليدرك صلاة الجمعة في ما يزور منها، شأنه في الكرك ودمشق وحلب كما يقول الشاعر في ذلك:[١٠٧]

بينا تراه في الحجاز إذا به — في الشَّام للحجّ الشريف يقدّسُ
وتراه في حلب يدبِّرُ أمرها — وتراه في مصرَ يذبُّ ويحرسُ
وتراه في حجّ عليهِ عباءةٌ — وتراه في غزوٍ عليه الأطلسُ

كما كان يقوم بتدريب جنده في أوقات الاستراحة، فقد استبدل الظاهر بيبرس الأغاني بالتدريب على رمايات الأسلحة المختلفة من قوس ومبارزة بالسيوف، أو تركيض خيل استعدادًا للحرب في حالتي السلم والحرب. يذكر أنه سنة (٦٧٢هـ) ارجف أبغا ملك التتار منه، ولم يجرؤ على مهاجمة البلاد الشامية، فشهد له بعض الشعراء بذلك فيقول:[١٠٨]

ذاك يومٌ لها عن اللهو فيه — وتغنَّى عن مطربات الأغاني
برنين القسيّ عند المُرامـاة — وركضِ الجيـاد في الميدان
بصليل لمرهـفٍ وصهيـل — وجـوادٍ ورنــَّةٍ لأذان
كلُّ أفعالِهِ إلى الجـدِّ تعزى — يومُ سلمٍ أو لا، فيـومُ رهانِ
لا تراه في الِّسلمِ والحربِ إلا — بين رمـحٍ وصارمٍ وسنانِ
هكذا تفعل الملوكُ فعـالا — شائعا حمدُهُ بكــلَّ مكانِ
دام في رفعةٍ ونصرٍ عزيزٍ — ما تغنَّت حمـائمُ الأغصانِ

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

١/٥- حربه للباطنية وقمع ثورة الكوراني

كانت الشام ومصر أرض الدولة العُبيدية المسماة "الفاطمية"[(١٠٩)] قرابة القرنين من الزمان معا جعل هذه البلاد مرتعًا خصبًا للفرق المنحرفة، ومأوى الضالين والمنحرفين خاصة أتباع المذهب الإسماعيلي، وكانت لهم بالشام العديد من القلاع والحصون والقرى، وكانوا أشدَّ الناس ضررًا على الإسلام وعونًا للصليبيين والتتار على المسلمين، وتخصصوا في اغتيال قادة المسلمين وعلمائهم حتى صار مجرد ذكر اسمهم يثير الرعب في قلوب الناس، ولم يكن لهؤلاء أن يغيبوا عن حسابات الظاهر بيبرس الذي رأى من قبل مدى فداحة خطورتهم على الأمة المسلمة فشدد الحصار عليهم واقتحم حصونهم عدة مرات واستخدم معهم الخداع والاستدراج، حتى أخرج معظمهم من حصونهم وقد وظَّف مع عامتهم أسلوب الجذب والإقناع والاندماج في المجتمع المسلم حتى أزال خطرهم.

وقد استطاع بيبرس بفضل الله ثم بيقظته وسرعة حركته، أن يحبط محاولة الباطنية إحياء الدولة العبيدية الرافضية من جديد، عندما ظهر رجل فارسي نيسابوري بأرض مصر اسمه "الكوراني" يدعو "للفاطميين" ويجمع الناس من أجل ذلك، وقد أعلن العصيان المسلح وهاجم مخازن السلاح والخيول واستولى عليها، فتمكن الظاهر بيبرس بقواته الخاصة من القضاء على حركة التمرد، وأسر الكوراني ثم صلبه على باب زويلة في القاهرة وشرَّد أتباعه وقضى على فتنته.[(١١٠)]

٢/٥- إعادة الخلافة الإسلامية

عندما احتلَّ التتار بغداد زين لهم الوزير الشؤم ابن العلقمي الرافضي قتل الخليفة المستعصم، أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبي جعفر العباسي[(١١١)] لتسقط بقتله الخلافة العباسية، وذلك في اليوم الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦هـ، حيث ظلَّ العالمُ الإسلامي بلا خلافة ولا خليفة طيلة ثلاث سنوات، حتى تولى بيبرس حكم الديار المصرية والشامية، وعمل على إعادة الخلافة العباسية مرة أخرى، فبحث عن رجل من نسل العباس فوجد الأمير أبا القاسم أحمد ابن أمير المؤمنين الظاهر العباسي، وكان معتقلاً في بغداد، وهو أخو أمير المؤمنين "المستنصر" باني المدرسة المستنصريَّة الشهيرة، فاستقدمه إلى مصر، ودعا الناس لبيعته، فبايعه الناس في يوم مهيب، ذكّر الناس بأمجادهم السابقة، وأفراحهم الماضية، وكان هذا العمل على رمزيته، وقلة أثره في السلطة واتخاذ القرارات إلا أنه كان له كبير الأثر في نفوس المسلمين في كل مكان إذ سرت روح الوحدة الإسلامية من جديد بين أفراد الأمة.[(١١٢)]

٣/٥- غيرته على المسلمين

ومما كان يميز بيبرس عن غيره من ملوك المسلمين في عصره، ولأعوام شدة عنايته بحرمات المسلمين ودمائهم وحقوقهم بصورة أعادت للأذهان أيام الإسلام الأولى وعهود الراشدين، وأيام العز والتمكين وذلك في مواقف كثيرة منها كان لا يصبر على أذى المسلمين، ومن يتعرض لهم، فقد ذكروا له عندما فتح مدينة 'صفد' ووجد بها كثيرًا من أسرى المسلمين، ذكروا له أنهم قد وقعوا في الأسر بسبب أهل قرة "فأرا" وهي قرية من نواحي أرمينيا وكانوا يخطفون رجال المسلمين ونساءهم ويبيعونهم عبيدًا للفرنج، فعندها؛ قرر الهجوم من فوره على أهل هذه القرية المجرمين فدمرها تدميرًا، وجعل أهلها بين قتيل وأسير وأخذ ثأر المسلمين وشفى غليلهم.

وبقال مثله، فقد اعترضت طريقة امرأة من المسلمين فقالت له يا أيها الأمير، إن ولدي قد دخل مدينة "صور" بالشام تاجرًا فأخذه ملك صور الصليبي فغدر به وقتله وأخذ ماله، كان ذلك أثناء عودته بالجيش من إحدى الغزوات، وفي الحال غير بيبرس مسار جيشه وهجم على مدينة "صور" وأوقع بها بأسًا، فأرسل إليه ملكها يقول له ما سبب هذا؟ فقال له: "لغدرك ومكرك بالتاجر فلان حتى لا تعود أنت وغيرك لمثلها".

وأسرَّ له يومًا أمير من أمرائه هو "سنقر الأشقر" فأبدله بعدد كبير من الأسرى الفرنج منهم ابن ملك السيس الصليبي. وأعدم بيبرس الأمير عمر بن العادل الأيوبي، أمير حصن الكرك، ذلك لأنه خان المسلمين خيانة عظمى، وتعاون مع التتار أعداء الإسلام وكاتبهم ودلهم على عورات المسلمين، واستدعاهم للهجوم على الشام مرة أخرى، ووعده التتار بأنه سيكون نائبًا لهم على الشام فاستفتى بيبرس الفقهاء في أمره فأفتوا بقتله فأعدمه جزاءً لخيانته للمسلمين. وتبدو غيرته أيضًا عند حصاره أحد حصون الصليبيين بالشام حين قتل جندي مسلم، فلما أراد أهل الحصن أن يستسلموا رفض عقد التسليم حتى يدفعوا دية الجندي المسلم وقال لهم: "أنتم قتلتم جنديًا من جيشي وأريد ديته مائة ألف دينار".[(١١٣)]

٤/٥- قمعه للمفسدين

كان بيبرس يكره الفساد والمفسدين بشدة، إذ أمر بيبرس بإراقة الخمور وتحريم الاتجار فيها في شتى نواحي مصر، ومن ضبط بتصنيع الخمر سوف يقتل، كما منع الخواطئ والغانيات والمفسدات من الفاحشة وسلب أموالهم من بيع الأعراض، وأمر بتزويجهن جميعًا بعد التوبة والإنابة فحفظ الديار المصرية من أمراض؛ الخمر والزنا فقيل فيه شعر:[(١١٤)]

ليس لإبليس عندنا أربُ	فغيرُ هذي البـلادِ مأواه
حرَّمتَهُ الخمرَ والحشيشَ معا	أعدمته ماءه ومـرعاه

(٦) سياسة بيبرس الخارجية

١/٦- تجنيده بركة خان لإفشال هجمات هولاكو على بلاد الشام من جديد.

كانت للهزيمة الهائلة التي نالت التتار بعين جالوت أشد الأثر في نفوس قادة التتر خاصةً هولاكو الذي أصرَّ على معاودة الكرة مرة بعد مرة، وهنا برز ذكاء بيبرس الفذ عندما استطاع استمالة أحد كبار قادة التتار وهو بركة خان وهو ابن عم "هولاكو"، وكان "بركة

ISSN: 2090 – 0449

خان" مسلمًا صادقًا مخلصًا، فأخذ بيبرس في مراسلته واستماله للجهاد ضد "هولاكو" وأفهمه ذلك في رسائل متبادلة فاقتنع بركة خان بذلك وأصبح من أكبر أنصار الإسلام والمسلمين، ونسق مع بيبرس ضد "هولاكو" فاستمال بركة خان كثيرًا من التتار بالشام للدخول في الإسلام وأغدق عليهم هدايا وعطايا فدخلوا في دين الله أفواجًا، ولما هلك الطاغية "هولاكو" وتولى من بعده أبنه "أبغا" وكان أشد من أبيه عداوة للإسلام والمسلمين سعى لتجديد التوسع التتاري بالشام، الذي أصبح من أملاك الدولة المملوكية، وكتب إلى بيبرس يتهدده قائلاً: "أنت صعلوك حقير، فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض؟ وأعلمْ أنك لو صعدت إلى السماء، أو هبطت إلى الأرض ما تخلصتَ مني فاعمل لنفسك على مصالحتي"، فجاء رد الملك بيبرس في منتهى العزة يقول: "وأعلموه أني من ورائه المطالبة، ولا أزال حتى أنتزع منه جميعَ البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة، وسائر أقطار الأرض".

وبالفعل كان الظاهر بيبرس من أشجع أمراء المسلمين في حرب التتار، وأنشطهم وكان لا يسمح لهم بالتجمع، بل كان يسارع بالانقضاض كالأسد الضاري، كما حدث سنة ٦٧١هـ عندما وصلت لمسامع بيبرس أن طائفة كبيرة من جنود التتار تجمعت عند نهر الفرات أسرع بجيشه وخاض بنفسه، وجيشه نهر الفرات وانقضَّ على التتار فمزقهم تمزيقًا، ثم كانت معركته الشهيرة مع التتار سنة ٦٧٥هـ، المشهورة بموقعة "البلستين".[١١٥] وقد ذكرنا فيها شعرًا قيل فيها، وكان مع جيش التتار فرقة كبيرة من الروم، وهذا يوضح مدى العلاقة بين أعداء الإسلام فيما بينهم على اختلاف راياتهم، وكانت معركة رهيبة استشهد فيها الكثير من أبطال المسلمين وقادتهم وصبر المسلمون صبرًا بليغًا حتى أنزل الله عز وجل عليهم نصره وكسروا التتار كسرة قريبة من يوم عين جالوت.

٢/٦- اعتقاله الملك المغيث حاكم الكرك لخيانته

في سنة ٦٧١ هـ قصد الظاهر بيبرس بلاد الكرك واستدعى صاحبها الملك المغيث عمر بن العادل أبي بكر بن الكامل محمد بن العادل، فلما قدم عليه المغيث وكان الظاهر في غزة أرسله إلى الديار المصرية معتقلاً، فكان آخر العهد به[١١٦] وتفصيل ذلك أن الظاهر بيبرس توجه في العام المذكور من القاهرة، باتجاه الشام، فلما وصل إلى غزة، وصلت إليه والدة المغيث حاكم الكرك؛ تشفع لولدها عنده، فطمأنها وأكرمها وإذن لها في العودة إلى ولدها فعادت، ثم أرسل الظاهر بيبرس الرسل إلى المغيث فحضر بعد تردد، فقبض عليه الظاهر بيبرس، وبعث به إلى قلعة القاهرة، فكان آخر العهد به.[١١٧] ولما لاحظ استياء بعض الأمراء من تصرفه بسبب القبض عليه، جمع الأمراء وأظهر لهم رسائل الملك المغيث إلى التتار، وفيها يحرِّضهم على قصد بلاده، وأطلعهم على كتب التتار إليه، التي حوت شكرَهُ للتتار ووعودَ التتار له منها: "قد أقطعتك من بُصرى إلى غزة، ما أشرت إليه من طلب عشرين ألف فارس تسيرها لفتح مصر"، ووعده هولاكو بإرسال هذه القوات إليه، وبوصيه بعدة أمور، ثم أخرج الظاهر بيبرس فتاوى الفقهاء بخيانته، وأحضر الرُسل الذين كانوا يحملون الرسائل إلى التتار ومنه، واعترفوا بذلك، ثم أعدمه.[١١٨]

(٧) بيبرس والبناء المعماري[١١٩]

من يقرأ سيرة الظاهر بيبرس وحياته الجهادية، يظن أنه لم يكن له باع في جانب الاهتمام العمراني والحضاري، وهذا يخالف الواقع تمامًا فقد كان معنيًا ببناء السدود والقناطر على الأنهار، وتمهيد الطرق، وفتح الأسواق لترويج التجارة، واهتم ببناء المستشفيات والخانات وأماكن ضيافة المجاهدين والمسافرين، وضرب الدراهم والدنانير الجيدة الخالصة، ومنع العملات الزائفة لسلامة التعاملات بين الناس، وكان أول من نظم القضاء، فجعل لكل مذهب قاضيًا مستقلاً.

ولكن أكثر ما كان يهتم به ويوليه جل عمله الحضاري والعمراني هو بناء المساجد ،وصيانتها فقد جدد بناء المسجد النبوي الشريف بعد احتراقه،[١٢٠] وأمر بإخراج كل المجاورين من المسجد الأموي بدمشق وقد ضيقوا على الناس من ملازمتهم للمسجد بصفة مستمرة فاتسع المسجد على الناس،[١٢١] وأمر بتجديد عمارة الجامع الأزهر،[١٢٢] وإعادة صلاة الجمعة فيه وقد كانت لا تقام فيه منذ أيام الحاكم العبيدي، وعمل على تبليط المساجد وتوسيعها حتى لم تبق بقعة بمملكته إلا عمرها بالمساجد، وكان له دور معماري في المسجد الأقصى،[١٢٣] وله دور في بناء مئذنة مسجد عجلون الكبير.[١٢٤] وأنشأ قناة العرُوب من بلدة العروب إلى مدينة القدس،[١٢٥] وأهتم بترميم القلاع وطرق الإمداد،[١٢٦] ورمم الظاهر بيبرس قلعة الكرك وجسرها،[١٢٧] وحصَّن قلعة كل من عجلون، والسَّلت (السَّلط)، والكرك، والشوبك.[١٢٨]

خاتمة

لقد كان الظاهر ركن الدين بيبرس أسدًا اسمًا وفعلاً، كان من خيرة سلاطين المسلمين وقادتهم، فتح فتوحًا كثيرة وأعاد لحظيرة الدين بلادًا كثيرة من أيدي التتار والصليبيين، واتسعت دولة المماليك في عهده من الفرات إلى أقصى بلاد النوبة مع الحجاز واليمن. ومع ذلك كان مقتصدًا في ملبسه ومطعمه، انتقل من لعب الصولجان إلى إعلان الأذان، ومن جلبة الأقران إلى تلاوة القرآن، همه الجهاد في سبيل الله وقمع أعداء الله لا يفتر عنهم ليلاً أو نهاراً، فهو أشبه ملوك الإسلام بالصحابي الجليل خالد بن الوليد رضي الله عنه. لقد كان بيبرس شوكة في حلوق المارقين المفسدين والكافرين، ولعل نظرة متأنية في أعمال هذا السلطان المملوكي أن تفتح أبوابًا واسعة لدرسه من مناح متعددة وخصبة، قد لا يتأتى مثلها إلا لقلة من حكام المسلمين عبر العصور.

الهوامش:

(١) الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، ١٩٨٦، مجلد ٧٩/٢ – ٨٠.

(٢) العسلي، بسام: **المظفر قطز وعين جالوت**، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م، ص ٥٢.

(٣) انظر التفاصيل عند: العسلي كامل: **المظفر قطز**، ص٤٨ – ٥٥. أما الملكة "مرغريت" زوجة الملك لويس التاسع فوضعت غلامها في دمياط بعد أن سمعت باستسلام زوجها وانهزامهم فسمته "الحزين" (Tristan).

(٤) المرجع نفسه، ص ٥٣. وانظر موقع الزقازيق بين الإسماعيلية وطنطا على خريطة جمهورية مصر العربية (أطلس الأردن والعالم، المركز الجغرافي الأردني، ٢٠٠٣م، ص٥٢. وتقع العباسية على مسافة اثني عشر كيلا شرق مدينة الزقازيق الحالية.

(٥) بيبرس المنصوري: **مختار الأخبار**، ص١٠.

(٦) عمر موسى باشا (الدكتور): **تاريخ الأدب العربي، العصر المملوكي**، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص٢٥ وما بعدها. وقد بلغ عدد السلاطين البحرية (٢٥) خمسة وعشرين سلطانًا بدءًا بشجرة الدر التي تسلطنت ثمانين يومًا، وانتهاءً بـ "برقوق" وكانت مدة حكمهم من (٦٤٨ إلى ٧٨٤هـ) مدة (١٣٦) عامًا.

(٧) الزركلي: الأعلام، مجلد ٧٩/٢ – ٨٠.

(٨) موسوعة اكتشف سوريا، "الظاهر بيبرس": (www.discover-syria.com)

(٩) بيبرس المنصوري: **كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية**، تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من (٦٤٨هـ - ٧١١هـ)، نشره وقدم له ووضع فهارسه الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، الدار المصرية اللبنانية. وفاته أن يذكر ثلاثة أبيات أخرى هي البيت الثاني، والبيت السادس والسابع وقد أدرجتها اعتمادًا على كل من الدكتور صالح وزميليه. الدكتور صالح الأشتر، والدكتور عمر الدقاق، والأستاذ محمد الأنطاكي، **معارك وبطولات حربية إسلامية وعربية: معركة المنصورة**، دار الشرق العربي، بيروت،(د.ت) ١٤٦-١٤٧.

(١٠) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤١٣/٥.

(١١) إشارة إلى أسر المسلمين الأسطول الصليبي، وكان للنار الإغريقية دور في تدميرها، ولم يفلت من أسطولهم إلا سفينة واحدة للقاصد الرسولي، ممثل البابا، تمكنت من التسلل عبر القطع البحرية الإسلامية وولت الأدبار إلى دمياط تحمل للإفرنج أنباء تدمير الأسطول الصليبي. (الدكتور صالح الأشتر وزيلاه: **معارك وبطولات حربية إسلامية وعربية: معركة المنصورة**، ص١٤٠.

(١٢) كان من شروط الصلح أن اقسم الملك الفرنسي لويس التاسع أن لا يقصد سواحل الإسلام مرة أخرى، وأن يعيدوا دمياط للمسلمين بكل ما فيها دون شرط، وان يدفع الفرنجة مبلغ (٤٠٠) ألف دينار فدية للملك ولسائر الأسرى الذين بلغوا اثني عشر ألف أسير وعشر نساء، على أن يتم دفع نصف المبلغ قبل إطلاق سراح الملك لويس التاسع والنصف الآخر بعد وصوله إلى عكا، ولضمان ذلك يحتفظ المسلمون بشقيق الملك كونت بواتييه رهينة عندهم، ولا يطلق سراحه إلا بعد دفع كامل المبلغ، ويتعهد المسلمون برعاية مرضى الفرنج، والمحافظة على معداتهم إلى أن تحين الفرصة لأخذها. المرجع نفسه، ص١٤٢-١٤٣.

(١٣) هي حجرة بالطابق الأرضي في دار القاضي فخر الدين بن لقمان بجوار جامع الشيخ الموافي القائم في وسط المدينة. المرجع نفسه، ص ١٣٨.

(١٤) **الطواشي**: هو صبيح المعظمي كان مكلفًا بحراسة الأسرى الكبار وإكرامهم بما يليق لهم، وقد أسر الملك لويس وأخواه كونت انجو وكونت بواتيه، وخلع السلطان تورانشاه بعد أبيه النجم الصالح على الأسرى فقبل جميع الأسرى الخلع إلا الملك لويس الذي عدها إهانة. المرجع نفسه، ص ١٣٨- ١٣٩.

(١٥) Roi de France: أي ملك فرنسا، كما في حاشية كتاب **التحفة الملوكية**، ص٢٥.

(١٦) الدكتور صالح الأشتر وزيلاه، **معارك وبطولات**، مرجع سابق، ص١١٦ – ١٣٠.

(١٧) **شجرة الدر**: هي الملكة عصمت الدين أم خليل محظية السلطان الصالح نجم الدين أبي الفتوح أيوب، كانت ذات رأي، أخفت موت زوجها في المنصورة في قتاله مع الفرنجة، واستدعت ابنه تورانشاه من دمشق لتسلمه الحكم ولكنه هددها بالقتل، فقتلته رجال البحرية بعد سبعين أو ثمانين يومًا من تملكها، تزوجها عز الدين أيبك التركماني ونزلت له عن السلطنة، بنت جامعًا قرب مشهد السيدة سكينة بنت الحسين ودفنت فيه عند موتها، وما زالت تقام فيه الشعائر إلى عهد المؤلفة. العاملي، زينب بنت فواز: **الدر المنثور في طبقات ربات الخدور**، الناشر دار المعرفة، بيروت، ط٢، بالأوفست، ص٢٥٥.

(١٨) **سيف الدين المظفر قطز**: قطز بن عبد الله المعزي (ت٦٥٨هـ) وهو ثالث ملوك الترك، كان مملوكًا للمعز "أيبك" وترق إلى أتابك عساكر، خلع المنصور وتسلطن مكانه سنة (٦٥٧هـ)، فخلع على بيبرس وظيفة "أتابك" ونهض لقتال التتار في عين جالوت وانتصر عليهم، وطارد فلولهم إلى بيسان، ودخل دمشق في موكب عظيم، وبينما هو في طريقه لمصر قُتل، ودفن في القاهرة. الزِّركلي: **الأعلام**، مجلد٢٠١/٥.

(١٩) امتدت حياته خلال الفترة (٦٠٩ - ٦٥٦هـ/ ١٢١٢- ١٢٥٨م)، وهو من سلالة هارون الرشيد وكنيته أبو أحمد آخر الخلفاء العباسيين في العراق. اعتمد على وزيره ابن العلقمي، مؤيد الدين، فكاتب هولاكو حفيد جنكيز خان يثيره لاحتلال بغداد ووعده بالإعانة على الخليفة، فدخلها هولاكو فجمع ابن العلقمي الخليفة وأبرز علماء بغداد فقتلهم هولاكو ومعم ولدا الخليفة، العباس وأبو الفضل. الزركلي: الأعلام، مجلد١٤٠/٤. وانظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، أحداث سنة ٦٥٦هـ، وانظر مزيدًا من التفاصيل عند: أبي الفداء الإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل: البداية والنهاية، راجعه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد محمد تامر، وشريف محمد، ومحمد عبد العظيم، ومحمد سعيد محمد، الناشر دار البيان العربي، القاهرة (د.ت) ج٢٤٤/٧-٢٤٨سنة ٦٥٦هـ.

(٢٠) بيبرس المنصوري (ت٨٢٥هـ): مختار الأخبار، **تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة (٧٠٢هـ)**، حققه وقدّم له ووضع فهارسه الدكتور عبد الحميد صالح حمدان، الناشر الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١٠.

(٢١) أبو الفداء، **البداية والنهاية**، ج٢٤٤/٧- ٢٤٨ أحداث سنة ٦٥٦هـ، ج٢٥٥/٧ – ٢٥٦.

(٢٢) امتدت حياته من(٦٢٧ - ٦٥٩هـ)، وهو آخر ملوك بني أيوب، دخل مصر عنوة سنة (٦٤٨هـ)، فانهزم فاستقر في دمشق وصفا له الملك نحو عشر سنوات، إلى أن غار التتار على بغداد، كان شاعرًا له ديوان من عشرة أبواب، منها الإلهيات والزهديات، قتله هولاكو. الزركلي: **الأعلام**، ج٢٤٩/٨ – ٢٥٠.

(٢٣) مدينة في ديار بكر. **ياقوت الحموي**، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٢٧٢/٥ وما بعدها.

(٢٤) العسلي، كامل: **المظفر قطز، ومعركة عين جالوت**، ص٩٩. "كانت الكنائس تتابع حركات المغول وتتحالف مع هولاكو ضد المسلمين".

(٢٥) العسلي، بسام: **المظفر قطز ومعركة عين جالوت**، مرجع سابق، ص ١٠٨ – ١٠٩.

(٢٦) أبو الفداء: **البداية والنهاية**، أحداث سنة ٦٥٦هـ.

(٢٧) هو الملك المغيث عمر بن العادل بن أبي بكر بن العادل الكبير، كان في جيشه بيبرس. أبو الفداء: **البداية والنهاية**، مصدر سابق، ج٢٤٨/٧.

(٢٨) المقريزي، تقي الدين: أحمد بن علي: **السلوك في معرفة دول الملوك**، طبعة القاهرة، ١٩٣٤م، ج١/ق٤١٨/٢.

(٢٩) **سورة النمل** آية ٣٤.

(٣٠) المصدر نفسه، ج١/ ق٢، ص٤١٦ حاشية (١).

(٣١) **سورة الأنعام** آية ٩٣.

(٣٢) المقريزي/ أحمد بن علي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، القاهرة، ١٩٣٦م، ج١/ ق٢، ص٤٢.

(٣٣) المقريزي: المصدر نفسه، ج١/ق٢/ص٤٢٩- ٤٣٧. وانظر: القلقشندى، أبو العباس أحمد: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣٢٦هـ ج٨، ص ٦٣ – ٦٤. وانظر: فايد عاشور، **العلاقات السياسية بين المماليك والمغول**، ص ٤٦ – ٤٧.

(٣٤) عماد عبد السلام رءوف (دكتور): معركة عين جالوت، دراسة مقدمة في ندوة الفكر العسكري العربي، بغداد، ١٩٨٦، ص١٧- ١٨. ومن القيادات المتعاونة الملك السعيد بن الملك العزيز عثمان، حاكم البيرة وبانياس، وقد أعدمه الظاهر بيبرس في عين جالوت.

(٣٥) فايد عاشور: **العلاقات السياسية بين المماليك والمغول**، ص٤٨.

(٣٦) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، مصدر سابق، ج٧/٧٨.

(٣٧) عاشور: **العلاقات السياسية بين المماليك والمغول**، ص٤٩.

(٣٨) المرجع نفسه، ص٤٦.

(٣٩) واصل المغول غاراتهم على المدن الفلسطينية والأردنية ناشرين الرعب فيها منها الصلت "السلط"، وبركة زيزياء التي هي جنوبي غربي مطار عمان الدولي اليوم، وبركتها ما تزال غربي الطرق من عمان إلى معان، والخليل ووصلوا في بعض غاراتهم إلى غزة والكرك. اليونيني، قطب الدين موسى: **ذيل مرآة الزمان**، حيدر آباد،١٢٧٤هـ، ج١/٣٥١، وابن شاكر الكتبي: **عيون التواريخ**، بغداد ١٩٨٠م ،ج٢٠/٢٢٤. وكانت غارات التتار جس نبض للقوات المملوكية.

(٤٠) الهمذاني، رشيد الدين: **جامع التواريخ**، ترجمة محمد صادق نشأت، وفؤاد عبد المعطي، القاهرة، ص٣١٣. الدكتور عماد عبد السلام: **معركة عين جالوت**، ص١٦.

(٤١) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، مصدر سابق، ج٧/٧٨ يبين الانهيار المعنوي عند الناس من التتار، فالقلوب قد يئست من النصرة عليهم. انظر الدكتور عماد عبد السلام: **معركة عين جالوت**، ص ١٩- ٢٠.

(٤٢) هو عبد العزيز بن عبد السلام (٥٧٧هـ - ت٦٦٠هـ) خطيب ومدرس له عدة مؤلفات. الزركلي: **الأعلام**، مجلد٤/٢١. ولسماحة الدكتور علي الفقير رسالة دكتورة فيه من جامعة الأزهر سنة١٩٨٠م.

(٤٣) المقريزي: **السلوك**، مصدر سابق، ج١ق٢. ص ٤٢٩.

(٤٤) عمار، محمد: **معارك العرب ضد الغزاة**، بيروت، ط، ١٩٧٥، ص ١٢٩.

(٤٥) المقريزي: السلوك، مصدر سابق، ج١ق٢، ص٤٢٩.

(٤٦) المصدر نفسه، ص٤٣٠.

(٤٧) عاشور، فايد حماد (دكتور): **العلاقات السياسية بين المماليك والمغول**، في الدولة المملوكية الأولى، تقديم الدكتور جوزيف نسيم، دار المعارف بمصر، تقديم سنة ١٩٧٤، ص ٤٠ وما بعدها.

(٤٨) الهمذاني، رشيد الدين: **جامع التواريخ**، مصدر سابق، م٢/ج١. ص٣١٣.

(٤٩) ابن البعبري: غريغوريوس: **تاريخ مختصر الدول**، ١٩٥٨، ص٢٨٠.

(٥٠) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج٧/٧٧.

(٥١) ابن العبري: **مختصر الدول**، ص٢٢٤.

(٥٢) ابن شاهين، غرس الدين خليل: **زبدة كشف الممالك**، باريس١٨٩٤، ص١٠٤-١٠٥.

(٥٣) عمار عبد السلام (دكتور): **معركة عين جالوت**، ص٣١. ينقل عن باحث عسكري في المجلة العسكرية، مجلد٣٩، ١٩٦٢، ص٤١.

(٥٤) الطقطقي، ابن طباطبا: **الفخري في الآداب السلطانية**، القاهرة (د.ت)، ص٦٥.

(٥٥) عماد عبد السلام (دكتور): **معركة عين جالوت**، ص ٣٢.

(٥٦) **المجلة العسكرية**، مجلد (٢٩) ١٩٦٢، ص٤٠.

(٥٧) عماد عبد السلام: **معركة عين جالوت**، ص٣٤.

(٥٨) أنشاها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة (٦٦٤هـ) لأغراض عسكرية. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١/٢٢٧. وتقع على طريق القنطرة حاليًا قرب قناة السويس، وكانت من قبل منطقة تحشد باتجاه الشام إبان الحروب الصليبية.

(٥٩) المقريزي: السلوك، مصدر سابق، ص٤٢٦.

(٦٠) ابن إياس، محمد بن أحمد: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، مطبعة بولاق، ١٣١١هـ، ج١/١٦.

(٦١) المقريزي: السلوك، ص٤٣.

(٦٢) عماد عبد السلام: **معركة عين جالوت**، ص٣٧ . ينقل عن رشيد الدين، ص٣١٣.

(٦٣) المصدر نفسه، ص٤٣٠.

(٦٤) رينسمان: **تاريخ الحروب الصليبية**، تعريب السيد الباز العريني، بيروت، ١٩٦٩، ج٣/٥٣٥.

(٦٥) رشيد الدين: **جامع التواريخ**، ص٣١٣.

(٦٦) اليونيني: ذيل الزمان، ج١/٣٦٥م وعنده "بعث المظفر قطز الأمير بيبرس في عسكر ليتجسس خبر التتر".

(٦٧) تقع عين جالوت بين بيسان ونابلس، من أعمال فلسطين، وما زالت خرائبها حتى اليوم وتقع عند الضفة اليمنى لنهر جالوت الذي ينبع من عيون قرب زرعين جنوبي العفولة، ثم ينساب حتى بيسان، ثم يمضي ليصب في نهر الأردن، شمالي جسر الملك حسين جنوبي الشونة الشمالية، ويبلغ طوله نحو (١٧) سبعة عشر كيلا، وعرضه بين كيلو واثنين، واتساعه عند مصبه أربعة أمتار، ويمثل امتدادًا طبيعيًا لنهر الأردن، مما دفع بعض المؤرخين إلى قولهم بأن عين جالوت وقعت في الغور الأردني، وفي Atlas of Israel تحريف لاسم جالوت إلى جارود وزعموا أنه الوارد في التوراة، انظر: ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٤/٢٠٠ "عين الجالوت".

(٦٨) خمار قسطنطين: **أسماء الأماكن والمواقع والمعالم الطبيعية والبشرية والجغرافية المعروفة في فلسطين، حتى العام ١٩٤٨**، بيروت، ١٩٨٠، ص٦٠ و١٧٦. وانظر خمار: **موسوعة فلسطين الجغرافية**، بيروت، ١٩٦٩، ص٦٠ و١٨٨، وفي عين جالوت انشأ اليهود مستعرة باسم "عين جارد" انظر: أنيس الصايغ: بلدانية **فلسطين المحتلة**، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٦٩) الدكتور عماد عبد السلام: **معركة عين جالوت**، ص٤١.

(٧٠) يقع جبل جلبوع جنوبي غربي يسان، ويقع جبل الدحي غربي عين جالوت التي تقع غربي بيسان، وعين جالوت تقع على وادي الجالوت.

(٧١) رشيد الدين: **جامع التواريخ**، ص٣١٤.

(٧٢) المقريزي: **السلوك**، ٤٣٠.

(٧٣) لما رأى قطز انكسار الجناح الأيسر رمى بخوذته وصاح واالسلاماه ثلاث مرات، ثم هجم على العدو بنفسه، فتابعه سائر القادة فكان بداية انهيار جيش المغول، فكانت وإسلاماه إشارة هجوم متفق عليها. المقريزي: **السلوك**، ص٤٣٠. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/٧٩.

(٧٤) ابن العميد، جرجيس: **أخبار الأيوبيين**، (د.ت) و(د.م)، ص١٧٥. عماد عبد السلام (دكتور): **معركة عين جالوت**، مرجع سابق، ص١٧٥.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ١٧٦.

(٧٦) المقريزي: السلوك، مصدر سابق، ص ٤٣٠.

(٧٧) ابن العميد: **أخبار الأيوبيين**، ص ١٧٥.

(٧٨) إسماعيل أبو الفدا: **المختصر في أخبار البشر**، مصدر سابق، ج٤/ ص ٢٠٥ – ٢٠٦.

(٧٩) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل: **المختصر في أخبار البشر**، القاهرة، ١٣٢٥هـ ج٤/٣٠٥.

(٨٠) رشيد الين:عيون التواريخ، ص٣١٤.

(٨١) عماد عبد السلام (دكتور): **معركة عين جالوت**، ص٤٩.

(٨٢) تبعد عن عين جالوت (١٢) كيلا.

(٨٣) المقريزي: **السلوك**، ص٤٢١.

(٨٤) المقريزي: **السلوك**، مرجع سابق، ص٤٢٥.

(٨٥) أبو شامة: **ذيل الروضتين**، ص٢١١.

(٨٦) أبو الفدا: **المختصر في أخبار البشر**، ج٤/ ص٢٠٥- ٢٠٦. وانظر: نصوص المؤرخين عن معركة عين جالوت جمعها في نهاية كتابه عماد عبد السلام (دكتور): معركة عين جالوت، ص ٦٥- ٨٧.

(٨٧) بيبرس المنصوري: **كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية**، مصدر سابق، ص٤٤. وانظر أبو المحاسن ابن تغري بردي: **المنهل الصافي**، طبعة فييت الترجمة ١١٠٣. والشاعر هو حسين الطبردار، المصدر نفسه ج٢/١٩٨.

(٨٨) عاشور: **العلاقات السياسية بين المماليك والمغول**، ص٥٦.

(٨٩) المقريزي: **السلوك**، ج١ق٢ ص٤٣٥. وانظر إبراهيم ياسين الخطيب (دكتور): **تاريخ المغول والمماليك**، عمان، مؤسسة دار شيرين، ١٩٩٣. ص ٦٣.

(٩٠) العسلي، كامل: مشاهير قادة الإسلام، **المظفر قطز ومعركة عين جالوت**، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ١٢٤ – ١٢٥.

(٩١) البيرة بكسر الباء: بلدة قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية، ولها قلعة حصينة. الحموي، ياقوت: **معجم البلدان**، مصدر سابق، ج١/٦٢٤.

(٩٢) بلد قديم كبير واسع بينه وبين الفرات ثلاثة فراسخ وإلى حلب عشرة فراسخ. البغدادي، ابن عبد الحق، عبد المؤمن: **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧٣هـ/١٨٥٤م، ج٣/١٣١٦. يُقَدَّرُ بِثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ، أَيْ مَا يُعَادِلُ سِتَّ كِيلُومِتْرَاتٍ. فالتر هنتس: **المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري**، عربه عن الألمانية الدكتور كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية ط١، ١٩٧م ، ص٩٤. أما المسافة بينها وبين حلب فتبلغ ثمانين كيلا، وهي إلى جهة الشرق منها.

(٩٣) المقريزي: **السلوك**، ج١ق٢، ص ٦٠٦-٦٠٧.

(٩٤) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج٧/ ص١٥٩ – ١٦٠.

(٩٥) ابن كثير: الحافظ العماد: **البداية والنهاية**، مصدر سابق، ج٧/٣٠٣ – ٣٠٤.

(٩٦) وعنده فرقا لا مزقا

(٩٧) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج٧، ص ٣٠٤.

(٩٨) المصدر نفسه، ح٧/ ٣٠٤.

(٩٩) المقريزي: **السلوك**، ج١ق٢، ص٥٨٥.

(١٠٠) تقع في آسيا الصغرى أسسها روبن ملك أرمينية وتسمى سيسية لأن أهلها يقولون سيس. كي لسترنج: **بلدان الخلافة الشرقية**، عربه بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥، ص ١٧٣.

(١٠١) عاشور، فايد حماد (دكتور) **العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة التركية الأولى**، ص٩٤.

(١٠٢) المقريزي: **السلوك**، ج١، ق٢، ص٦١٨.

(١٠٣) مدينة على ساحل الشام بين قَيْسارية ويافا. الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، ج١/١٨٢.

(١٠٤) قرية في بلاد الروم قريبة من أفسوس بلدة أهل الكهف في بلاد الروم. المقريزي: **السلوك**، مصدر سابق، ج١ق٢ ص٦٢٥ حاشية (٧).

(١٠٥) المقريزي: **السلوك**، ج١ق٢ ص٦٣٠.

(١٠٦) اللهذم: **السيف الحاد وكذلك السنان والناب**. ابن منظور: لسان العرب مادة "لهذم".

(١٠٧) بيبرس المنصوري: **كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية**، ص ٦٧ أحداث سنة (٦٦٧هـ).

(١٠٨) المصدر نفسه، ص٧٨.

(١٠٩) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٦/٤٤٦ سنة ٢٩٦هـ وما بعدها.

(١١٠) منتدى الطبقات، الظاهر بيبرس "الأسد الجديد": (www.altabaqat.com)

(١١١) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج٧/٢٠٨.

(١١٢) بايعه الظاهر بيبرس في اليوم الثالث عشر من شهر رجب سنة (٦٥٩هـ)، ورقمه الخليفة الثامن والثلاثون. ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج٧/٢٧٣.

(١١٣) منتديات القصيمي: (www.qassimy.com)

(١١٤) بيبرس المنصوري: **كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية**، ص٥٦، أحداث سنة (٦٦٤ هـ).

(١١٥) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج٧/٣١٠.

(١١٦) أبو الفداء إسماعيل: **البداية والنهاية**، ج٧/٢٨٢.

(١١٧) فايد عاشور (دكتور): **العلاقات السياسية بين المماليك والمغول**، مرجع سابق، ص٨٠.

(١١٨) المرجع نفسه، ص٨١.

(١١٩) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج٧/٢٩٠. (فيه ذكر لعمرانه)

(١٢٠) أرسل الظاهر بيبرس منبرًا لمسجد الرسول الكريم سنة (٦٦٤هـ) ومقصورة خشبية لتوضع حول الحاجز المخمس سنة (٦٦٥هـ). انظر: توسعات السجد النبوي عبر التاريخ (www.kasnazan.com)، (ourpect.club.com) تاريخ عمارة المسجد النبوي والظاهر بيبرس، ويكبيديا: الموسوعة الحرة (ar.wikipedia.org)

(١٢١) موسوعة للمساجد في العالم، منتديات أوراق المدينة: (www.a-almadenah.com)

(١٢٢) حين تولى السلطان الظاهر بيبرس حكم مصر؛ عادت صلاة الجمعة للأزهر، وجمع الأمير عز الدين أيدمر -وهو من أمراء دولة بيبرس- الحلي وبعض ما تبدد من أوقاف الأزهر، وانتزعه من أيدي غاصبيه، ثم جدد سقوف الجامع وتبليطه، وكان للأمير بدر الدين بيلبك الخازندار الظاهري يد محمودة في هذا التجديد، فأنشأ رواقًا كبيرًا أوقف عليه المزارع والعقارات، واشترط أن ينفق ريعها على من ينقطع في هذا الرواق لقراءة القرآن الكريم وإسماع كتب السنة المحمدية، وتدريس فقه الإمام الشافعي، وكان هذا الرواق هو أول أروقة التدريس بالأزهر، وبداية تحوله إلى جامعة مرموقة دوليًّا. ثقافة وفن _الأزهر، موقع إسلام أون لاين: (www.islamonline.com).

(١٢٣) ومن ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس البندقداري حينما زار القدس سنة 661 هـ وأمر بترميم كل ما تهدم من حرم المسجد، وأوقف عليه خانًا وعقارات يصرف عليه من دخلها. المسجد الأقصى، منتديات محيط: (www. forums.moheet.com.)

(١٢٤) أما مئذنته فقد أمر ببنائها الظاهر بيبرس٦٦٢هـ، وأعاد بناء ما تهدم منه بسبب السيول. (www. assawsana.com)

(١٢٥) الظاهر بيبرس، منتدى طرق الحق، فرسان السنة: (www.forsanelhaq.com)

(١٢٦) عمد السلطان بيبرس إلى ترميم القلاع التي دمرها المغول، وتأمين وصول قواته إلى بلاد الشام بالسيطرة على كل المدن والقلاع الممتدة على الطريق بين مصر والشام وجعلها تابعة لها، خاصةً حصن الكرك الذي كان تحت سيطرة الملك عمر بن العادل بن كامل الأيوبي، الذي لم يقدم فروض الطاعة له، فاستولى على الحصن وقتل الملك عمر. وقد التفت أيضًا إلى تحصين الأطراف والثغور، وعمارة القلاع التي خربها المغول في الشام، وأخذ يزودها بالرجال والسلاح من مصر وبعض مدن الشام القوية. كما عمل على تقوية الأسطول، والجيش، وأشرف بنفسه على بناء السفن الحربية في دور صناعتها الموجودة في الفسطاط والإسكندرية ودمياط، ولم يكتفِ بهذا العمل لتأمين وصول قواته إلى الشام ومنع أي التفاف من الخلف، بل عمد أيضًا إلى التحالف مع بعض القوى الخارجية ليتفرغ للصليبيين.

(١٢٧) التميميون الداربون، عشائر شمال الأردن: (Amman-dj.com)

(١٢٨) محمد المناصير(دكتور)، **صفحة من تاريخ الأردن**٣٣: (www.ammonnews.net)

العلامة
أبو علي الحسن اليوسي ومسيرته العلمية



د. لحسن أوري

أستاذ التعليم العالي مساعد

الكلية متعددة التخصصات

تازة – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

لحسن أوري، العلامة أبو علي الحسن اليوسي ومسيرته العلمية.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ١٠٧ – ١١٠.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

مُلخَص

يتناول هذا المقال حياة العلامة أبو علي الحسن اليوسي ونسبه وأصله، ومسيرته العلمية، بهدف إلقاء الضوء على مكانته وعمق فكره، الأمر الذي جعل تراثه الضخم مطلبًا لباحثين من اختصاصات متنوعة، يهتم به الفقهاء والأدباء واللغويون، ومؤرخو الفكر السياسي والاجتماعي وغيرهم.

مُقدِّمة

لقد شاءت الأقدار رغم الظروف التي كانت تعيشها قبيلة آيت يوسي، أن تبرز إلى الوجود أعلام من ساكنتها، ارتبط البعض منها بتاريخ المقاومة والبعض الآخر بتاريخ الفكر بشتى تلاوينه. ويعتبر العلامة أبو علي الحسن اليوسي محور وقطب أقطاب هذه الشخصيات التي دأب المؤرخون والمفكرون في التأريخ لها وتدارسها في مختلف الجامعات المغربية والأجنبية، نظرًا لغزارة التراث الفكري الذي خلفه هذا الرجل في علوم ومعارف لا تعد ولا تحصى. فمن هو هذا الرجل؟ وكيف كانت مسيرته العلمية عبر التاريخ؟ وهل توفق في رحلته بربوع أرض المغرب؟ تلكم هي مجمل الأسئلة التي ستحاول هذه الصفحات المتواضعة الإجابة عليها.

أولاً: حياة أبو علي الحسن اليوسي

يقول الشيخ اليوسي في سرد عمود نسب أبو علي الحسن اليوسي وأصله: "أنا الحسن بن مسعود بن محمد بن علي بن يوسف بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن علي بن عَمْرُو بن يوسف وهو أبو القبيلة ابن داود بن يدراسن بن يلنتن(...) والكنية أبو علي، وأبو المواهب، وأبو السعود، وأبو محمد.[١] ومن يوسف أبي القبيلة، أخذ اليوسي نسبه الذي عرف به واشتهر، والقياس اليوسفي، لكن القبيلة تسقط الفاء من لغتها أو أنها سقطت لكثرة الاستعمال.

أما عن قبيلة آيت يوسي، فإن ما يُتوفر عنها من الأخبار القليلة، فإنها قبيلة ذات شأن كبير ولاسيما من الناحية العسكرية، فقد كانت لها حروب مع لودايا وفي سنة ١٠٩٦ ثارت ضد المولى إسماعيل، فيمن ثار من قبائل بلاد ملوية ثم انهزمت ودفعت سلاحها وخيلها للسلطان،[٢] وكان المستضيء بالله ابن السلطان المولى إسماعيل يخطب ودها ليتقوى بها ضد أخيه عبد الله، ثم رأيناها بعد ذلك تخوض غمار الحرب إلى جانب السلطان المولى عبد الله ضد منافسيه.[٣]

ولقد وقع اختلاف حول العشيرة التي ينتمي إليها اليوسي، إذ نجد أبو التوفيق العربي الدمنتي يقول: "إنه من آيت بوحدو"، والقاضي التاجمعتي يقول إنه من آيت كايس. ونحن نعلم أن آيت كايس فرع من آيت يوسي كيكو. وفيما يشير إليه المدغري العلوي فإنه يقول: "وذكر لي بعض أبنائه أن أجداده ينتسبون إلى قبيلة فركلة من فخذة منها تسمى حارة أقلال، وإنهم ليسوا من قبيلة آيت يوسي. والشائع عند حفدته الآن أن أباه منحدر من الساقية الحمراء، وأنه ينتسب إلى المولى إدريس رضي الله عنه.[٤]

ويمكن معرفة أصل العلامة اليوسي من خلال لقب مولاي الذي كان يقتصر على الشرفاء والعلويين والأدارسة،[٥] حيث ذهب العلامة أبو العباس أحمد بن محمد الهشتوكي في تلقيبه "بمولاي" وذلك بقوله "فارس المعقول والمنقول العالم الرباني، بحر المعارف والعلوم والمعاني، عمدة المسلمين وخاتمة المحققين، مولاي أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي نفس الله في عمره للإسلام".

ونظرًا للتحريف الذي وقع في عمود أجداد اليوسي أثار الشكوك في أصله خاصة من ذوي النفوذ السياسي، لأن العلامة أبو علي اليوسي كان له خصوم، نظرًا لموقفه الإصلاحي الذي يدعو إليه في رسائله إلى المولى إسماعيل. كما إن هذا الأخير وتقديرًا منه "لليوسي" أنعم عليه بظهير شريف يقضي بتوقيره واحترامه وإخراج حفدته من زمرة العوام (ويسعون في تجديد الظهير بكل اعتزاز لدى الملوك العلويين).[٦] إلا أن تجديد هذه الظهائر لم يبق ساري المفعول، بحيث عُوضت بتوزيع مداخيل صناديق الأضرحة على الأحفاد، إضافة إلى الهبات الملكية في مختلف المناسبات كموسم الضريح، وشهر رمضان والأعياد الدينية.

ثانيًا: مكانة العلامة اليوسي ومسيرته العلمية

أتاحت للشيخ أبي علي اليوسي عوامل وظروف كثيرة صقل قدراته الإبداعية وتنظيم فعلها الخلاق، بعضها كان ذا طبيعة ذاتية إلهامية، وبعضها الآخر كان ذا طابع خارجي مكتسب، وكان هذا الإطار المكتسب عند الشيخ "أقوى نفاذًا وتأثيرًا وذا دلالة متميزة بسبب ما كان له من طاقة عقلية وشعورية جعلته يربط بين ذاته والعالم الخارجي بعلاقة توظيفية إنتاجية لم تلبث أن أفضت إلى سلوك معين وإبداع خاص...".[٧]

لقد طلب العلم في البادية والحاضرة، بالصحراء والساحل، بالسوس وبلاد الأمازيغ. ومرت أعوام عليه وهو طالب بالزاوية الدلائية. فاشتد عوده برحابها، واجتمع له من عناصر وثقافة العصر ما جعله عالمًا كامل الأدوات واسع الثقافة ناضج الفكر، فتصدر للتدريس بها متمتعا بثقة رؤسائها وأساتذتها وطلبتها وهو لم يبلغ بعد الأربعين من عمره.[٨]

وتظهر مكانة الشيخ اليوسي العلمية من خلال الميادين التي تطرق لها والكتب والرسائل والإجابات على الفتاوي، وفي هذا يقول الأستاذ محمد العمري: "يبدو أن أبا علي الحسن بن مسعود اليوسي قد تفرد من بين جميع الأعلام المغاربة القدماء... وذلك لتنوع ثقافته وعمقها وملامستها للقضايا الحيوية في وجود الناس في عصره وبعد عصره، فهو مفكر سياسي يرصد الواقع وينتقده ويقدم الحلول للمشاكل المستعصية مستوحيًا سلوك السلف، فهو مصلح اجتماعي يشنع بالبدع ويدعو إلى التمسك بالسنة وهو فقيه مدقق يُفتي في كل ما يُلقى إليه من مسائل دقيقة بذهن متفتح، وهو متصوف زاهد متعب بزهده لكل من يسعى إلى تقييد حريته...".

فقد كان طابع اليوسي في كل ما ذهب إليه من قضايا دينية واجتماعية طابع نقدي يتسع بالاجتهاد ورفض التقليد في عصر أُغلق فيه باب الاجتهاد، فيقول أبو علي الحسن اليوسي: "نعوذ بالله من انحراف السيرة وفساد السريرة والتقليد على غير بصيرة، فإنه لا فرق بين مقلد ينقاد بهيمة نقاد..."[٩]

إن تنوع ثقافة اليوسي ومكانته العلمية والدينية، وعمق فكره، جعل تراثه مطلبًا لباحثين من اختصاصات متنوعة يهتم به الفقهاء والأدباء واللغويون، ومؤرخو الفكر السياسي والاجتماعي وغيرهم. وقد خلف العلامة اليوسي تراثًا أدبيًا ضخمًا يدل على مكانته العلمية وقد أورد الدكتور عباس الجراري جردًا لما خلفه اليوسي من إنتاج أدبي متنوع نذكر منه: المحاضرات، زهر الأكم، نيل الأماني، الفهرسة، رسائل اليوسي... إلخ.

ثالثًا: أهمية العلم والعلماء في حماية الدولة عند اليوسي

إذا كانت وظيفة الجيش هي توفير الحماية الشخصية والمادية للدولة، فإن أبا علي الحسن اليوسي أَوْكَلَ لعلمائها حماية الشخصية المعنوية للدولة. ومن هذا المنطلق كان مركز العلماء مرموقًا لدا الشعب وقادة البلاد على السواء، فهم في الأمة عيونها وشهودها يحضرون محافلها وأفراحها وأقراحها، وهم لأجل هذا يَحْضَوْن لدا الملوك والأمراء بمرتبة سامية لا يصل إليها كل من هب وذب. فإذا كان الأطباء يتخذون عدة طرق لإحياء الأنسجة المهددة بالموت في الجسم، فإن الملوك كانوا يَرَوْن في الكلمة العادلة من العالم وخزًا محببًا يَشُدهم دائما إلى جانب الحق والإنصاف. إذ أصبح القادة يشجعون مرشديهم بهذه الكلمة الرائدة "لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نسمعها...".[١٠]

ورغم ظهور اليوسي في فجر الدولة العلوية الذي عرف اضطرابًا سياسيًا اضطربت به حياته ومسيرته العلمية، فإنه بمجرد أن استتب الهدوء وانتشر الأمن، حتى استقرت أحواله فطبعته زاوية تمكروت بطابعها وغذته الزاوية الدلائية بعلمها وأدبها وسلوكها، فأصبح له شأن بين العلماء، فجالسه الملوك وسعوا إلى درسه واستفتوه في النوازل وأقبل على درسه خلق كثير وتخرج على يده جم غفير.[١١]

ورغم مغادرته لقبيلته صبيًا ولم يعد إليها إلا نادرًا، فإن تأثيرها في شخصيته كان قويًا، حيث بقي بدويًا يوسيا لم تستطع الحواضر التي عاش فيها والأوساط الراقية التي اتصل بها، أن تغير من طبيعته شيئا كثيرًا. فعبر عن اعتزازه ببداوته في إحدى رسائله إلى المولى إسماعيل فقال: "إنما أن رجل بدوي، وأما عذري في استثقال الحاضرة فوجوه كثيرة: فإني لم أولد فيها بل في الفجاج الواسعة بين الشيح والريح والجنوب والشمال، فأي عجب إذا حننت إلى مسقط رأسي ومحل أبناء جنسي".[١٢]

هكذا فإن هذا العالم اغترب كثيرًا في سبيل العلم وتنقل بين أهم المراكز العلمية الموجودة في المغرب آنذاك، وحصّل أكثر ما يمكن تحصيله من العلوم، في كل من سجلماسة وسوس، إذ كان لا يبالي بقضاء الليالي أحيانًا مع الطلبة ليذاكرهم مسائل العلم.[١٣] إن

حضور مثل هذه الشخصية الكبيرة في تاريخ قبيلة آيت يوسي يزيدها شرفًا واعتزازًا، باعتباره موسوعة فكرية وعلمية، لم تقتصر جهدًا في طلب العلم وفي إنتاج تراث كبير، وكتابات أصبحت مرجع عدد كبير من الدارسين والباحثين. إن أبا علي اليوسي كان عالمًا عاملاً يوقن أن أحسن العلم هو ما انتفع به الناس أو "هو ما حوضر به"، كما كان بالإضافة إلى علمه وعمله مربيًا يعرف الطرق الناجحة في عصره، ليوصل عمله إلى غيره فيحصل الانتفاع به، من هنا اهتم اليوسي بتسطير كل ما يطرق فكره وحسه ووجدانه من أفكار ومشاعر وخواطر ومشاهدات وتأملات.[١٤]

وفي هذا الصدد؛ تحفظ كتب التاريخ الحوار الذي دار بين الشيخ أبي علي الحسن اليوسي وبين ملك من أعظم الملوك البلاد شأنا وأقواهم مركزًا سواءً على الصعيد الداخلي أو الخارجي، ألا وهو السلطان المولى إسماعيل، الذي كان ينشرح صدره لمراجعة علماء من أمثال الشيخ عبد القادر الفاسي واليوسي وغيرهم. وتَعُودُ أسباب هذا الحوار إلى كون هذا الأخير لم يطق الاستقرار بمدينة فاس، بل اختار المكوث بالبادية والابتعاد عن الحاضرة إذ يقول في هذا الشأن: "لم أولد فيها... ومنها فساد طبع العيال والأولاد والأصحاب، ونخشى ذلك نحن أيضًا في أنفسنا من جهات، إحداها تَعَلُّم الشهوات والاتساع فيها وإن كنا بالبادية لا نعرفها، ووجدنا آباءنا يعيشون بها وجدوا قانعين... ثانيها الوقاحة في ذلك وقلة الحياء...[١٥] فعشقه للخلوة والاعتزال حال دون دخوله الحاضرة والأعتاب الشريفة لنشر العلم بها ومساعدة الحكومة إلا لمامًا، لذلك بعث إليه السلطان المولى إسماعيل كتابًا ينتقد فيه هذا الموقف خصوصًا عندما فجع السلطان لحالة العلم بالمغرب.[١٦]

إن أجوبة اليوسي في هذا المضمار كانت علمية وموضوعية لا تقبل النقاش، إذ كان يتبنى المنطق في كل ردوده وله في ذلك نماذج كثيرة، حيث يرد على السلطان في شأن تجريم انعزاله وعدم ردوخه لما كان يطالبه به المولى إسماعيل، فيقول ردًا على كتاب السلطان: "...أنا الذي أقول هذا وأطلبه لو أجده، وأما السلطان ففي يده اليوم الشريعة وغيرها. فما شاء فعل بي وبغيري شرعا كان أو غيره. وأما أنا لو وجدت شريعة الله لم أحتج إلى شيء من هذا الكلام. فوالله لا أعلم علي حدًّا ثابتا عند السلطان فيطالبني بإقامته ولا جناية على أحد في مال ولا نفس، ولا أنا عبد آبق ولا فارس هربت براية الملك ولا عامل بقي على حساب الجباية، ففي أي شيء يطالبني السلطان بشريعة الله...فأي شيء ثبت علي شرعا يا معشر المسلمين حتى أُطالب فيه وقد اعترفت على نفسي بطاعة السلطان، ولم أُنازع ولم أخالف ولم أحارب ولم أخلط، وهذا القدر هو المطلوب من الطاعة، أما من خرج عن ذلك كخروج فرد عن داره أو بلده أو نزوله بلدا أو لزومه جهة أو انتقاله من موضع إلى موضع فلا مدخل له في الطاعة، لأن السلطان خليفة الله في الأرض، فليس له أن يكلف العباد إلا بما كلفهم الله به"، ثم يستأنف قائلاً في هذا الشأن: "فإذا كان المولى إسماعيل يأسف لحالة العلم فعليه أن يبحث عن البقية الباقية من العلماء ويوفر لهم ما يحتاجون ثم يدعوهم بالرغبة لا بالرهبة ليؤذوا للجيل الناشئ أمانة العلم".[١٧]

إن بلاغة اليوسي ومنطقه العلمي كان قويًا يعتمد على القرائن الشرعية والعلمية في الإجابة ورد السؤال، ومرجع ذلك أساسًا غزارة علمه وتنوعه، واختلاف المشارب والمصادر التي نهل منها، إذ انطلق وهو شاب دون العشرين من عمره في رحلة رمت به ما بين فاس ومراكش وسجلماسة ودرعة وسوس وتارودانت ودكالة وغيرها، فسلك في ذلك مسلك الصالحين الأتقياء المؤمنين رغم اشتداد المحن.[١٨] لقد كان طلبه للعلم بمثابة تجربة وامتحان مكناه من الابتعاد عن مفاسد الأخلاق وقبائح الأعمال وأصبح مثالا للشباب المسلم الحق متأثرا في ذلك بشيخه سيدي محمد بن الناصر الدرعي الذي تولاه بالإصلاح والتهذيب داخل زاويته التي أصبح اليوسي ينتمي إليها باعتبارها منهله الأول ومشربه الذي اعتمد عليه وعول، فطبعت شخصيته بطابعها وهيمنت على روحه بما في أشياخها من إخلاص النية وسلامة الطوية ومحبة العلم وأهله والجهاد في سبيل الله ودينه. فلم تستطع الزاوية الدلائية نفسها رغم المدة الطويلة التي قضاها بها أن تنسخ ما في نفسه من حب للزاوية الناصرية وتعلق بها وحنين إلى أهلها وأيامها.

لقد تنوعت الجهات التي تنقل في ربوعها هذا العالم طلبا للعلم وهو في ريعان شبابه فانتقل من الزاوية الناصرية إلى جبل دمنات حيث كان يحضر مجالس أبي الحسن علي بن العباس، ثم التحق بالزاوية الدلائية أعظم زوايا المغرب إبان ذلك الوقت وأكبر مركز علمي في المغرب في هذه الفترة من تاريخه والتي استقر بها نحو عشرين سنة رغم أن أيامه الأولى بها كانت متعبة وشاقة إلى أن تنبه طلبة الزاوية الدلائية إلى نبوغه فانكب بها على الدرس والتحصيل فاستقام له الأمر بها فأناله ذلك حظوة عند السلطان محمد الحاج الدلائي فتزوج بها.[١٩]

لقد كان الفضل كبيرًا للعلامة اليوسي على هذه الزاوية التي طلعت في سمائها بدور المعرفة وأشرقت شمس الدين، وظهر من الدلائيين رجال حملوا لواء العلم في أفق المغرب عاليًا خفاقًا، وأغنوا الخزانة العربية الإسلامية بعطاء غزير نذكر منهم: الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي، وأبو العباس سيدي أحمد المدعو بالحارثي الذي كانت له اليد الطولى في الحساب والتاريخ واللغة والبيان والأدب والأصول والفقه والحديث.[٢٠] إن ما نهله اليوسي من علم بالزاوية الدلائية جعله من المحبوبين لدى المولى الرشيد الذي حطمها سنة ١٠٧٩هـ ونقل علماءها إلى فاس، فكان اليوسي ألمعهم بحيث تابع نشاطه العلمي بجنبات جامع القروين التي لم يكن بمقدور كل واحد أن يتبوأ مقعد الأستاذية بها، فألقى بها دروسه منذ سنة ١٠٧٩هـ بحضور المولى الرشيد تشجيعا على الجد والمثابرة وطلب الكمال.

إن ذكريات اليوسي في جل المدارس التي تتلمذ فيها ونهل العلم عن شيوخها تركت في نفسه أثرًا كبيرًا تشهد له بها شهاداته هي

مختلف المتون التي خلفها وراءه، لكن ذكرياته بالقرويين كانت مؤلمة خصوصًا فيما يتعلق بتخلف بعض مشاهير مدينة فاس عن دروسه التي كانت في نظره مهمة لهم، فانفعل انفعالاً شديدًا وساءت الحال بينه وبين أهل فاس لتآمر بعض أعيانها عليه، ليس إلا لكبرياء نفسه ولشدة اعتزازه بها وثقته في علمه وتعاليه على هؤلاء الضعاف الذين خلت مجالسهم من الطلبة بعد دخوله القرويين. ورغم الخصومة التي وقعت بين اليوسي والفاسيين، فإن المدينة لم تتنكر له، بل إن مجالسه كانت مكتظة بالطلبة والأعيان وأنه أتفق له من اجتماع الناس عليه وإقبالهم على درسه ما لم يتحقق لغيره. لقد ساهمت الخلافات التي نشبت بين اليوسي والفاسيين في اتخاذه قرار مغادرة فاس واللجوء إلى البادية سنة ١٠٨٤هـ، بعدما استقر بتطوان، لكن مراده في العزلة لم يكتمل إذ اضطر إلى التوجه مرغما إلى مراكش التي قضى بها ثلاث سنوات وهو يدرس بجامع الأشراف دروسًا لا يوجد لها نظير بالمغرب في ذلك الوقت.[٢١]

لقد تحكمت الظروف السياسية بشكل كبير في المسيرة العلمية لليوسي، إذ جلبت عليه المدارس التي تعلم بها مشاكل جعلته مشردًا في البداية ونالت منه هي النهاية إذ تحولت الدروس التي تلقاها بالدلائية إلى نقمة عليه من السلطة الحاكمة التي أعادته إلى في جو لا يسمع باستقرار عالم من أفضل علماء المغرب حينذاك على عهد السلطان المولى إسماعيل، فانتهى به المطاف بعد أداء فريضة الحج إلى بادية بحوز مدينة صفرو تُعرف بقرية تامززيت التي وافته المنية بها يوم الاثنين ٢٣ من الحجة الحرام سنة ١١٠٢هـ ودفن بها، لكن آثاره لا زالت حية وتعتز بها فئة العلماء والمثقفين من الساكنة المغربية على وجه الخصوص.

خاتمة

عمومًا إن الشيخ أبي علي الحسن اليوسي شخصية حية حركت بركة راكدة في مجال الفكر الديني (الفقه والتصوف)، والسياسي (الرسائل)، والاجتماعي (محاربة البدع وانتقاد أهل الحضارة)، لذلك سيبقى اليوسي شخصية حية في ذاكرة كل الأجيال، لأنه كبح جماح كل أشكال التعسف وكل صور التضليل، وفسح المجال للعقل والاجتهاد، فهو قدوة لم يريد الاقتداء به تغمد الله روحه برحمته.

الهوامش:

(١) حجي (محمد)، **الحسن اليوسي**، كتاب المحاضرات ، طبعة دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٧، ص.١٠.

(٢) الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج.٧، ص٦٨.

(٣) ابن زيدان (عبد الرحمان)، **الإتحاف**، ج.٤، ص.٣٤٠-٣٤٥-٤٢٨.

(٤) العلوي المدغري (عبد الكبير)، **الفقيه أبو علي اليوسي، نموذج من الفكر المغربي في فجر الدولة العلوية**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة المحمدية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص١١١.

(٥) حماني (حميد)، **جانب العقيدة في فكر اليوسي، دراسة مع تحقيق لبعض تراثه في مجال العقيدة**، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في العلوم الإسلامية، دار الحديث الحسنية، الرباط، ١٩٨٩-١٩٩٠، ج.١، ص٧٨.

(٦) حماني (حميد)، **جانب العقيدة**...، مرجع سابق، ج.١، ص٨١.

(٧) العلوي المدغري (عبد الكبير)، **الفقيه أبو علي اليوسي، نموذج من الفكر المغربي في فجر الدولة العلوية**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة المحمدية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص١٣٧.

(٨) المدغري (عبد الكبير)، **الفقيه أبو علي اليوسي**... م.س، ص١٣٨.

(٩) العمري(محمد)،**"أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي في كتابات المحدثين"**، الملتقى الثقافي الثالث لمدينة صفرو، تحت شعار: صفرو، منطقتها، بيئة، تاريخ مجتمع، فكر، إيدكل للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩٠، ص ٢٥٧.

(١٠) التازي (عبد الهادي)، **"بطاقة في منتهى الطاقة يرخصها أبو الحسن اليوسي إلى السلطان المولى إسماعيل، دوافعها، تاريخها، أصداؤها، دلالاتها الاجتماعية وأبعادها السياسية"**، مجلة المناهل، المرجع السابق، ص٢٨٨.

(١١) حماني (حميد)، **جانب العقيدة** ...،مرجع سابق، ج.١، ص٨١.

(١٢) نفسه، ص ١١١.

(١٣) العلوي المدغري (عبد الكبير)، **الفقيه أبو علي اليوسي، نموذج من الفكر المغربي في فجر الدولة العلوية**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة المحمدية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(١٤) الدويري (أحمد)، **"النثر الفني عند اليوسي"**، الملتقى الثقافي الرابع / مدينة صفرو، صفرو ومنطقتها قراءة في الذاكرة وفي الراهن، صفرو أبريل ١٩٩٠، ص٢٠٣.

(١٥) المدغري (عبد الكبير)، **الفقيه أبو علي اليوسي**... م.س، ص١٣٨.

(١٦) الفاسي (علال)، **"أبو علي الحسن اليوسي"**، مجلة المناهل، ص٤٦.

(١٧) العمري(محمد)، **"أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي في كتابات المحدثين"**، الملتقى الثقافي الثالث لمدينة صفرو، تحت شعار: صفرو، منطقتها، بيئة، تاريخ مجتمع، فكر، إيدكل للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩٠، ص٢٥٧.

(١٨) المدغري، م.س، ص١٢٦.

(١٩) التازي (عبد الهادي)، **"بطاقة في منتهى الطاقة يرخصها أبو الحسن اليوسي إلى السلطان المولى إسماعيل، دوافعها، تاريخها، أصداؤها، دلالاتها الاجتماعية وأبعادها السياسية"**، مجلة المناهل، المرجع السابق، ص.٢٨٨.

(٢٠) الحوات (أبي الربيع سليمان بن محمد)، **البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية**، مخطوط الخزانة العامة الرباط، خ.ع. رقم ١٤٥٤د، ص٣٠٧.

(٢١) العلوي المدغري (عبد الكبير)، مرجع سابق، ص١٠٨.

الأندلس في عصر الطوائف "عرض طوبونيمي للأعلام والمدن"



أ. د. عبد القادر سلاّمي

قسم اللغة العربية واللغات

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد القادر سلاّمي، الأندلس في عصر الطوائف: عرض طوبونيمي للأعلام والمدن.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ١١١ – ١١٥ .

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخَص

يعدّ المبحث الطوبونيمي(المواقعي) من بين المسارات الكثيرة لمعرفة التاريخ المشترك لمجموعة بشرية معيّنة، وبخاصة في الأزمان القديمة التي تفتقر إلى الوثيقة التاريخية المكتوبة (كما هو الحال في تاريخ دول الطوائف). وإنْ وُجِدت هذه الوثائق المكتوبة فغالِبًا ما نجدها تهتم بالأنظمة الحاكمة وسياساتها ومحيطها، مُغيّبةً بشكل أو بآخر التاريخَ الاجتماعيَ وتاريخَ الجماعات. فالتاريخ السائد في المصادر التقليدية كان دومًا تاريخًا رسميًا يهتم بأنشطة الأنظمة السياسية القائمة ولا يهتم بتاريخ المجتمع بكل مكوّناته. ولإعادة بناء هذا التاريخ العميق، أصبح من الضروري البحثُ عن الوثائق في مظانّ أخرى. وتبقى اللغة في هذا الصدد من بين إحدى أفضل الوثائق التي يمكن أن تَمُدَّ الباحث بمعطيات وتدقيقات مفيدة لا توجد في المصادر التقليدية المألوفة، وهو ما يسعى هذا العرض إلى تحقيقه.

مُقدِّمة

تعدّ الطوبونيمية أو المواقعية (Toponymie) ذاكرة جماعية في صورة ناطقة، ومن ثمَ يصبح مجال بحثها نافذة أساسية على المجتمع بمختلف تجلياته: اللغوية والسياسية والحضارية، وهي علاوة على ذلك أداة عمل لازمة لإدارة الخدمات والمصالح والفضاءات المختلفة إدارة ناجعة، فأسماء الأماكن بوصفها إشارات تموْضع، تسمح بالاهتداء السريع ضمن الفضاء الجغرافي، من ذلك نُظم جمع البيانات التي تعمل وفقا لـ(نظام التوضّع العالمي) وبالتكامل مع جميع المعلومات التي يمدنا بها (النظام المعلومات الجغرافية GIS)، والتي تعدّ وسيلة لمعرفة حقول النشاط البشري على سعتها وتعقدها ووسيلة للتحليل الشامل للهموم البيئية ومن ثمّ وسيلة لانفراجها. لذا، أصبح جمع المعلومات الدقيقة والآنية أحد التحديات التي تواجه مسئولي البلاد على اختلاف مستوياتهم حيث يتعيّن عليهم اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب؛ ولا شك في أن هذا لن يتمّ إلا بتوفر المعلومات الوصفية والمعلومات المواقعية الدقيقة حول العناصر التي تنتشر عبر الأمكنة المتّسعة.

فما هي الطوبونيميا إذن؟

إنّها العلم الذي يُعنَى بدراسة أسماء الأماكن وتحليلها، بالاعتماد على مجموعة من العلوم المساعدة كالتاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجية وغيرها.[١] وإذا أردنا البحث في الأصل اللغوي للطوبونيميا (Toponymie) (و منه الطوبونيم toponyme أو اسم مكان) وجدناه اسمًا إغريقيًا يتكوّن من لفظتين هما TOPOS وONOMA وتعني الأولى المكان (أو الأرض) والثانيةُ الاسمَ، ويعيّن هذا المركّب إذن اِسمَ المكان أوِ اسمَ الأرض. وهناك اجتهادات كثيرة تحاول نحت اسمٍ لهذا العِلم من اللغة العربية فنجد المواقعية والأماكينية وغيرهما. وكلّها تفيد المعنى نفسَه في اللغة اللاتينية. فالطوبونيميا عند R. Delort "دراسة أسماء الأماكن بمعنى أسماء (أي دوالّ) وضعها الإنسان ليدلّ بها على حقائقَ جغرافية، (أي مدلولات). كما أنّها في نظر Charles. Rostaing:" البحث عن معاني أصول أسماء الأماكن ودراسة تحوّلاتها".[٢]

على أنّنا حين نعمد إلى فحص مواد الطوبونيمية، نتبيّن أن هذا الفرع من علم أسماء العَلَم (l'onomastique) يتضمّن جوهريًّا عددا من الأنواع: "الأورونيميا" l'oronymie (أو دراسة أسماء الجبال) و"الهيدرونيميا" l'hydronymie (أو دراسة أسماء مجاري المياه)،

"الميكروطوبونيميا" la microtoponymie (أو دراسة المواقع الريفية والحضرية)، "الأودونيميا" l'odonymie (أو دراسة أسماء الشوارع)، وغيرها. ولكلٍّ من هذه الفروع صلتُه الوثيقة بالفضاء المحيط إذ أن الإنسان اهتم، منذ وَعْيِه الأوّل، بتسمية جواره بما يميّزه من الأشكال والأحداث.[٣]

هذا، وتعدّ الأسماء المواقعية إحدى مقومات الحياة اليومية للشعوب، ومن الوجهة التراثية يجدر القول بأنها لا تقل أهميّة عن مدلولاتها، سواء أكانت عناصر بيئية أو آثار بشرية مرئية أو شفوية تجريدية. وإلى جانب وظيفتها التوطينية والتعريفية، تلعب أسماء الأعلام المتصلة بمواقع بأعيانها دورًا نوعيًا حاسمًا للتعبير عن جملة من حقائق الموارد الثقافية السائدة. كما تمكّن من التمييز ضمنها بين ما هو محلي ولصيق بصيرورة المجتمعات الصغرى، وبين ما هو وطني وذائع الصيت.

أولاً: الحياة السياسية في القرن الخامس الهجري بالأندلس

شهد القرن الخامس الهجري بوفاة الحاجب المنصور بن أبي عامر بداية سياسة مختلّة وشرّاً مستفحلاً، وبذلك كانت نهاية المجد السياسي والوحدة السياسية في ظلّ الأمويين والعامريين ،الذي بلغت فيه قرطبة من العمران أقصى ما وصلت إليه، وكيف لا وقد كانت قبلة الأنظار من الناحيتين السياسية والحضارية.[٤] فعلى الرغم ممّا يقال من استمرار عبد الملك المظفّر على النّهج الذي اختطّه أبوه المنصور، فإنّ ذلك لم يَعْدُ في الواقع الحَجْرَ على الخليفة وتقديم العنصر الأجنبي من بربر وصقالبة على العنصر العربي.[٥]

أمّا تسيير الدولة، فقد مسّه الخلل، لأنّ عبد الملك كان منهمكًا في لهوه وشرابه وإشباع رغباته تاركًا تدبير الأمور لعيسى بن سعيد اليحصبي ولأكابر الفتيان والعامريين، فأربك هؤلاء الوضع بسعايات بعضهم ضد بعض.[٦] فقد قام عيسى بن سعيد اليَحْصُبي بتدبير مؤامرة على الملك المظفّر بالاتفاق مع جماعة من بطانته، فاجتمع الرأي على الغدر بالعامريين والانقلاب إلى المروانيين وصرف الخلافة إلى هشام بن عبد الجبّار، غير أنّ خيوط المؤامرة اكتشفت قبل تنفيذها ، فضرب المظفّر عنق عيسى.

ولمّا تولّى عبد الرحمن بن المنصور الملقّب بِ"شَنْجُول" الحجابة بعد وفاة أخيه سنة ٣٩٩هـ، زاد هذه السياسة اختلالاً. فقد أحفظ النفوس عليه بسوء سيرته وانحراف أخلاقه؛ إذ كان مستهترًا بالقيم، سادرًا في غيّه، ماجنًا لا يكاد يفيق من سكره، مجاهرًا بالفتك؛ هذا إن لم يكن انحداره من أمّ إفرنجية قد ضاعف من بغض الناس له.[٧]

ولم يَكْتَفِ "شَنْجُول" بالحَجْرِ على الخليفة المؤيّد بن الحَكَم المستنصر، إذ لم يكن له حول ولا قوّة، وإرغامه على كتابة عهد بالتنازل له عن الخلافة،[٨] وإنّما ذهب إلى أبعد من ذلك، فخلع على نفسه ألقابًا لم يكن أهلاً لها، فتسمّى بِ"المأمون"، وأضاف إلى اسمه لقب "ناصر الدولة" وهذا بعد عشرة أيام قضاها في الحجابة.[٩] وأتْبَع ذلك كلّه بأشدّ الخطوات خطورة وهي إرغامه الخليفة على صرف ولاية العهد إليه ليتمّ له بذلك سحق الأسرة الأموية ونقل الخلافة جملة إلى الأسرة العامرية.[١٠] فقد وافقه الخليفة الضعيف على جميع هذه المطالب الجنونية، فازدادت قلوب الناس على "شنجول" حقدًا ولاسيما بنو مروان.[١١]

ولم يكن الأمويون ليرضوا بهذا الذي حدث، وقد بلغ السيل الزّبى وفارت النّفوس وتميّزت غيظاً ، ولم تكن تنقصها سوى الفرصة المواتية للانقضاض على العامريين المتطاولين حتّى شاء سوء طالع "شنجول" أن يخرج إلى الغزو في شاتية سنة ٣٩٩هـ، فثار النّاقمون بقيادة محمد بن هشام عبد الجبّار الذي تلقّب بِ"المهدي" بقرطبة وأشاع أنّ هشامًا المؤيّد قد مات، فأوقدها ثورة عارمة لا تبقي ولا تذر؛ فإذا قرطبة كأنّها قبس من جمر عصفت به الريح.[١٢] ولم ينقض القرن الرابع إلاّ وعروس الأندلس الزّاهية بالأمس قد عبثت بها يد الخراب، فاستحالت أنقاضًا وتحوّل أهلها ضواري عطشى يشرب بعضهم دماء بعض.

كلّ ذلك كان يحدث حول قرطبة بينما فتيان العامريين يهربون منها، ويحتلّ كلّ منهم بلدًا ويعلن استقلاله فيه، فقد استولى "مبارَك" و"مظفّر" العامريان على مدينتي" بَلَنْسِيّة" و"شاطبة"، واستولى خَيران العامري على مدينة "المَرِيّة"، وكوّن زهير الفتى العامر بدولة امتدّت إلى "شاطبة" و"بيَّاسة" وما وراءها من أعمال "طليطلة"، واستولى مجاهد العامري على"دانِيّة" وجزيرتي شرقي الأندلس (ميورقة وبيّاسة).[١٣]

وظهر جليًا، بعد إخفاق المحاولات المتكرّرة لإرجاع الخلافة الأموية، أنّ الفتنة البربرية قد قضت على وحدة الأندلس كما قضت على عمران قرطبة، وانزوى في كلّ منطقة رجل قوي أعلن استقلاله بها، وهذا ما يسمى في تاريخ الأندلس بعصر الطوائف،[١٤] الذي شهد كذلك تعدّد المراكز الثقافية على أصول الانقسام السياسي، إذ أصبحت كلّ عاصمة دولة من دول الطوائف مركزًا من مراكز الأدب والعلم. فلم تعد قرطبة كبرى المراكز العلمية بل أصبحت تنافسها كثير من المدن. وقد كان الأمير هو الراعي الأوّل للحركة الثقافية، وكان لون هذه الحركة يسير حسب ميل هذا الأمير أو ذاك،[١٥] فكان الميل الأدبي أغلب على بلاط إِشبيلية، وكان الميل العلمي أغلب على بلاط ذي النّون بطليطلة وبني هود بسرقسطة، وكانت المباهاة بجمع أكبر عدد من العلماء المشهورين في مختلف العلوم، من فقه وحديث ولغة وضروب النشاط الأخرى، ميزة العامريين في دانية.

ثانيًا: الأعلام وفق تسلسلها التاريخي

المنصور بن أبي عامر:

هو أمير الأندلس من سنة ٣٢٦هـ إلى سنة ٣٩٢هـ في دولة المؤيّد هشام بن الحَكَم وأحد الشجعان الدّهاة. أصله من الجزيرة الخضراء.[١٦]

عبد الملك المظفّر:

هو ثاني أمراء الأندلس من الأسرة العامريين ما بين سنوات ٣٩٢ هـ و٣٩٩هـ.[١٧]

عيسى بن سعيد اليحصبي:

المعروف بابن القطاع (...- ٣٩٧هـ). كان قيّم دولة ابن أبي عامر والمتصرّف في شؤونها أصله من قوم يُعرفون ببني الجزيري.[١٨]

عبد الرحمن بن المنصور الملقّب بِ"شَنْجُول":

هو حاجب الخليفة هشام بن الحَكَم بقرطبة وآخر الأمراء العامريين توفي سنة ٣٩٩هـ.[١٩]

محمد بن هشام عبد الجبّار:

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



هو أبو الوليد ولي الخلافة في سنة ٣٩٩هـ وبقي بها سبعة عشر شهرًا، حتى قتله العبيد مع واضِحٍ الصّقلبي وتولى بعده المستعين بن الحَكَم.(٢٠)

مبارَك ومظفّر العامريان:

قيل: إنّهما "كانا عبدَيْ مهنة، وأميرَيْ فتنة، قلّ النّاس فكثروا، وخلاَ لهم الجوّ فباضُوا وأصْفَروا وغاظوا الجماعة بقرطبة مدّة أيامهم وداسوا أحساب الأمراء بأقدامهم، مستمتعين بدنياهم، غافلين عن عبادة الله فيمن جرى مجراهم".(٢١)

خَيران العامري:

هو مولى المنصور بن أبي عامر وأمير داهية. له حروب ووقائع أيام المؤيّد و المُرتضى الأمويين بالأندلس، ثم مع ملوك الطوائف توفي سنة ٤١٩هـ(٢٢)

زهير الفتى العامري:

هو فتى المنصور بن أبي عامر و أمير عصاميّ صقلبي الأصل، من الدّهاة في عهد ملوك الطوائف بالأندلس، كان من رجال خيران الصّقلبي صاحب المريّة وولِيها بعد وفاة خيران سنة ٤١٩هـ حتى وفاته سنة ٤٢٩هـ.(٢٣)

مجاهد العامري:

هو أبو الجيش مُجاهِد بن عبد الله بن يوسف العامري الموفّق، رومي الأصل، ولد بقرطبة وربّاه المنصور بن أبي عامر مع مولِيه، فنسبه إليه. وهو من ملوك الطوائف بالأندلس بعد انقراض الدولة الأموية أسّس الدولة العامرية في دانية وميورقة وأطرافهما، ودام حكمه عليها من سنة ٤٠٣هـ إلى سنة ٤٣٦هـ وكان يتحلّى بشجاعة وإقدام نادرين وعلى جانب من الثقافة الأدبية والعلوم العربية. كما ضمّ بلاطه المشاهير من العلماء أمثال أبي عمرو الدّاني (ت٤٤٤هـ) اللغوي وابن سيده (ت٤٥٨هـ) وانتشر العلم في حضرته حتى فشا في جواريه وغلمانه.

ثالثًا: المدن (الدويلات) ذات الصلة

اشبيلية:

مدينة بالأندلس قديمة جليلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيّام ومن الأميال ثمانون يذكر أهل العلم أنّ أصل تسميتها اشبالي ومعناه "المدينة المنبسطة. واشبيلية مدينة كبيرة عامرة لها أسوار حصينة وسوقها عامرة وخلقها كبير وأهلها مياسير، وجلّ تجارتهم الزيت يتجهزون به إلى المشرق والمغرب برًّا وبحرًا. لها سور من بناء الإمام عبد الرحمن بن الحكم، بناه بعد غلبة المجوس عليها بالحجر فأحكم بناءه، وجامعها من بنائه كذلك؛ ويطلّ على اشبيلية جبل الشرف، وهو شريف البقعة كريم التربة دائم الخضرة. سقطت المدينة في يد عدوّها سنة ٦٤٦هـ.(٢٤)

بَلَنْسِيّة:

مدينة في شرق الأندلس بينها وبين قرطبة على طريق بجانَة ستة عشر يومًا وعلى الجَادّة ثلاثة عشر يومًا، وهي مدينة سهلية وقاعدة من قواعد الأندلس في مستو من الأرض، عامرة القطر كثيرة التجارات وبها أسواق وحطّ وإقلاع وبينها وبين البحر ثلاثة أميال، وهي على نهر جارٍ ينتفع به ويسقي المزارع وعليه بساتين وجنات وعمارات متّصلة وسُفن، وسورها مبني بالحجر والطوابي، ولها أربعة أبواب، ولأهلها حسن زَيّ وكرم طباع والغالب عليهم طيب النّفوس والميل إلى الرّاحات، وهي من أكثر الأمور راخية الأسعار كثيرة الفواكه والثّمار جامعة لخيرات البرّ والبحر، ولها أقاليم كثيرة، وهي الجزء الرّابع من قسمة قسطنطين. تغلّب عليها الرّوم قديمًا ثمّ أحرقوها عند خروجهم منها سنة ٤٩٥هـ؛ ثمّ ملكوها صُلحًا سنة ٦٣٦هـ فاستولى عليها ملك أرغون جاقه، فأكْثَر أدباؤها بكاءَها والتأسّف عليها نَظمًا ونثْرًا.(٢٥)

بيَّاسة:

هي مدينة عامرة بالأندلس، بينها وبين جِيّان عشرون ميلاً، وهي على كدية من تراب مطلّة على النّهر الكبير المنحدر إلى قرطبة، وهي مدينة عامرة، ذات أسوار وأسواق وحولها زراعات، ومستغلات الزّعفران بها كبيرة. كان صاحبها إذ ذاك عبد الله بن محمد بن عمر بن عبد المؤمن الذي أدخل الرّوم بياسة والمسلمون معهم في سائر المدينة. وكان أنْ تغيّر له عبد الله بن العادل بن المنصور صاحب إشبيلية فخافه، فخرج إلى بيّاسة فدخلها وكلّم أهلها لمساعدته وامتناعه بهم إلى أن يأخذ لنفسه الأمان، فساعدوه على مراده ومنعوه ممن رامه، فردّ وروم طليطلة -الذين كانوا أولياء لصاحب بيّاسة وأنصارًا له- زحف جيش عبد الله بن العادل الذي قدّم عليه عثمان بن أبي حفص. وبقي صاحب بياسة ببلده لا يرومه أحد إلى أن تملّك قرطبة (قاعدة الأندلس وأمّ مدائنها ومستقر خلافة الأمويين بها، سقطت في أيدي النصارة سنة ٦٣٣هـ)، ومالقة (مدينة أندلسية على شاطئ البحر، عليها سور صخر والبحر في قبلها. ذكرها الأوّل في كتبهم فقالوا: مدينة مالقة، لا بأس عليها ولا فَرَق، آمنة من جوع وسَبْي ودم، مكتوب ذلك في العلم إلي يكتب. نشأت فيها الفتنة في آخر أيّام الملثّمين وقد زال سلطانهم سنة٥٣٩هـ وصدرا من دولة الموحّدين بقيام أبي الحكم الحسين بن الحسين قاضي مالقة فيها، فمزقوا في البلاد كلّ ممزّق) وغيرهما، وكاد يستولي على الأمر لو ساعده القدر. أوقع بأهل إشبيلية بفحص القصر سنة ٦٢٢هـ وقتل منهم نحو ألفي رجل وانصرف منها مكسورا مفلولاً ثار به أهل قرطبة، إذ وهزموا وهو مقيم بها أنّه يريد إدخال النصارى مدينتهم، فخرج منها فارّ إلى الحصن المدوّر، فأقام هناك وبقيت بياسة بيد الرّوم فلم يقدّر الله لهم أن يسترجعوها منهم رغم استنجادهم بصاحب جان عمر بن عيسى بن أبي حفص بن يحي إلى سير إليها حشودًا استعصت عليها القصبة لحصانتها، فلم يكن لأهل بيّاسة من المسلمين بدٌّ من فراق بلدهم والخروج على نعمتهم، وبقي الروم في جميع المدينة وملكوها عن آخرها سنة ٦٢٣هـ ومن أهل بيّاسة الأديب التاريخي أبو الحجّاج يوسف بن إبراهيم البيّاسي، مصنّف كتاب "الإعلام بحروب الإسلام".(٢٦)

دانِيّة:

بفتح الدّال المهملة، وبعد الألف نون مكسورة، ثم ياء مثنّاة من تحتها مفتوحة وبعدها هاء ساكنة. وهي مدينة بشرق الأندلس على البحر عامرة، لها ربض عامر وعليها سور حصين بني من ناحية الشرق داخل البحر بهندسة وحكمة، ولها قصبة منيعة جدًّا، وهي على عمارة متّصلة وشجر تين كثيرة وكُروم، والسّفن واردة عليها صادرة عنها، ومنها كان يخرج الأسطول إلى الغزو، وبها ينشأ أكثره لأنّها دار إنشائه، وفي الجنوب منها جبل عظيم مستدير تظهر من أعلاه جبال يابسة في البحر. ومن دانية أبو عمرو الدّاني المقرئ المعروف بابن الصّيرفي المتوفى بها سنة٤٤٤هـ.(٢٧)

دولة بني هود:

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



مؤسس هذه الدولة المنذر بن يحي التجِيبي (٤٠٨هـ - ٤١٤هـ).[٢٨]

دولة ذي النّون:

مؤسس هذه الدولة إسماعيل بن ذي النّون الظّافر(٤٢٧هـ-٤٣٥هـ)[٢٩]

سَرَقُسْطَة:

مدينة بشرق الأندلس، أكثر مدن الأندلس ثمرة لكثرة فواكهها حتّى لا يقوم ثمنها بمؤونة نقلها لرخصها فيتخذونها سرجينًا يدمنون به أرضهم. وممّا خصّت به كذلك معدن الملح الدَّراني الذي لا يوجد مثله في مكان ولا يعدل به وتعرف بالبيضاء؛ لأن أسوارها القديمة من حجر الرّخام الأبيض. وهي قاعدة كبيرة القطر آهلة ممتدّة عامرة؛ وهي على ضفّة نهر كبير يأتي بعضه من بلاد الرّوم من جبال قلعة أيّوب ومن غيرها فتتجمّع هذه الأنهار كلّها فوق مدينة تطيلة، ثمّ ينصبّ إلى مدينة سَرَقُسْطة لكثرة جصّها وجيارها، ومن خواصّها أنها لا تدخلها حيّة البتة وإن جُلبَت إليها ماتت. واسمها مشتق من اسم قيصر وهو الذي بناها. وتفسير اسمها باللسان اللتيني "جاجر أغشت(Gaesarea Augusta)، وذكر أنها بنيت على مثال الصليب، وجعل لها أربعة أبواب. وكان الذي بنى المسجد الجامع بها ووضع محرابه حنش بن عبد الله الصنعاني وهو من جلدة التابعين ودفن بمقبرة القبلة.. من أعلام سرقسطة قاسم بن ثابت صاحب "الدلائل" (ت ٣٠٢هـ) بلغ فيه الغاية في الإتقان ومات قبل أن يكمله فأكمله ثابت بعده. أخذ النصارى سرقسطة من أيدي المسلمين سنة ٥٠٢هـ بعد أن حاصروها أشهرًا.[٣٠]

شاطبة:

مدينة أندلسية جليلة متقنة حصينة لها قصبتان ممتنعتان، وهي كريمة الثّمرة عظيمة الفائدة طيبة الهواء، وهي قريبة من جزيرة شُقَر، وكان يعمل بها كاغد لا نظير له بمعمور الأرض يعمُّ المشرق والمغرب. وهي حاضرة آهلة بها جامع ومساجد وأسواق وألف فندق إلاّ ثلاثين فندقًا، وقد أحاط بها الوادي. وفيها بنيان قديم من عمل الأُوَل يقولون له الصّنم.[٣١]

طليطلة:

مدينة عظيمة القطر كثيرة البشر على ضفّة النّهر الكبير، وهي دار مملكة الرّوم حين دخلها طارق بن زيّاد فوجد فيها ذخائر كادت تفوت الوصف منها: مائدة سليمان بن داود عليهما السلام، وتيجان ذهب، وحجارة ثمينة، وسيوف مجوهرة، وأواني الفضّة والذهب وهي مركز لجميع بلاد الأندلس؛ لأن منها إلى قرطبة تسع مراحل، ومنها إلى بلنسية تسع مراحل أيضًا، ومنها إلى المريّة في البحر الشامي تسع مراحل أيضًا. بينها وبين البُرج المعروف بوادي الحجارة خمس وستّون ميلاً. وكان أخذ النصارى لطليطلة سنة ٤٧٨هـ.[٣٢]

المَرِيّة:

هي مدينة أندلسية محدثة أمر ببنائها الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد سنة ٣٤٤هـ، وهي من أشهر الرّواسي الأندلسية وأعمرها وعليها سور حصين بناه أمير المؤمنين عبد الرحمن، وعلى ربضها المعروف بالمصلّى سور بناه خيران العامري، وكان قد أوصل إلى هذا الربض ماء العيْن التي هناك، وأجراها في سقاية،ثمّ أوصله محمد بن صمادح إلى سقاية عند جامعها داخل المدينة، واستطرد منه جدولاً يصبّ أسفل القصبة ويرفع بالدواليب إلى أعلاه، ووادي بجانة يعمّ بالسقي بساتين المرية، والبحر بقبلها وقصبتها بجوفهِا، وهو حصنٌ منيع لا يُرام، مديد من المشرق إلى المغرب.كانت المرية في أيّام الملثّمين مدينة الإسلام، وبها من كلّ الصناعات كلّ غريبة، وكان بها من طرز الحرير ثمانمائة طراز، وتعمل بها الحُلَل والدّيباج والسقلاطون والأصبهاني والجرجاني والسّتُور المكلّلة والثّياب المعينة والعتابي والمعاجر وصنوف أنواع الحرير.كما كانت تصنع بها فيما تقدّم صنوف آلات النّحاس والحديد ما لا يحد، وكان بها من فواكه واديها الكثير الرخيص، تقصدها مراكب التجّار من الإسكندرية والشّام، ولم يكن بالأندلس أكثر من أهلها مالاً.ملكها الرّوم فغيّروا محاسنها وسبوا أهلها وخربوا ديّارها.[٣٣]

ميورقة:

هي جزيرة في البحر الزقاقي،تسامتها من القبلة بجاية من برّ العُدوة، بينهما ثلاثة مجارٍ، ومن الجَوْف برشلونة من بلاد أرغون، وبينهما مجرى واحد، ومن الشرق إحدى جزيرتها مرنقة، وبينهما مجرى في لبحر طوله أربعون ميلاً، وشرقي ميورقة هذه جزيرة سردانية، وغربيها جزيرة يابسة، وغربي يابسة مدينة دانية من برّ الأندلس. وميورقة أمّ هتيْن الجزيرتيْن وهما بنْتاها، وإليها مع الأيّام خراجهما. وطول ميورقة من الغرب إلى الشرق سبعون ميلاً، وعرضها من القبلة إلى الجوف خمسون ميلاً. فتحها المسلمون سنة ٢٩٠هـ إلى أن تغلّب عليها العدوّ البرشلوني وخرّبها سنة ٥٠٨هـ ثمّ خرج منها فاختلف عليها ولاّة ابن تاشفين، ثمّ وليها أوذل ولاّة بني غانية: محمد بن علي بن غانية المسّوفي إلى أن كان آخرهم عبد الله بن إسحاق. وتمادت ميورقة على امتناعها إلى أن توفّي المنصور سنة ٥٩٥هـ وولي ابنه الملك النّاصر، ولم تزل ولاته تختلف عليها إلى أن كانت المصيبة بسقوطها نهائيًا على يد الطّاغية البرشلوني سنة ٦٢٧هـ.[٣٤]

خاتمة

لقد بات من المؤكد أن الطوبونيميا ليست فقط علمًا يهتم بدراسة وتحليل الطوبونيمَات، أو أسماء الأماكن وعلاقتها بمستخدميها، واستخراج مضامينها ودلالاتها المختلفة ورموزها المشحونة بشتى الدلالات والمعاني، بل هي كغيرها من العلوم لا تخلو من بعض الاستئناس التاريخي والدفء الإيديولوجي أو التأويل الذي يتوسّل بالمرامي الخاصة بالمنظور السياسي البعيد المدى من قبيل الوقوف على موروثنا التاريخي السليب في أبعاده الإيجابية والسّلبية.

الهوامش:

— (1) **Le Dictionnaire du Français avec phonétique et étymologie**. (édition) Algérienne ENAG –Hachette- 1992, P.1643.

(٢) سيدي محمد الغوثي بن سنوسي: "**المواقعية والعلوم الأخرى**"، ورقة عمل مقدمة إلى اليوم الدراسي الوطني حول "الطوبونيمية ونظم المعلومات"، مختبر المعالجة الآلية للغة العربية بجامعة تلمسان،أولاد ميمون بتاريخ ٢٠١٠/٠٧/٠٨، ص٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥ - ٦.

(٤) أبو سعيد علي بن موسى المغربي: **المغرب في حلى المغرب**،١٩٤/١ ومحمد مختار العبادي: **في تاريخ المغرب والأندلس**، ٢٤٢ - ٢٨٤ وخير الدين الزركلي: **الأعلام**، ٩/٧.

(٥) أبو سعيد علي بن موسى المغربي: **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة : دار المعارف،١٩٥٣م، ٢٠٨/١.

(٦) أبو الحسن علي بن بسام: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٠٢/١-١٠٣. وأبو العباس بن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب**،٣/ ٢٧- ٣٧ وأبو سعيد علي بن موسى المغربي: **المغرب في حلى المغرب**، ٢٠٨/١ وخير الدين الزركلي: ٢٨٦/٥.

(٧) أبو العباس بن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، باريس: نشر إ.لافي بروفنسال، ١٩٣٠، ٣/ ٣٩. وأبو سعيد علي بن موسى المغربي: **المغرب في حلى المغرب**، ٢٠٨/١ ومحمد عبد الله عنان: **الدولة العامرية**، ط١، مصر، ١٩٥٨، ص١٢٠.

(٨) أبو سعيد علي بن موسى المغربي: **المغرب في حلى المغرب**، ٢٠٨/١ ومحمد عبد الله عنان: **الدولة العامرية**، ص ١٣١ - ١٣٤.

(٩) أبو العباس بن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، ١٣٧/٣ وأبو سعيد علي بن موسى المغربي: **المغرب في حلى المغرب**، ٢٠٨/١ ومحمد مختار العبادي: **في تاريخ المغرب والأندلس**، الإسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية، ص ٢٦٩.

(١٠) محمد عبد الله عنان: **الدولة العامرية**، ص١٣١- ١٣٤.

(١١) أبو العباس بن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، ٣/ ١٥٥- ١٥٦.

(١٢) أبو العباس بن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، ٣/ ٥٠ وأبو سعيد علي بن موسى المغربي: **المغرب في حلى المغرب**، ١٨٨/١- ١٩١ وخير الدين الزركلي: **الأعلام**، ٣٠٧/٧.

(١٣) أبو العباس بن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، ٣/ ١٥٨- ١٦٩ ورضوان الداية: **في تاريخ المغرب والأندلس**، ط٢: مؤسسة الرسالة، ١٩٨١/١٤٠١، ص ٣٧٦ – ٣٧٧. وخير الدين الزركلي: **الأعلام**، ٣٧٢/٢ و٣/ ٨٦ و١١٦/٦.

(١٤) محمد عبد الله عنان، **دول الطوائف**، ط١: مطبعة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٠، ص ٢٠. ومحمد مختار العبادي: تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٧٣ - ٣٣٣.

(١٥) ألبير حبيب مطلق: **الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف**، صيدا: المكتبة العصرية،١٩٦٧، ص ٢٠٩.

(١٦) أبو سعيد علي بن موسى المغربي: **المغرب في حلى المغرب**،١٩٤/١ ومحمد مختار العبادي: **تاريخ المغرب والأندلس**، ص ٢٤٢ - ٢٨٤ وخير الدين الزركلي: **الأعلام**، ٩/٧.

(١٧) أبو العباس بن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، ٣/ ٣ أبو سعيد علي بن موسى المغربي: **المغرب في حلى المغرب**،٢٠٧/١- ٢٠٨ وخير الدين الزركلي: **الأعلام**، ٤/ ٣٠٩.

(١٨) أبو الحسن علي بن بسام: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، ص١٠٢-١٠٣ وأبو العباس بن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب**،٢٠٨/١ وخير الدين الزركلي: **الأعلام**، ٢٨٦/٥.

(١٩) أبو العباس بن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، ٤/٣ وأبو سعيد علي بن موسى المغربي: **المغرب في حلى المغرب**، ٢٠٨/١.

(٢٠) أبو العباس بن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، ٥٠/٣. وخير الدين الزركلي: **الأعلام**، ٣٠٦/٧.

(٢١) أبو العباس بن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، ١٦٦/٣.

(٢٢) المرجع نفسه، ١٦٦/٣. وخير الدين الزركلي: **الأعلام**، ٣٧٢/٢.

(٢٣) أبو العباس بن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب**،١٦٦/٣- ١٦٩. وخير الدين الزركلي: **الأعلام**، ١١٦/٦.

(٢٤) محمد بن عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس ،ط٢: مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨٠، ص ٥٨ - ٦٠.

(٢٥) المرجع السابق، ص ٩٧. وياقوت الحموي، **معجم البلدان**، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، دار صادر للطباعة والنشر، ١٩٥٧ ، ٤٩/١.

(٢٦) محمد بن عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص١٢١- ١٢٢ ، ٤٥٦-٤٥٩ ، ٥١٧-٥١٨.

(٢٧) أبو العباس محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر،١٩٣٩، ١٨/٣. ومحمد بن عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص٢٣١ - ٢٣٢.

(٢٨) محمد عبد الله عنان: دول الطوائف، ص ٢٤٥.

(٢٩) المرجع نفسه، ص ٩٣.

(٣٠) محمد بن عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص٣١٧.

(٣١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٣٠٩/٣ ومحمد بن عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص٣٣٧.

(٣٢) محمد بن عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص ٣٩٣ - ٣٩٥.

(٣٣) ياقوت لحموي، **معجم البلدان**، ١١٩/٥ ومحمد بن عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص٥٣٧ - ٥٣٨.

(٣٤) محمد بن عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص٥٦٧ - ٥٦٨.

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية



الشُّطَّار والعَيَّارين في الدولة العبَّاسية



حسين حمد حسين الفقيه

ماجستير في التاريخ الإسلامي

كلية الآداب – جامعة قاريونس

بنغازي – ليبيا

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حسين حمد حسين الفقيه، الشُّطَّار والعَيَّارين في الدولة العبَّاسية.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ١١٦ - ١٢١.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢



ملخص

حفل الأدب الشعبي الشفهي والمدون بالكثير من الأخبار والأحاديث، والحكايات، والأشعار عن تلك الفئة من المتمردين الشعبيين المعروفين بالشُّطَّار والعَيَّارين، حيث شاعت تسميتهم علي هذا النحو في التراث العربي. ويتناول المقال سيرة هؤلاء المتمردين من الشُّطَّار والعَيَّارين في الدولة العبَّاسية، وظهور أول ذكر لهم فيما بين أواخر القرن الثاني الهجري، وأواخر القرن السابع الميلادي، ثم ظهور حركة المتطوعة ضد الشُّطَّار والعَيَّارين، وتطور حركة الشُّطَّار والعَيَّارين في عصر الخلفاء العظام، وفي عصر النفوذ الأجنبي، وفي العصر السلجوقي.

مُقدِّمة: التعريف بالشُّطَّار والعَيَّارين

الشَّاطِرُ: هو الشخص الذي أعيا أهله خبثاً، وقد شَطَرَ يَشطُرُ شَطَارَةً وشَطَرَ أيضاً من باب الظُرف،[١] والعَيَّارُ، كَشَدَّادٍ، وهو الرجل الكثير المجيء والذهاب في الأرض، وقيل: هو الذكي الكثير التطواف والحركة، وقال ابن الأعرابي: والعرب تمدحُ بالعيار وتذم به، ويقال: غُلامٌ عيَّارٌ، نشيط في المعاصي، وغلام عَيَّارٌ: نشيطٌ في طاعة الله عَزَّ وجَلَّ. وربما سمي الأسد بالعَيَّارِ لتردده ومجيئه وذهابه في طلب الصيد، وقال أوس بن حجر:

لَيثٌ عليه من البَرْدِيِّ هِبْرِيَّةٌ ... كالمَزْبُراني عَيَّارٌ بأَوْصَالِ

وقال ابن بَرِّي: أي يذهب بأوصال الرجال إلى أَجَمَتِهِ، وروى باللام عَيَّالٌ وهو المذكور في موضعه، وأنشد الجواهري:

لَمَّا رأيتُ أبا عمرو رَزَمْتُ لَهُ ... مني كما رَزَمَ العَيَّارُ في الغُرُفِ[٢]

وقيل هو الماهر المجتهد وهو من يجرح الثياب ويشطُرُها ليأخذ منها المال، فهو اللص أو قاطع الطريق.[٣] نستنتج من ذلك؛ أن الشَّاطر هو الذي شَطَرَ على أهله وانفصل عنهم وتركهم مُراغِماً أو مخالفاً وأعياهم خبثاً ومكراً، وقول الناس فلان شَاطِرٌ معناه أنه أخذ في غير الاستواء، وقيل له شاطر لأنه تباعد عن الاستواء، ونستنتج من ذلك أن لفظ العيار نعتُ للرجل الفتي السن النشيط في المعاصي أو في طاعة الله أو الذي يضارع الأسد شجاعة وجرأة وجسارة وإقداماً، وهو بذلك المعنى الاصطلاحي دخل التاريخ السياسي والاجتماعي والديني في الإسلام، ولذلك فإن معاصي الشطار والعيارين التي ألمعت إليها المعاجم اللغوية وأثبتتها المصادر التاريخية والأدبية تنحصر في التفنن في السرقة وقطع الطريق أي في التلصص القائم على الفتوة كأسلوب عنيف لمقاومة القهر الاجتماعي والسياسي بالقوة وبقيت لهم مع ذلك أخلاق الفتيان والفرسان من المروءة والشهامة والشجاعة والنجدة والجود، وحفظ الجوار والصبر على الأذى مهما بلغت شدته.[٤]

والشُّطَّار والعَيَّارين هُم عبارة عن تكتل اجتماعي ظهر في نهاية القرن الثاني للهجرة، وبدا واضحًا منذ أحداث الصراع بين الخليفتين الأمين والمأمون، واستمر هذا الأثر يتصاعد في فترات الضعف السياسي، حتى شكل هؤلاء جزءً مهماً من الأحداث التاريخية لمدينة بغداد ، في العصر العباسي امتد إلى القرن السادس

للهجرة ، فاختلف المؤرخين في مواقفهم من العيارين فمنهم من وصفهم باللصوصية مستندًا إلى أحداث السرقة والحرائق والفتن التي سببوها، وآخرين يجدونهم طائفة ظهرت بسبب التباين الاقتصادي وأن حركتهم موجهة ضد التجار وأهل اليسار.(٥)

والقصد أن العيارين وإخوانهم الشُّطَّار صَعاليك من جهة، ودراويش من جهة أخرى، والصَّعاليك كلمة عربية أصلها صُعلوك، وهو الفقير المُغِيْرُ الفاتك، وقد اختصَّ بكلمة الصَّعاليك ذؤبان العرب ولصوصها في الجاهلية ومن هؤلاء الخُلعاء والأغربة والفقراء وغيرهم، وانسلخت كلمة شاطر عن معناها الاصطلاحي كصعلوك أو درويش وأصبحت تُطلق في مجال الإعجاب والإطراء.(٦)

ظهور الشُطَار والعيَــارين

ظهر أول ذكر لهم فيما بين أواخر القرن الثاني الهجري، وأواخر القرن السابع الميلادي، في فارس والعراق، ثم بعد ذلك في شمال الأردن، وعلى غرارهم نهجت الأحداث بالشام والراندان بالأناضول، ثم تلاهم الحرافيش والزعار والعُيَّاق والفتوات بمصر، وأول ذكر للشطار والعيارين في المصادر العربية؛ يقع في حوادث شهر ذي الحجة سنة (١٩٦ هـ / ٨١٢ م) أثناء حصار أبي الطيب طاهر بن الحسين بن مصعب الخراساني، لبغداد بأمر من أبي العباس عبد الله المأمون ابن أبي جعفر هارون الرشيد، المشاقق لأخيه الخليفة أبي موسى محمد الأمين، وآخر ذكر لهم يقع في خلافة المستعصم بالله أبي أحمد عبد الله (٦٤٠ هـ/ ١٢٤٢م) خاتم خلفاء بني العباس ببغداد.(٧)

وقد جرى ظهور الشُّطَّار والعَيَّارين على المسرح السياسي، عندما تحطَّمت الجيوش النظامية للأمين أمام جيوش أخيه المأمون بقيادة طاهر بن الحسين الخراساني.(٨) وكان الأمين قد استعان في حروبه بالشُّطَّار والعَيَّارين الذين أطلقهم من سجون بغداد، ليدافعوا عن مدينتهم وخليفتهم، وتكَوَّنَ له بذلك جيشاً بلغ المائة ألف، وقد وُصِفَ هذا الجيش بأنه من الرِّعاعُ، وإن كان يبدو أنه تم تدريبه وتنظيمه في فترة قياسية بحيث صار يشبه الجيش النظامي، فقد كان على كل عشرة منهم عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، وكان هؤلاء القوم يحاربون وهم عراة، وقد شدوا أوساطهم بالتبابين والزنانير، واتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص وسموها الخوذ، ودرقاً من الخوص والبواري قد قُيِّرَتْ وحُشيت بالرمل والحصى، وقد جعلوا في أعناقهم الجلال والصوف الأحمر والأصفر.(٩) وهم في تركيبة الجيش العباسي، يُطلق عليهم تسمية أخرى، وهي رُماة الأحجار من المخالي،(١٠) وقد ذكرهم ابن الأثير في حوادث سنة (١٩٧هـ/ ٨١٢م) حيث قال: "وذلَّ الأجناد – يعني جند الأمين – وضعفوا عن القتال إلا باعة الطريق، والعراة، وأهل السجون والأوباش والطراربن وأهل السوق، فكانوا ينهبون أموال الناس".(١١)

وكانت تلك الحرب إيذانًا بخراب بغداد التي لم تُصب بحرب – منذ أنشأها المنصور – بأسوأ منها، فقد دارت المعارك بين العُراة، وجند المأمون، ولم تُحسم المعركة إلا بعد أربعة أشهر من الحصار، مما يدل على صلابة وقوة هؤلاء العراة، وأنهم خاضوا حربًا حقيقية كانت تدور من شارع إلى شارع، ومن بيت إلى بيت، حتى سُميت هذه الوقعات باسم الدروب.(١٢) واشتدت تلك الحرب الأهلية وكثُر القتل في الشوارع، يُنادي هذا للأمين وينادي الآخر للمأمون، ويقتل بعضهم بعضًا، وانتُهِبَتِ الدُّور وخُرِّبَتِ بغداد من كلا الجانبين المتقاتلين، فقد تسابق كلا الفريقين إلى النهب مرة بأمر طاهر، ومرة بأمر القائد حاتم بن الصقر.(١٣)

وتجدر الإشارة إلى؛ أن قادة المأمون قد شهدوا لهؤلاء العراة بالبسالة في القتال والبطولة، ويتبين ذلك من خلال رواية الطبري عن أحد القادة الذين كانوا مع طاهر: "وما عسى أن يبلغ كيد من أرى من هؤلاء ولا سلاح معهم ولا جُنَّة تقيهم، فأوتر قوسه وتقدم، وأبصره بعضهم فقصد نحوه وفي يده بارية مُقَيَّرةٌ، وتحت أبطه مخلاة فيها حجارة، فجعل الخراساني كلما رمى بسهم استتر منه العَيَّارُ، فوقع في باريته أو قريباً منه، فيأخذه فيجعله في موضع من باريته، قد هيأه لذلك، وجعله شبيهاً بالجُعبة، وجعل كلما وقع سهم أخذه وصاح: دانق – أي ثمن النشابة دانق قد أحرزهُ – ولم يزل تلك حالة الخراساني وحال العيار حتى أنفذ الخراساني سهامه، ثم حمل على العَيَّارُ ليضربه بسيفه، فأخرج من مخلاته حجرًا، فجعله في مقلاع ورماه فما أخطأ عينه، ثم ثناه بآخر، فكاد يصرعه عن فرسه لولا تحاميه، وكَرَّ راجعًا وهو يقول: "ليس هؤلاء بإنس، قال: فحُدِّثْتُ أن طاهرًا حُدِّثَ بحديثه فاستضحك وأعفى الخراساني من الخروج إلى الحرب".(١٤)

وقد ذكر الشعراء هذه الشجاعة التي تميز بها هؤلاء الشُّطَّار، وفي ذلك يقول الشاعر أبو يعقوب الخريمي:

أخرجت الحرب من سواقطها ... آساد غِيلٍ غُلباً تُساورها
من البواري تراسها ومن الخوص ... إذا استلأمت مغافرها(١٥)

وقال آخر:

خَرَّجَتْ هذه الحروب رجالاً ... لا لقحطان لا ولا لنزار
معشر في جواشن الصُّوف يغدون ... إلى الحرب كالليوث الضواري
ليسوا يدرون ما الفرار إذا ما ... الأبطال عاذوا من القنا بفرار(١٦)

هذا وقد رمى طاهر بن الحسين الخراساني، بالسهم الأخير في جعبته ليحسم المعارك لصالح المأمون، فقطع عنهم مواد الأقوات وغيرها من البصرة وواسط وغيرها من الطرق فَغَلَتِ الأسعار في معسكر الأمين وقَلَّتِ الأقوات وضاقت النفوس واشتد الجوع، ورغم ذلك حارب العراة بشجاعة فائقة، حتى أن القتل كان أكثر في أصحاب طاهر وحاول الأمين وقد اشتد به الحال والحصار أن يفي بالتزامات هؤلاء العراة، فأمر بجباية الأموال من الأغنياء والتجار مما دفع هؤلاء للخيانة ومكاتبة طاهر، ورغم أن العراة خسروا في إحدى المعارك نحو عشرة آلاف إلا أنهم كانوا يقاتلون بشجاعة منقطعة النظير.(١٧)

ISSN: 2090 – 0449



وامتلك الشُّطَّار والعَيَّارين، قدرات مثالية عالية، أسهمت في تحقيق الانتصارات على جيوش المأمون، رغم أنهم لا يملكون أي طموح نحو الاستيلاء على الوزارة أو السلطة، ويبدو أن فكرة الدفاع عن بغداد ضد الهجوم الأجنبي الخراساني، كانت الوسيلة التحريضية التي اعتمدها الأمين، من أجل استغلال الإمكانيات البشرية والدفاعية التي يتمتع بها الشطار والعيارين.[١٨]

ظهور حركة المتطوعة ضد الشُطَار والعيَــارين

كانت بغداد خالية من جيش قوي يأخذ على أيدي المفسدين من أهلها، فنتج عن ذلك الفساد الشديد، ففساق الحربية والشطار الذين كانوا بها وبالكرخ آذوا الناس أذىً شديداً وأظهروا الفسق وقطع الطريق، فأخذوا الغلمان والنساء علانية من الطريق، وكانوا يسألون الرجل أن يُقرضهم أو يصلهم فلا يقدر على الامتناع، وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال، وغير ذلك، ولا سلطان يمنعهم لأن السلطان كان يعتز بهم وكانوا بطانته، فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يرتكبونه، وكانوا يجبون المارَّةُ في الطريق والسفن ويخفرون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا أحد يعدو عليهم.[١٩] أما الفقراء وذووا الحاجات فقد ضاقت عليهم بغداد بما رحبت، ولم يعودوا يستطيعون العيش فيها.[٢٠]

ورأى الناس شِـدَّة هذا البلاء وضَعُفَ السلطان عن حمايتهم، فقام صُلحاء كل رِبض وكل درب، فمشى بعضهم إلى بعض، وقالوا: إنما في الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة وقد غلبوكم، وأنتم أكثر منهم، فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحداً لقمعتم هؤلاء الفساق.[٢١] يقول الطبري: "فقام رجل من ناحية طريق الأنبار يقال له خالد بن دريوش، فدعا جيرانه وأهل بيته وأهل محلته على أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابوه إلى ذلك".[٢٢] وشدَّ خالد بن دريوش على من يليه من الفساق والشطار، فمنعهم مما كانوا يصنعونه، فامتنعوا عليه فقاتلهم وهزمهم، وأخذ بعضهم فضربهم وحبسهم ورفعهم إلى السلطان، وكان يطالب بالإصلاح في حدود الطاعة للدولة ولكنه لا يثور على السلطان.[٢٣]

ثم قام من بعده رجل آخر، اسمه سهل بن سلامة الأنصاري، فدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلَّق مصحفاً في عنقه ثم طاف ببغداد وأسواقها وأرباضها ودروبها وطرقها، ومنع كل من يخفر أو يجبي المارة وقال: لا خفارة في الإسلام، والخفارة أن يأتي الرجل بعض أصحاب البساتين، فيقول له: بستانك في خفري أدفع عنه من أراده بسوء، ولي في عنقك كل شهر كذا وكذا، وإذا كان مقصد الدريوش معاونة السلطان، فإن سهل كان ذا أطماع حيث قال: "إني أقاتل من خالف الكتاب والسنة سلطاناً كان أو سوقة، فكثرت أتباعه حتى خافه السلطان والولاة".[٢٤] وبعد القضاء على هذه الحركات المتمردة من قبل الشطار والعيارين، لم تقم لهم قائمة إلا في وقت متأخر حيث استجمعوا قواهم وجندوا جهودهم، وعادوا للظهور مرة ثانية عندما رأوا الأمور لا تسير وفق صالح الطبقات الفقيرة.[٢٥]

تطور حركة الشطار والعيارين

أولاً: في عصر الخلفاء العظام

ترجع البدايات الأولى لظهور الشُّطار والعيارين إلى أيام الخليفتين المهدي (١٥٨هـ – ١٦٩هـ) وهارون الرشيد (١٧٠ هـ - ١٩٣ هـ)، حيث الإشارة إليهم باسم الصَّعاليك والدُعَّار والنص على انتشارهم ببلاد الجبل (عراق العجم) التي كانت تموج آنذاك بجماعات الخُرَّمية المُحَمِّرة، ولكف عادية الصعاليك والدُعَّار بنى المهدي مدينة (سيسر) بتخوم همذان على يدي سلمان بن قيراط وسلام الطيفوري، ولما شعث الصعاليك عمارتها في خلافة الرشيد أعاد بنائها وتحصينها.[٢٦]

ورغم كثرة الصَّعاليك والعيارين في عصر الرشيد، إلا أنهم كانوا لا يشكلون مصدر خطر يهدد سلطة الدولة، وإذا كان المهدي والرشيد قد تمكنا من الحد من امتداد موجة العِيارة والشَّطارة إلى بغداد، فإن الأمين سمح بذلك،[٢٧] ولما حاول ابن عائشة – وهو من أنصار عم المأمون إبراهيم بن المهدي – تدبير مؤامرة في سنة (٢١٠هـ/ ٨٢٥ م) ترمي إلى خلع المأمون وإعادة عمه للخلافة، اكتشف تلك المؤامرة وأحبطها، وألقى بمدبرها في غياهب سجن المطبق، وكان من بينهم رجلان من الشطار، يقال لأحدهم (أبو مسمار) والآخر (عمار)، وفي عصر المعتصم وإلى آخر العصر العباسي الأول، لا نسمع شيئاً عن الشطار والعيارين، مما يوحي بتماسك الدولة وثبات سلطتها.[٢٨]

ثانيًا: في عصر النفوذ الأجنبي

وتوالت الأحداث والفتن التي سببها العيارين في ظل السيطرة الأجنبية، ففي سنة (٣٣٢هـ / ٩٤٣م) ظهر العيَّار (ابن حمدي) الذي كان من عتاة العيارين[٢٩] والذي أعيا السلطان أمره، فخلع عليه أمير الأمراء ابن شيرزاد وأمَّنَهُ، ووافق على أن يسدد له في كل شهر (١٥٠٠٠ دينار) مما يسرقه هو وأصحابه، فكان يستوفيها ويأخذ البراءات كإيصالات رسمية.[٣٠] واستعان ابن شيرزاد (أمير الأمراء) بالشطار والعيارين، على حرب (معز الدولة) فكان يركب الماء، وهم معه ويقاتل الديلم، ولم تنته هذه الحرب بنصر حاسم لأحد الطرفين، فجنح كلاهما للمصالحة، واستقر الصلح بينهما في سنة (٣٣٥هـ/ ٩٤٦م)، وهكذا اتحد العرب والأتراك والعيارون ضد بني بويه منذ الوهلة الأولى.[٣١]

وفي سنة (٣٤٨هـ / ٩٥٩م) كان العامة والعيارون سببًا في امتداد حالة الحرب بين الناس حتى قُتل كثير من الخلق واحترق من البلد الكثير.[٣٢] وفي سنة (٣٦١هـ / ٩٧١م) استغل الشطار والعيارين موقف السلطة البويهية من الاعتداءات المتكررة من جانب الروم على منطقة الحدود الجزرية والشامية، حيث شعروا بتمييع هذه السلطة لحركة الجهاد ضد البيزنطيين ففجروا الموقف ضد السلطة

دورية إلكترونية مُحكَّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

البويهية حتى اشتد خطرهم منذ أواخر سنة (٣٦٢هـ / ٩٧٢م) وأصبحوا من الكثرة ببغداد بحيث إذا تحركوا ملكوا.[٣٣]

ويمكن تفسير زيادة عمليات النهب والسلب التي اقترفها العيارين في سنة (٣٦٣هـ / ٩٧٣م) كانت بسبب ندرة الطعام والأقوات في بغداد خلال الحصار الاقتصادي الذي فرضه عليهم (الحمدانيون) في الموصل، وأعراب بني أسد وشيبان تنفيذاً لطلب (ابن بختيار بن معز الدولة) الذي كان قد استعان بابن عمه (عضد الدولة) في قتال الأتراك وقائدهم (أفتكين)، أما العيارين فقد انحازوا إلى جانب الأتراك.[٣٤]

وذكر ابن تغري بردي في حوادث سنة (٣٦٤هـ / ٩٧٤م): "فيها في المحرم أوقع العيارون ببغداد حريقًا من الخشابين إلى باب الصغير، فاحترق أكثر السوق، وهلك شيء كثير، واستفحل أمر العيارين ببغداد حتى ركبوا الجند وتلقبوا بالقواد وغلبوا على الأمور، وأخذوا الخِفارة عن الأسواق واالدروب، وكان فيهم أسود يقال له (الزَّبَد) كان يأوي قنطرة الزبد وكان يشحذ وهو عريان، ولما كثر الفساد رأى هذا الأسود من هو أضعف منه قد أخذ بالسيف فطلب الأسود سيفاً ونهب وأغار".[٣٥] وبرز من قوادهم في هذه السنة (ابن كبرويه، وأبو الدور، وأبو الذياب، وأسود الزبد – المذكور آنفاً – وأبو الأرضه، وأبو النوائح)، ونشطت حركة الشطار والعيارين خلال الأعوام من سنة (٣٧٩ هـ - ٣٨٠ هـ / ٩٨٩ م – ٩٩٠م) في بغداد، وتحدوا سلطة البويهيين جهارًا نهارًا، وقتلوا من قاومهم، وتواترت سطوتهم وعملياتهم التي عُرفت في ذلك الوقت بالـ (العملات والكبسات).[٣٦]

واضمحل أمر الشطار والعيارين بفعل الشدة في سنة (٣٨١ هـ / ٩٩١م) فاطمئن الناس وقُبض على أحد زعمائهم وهو (ابن الجومرد).[٣٧] وفي حوادث سنة (٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) يقول ابن الأثير: "وفيها اشتد أمر العيارين ببغداد ووقعت الفتنة بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة واحترق كثير من المحال ثم اصطلحوا".[٣٨] وفي نفس السنة ثار الشطار والعيارين بزعامة كبيرهم (عزيز البابصري) وطالبوا السلطة البويهية بإنصافهم وإنصاف الشعب وعندما شعر البويهيين بخطورة هذه الحركة جندوا طاقاتهم لقمعها، وتصدوا لها بقوة، ويبدو أن هذا الأمر دفع العيارين إلى تجميد نشاطهم بعد هذه الحملة القاسية عليهم، وفي سنة (٣٩٠ هـ / ١٠٠٢ م) استفاض سعار النهب، والحرق والقتل، وتدارك (بهاء الدولة) الموقف، فاستناب على العراق (أبا علي الحسن بن جعفر) أستاذ (هرمز بن الحسن) الملقب بعميد الجيوش، فأصلح الأمور وقمع المفسدين، واستطاع بذلك أن يشل نشاط الشطار والعيارين بشكل مؤقت.[٣٩] وفي نفس الوقت تطاول أمر العيارين على جماعة من الكبراء وهم في طريقهم على النهر، لاستقبال بعض الملوك فطلع عليهم اللصوص ورموهم بالحراقات وشتموهم.[٤٠]

واستغل الشطار والعيارين الظروف المواتية لتحقيق أهدافهم، في مواصلة نشاطهم، وذلك عندما بدأت علائم الضعف على السيطرة البويهية في بغداد سنة (٤٠٨ هـ /١٠١٧م) فقاموا بمصادرة كثير من الأموال العائدة للبويهيين وأعوانهم، وازداد نشاطهم بشكل واضح في سنة (٤١٦ هـ / ١٠٢٥م) إذ استهانوا بالسلطة البويهية، وبالغوا في التحدي السافر والاستهانة حتى أنهم كانوا يسيرون ليلاً بالمشاعل والشموع، وبلغ من تحديهم أنهم نهبوا خزائن الحاكم البويهي (مشرف الدولة).[٤١] وفي سنة (٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م) واجه العيارون معاملة قاسية من (أبي محمد بن سهلان) الذي عينه سلطان الدولة (داليا) على العراق فنجح في تشتيتهم ونفى جزءًا منهم.[٤٢]

وقوي أمر العيارين في عهد (جلال الدولة أبي طاهر المعتز بن بهاء الدولة) سنة (٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م) ولاسيما في النصف الأول من إمارته وترأسهم ربما للمرة الأولى رجل عربي فاتك من قبيلة (تميم) المفدية النازلة بالبصرة، اسمه (أبو علي البرجمي) الذي عُرف بشدته وشدة أصحابه، وكان على ما يظهر يحمل لقب متقدم (درجة قائد) ورغم ما يُحكى عن سطوة هذا القائد وفتكاته، إلا أنه كان مع هذا فيه فتوة، وله مرؤةٌ، فلم يتعرض لامرأةٍ، ولا إلى من يستسلم إليه وإن كان قد أسرف في نهب الأموال.[٤٣]

وفي ليلة السبت سنة (٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) كبس جماعة من العيارين يزيدون على خمسين رجلاً على أناس بنهر الدجاج فقتلوهم وأحرقوا الدار ولم يتجاسر أحد من الجيران أن يُنذر بهم خوفًا منهم، وفي هذا الشهر كثرت (العملات والكبسات) في الجانب الشرقي من العيار المعروف بالبُرْجُمي (متقدم العيارين) ووصل إلى عدة مخازن ومنازل وأخذ منها شيئًا كثيرًا واستمر ذلك ولقي الناس منه أمرًا عظيمًا.[٤٤] وتصاعد خطر العيارين بقيادة (أبي يعلى الموصلي) الذي اتخذ مقراً له خارج بغداد، فهاجم رجالات الشرطة في بغداد، وقتل بعضهم، وهو يحمل السيوف المسلولة مع رجاله، فاضطر رجال الجيش البويهي إلى نقل خيولهم إلى دورهم، كما نقل الحاكم البويهي (جلال الدولة) دوابه إلى داخل دار المملكة، وظل أبي يعلى هذا خارجًا على الحكومة مدة تقرب من ثلاث سنين كان يشن خلالها الهجمات، وفي إحدى الهجمات قُتل.[٤٥]

وفي حوادث سنة (٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م) في ليلة الخميس ثالث محرم، نقب قوم من الشطار على دار المملكة فأفضوا إلى حجرة الحرم وأخذوا منها شيئاً من الثياب ونُذِرَ بهم فهربوا ورُتِّبَ بعد ذلك حرس يطوفون حول الدار كل في كل ليلة.[٤٦] وعندما أرادت السلطات أن تضع حدًا لتحدي البرجمي لها، قام الوزير البويهي بمطاردته وعهد إلى (محمد ابن النسوي) رئيس الشرطة بتلك المطاردة، وقلده النظر في المعونة ومنحه لقب الناصح، واستحجب وخلع عليه، فاستدعى جماعة من العيارين فأقامهم أعواناً، وأصحاب مسالح، ليُغري بقية العيارين بالتخلي عن البرجمي، لكن ما أن قُتل أحد أصحاب النسوي حتى هرب هو نفسه وترك بغداد تحت سيطرة البرجمي، وبلغ مداه، حتى ثار العامة بالخطيب عند خطبة الجمعة في جامع الرُصافة، ومنعوه من إكمال خطبته، ورجموا القاضي (أبا الحسين العريف الخطيب)، وقالوا له: "إما أن

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

تخطب للبرجمي وإلا فلا تخطب لخليفة ولا لسلطان ولا لغيره"، وبلغ الأمر بسكان بغداد، أنهم لم يجرئوا على أن يلفظوا اسم البرجمي الصريح، بل كانوا يكنونه بالقائد (أبي علي) وصارت له من الهيبة والنفوذ ما جعل عمال السلطة البويهية يلتزمون بأوامره، وصار يقف على قدم المساواة مع الخليفة العباسي والوزير البويهي.(٤٧)

وذكر ابن الجوزي: "كبس قوم من الدُعَّار المسجد الجامع ببراثا، وأخذوا ما فيه من حُصُرٍ وسجادات وقلعوا شباكه الحديدي وزاد الاختلاط في هذه الأيام وعاد القتال بين العوام وكثرت العملات واجتاز سكران بالكرخ فضرب بالسيف رأس صبي فقتله ولم يجري في هذه الأشياء إنكار من السلطان لسقوط هيبته".(٤٨) وثار أهل الكرخ بالعيارين وطلبوهم فهربوا، فكبسوا دورهم ونهبوا سلاحهم وراسلوا السلطان ليعاونهم عليهم، وكان سبب ذلك أن العيارين دخلوا ليلاً على أحد التجار فأخذوا ماله فتعصب له أهل سوقه، فرد العيارين بعض ما أخذوا، ثم كبسوا في ليلة دار (ابن الفلو الواعظ) بدار القطن من نهر طابق فأخذوا ماله.(٤٩)

وخرج جماعة من القواد في طلب البرجمي، فنزلوا الأجمة التي كان يأوي إليها وهي أجمة ذات قصب وماء كثير تمتد خمسة فراسخ، وفي وسطها تل قد جعله معقلاً ومنزلاً، فخرج عليهم البرجمي وقال لهم: من العجب خروجكم إلي وأنا كل ليلة عندكم، وإن شئتم أن ترجعوا وأدخل عليكم فعلت، وإن شئتم أن تدخلوا إلي فافعلوا، فذُكر أن قوماً منهم راسلوه وأقروا نفسه واروه أنهم يردُّون العسكر عنه.(٥٠)

أُصيب الشطار والعيارين بنكسة كبيرة سنة (٤٢٥ هـ / ١٠٣٣م)، وذلك عندما وقع (البرجمي) في براثن (قرواش) أمير بني عقل، في شرك نصبه له على مايبدو (جلال الدولة البويهي)، حيث أن قرواشاً قبض على عامله على مدينة عكبر بشرقي دجلة في شمال بغداد، ويُدعى (ابن القلعي) فجاء البرجمي يتشفع في إطلاقه، لمودة كانت بينهما، فغدر به واعتقله وافتدى البرجمي نفسه بمال كثير فأخذ قرواش الفدية وأغرقه بدل أن يطلق سراحه، وقد حاولت السلطة البويهية استثمار مقتل البرجمي لتفتيت حركة العيارين فأصدرت أمر الأمان لهم، ودعتهم للتفاوض، وطُلب منهم الانخراط في مؤسسات السلطة أو الخروج من البلد، فخرجوا مؤقتاً، ثم عادوا إلى نشاطهم واستهدفوا (محمد بن النسوي) الذي كان قد أُعيد إلى منصبه، فاقتحم مائة من العيارين داره وأحرقوها وأجبروه على الاستقالة.(٥١)

وفي سنة (٤٤٣ هـ / ١٠٥١م) هاجم العيارين أبا محمد النسوي وجرحوه جراحات، وفي سنة (٤٤٤ هـ /١٠٥٢ م) زادت الفتن بين المذاهب، وذلك لإصرار الشيعة على إظهار مذهبهم في تفضيل علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – وفي الآذان بحي على خير العمل، فانتشر العيارين وتسلطوا وجبوا الأسواق وأخذوا ما كان يأخذه أرباب العمل، وكان مقدمهم (الطقطقي) و (علي الزيبق) ولحق ببغداد منهم الكثير من الشرور.(٥٢) والزيبق هذا، هو صاحب أكبر سيرة شعبية في التراث العربي، ونلخص مما سبق أن العيارين أرهبوا بغداد بشطارتهم، وفرضوا سيطرتهم عليها، وداخلوا الشرطة كأعوان وأصحاب مصالح، وظهر منهم زعماء كبار، واستعان الأتراك بهم في بعض الأحايين في غزو الروم.(٥٣)

ثالثًا: في العصر السلجوقي

كان لسياسة العنف والقسوة التي اتبعها السلاجقة مع عامة الناس أثر واضح في ضعف حركة الشطار والعيارين في بداية الاحتلال السلجوقي، إذ كان الحكام السلاجقة يتعقبون العصاة والخارجين على النظام بشدة، وعلى ذلك الوجه نرى أخبار العيارين حتى عهد خلافة المستظهر بالله أبي العباس بن المقتدي بأمر الله (٤٨٧ هـ - ٥١٢ هـ) وسلطنة ركن الدولة بركيارق بن ملكشاه (٤٨٧ هـ - ٤٩٨ هـ)، وفي ذلك الدور بدأ العيارين والشطار تحركهم، في شهر شعبان سنة (٤٩٢ هـ / ١٠٩٨م) وزاد أمر العيارين ببغداد الغربية، وعظُم خطرهم فأمر الخليفة صاحب الشرطة (كمال الدولة) بتأديبهم فأخذ جماعة من أعيانهم وطلب الباقين فهربوا.(٥٤)

وفي سنة (٤٩٥ هـ /١١٠١ م) تدخل العيارين لمنع إحدى الغارات من قبل السلاجقة، ومالوا على المغيرين فقتلوا أكثرهم، وغرست السياسة العنيفة للسلاجقة - تجاه العامة – الحقد في نفوسهم، والغضب في قلوبهم فكثرت الفتن بينهم في سنة (٤٩٧ هـ / ١١٠٣م) وكالعادة انتشر الشطار والعيارين خلال الفتن لمزاولة حرفتهم في السلب والنهب لدُور الأغنياء.(٥٥) وفي ثاني شهر ربيع الآخر سنة (٤٩٨ هـ / ١١٠٤م) توفي السلطان (بركيارق) وبوفاته انتهى عصر وحدة السلاجقة، وبدأ عصر انقسامهم، واختص بملك العراق أولاد وأحفاد السلطان غياث الدين محمد طبر ملكشاه الثاني (٤٩٨ هـ - ٥١١ هـ)، وفي هذا العصر أخذت أخبار العيارين تتراءى بقلة ولكن في قوة، وربما كانت كثيرة، وأُغفل تدوين معظمها بتوجيه من رجال الدولة لمؤرخي السلطة.(٥٦)

كان للشُّطَّار والعَيَّارين في الفترة السلجوقية دور نشيط، وصارت في فترة من الفترات قوة يُحسب لها ألف حساب، وتحسّنت مقاييسهم الأخلاقية كثيرًا، وصارت الفُتُوَّةُ مَثَلُهُمُ الأعلى، فلا نصل إلى أواخر الفترة السلجوقية، حتى نرى تنظيمات الفُتُوَّة هي السائدة والمنتشرة، وتنظيمات الفتوة ترتكز على القيم الدينية والخلقية من جهة وعلى الفروسية وما يتصل بها من جهة أخرى، وهي تنظيمات شعبية.(٥٧) وتغير الحال في سنة (٥٣٢ هـ ١١٣٧ م) حيث بلغت الفتوَّة الشاطرة مبلغها منذ أوائل خلافة (المقتفي لأمر الله العباسي)، وعهد السلطان السلجوقي (مسعود بن ملكشاه)، وولاية الشريف (حسام الشرف)، فظهر أمر الفتى (ابن بكران العيَّار) في بغداد والعراق، وكثر أتباعه وصار يركب ظاهرًا في جمع من أتباعه.(٥٨) وقد خفَّت وطأة الفتيان العيارين بوفاة السلطان السلجوقي (مسعود) بهمذان سنة (٥٤٧ هـ / ١١٥٢م) واستقلال الخليفة (المقتفي لأمر الله) بالحكم في العراق، الذي أخذ ينتهز الفرصة، فيتقرَّب إلى هؤلاء الفتيان العيارين، ويدعوهم إلى الانضمام إليه،

حيث كان يُدرك قوتهم وتأييد العامة لهم، واستطاع أن يجندهم في الجيش العباسي.

خاتمة

من خلال هذا العرض التاريخي يتبين لنا عدة نتائج مهمة:

- كانت هذه الحركات على تنظيم عالي، وهذه دلالة واضحة على أن الحكام في ذلك العصر كانوا ضعفاء في سياستهم الداخلية، وأن الجهة الخارجية أو ما عُرف بـ "الثغور"، شغلهم عن قمع مثل هذه الحركات.
- وجود تأييد شعبي كبير لحركة الشُّطَّار والعَيَّارين ، مما يدل على أن أهل العراق قد عانوا من الحرمان، في فترات معينة من تاريخ الدولة العباسية.
- استعان بعض الخلفاء بالشُّطَّار والعَيَّارين، خاصةً في السياسة الداخلية، وأحيانًا في الجهة الخارجية، دليل على أن هؤلاء كانوا يتمتعون بالقوة في بعض الفترات التاريخية، وبالضعف في فترات أخرى.
- إن عمليات السلب والنهب والكبسات التي كان يقوم بها هؤلاء الشطار، قد أثرت في اقتصاد الدولة العباسية تأثيرًا سلبيًا، أدى إلى انتشار المجاعات في بعض الفترات.

الهوامش:

(١) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: **مختار الصحاح**، مكتبة لبنان ناشرون (بيروت، ١٩٩٥) ص ١٤٢.

(٢) الزبيدي، محب الدين أبي الفيض محمد مرتضى: **تاج العروس من جواهر القاموس**، المطبعة الخيرية (القاهرة، ١٨٨٨) ٤٣٤/٣.

(٣) عبد المولى، محمد أحمد: **العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي**، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية، ١٩٩٠) ص ٢٨.

(٤) مهدي، عبد الحسين: **محاضرات في تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي**، كلية التربية (د.م، د.ت) ص ٣٥ ، ٣٦.

(٥) محمد عبد المولى: المرجع السابق، ص ٣١.

(٦) المرجع نفسه: ص ٣٤.

(٧) علي، وفاء محمد: **صفحات من تاريخ العباسيين**، دار الفكر العربي (القاهرة، ١٩٧٧) ص ٤٩.

(٨) الخضري، محمد بك: **محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية: الدولة العباسية**، مؤسسة المختار (القاهرة، ٢٠٠٣) ص ١٦١.

(٩) وفاء علي: المرجع السابق، ص ٤٩.

(١٠) الرفاعي، أنور: **الإسلام في حضارته ونظمه**، دار الفكر (القاهرة ، ١٩٧٣) ص ١٩٠.

(١١) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد: **الكامل في التاريخ**، دار الكتاب العربي (بيروت، ١٩٨٣) ١٥٨/٥.

(١٢) الطبري، محمد بن جرير: **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف (القاهرة، د.ت) ٤٤٨/٨.

(١٣) نصر، علي منصور: **العيارون والشطار في العصر العباسي**، مجلة المؤرخ العربي، العدد السادس (القاهرة، ١٩٩٨) ٢٦٥/١.

(١٤) الأربلي، عبد الرحمن سنبط: **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك**، مكتبة المثنى (بغداد، د.ت) ص ١٨٣. كذلك، مؤلف مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، مكتبة المثنى (بغداد، د.ت) ٣٣٤/٣. الطبري: المصدر السابق، ٤٥٨/٨. ابن الأثير: المصدر السابق، ١٥٩/٥.

(١٥) الطبري: المصدر السابق، ٤٥١/٨.

(١٦) المصدر نفسه: ٤٥٨/٨.

(١٧) وفاء علي: المرجع السابق، ص ٥١، ٥٢.

(١٨) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٦.

(١٩) محمد الخضري: المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٢٠) محمود، حسن أحمد، وزميله: **العالم الإسلامي في العصر العباسي**، دار الفكر العربي (القاهرة، د.ت) ص ٢٣٩.

(٢١) الطبري: المصدر السابق، ٨ / ٤٧٠. كذلك، أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل: **المختصر في أخبار البشر**، المطبعة الحسينية (د.م ، د.ت) ١ /٢٢.

(٢٢) حسن محمود، وزميله: المرجع السابق، ص ٢٣٩.

(٢٣) محمد الخضري: المرجع السابق، ص ١٧١.

(٢٤) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٣.

(٢٥) محمد عبد المنعم: المرجع السابق، ص ٧٥.

(٢٦) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٦٢.

(٢٧) محمد عبد المولى: المرجع السابق، ص ٧٩.

(٢٨) متز، آدم: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ترجمة، محمد أبو ريدة، الدار التونسية (تونس ، ١٩٨٦) ٨١٣/٢.

(٢٩) عبد الحسين مهدي: المرجع السابق، ص ٣٦.

(٣٠) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٥.

(٣١) عبد الحسين مهدي: المرجع السابق، ص ٣٧.

(٣٢) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٥.

(٣٣) عبد الحسين: المرجع السابق، ص ٣٧.

(٣٤) ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة (القاهرة، د.ت) ٤ / ١٠٧. كذلك، اليافعي عبد الله بن أسعد بن علي: **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت ، ١٩٧٠) ٢ / ٣٨٠.

(٣٥) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٦.

(٣٦) عبد الحسين مهدي: المرجع السابق، ص ٣٧.

(٣٧) ابن الأثير: المصدر السابق، ١٦٧/٧.

(٣٨) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٦.

(٣٩) آدم متز: المرجع السابق، ص٨١٤.

(٤٠) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٧.

(٤١) محمد عبد المولى: المرجع السابق، ص ١١٧.

(٤٢) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٧.

(٤٣) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد: **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، مطبعة دائرة المعارف (حيدر آباد، ١٩٧٥) ٤٧/٨.

(٤٤) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٨.

(٤٥) ابن الجوزي: المصدر السابق، ٥٤/٨.

(٤٦) علي نصر: المرجع السابق، ٢٧٩.

(٤٧) ابن الجوزي: المصدر السابق، ٥٥/٨.

(٤٨) المصدر نفسه: ٦٢/٨.

(٤٩) عبد الحسين مهدي: المرجع السابق، ص ٤١.

(٥٠) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٩.

(٥١) عبد الحسين مهدي: المرجع السابق، ص ٥٤.

(٥٢) محمد عبد المولى: المرجع السابق، ص ١٢٦.

(٥٣) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٨١.

(٥٤) محمد عبد المولى: المرجع السابق، ص ١٣٠.

(٥٥) المرجع نفسه: ص ١٣١.

(٥٦) المرجع نفسه: ص ١٣٣.

(٥٧) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٨٥.

(٥٨) المرجع نفسه: ص ٢٨٦.

العمـــــارة التقليديـــــة بـــــإقليم تــــــوات

"القصر أنموذجا"



نور الدين بن عبد الله

أستاذ مساعد آثار إسلامية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الجلفة – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

نور الدين بن عبد الله، العمارة التقليدية بإقليم توات: القصر أنموذجا.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر؛ مارس ٢٠١٢. ص ١٢٢ – ١٢٨.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخَص

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم مفهوم جديد لمصطلح القصر، وذلك في بلدان المغرب العربي، وقد اخترنا إقليم صحراوي في الجنوب الغربي الجزائري، لنحدد دلالة مصطلح القصر فيه، واختلافها عن ما ألفناه في العمارة الإسلامية، بما في ذلك عمارة المدن الشمالية للجزائر، حيث كان القصر ذاك البناء الضخم الدال على ثراء أصحابه، والمخصص في غالب الأحيان للسلطان أو الحاكم، لنجده في مناطق إقليم توات، يدل على نسيج معماري، لجماعة تربط بينها علائق مختلفة، ولهذا كان القصر في هذه المناطق يندرج ضمن العمران التقليدي، وبعد معاينة العناصر المعمارية للقصر، لاحظنا التشابه الكبير بينها وبين نسيج المدينة الإسلامية، وعليه فقد خلصنا إلى أن العامل في هذا التشابه هو وحدة الفكر الموجه لعملية البناء، والمتمثل في الدين الإسلامي.

مُقدِّمة

يتسم شمال إفريقيا بظاهرة معمارية تكاد تكون فريدة من نوعها، تتمثل في ما يعرف تحت اسم القصور، فقد عرفت في معظم بلدان البلدان (تونس، الجزائر، المغرب). وقد امتاز الجنوب الجزائري، بنسبة كبيرة من هذه الكتل المعمارية، ومن ذلك ما عرف به إقليم توات، كأحد الأقاليم الصحراوية، حيث يضم هذا الإقليم حوالي ٣٦٠ قصرًا موزعة في كامل مناطقه، إلا أن القصر في حد ذاته يطرح العديد من الاستفسارات، ذلك لاختلافه عما ألفناه من دلالة للمصطلح، سواءً كان في العمارة الإسلامية، أو عمارة المدن الشمالية من الجزائر، فكلمة القصر من مدلولاتها، أنها ذلك المبنى الضخم المخصص للحاكم أو الأسر الثرية، إلا أن هذا لا ينطبق على مدن الجنوب، كما أن القصر بمكوناته المعمارية، يشبه لحد كبير عمارة المدينة في الإسلام، ولهذه الأسباب حاولنا الوقوف عند هذا النسيج المعماري (القصر) في مناطق إقليم توات، وقد حاولنا تلخيص إشكالية الموضوع، في المحاور التالية: مفهوم القصر في مناطق الإقليم - العناصر المعمارية للقصر - علاقة القصر بالمدينة الإسلامية.

١- إقليم توات (الموقع والخصائص)

يُعد إقليم توات[١] أحد الأقاليم الصحراوية التي كان لها حضور في تاريخ البشرية، و قد اعتمدت هذه التسمية عند المؤرخين للتعبير عن الإطار الجغرافي الذي يضم المقاطعات الثلاث، توات الوسطى، القورارة والتيديكلت، والإقليم حاليًا يقع ضمن المناطق الجنوبية الغربية للجزائر، حيث تبعُد أقرب نقطة فيه عن الجزائر العاصمة حوالي ١٢٤٠ كم.

يقع إقليم توات، جنوب غرب الصحراء الجزائرية، التي هي جزء من الصحراء الإفريقية الكبرى, حيث يشمل هذا الإقليم على عدد من الواحات والقصور، التي تزيد عن الثلاثمائة وخمسين واحة متناثرة بين الرمال، وهي تغطي حوالي ألفي ميلاً مربعًا، يحُده من الشمال العرق الغربي الكبير ووادي مقيدن، ومن الجنوب صحراء

تنزروفت، وهي صحاري خالية,وكذلك وادي قاريت;وجبال موبدير,كما يحده من الغرب وادي الساورة وروافد وادي مسعود.[٢] أما الحدود الفلكية للإقليم، فهي بين خطي عرض (٢٦° - ٣٠°) شمالاً، وخطي طول ٤٠ غربًا إلى ١° شرقًا, وهو يمثل امتداد طبيعيًا لمنخفض تنزروفت نحو الشمال. وإقليم تواتي يقع حاليًا ضمن ثلاث مناطق كما أسلفنا وهي: (ادرار), والتي كانت تسمى قديمًا بتوات، ومنطقة تيميمون، المعروفة باسم القورارة, ومنطقة التيديكلت التي تضم منطقة عين صالح وما حولها, أولف اقبلي)

٢- جيولوجية الإقليم

يلاحظ من المميزات الجيولوجية، أن توات منطقة ذات رواسب فيضية، تعود إلى الزمن الجيولوجي الرابع، حيث تتسع في الجهة الغربية وجنوب هضبة تادمايت، تميزها الصخور الكريتاسية، بينما تحدها من جهة الشمال كثبان العرق الغربي، ومن جهة الغرب في اتجاه الضفة اليمنى لوادي الساورة، رمال ايقيدي، أما من جهة الجنوب فان هضبة "الموبدير" ذات الصخور الديفونية تكون الحدود الطبيعية لسهول توات.[٣] كما تعمل الحمادات الصخرية وأشرطة الكثبان الرملية، على تقسيم سهول الإقليم إلى أحواض منعزلة بعضها عن بعض؛ والملاحظ لهذه البنية الجيولوجية الصخرية، يرى أنها تتكون من مجموعة صخور وهي:[٤]

١/٢- صخور قديمة تعود إلى ما قبل الزمن الأول:

وهي تكون القاعدة السفلى للطبقات الرسوبية، وقد تشكلت عبر الأزمنة الجيولوجية التي تلت الأول، وتظهر خصوصًا بمنطقة الخطوط الانكسارية، مثل الخط الغربي الممتد على طول حوض وادي الساورة ووادي مسعود، والخط الشرقي الممتد جنوب شرق العرق الكبير من شمال المنيعة، في اتجاه الجنوب الغربي نحو توات.

٢/٢- صخور الزمن الثاني:

خصوصًا عصر الكريتاسي الأوسط، التي تمتد معظمها على الجانب الشرقي للخط الانكساري الشرقي، وصخور العصر الكريتاسي الأسفل، التي تمتد بشكل واسع على الجانب الشمالي والشمالي الغربي، للخط الانكساري الشرقي. فهذه البنية الجيولوجية أعطت لمناطق الإقليم مميزات تضاريسية منها:

- العرق الذي يمتد بالقسم الشمالي لتواتي.
- الحمادات ذات الشكل المتحجر.
- سلاسل جبلية ذات ارتفاعات بسيطة،مكونة في معظمها من صخور الشيست.[٥]

إضافةً إلى عدد من السلاسل والكتل المتناثرة في القسم الشرقي من توات، والتي تتخلل عددًا من الأحواض والسهول والسبخات.

٣- مناخ الإقليم

تعتبر دراسة الغلاف الجوي ومعرفة خصائصه مهمة للكائنات وخاصةً الإنسان، فالأرض في دورانها حول نفسها محاطة بغلاف غازي يعتبر جزءًا منها، ويبدو واضحًا أثر هذا الغلاف إذا تحرك الهواء بسرعة، لأن الهواء هو الحيز الذي يعيش فيه الإنسان والحيوان، وهي ملزمة عند القيام بأي مشروع معماري وعمراني.[٦]

ومن أهم عناصر المناخ اللازمة لذلك ما يلي:

أ – الحرارة والإشعاع الشمسي.

ب- الضغط الجوي والرياح.

ج – الرطوبة.

د- الأمطار.

١/٣- الحرارة والإشعاع الشمسي:

يعتبر عنصر **الحرارة** من أهم عناصر المناخ، حيث تختلف درجات الحرارة من مناطق إلى أخرى، إذ أن الحرارة ترتبط بكمية الإشعاع الشمسي الوارد إلى الأرض وبكمية الإشعاع الصادر منها، وتعد خطوط العرض من أهم العوامل المؤثر في توزيع درجات الحرارة، فالمناطق التي تقع على خط عرض واحد، تنال نفس القدر من أشعة الشمس؛ وإذا علمنا أن مناطق الإقليم تقع ضمن الصحراء الإفريقية الكبرى وكونها تقع بين خطي عرض (٢٦° – ٣٠°) شمالاً ومن ذلك فكمية الإشعاع الشمسي لتلك المناطق تكون كبيرة. وعلى هذا الأساس امتاز الإقليم بمناخ صحراوي جاف شديد البرودة شتاءًا، وحار صيفًا حيث تصل درجة الحرارة أحيانًا إلى ٥٠° درجة تحت الظل، كما يمتاز بقلة الأمطار وهبوب الرياح مع قلة الرطوبة وكل هذه العوامل تؤثر في درجة الحرارة.

٤- الموارد المائية

تتجمع واحات الإقليم في منطقة أقل فقرًا من الماء بهذا المجال الصحراوي، فهي توجد في حوض هيدروغرافي يجري منذ فترات ما قبل التاريخ، من الأطلس حتى النيجر أو على الأقل حتى حوض التاوديني.[٧] وعليه فهي تنتشر على طول وادي الساورة ووادي مسعود، وسبخة تيميمون بالقورارة، ومن هذا فالوادي والسبخة هما العاملان المؤثران جغرافيا، إلا أن السبخة لا تستعمل نظرًا لعدم صلاحية مياهها. أما وادي الساورة الذي يمتد حتى قصور لقصابي،[٨] (تسابيت) ضواحي توات، وتغذي مياهه الآبار الواسعة، والتي بدورها تستعمل في الري عن طريق نموذج عُرف منذ القديم بـ "الفقارة"،[٩] حيث تعتبر المورد الأساسي لحياة الإنسان والنبات والحيوان في المنطقة.

وقد أثرت هذه العوامل الفيزيائية في توزيع الواحات في الإقليم، حيث نجد أن جل الواحات تقع في الجهة الشرقية للوادي، أو السبخة. فبين (مأزر) في الشمال، و(لقصابي) في الجنوب، على طول الساورة هناك حوالي (٣٠) واحة تقريبًا كلها توجد على الضفة اليسرى (الشرقية) للوادي، وحول سبخة تيميمون توجد حوالي (١٥) واحة كلها بالجهة الشرقية.[١٠] والسر في المنطقة الشرقية لوادي الساورة وسبخة القورارة، أنها أماكن تكثر فيها الآبار وبالتالي تتمركز حولها الحياة، والتي تنشأ منها القصور، والمهم ليس هو وجود الوادي والسبخة فقط، وإنما قدرتهما على النحت الذي يؤثر في الطبقات الصخرية النفوذة، ليصل إلى طبقة العصر الديفوني، التي تتجمع عندها الأحواض المائية، والتي لا تسمح بنفاذه إلى أعمق من ذلك.

كما أن أطراف الوادي والسبخة، تحتوي على رطوبة مهمة، فهذه الرطوبة مع عامل النحت الذي يساعد على ظهورها، من أهم العوامل في الاستقرار البشري، وتحديد وضعيته الجغرافية.(١١)

٥- مفهوم القصر في عمارة الصحراء

يعرف القصر في المصادر اللغوية بأنه الحبس، ومنه ما جاء في حديث أسماء الأشهيلية: (إنا معشر النساء محصورات مقصورات)، وقصرت عن الشيء قصورًا، تعني عجزت عنه ولم أبلغه؛ والقصر من البناء هو المنزل، وقيل كل بيت من حجر لأنه تقصر فيه الحرم أي تحبس، ومن ذلك قول الله تعالى في سورة الرحمان(حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ). كما تُعرف لفظة القصر على أنها أصول الشجر والنخل العظام، إذا وقع وقطع،(١٢) وهذا التشبيه لما يرفع في القصور من أسقف تحملها جذوع النخيل والأشجار العظام, وبعدها الأعمدة بأنواعها. والملاحظ من التعريف اللغوي لمصطلح القصر، أنه الحبس أو المنعة، يجد أن كلها معاني تصب في الخصائص المعمارية للقصر. ويقترب هذا المفهوم من المصطلح المتداول، والشائع في المصادر التاريخية، حيث يقصد بالقصر، مقر الخليفة، وأفراد عائلته، وحاشيته.(١٣)

وقد تنافس الخلفاء والسلاطين في العهد الإسلامي في تشييد القصور، التي كانت رمز قوتهم وثرائهم، فاتخذوا القصور العالية، ذات الأبواب الضخمة، والزخارف البديعة، والحدائق الغناء، كما تعددت مهام تلك القصور، فكان منها ما خصص للراحة والاستجمام، وقد اتخذت لها المواقع الخاصة بها داخل وخارج المدن(البوادي)،(١٤) وقد أبدع الفنان المسلم في بناء وزخرفة القصور القصور حتى أضحت تحفًا معمارية شاهدة على عظمة من بنوها، كما فتن الشعراء بجمال زخرفتها وبديع عمرانها، حتى أضحت أشعارهم، تأريخًا معمارية للقصور، ومن ذلك ما قاله الخزيمي، في وصف جمال بغداد، وحسن عمرانها، وأبهة قصورها، فقال:(١٥)

جنــة ودار مغبطــة قل مــن النائبــات واترهــا
وهل رأيت القصور شارعة تكن مثل الدمى مقاصرها

وكما هو معروف فقد ولع الخلفاء بتشييد القصور والقلاع، بدءًا من الخلافة الأموية، وصولاً إلى العثمانية ولم تكن الجزائر بعيدة عن هذه الحركة العمرانية، حيث شهدت تشييد العديد من القصور والحصون، خاصةً في الفترة العثمانية، كما أن قصور مدينة الجزائر، امتازت بطابع التربيع والتكعيب، شأنها في ذلك شأن التصميمات التي تمتاز بها العمارة في العالم الإسلامي.(١٦)

ومن المعروف، أن النسيج العمراني لأي بلد يقوم وفق التقاليد الحضارية السائدة فيه، والتي تنتج من خلال تفاعلات كثيرة، أهمها العوامل المشتركة في الحياة الاجتماعية، والاستجابة للشروط الحضارية التي يسير عليها ذلك المجتمع، حيث نجد الدين، والعرف يتصدران تلك الشروط،(١٧) ولهذا نجد في الكثير من الأحيان، اختلاف تسميات الأشياء، من قطر إلى آخر، ومن منطقة إلى أخرى، كما هو حال مصطلح القصر، الذي اختلفت دلالاته من منطقة إلى أخرى، ومن ذلك ما نجده، بين المناطق الجنوبية للجزائر والشمالية منها، فما هو مفهوم القصر، في عمارة الجنوب وخاصةً في مناطق إقليم توات؟

لقد أخذ هذا الحيز المكاني معنا مغايرًا لما ألفناه، و لما ذكرناه آنفا، فهو عبارة عن شكل من أشكال التجمعات البشرية, والقصر في المناطق الجنوبية، يمثل نموذج حيوي لمجموعة من التقاليد السائدة بين سكان تلك المناطق، وهو فضاء يميزه ثراء معماري، فهو بذلك نسيج معماري متجانس.(١٨) كما أنه ذاك النسيج المعماري الذي يضم العديد من المنازل والأسر التي يجمعها تقارب وتشابه أنماط العيش، وأيضًا بعض الروابط الاجتماعية، ذات الأصول القبلية، والموروثة عن الأوضاع السياسية التي عرفتها منطقة معينة، أو الأدوار التي كانت تؤديها تلك القصور. هذه العوامل وغيرها هي التي تفسر كون القصر في حد ذاته، مصنف ضمن السكن القروي التقليدي المنغلق، إذ انه يتوفر على مدخل واحد يعرف باسم فم القصر، وفي بعض القصور نجد مدخلاً أو بابًا ثانويًا، يُعرف باسم "الخراجية"، كما يحاط القصر بأسوار عالية وبأبراج معدة للعملية الأمنية والحراسة المستمرة.(١٩)

١/٥- التكوينات المعمارية للقصر

يقوم النسيج العمراني للقصر وفق تقاليد معمارية نابعة من الدين الإسلامي، الذي يستوجب ضرورة التكافل الاجتماعي وضمان الحرمات؛ فالمعماري المحلي وفق هذه الشروط، عمد إلى إعطاء القصر شكلاً معماريًا راعى فيه الحريات الشخصية للأسرة، وحماية روح الجوار، مما يتأكد معه الإحساس بالتقارب الاجتماعي والأسري، وهو ما يتوافق مع روح العقيدة الإسلامية، التي عبر عنها القرآن، ووجه إليها الرسول الكريم ﷺ، بقوله: (مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا أشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر، والحمى)، وقوله ﷺ: (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضا).

فالتصور الإسلامي للاجتماع يستوعب أطر الروابط الأولية، «القرابة» والتي تفرض نفسها كهياكل ضرورية، تساعد الإنسان على تحديد كونه، فلا يمكن للإنسان أن يبلغ توازنه، دون أن يضبط ويهيكل هذا الكون؛ ومن ذلك ضرورة انتسابه لأبوين، ولأسرة تتزامن مع إطار مكاني وهو المسكن، الذي يؤطر الكون الأول والأساسي للإنسان؛ فالمشروع الإسلامي يوازن بين هاته المتغيرات،بمجموع القيم الأخلاقية الإسلامية، التي تفرض عليه أن يراعي حرمة أخيه.

ومن هذا المنطلق جاءت العناصر المعمارية للقصر في هذه المناطق، لخدمة فلسفة الاجتماع، وفق المشروع الذي حدده الإسلام، فلا يعلو بناء على آخر؛ وجاءت عمارة القصور كاللحمة الواحدة، بنيت فيه الوحدات المعمارية على شكل مدرج، تبدو فيه المساكن وكأنها معلقة، وذلك بسبب طبوغرافية الموقع. ونقصد بالتكوينات المعمارية للقصر، تلك المباني الرئيسية، والفراغات الأساسية، التي تشكل الهيكل المادي الفيزيائي العام للقصر؛ وهي: الساحات العامة،

والمنشآت الدينية والمدنية، والمرافق العامة، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

١/١/٥ - المسجد:

يعد المسجد من أهم مباني القصر، فمن خلاله تنطلق الأزقة، والدروب المتشعبة، في كامل النسيج المعماري، إلا أنه لا يحتل الموقع المركزي في الكثير من الأحيان، ومع هذا فيبقى المركز المحوري معنويًا، نظرًا للدور الذي يلعبه كنقطة استقطاب، وتوحيد لأطراف القصر، وفي هذا الصدد تبرز أهمية صلاة الجماعة، كممارسة دينية تعمل على جمع الشمل، وتوحيد الجماعة، وذلك من خلال الوظائف التي يؤديها المسجد، في حياة هذه الجماعة من عبادة، واجتماع، واتصال، وإعلام، ففيه تعقد كل المواثيق، التي تؤطر حياة الجماعة، من زواج، وطلاق وخصومات، وكذلك الوظائف التربوية، والعلمية، والثقافية؛ أما عن شكله، فغالبًا ما يكون مربعًا، أو شبه مربع، أو مستطيل، يحتوي في جدار القبلة، محراب ومنبرًا، صغيرين، إضافة إلى حنيات مثلثة الشكل، أو نصف دائرية، لوضع المصاحف، ولأغراض أخرى، كوضع قناديل الزيت، كما يحتوي على صحن جانبي في بعض الأحيان.

وفي نفس الإطار الديني لعمائر القصر، لا يمكن إغفال مقام الولي الصالح(الضريح)، الذي يتميز بشكل مخروطي أو مكعب، إذ لا يخلوا منه قصر من القصور في مناطق الإقليم، إضافة إلى الدور الذي يلعبه هذا البناء، من خلال خلق فضاء زماني ومكاني، لالتقاء الأهالي، وذلك من خلال الزيارات، التي تقام لسنوية الولي، الذي يتبرك به الأهالي، وقد ارتأينا إرفاق هذا المبنى، إلى المسجد، كونه من المباني الدينية المميزة لعمارة القصور. والحديث عن المقامات يجرنا إلى الحديث عن الطقس، فالطقس، كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية **Ritus**، والتي تعني العادات والتقاليد لمجتمع معين، كما تعني كل أنواع الاحتفالات، التي تستدعي معتقدات، تكون خارج الإطار التجريبي، وهكذا يكون الاتصال مع ما هو مقدس، هو الحافز الظاهر المسيطر على النشاط الطقسي، وهذا يعني أن هذا الأخير، يعبر عند الإنسان، عن حاجة متجددة دائمًا للخروج من وضعه، كي يؤمن لنفسه المطمئنة.[٢٠]

٢/١/٥- المسالك والطرقات

هي العنصر الثاني الرئيسي في تشكيل هيكل القصر، وهي بمثابة شريان القصر، الذي يوصل بين قلبها(المسجد)، وبقية أطرافها، فينظم بذلك حركتها، وهذه المسالك تنقسم إلى قسمين:

أ- الشوارع الرئيسية:

وهي المسالك **الرئيسية** للقصر، التي تربط مركزه المناطق المجاورة، وكذا مخارجه، أما عن طبيعة عقارها، فهي ملكية جماعية، يعود تنظيم استعمالها وصيانتها ومراقبة أحوالها إلى الجماعة. وقد أنشأت وفق التشريع الإسلامي المحدد لمقاييس الشوارع، مصداقًا لقوله ﷺ: (إذا اختلف الناس في الطريق فحدها سبعة أذرع)، ولعل لفظ الحديث، يفيد أن المقصود بهذا القياس ليس تحديدًا مطلقًا لكل الشوارع، وإنما هو أقل المقاييس التي تحفظ حق الطريق، وتسمح بالمرور، وباختبار تطبيقي، يكون هذا القياس، هو عرض الطريق المناسب، لمرور دابتين متخالفتين محملتين، سواء من حيث ارتفاع، أو العرض.[٢١] كما أن هذه الشوارع، تمتاز بكثرة تعرجاتها، وذلك لكسر التيارات الهوائية القوية، التي تميز المنطقة، خاصةً في فصل هبوب الرياح، فلهذا السبب، يصعب وجود الجدار المستقيم.

وبهذه الطريقة، استطاع المعماري، أن يتخلص من هاجس الرياح الموسمية، التي رغم كونها سبب في تلقيح النخيل الطوال، مصادقًا لقوله تعالى: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ)، إلا أنها تعد مصدر إزعاج، لما تحمله من زوابع رملية، قد تتكدس وتعيق حركة المارة، فتقنية الجدار المنحنى، لا تسمح بتكدس الرمال بجانبه، وهذا عكس الجدار القائم الزاوية، وهو ما يفسر لجوء المعماري المحلي إلى الجدار المنحني، وهو ما يفند القول، بأن الجدار المستقيم القائم على الزوايا يتطلب تقنية عالية يجهلها المعماري المحلي، وحقيقة الأمر أن الظروف الطبيعية كان لها تأثير واضح على عملية تنفيذ المباني.

ب- الأزقة والدروب:

وهي بمثابة الشرايين، التي تتفرع في القصر، لربط أطرقه الرئيسية بالأحياء السكنية، وهذه الدروب والأزقة، نفذت وفق معايير، احترمت فيها أخلاقيات الحشمة والحرمة، وكذلك لتسهيل حركة النسوة، داخل القصر، وبين البيوت دون حرج، وغالبًا ما تكون هذه الأزقة مسقوفة، وملتوية كذلك، لتوفير قسط وافر من الظل الذي يضفي على القصر نوعًا من الانتعاش، خلال فصل الحرارة، وهنا كذلك نجد هاجس الخوف من شدة الحرارة، كان له دور في توجيه عملية البناء.

ج- الرحبات والميادين:

ونقصد بها تلك الفراغات غير المبنية، والتي كثيرًا ما أخذت اسم الرحبة في المدينة الإسلامية، وقد تعددت وظائفها حسب الفصول والأوقات والمناسبات. وهي تشكل جزءًا هامًا في القصر، فهي(الفراغات)، على الصعيد المعماري نغمة فنية تنسجم وفقها الكتل المبنية، مع الفراغات الحرة، فينتج عنها توازن حيوي للقصر، فيه راحة للرؤية، ومتنفس للقصر، أما على المستوى الوظيفي، فتنتج عنها حركة وظيفية، نظرًا لقدراتها المتعددة الوظائف، وبالنسبة للممارسات الجماعية، فهي ذات طابع اجتماعي، إذ أنها تشكل أهم مجالات اللقاء، والتبادل الإعلامي، كما أنها توفر المجال الملائم، لكل الممارسات الاعتيادية في القصر. فهذا التخطيط الكبير، نفذت وفقه مخططات البيوت، فجاءت مكونة من صحن وسطي، تتمركز حوله مرافق البيت كلها، وهو فضاء المرأة على العالم الخارجي، إذ من خلاله تتصل مادية الأرض بروح السماء لتنسجم في عالم قوامه الروح والمادة لضمان التوازن الذي بني عليه هذا الكون.

والظاهر من خلال هذه العناصر المعمارية، أن بناة القصور في إقليم توات، قد استلهموا العديد من خصائص المدن الإسلامية، فجاء القصر صورة مصغرة، للمدينة الإسلامية، مع شيء من التحريف لضرورات محلية واجتماعية، ولهذه الأسباب نستفسر عن العلاقة التي تربط القصر بالمدينة الإسلامية، ولمعرفة ذلك علينا أن نقف عند المدينة الإسلامية تعريفًا وخصائصًا.

المدينة لغة هي: الحصن يبنى في أصطمة الأرض، والنسبة إليها مديني، والجمع مدائن، ومدن بالمكان، أي أقام به،[٢٢] كما أنها من كلمة دين، وهي ذات أصل سامي استعملها الأشوريون والأكاديون بمعنى القانون، كما استعملت كلمة الديان في اللغة الآرامية والعبرية بمعنى القاضي.[٢٣] وحسب الفارابي، فالمدينة تندرج، تحت ما يسمى بالاجتماع الكامل، حيث أن الإنسان مفطور على أنه محتاج في قوامه، وفي أن يبلغ أفضل كمالاته، إلى أشياء كثيرة، لا يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده، بل يحتاج إلى قوم، يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه، ولهذا فهو يقسم المدينة، إلى فاضلة، تتحقق فيها سعادة الناس، ومدينة جاهلة تحقق التعاسة لأهلها.[٢٤]

ويدعم هذا الكلام، ابن خلدون بقوله: (الإنسان مدني بالطبع، أي لابد له من الاجتماع، الذي هو المدينة، وهو معنى العمران، وبيانه أن الله، سبحانه وتعالى، خلق الإنسان، وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه، بفطرته وبما ركب فيه، من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر، قاصرة على تحصيل كل حاجاته..)[٢٥] والمدينة، هي مسكننا الطبيعي، حيث تكونت بشكل عضوي على غرار القرية، متنامية حول ساحة، أو شارع رئيس بشكل بطيء، يستجيب لحاجات الأجساد، والنفوس.[٢٦]

كما تدرج المدن، في عملية إعمار الكون، والاستخلاف في الأرض، وقد ارتبط هذا كله بالهدف الأسمى من الخلق، وهو عبادة الله عليها، فقد جاءت الآيات، والأحاديث النبوية، دالة على ذلك، حيث قال تعالى في سورة الملك:(قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).وقوله أيضًا: (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ)، ومن هذا المنظور، فقد حث الإسلام، على تعمير الأرض وإصلاحها، فجاءت هذه النظرة للتعمير، حافزًا للتسابق في تعمير هذه الأرض، وفق المفهوم الإسلامي؛ وفي أجواء هذه القيم السامية، نشأة المدينة الإسلامية، التي حوت هذا الاجتماع الموثق بعرى التآخي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مصداقًا لقوله تعالى من سورة التوبة: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)؛ وبهذه الروح نال العمران في الإسلام القسط الوافر.

وقد جاءت المدينة المنورة على عهد الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدون من بعده، تجسيد لهذا الفكر العمراني، وكانت بحق نموذج المدينة الفاضلة، التي ابتغاها الإسلام، وعبر عنها الفارابي، في كتاباته، ثم تطورت المدينة واتسعت، مع المحافظة على الخطة الأساسية، في إقامة المدينة الأولى في الإسلام. إلا أن اتساع المدن في العالم الإسلامي، لم ينتج عن تخطيط مسبق، بالمعنى المستخدم اليوم، كما لم تشرف على هذا الاتساع، سلطة مركزية، ولكن الذي حدث، هو تراكم لتصرفات السكان، بمعنى أن نمو المدن وتشكل البيئة التقليدية، نتج عن قرارات السكان، وفي العادة هي قرارات ذات مستوى صغير، كبناء بيت في مزرعة خاصة، أو إحياء أرض مجاورة وهكذا، إلا أن هذا النمو، لم يكن عشوائيًا وفوضويًا، بل كان مبنيًا على مبادئ معينة.[٢٧]

وقد حدد المنظرون للعمران البشري، شروط إقامة المدن، وما يجب أن يتوفر فيها، وفي هذا يقول ابن خلدون: "اعلم أن المدن، قرار تتخذه الأمم...ولما كان ذلك القرار والمأوى، وجب أن يراعى فيه، دفع المضار بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع، وتسهيل المرافق لها؛ فأما الحماية من المضار، فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر، أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها...ومما يراعى في ذلك، للحماية من الآفات السماوية، طيب الهواء، للسلامة من الأمراض).[٢٨] فالملاحظ من هذا الكلام، أن ابن خلدون، قد حدد أهم الشروط لسلامة المدن، والمتمثلة في ما يلي:

- توفر المدينة على المرافق الضرورية للسكان، من بيوت وغيرها، ذلك لأن المدن، هي نتيجة لترف، وتطور عمران إقليم ما.
- منعة المدينة، من خلال اختيار الموقع المنيع لإقامتها(هضبة، جبل)، وإحاطتها بالأسوار، التي تزيد من منعتها واستعصائها على الغزاة.
- توفير المياه الصالحة، الكافية لسد حاجات الناس، ودوابهم.
- سلامة هوائها من كل ما يعكره، لضمان سلامة الأبدان، والعقول، ومنه سلامة المدن.

وفي هذا المجال، أورد المقريزي، أثناء حديثه، عن مدينة الفسطاط، ما يلي: (...وإذا دخلت مدينة، فرأيتها ضيقة الأزقة، مرتفعة البناء، فاهرب منها، لأنها موبوءة..).[٢٩] ولو عرضنا قصور مناطق توات،[٣٠] على هذه الشروط، للاحظنا وبكل يسر، الاتفاق الكبير، بينها، وبين المدينة الإسلامية، وإن دل هذا على شيء، إنما يدل على المنبع المشترك لإعمار الفضائين (القصر المدينة)، والمتمثل في الفكر الإسلامي، الذي نجده مجسدًا، في كل شبر من عمارة تلك القصور، ولإثبات ذلك، سنتتبع العناصر المعمارية، للقصر لمعرفة

مدى ارتباطها بالمدينة الإسلامية، ولنقتصر في ذلك، على الشروط التي أوردها ابن خلدون، في النص السابق وهي كما يلي:

توفير المياه الصالحة: وفي هذه النقطة، نجد التشابه بين المدينة، والقصر، فالمعروف أن منطقة توات، تقف على خزان هام من المياه الجوفية، والناتج من الطبقات المائية التي تعود الى فترة ما قبل التاريخ، إضافة إلى مجموع الأودية التي تصب في مناطق الإقليم، وما استمرار التزود بالمياه عن طريق تقنية الفقارة، التي تعتمد على مخزون المياه الجوفية، والتي يفوق عمرها مئات السنين، إلا خير دليل على ذلك، مع العلم، أن المنطقة تعرف ضعفا كبيرا في تساقط الأمطار.

منعة المدينة: فمن خلال ما عرضنا له من وصف الدارسين للقصور، إضافةً إلى الزيارات الميدانية، تتجلى لنا، وبوضوح منعة تلك القصور، وذلك من خلال ما احتوت عليه، من وسائل دفاعية، كان من أهمها الأسوار، والخنادق، والأبراج، التي نادرًا ما يخلوا واحدا منها، ومع كل هذا، نجد أن جل القصور، قد بنيت على هضبات صخرية، زيادة في منعتها وحصانتها من كل طارئ.

سلامة الهواء: المعروف أن الارتفاع والماء والخضرة، من العوامل الأساسية، لسلامة الهواء والأبدان، وذلك بقياس ما يوفره الخضار، من الأكسجين، وفي هذا فقد سعى إنسان المنطقة، إلى جعل بساتينه بمحاذاة القصور، لينعم بالهواء المنعش، المنبعث من تلك الحدائق الوارفة الظلال، كما أن اعتدال الهواء، وسلامته تنبعث كذلك، من فلسفة الأعمار بالمواد البيئية، التي اعتمدها المعماري المحلي، فجاءت بحق نموذجًا للعمارة الطبيعة، التي حققت له، سلامة البدن وصفاء النفس.

أما من الناحية التنفيذية، فإن القصر والمدينة الإسلامية، وجهان لفكر واحد، وهذا من خلال التكوينات المعمارية، لكل منها والتي جاءت كما يلي:

المسجد: إن فكرة جعل المسجد هو قلب المدينة الإسلامية، والذي يربط بين أطرافها، لم تنفذ في الكثير من الأحيان، إذ أنه قلما نجد المسجد يحتل مركز القصر، وقد كان للظروف البيئية دور في هذا التوجه، ذلك أن القصر في المنطقة، منغلق على نفسه لتحقيق مبدأ السلامة، من المؤثرات البيئية، كالحرارة، والرياح، التي تمثل مصدر إزعاج، كما أن القصر لم يبنى وفق خطة مسبقة، كما هو الحال في مدينة بغداد على سبيل المثال، فقد جاء إعمار القصور، وفق حركة النزوح البشري الذي عرفها الإقليم، إضافة إلى أن البناء جاء لتحقيق، عنصر الأمان لتلك الأقوام، التي هاجرت باحثة على الأمن، الذي افتقدته في موطنها الأصلي، ولهذا جاء عمران القصر يحمل صفة العمارة الحربية.

المسالك والطرقات: جاءت هذه العناصر استجابة للكثافة السكانية داخل القصر، وقد أعتمد في تنفيذها، الضيق والتعرج، مما يؤدي ذلك الى تعرضها لأقل قدر ممكن من أشعة الشمس المباشرة، إضافة إلى أن ضيق الشوارع، قد يتناسب مع وسائل التنقل في ذلك الوقت، وهو ما اعتمده المعماري المسلم في تنفيذ المدن الإسلامية،[٣١] كما روعي فيها توفير الحماية من كل الأخطار الطبيعية، إذ أنه يمكن للمتجول عبرها أي يلحظ الفرق، بين خارج القصر وداخله، وذلك من خلال اعتماد المعماري، على تقنية تعرج تلك الممرات، وتسقيفها وإذا كان هاجس الخوف من الظروف الطبيعية القاسية، قد وجه عملية البناء فكذلك فعل عامل الخوف من الغزو الخارجي للقصر، فكانت الممرات الملتوية وسيلة لإعاقة حركة المتسلل للداخل، وفي هذا المجال يشابه عمران القصر عمران المدينة الإسلامية إلى حد كبير.

البيت: نكتشف من خلال العناصر المعمارية لبيوت القصور، شدة التماثل، بينها وبين البيت العربي، وذلك من عدة أوجه نذكر من أهمها مايلي:

الصحن: تتمركز الحياة الاجتماعية في البيت الصحراوي، حول الصحن الذي تتحلق حوله جميع الغرف، حيث السبيل الوحيد لاستلهام النور والتهوية للغرف، كما يعد الصحن بقعة استقطاب الشمس، وقد قيل قديمًا أن البيت الذي تدخله الشمس لا يزوره الطبيب، فضلاً عن هذا، فالصحن، هو مجال التقاء الأرض بالسماء؛ وهنا كذلك يلتقي عمران القصر، بعمران المدينة.

النوافذ: الملاحظ في واجهات بيوت القصور، أنها صماء، بمعنى عدم وجود الفتحات، في الجدار الخارجي، ولهذا فجل الفتحات، تكون على الصحن.

أما مواطن الاختلاف، بين عمران القصر، والمدينة، تكمن في أن المدينة، بنيت لاحتواء كل طبقات المجتمع، من المسلمين، أما القصر فقد قصر على طبقة معينة من الناس تربط بينهم روابط قرابة أو ولاء؛ كما أن المدن، وما تحتويه من هياكل عظيمة، هي نتيجة لحدوث الترف، والتمكين لأمة من الأمم، كما أورده ابن خلدون، أما القصر فكان لضرورة، اجتماعية ونفسية، والدليل على ذلك، تطور المدن، وبقاء عمران القصور على ما كان عليه، رغم وجود جل القصور التواتية، على حافة طريق القوافل التجارية، العابرة للصحراء، كما أن بساطة عمران القصر تبدي لنا رؤية دينية، مفادها الزهد في عمارة الدنيا، على غرار مدينة الرسول، ﷺ.

الخاتمة

وصفوة القول؛ أن القصر في عمارة الجنوب الجزائري، يختلف عنه في عمارة الشمال، كما يختلف عن القصر في العمارة الإسلامية، ذلك لأننا اعتدنا أن مصطلح القصر دال على المبنى الضخم المخصص للخليفة أو السلطان، في حين وجدناه في عمارة الجنوب الجزائري (إقليم توات) عبارة عن نسيج معماري يشبه لحد كبير عمران القرى أو المدن، ومن هنا نجد التشابه الكبير بين عمران المدن وعمران القصور، ذلك لأنهما (المدينة، القصر) وجهان لفكر العمران الإسلامي، إلا أن عمران القصور، تحدده بعض الأطر القرابية، والمحلية، وأنه نشأ وفق حاجات ساكنيه، وذلك تباعًا لحركة النزوح التي تعرفها البشرية، من حل و ترحال، ولهذا يندرج عمران القصور ضمن العمران التقليدي، في حين أن عمران المدن هو نتيجة للترف الذي عرفته أمة من الأمم كما جاء عند ابن

خلدون، ومع هذا يبقى نسيج القصور من الأنسجة المعمارية التي استطاعت أن تحقق لساكنيها الراحة النفسية، والأمان من العوامل الطبيعية، والبشرية، وذلك من خلال مواد البناء المستعملة، وكذا تقنيات التنفيذ.

الهوامش:

(١) وقد اعتمدت تسمية هذه المقاطعات مجتمعة تحت اسم "إقليم توات" الذي عرف بها عند جل مؤرخي العصر الوسيط وذلك من باب تسمية الكل بالجزء. واسم توات هو الاسم الذي أطلقه العرب والطوارق على مجموع الواحات التي تنتشر بالمنخفض العميق لوادي الساورة ووادي مسعود، جنوبه وملحقاته من الأحواض الشرقية والغربية. كما تعددت الآراء حول معنى كلمة توات، حيث يرى بعض المؤرخين أن توات اسم بربري معناه الواحات، أما عند السعدي: فان التسمية تكرورية وتعني وجع الرجل بلغة سنغاي، ويورد لذلك قصة سفر ملك مالي "كنكان موسى" إلى الحج ومروره بالمنطقة.

أما الأنصاري فيقول: أنها اسم لإحدى قبائل الصحراء بالجنوب، بينما يري " A . G P . MARTIN " أن التسمية مشتقة من الجذر أو المقطع "OUA" المستمدة من الكلمة اليونانية"OASIS" "وقد أستعمل هذا اللفظ في المنطوق البربري للدلالة على البقعة الخضراء من الأرض، ويستشهد في ذلك بتسمية " توات أنبو " TOUAT N´BOU " والتي تعني واحة الماء وكذلك كلمة "توات الحناء" التي تعني واحة الحناء. وقد أورد محمود فرج أن أصل الكلمة بربريًا، أطلقته قبائل لمتونه عند ما لجأت إلى الإقليم في منتصف القرن السادس الهجري.

بينما يبقى الأصل العربي للتسمية هو المعتمد عند الكثير من المؤرخين المحليين فيقول صاحب نقل الرواة "عندما فتح عقبة بن نافع بلاد المغرب، ولما عاد لوادي نون ودرعه وسجلماسه، وصلت خيله توات عام ٦٢ هـ فسألهم عن هاته البلاد وهو يعني توات، هل تواتي لنفي المجرمين من عصاة المغرب فأجابوه بأنها تواتي، فأنطلق اللسان بذلك بتغير اللفظ على لسان العامة لضرب من التحقيق. كما يرى مولاي احمد الإدريسي الطاهري أن المنطقة سميت بهذا الاسم لأنها تواتي للعبادة. والمتتبع لهذه الروايات يلاحظ أنها جاءت حسب رغبات من أوردها، وذلك لتبرير حاجة في نفسه؛ فبالنسبة للرأي الذي يرى أنها، واحة الماء أو الحناء، فله جانب من الصواب، من منظور أن المنطقة تزخر بموارد مائية جوفية هامة، الشيء الذي سمح لنظام الري بالفقارات أن ينتشر وهو القائم على منسوب المياه الجوفية، ضف إلى ذلك لولا وجود الماء ما قصدتها الأقوام المختلفة خلال فترات تاريخية متباينة، فالماء هو عنصر جلب الحياة. أما الرأي القائل أن التسمية نسبة لكونها تواتي لنفي عصاة المغرب كما جاء على لسان عقبة بن نافع؛ على حد قول صاحب الرأي، فيخلوا من الصحة، ذلك أن منطقة سجلماسه، التي قيل أن عقبة وصلها في بلاد المغرب، بنيت بعد منطقة توات بعدة سنين وكان ذلك في سنة ١٤٠هـ. في حين أن إعمار المنطقة كان قبل الفتح الإسلامي للمغرب، وكان ذلك من جراء الهجرات البشرية التي وفدت إليها.

إلا أن الرأي الموضوعي يرجع بربريتها،وذلك لكون كل مسميات هذه المناطق،من قصور وأدوات،هي بربرية, فمثلا منطقة تيديكلت, وهي إحدى مقاطعات الإقليم التواتي بربرية فكلمة تيديكلت تعني راحة اليد,ولكون أن هاته المنطقة عبارة عن أرض منبسطة،تقل فيها المرتفعات الجبلية فسميت بهذا الاسم لكونها تشبه راحة اليد المبسوطة، أما كلمة تيقورارين أو تيكورارين كما وردت عند ابن خلدون، فهي بربرية مفردها تاقورارت، والتي تعني المجتمعات أو التجمعات السكنية أو المعسكرات. هذا ناهيك عن مسميات الأشياء المستعملة في مناطق الإقليم الثلاثة، فهي بربرية الأصل منها ما بقي على هيئته الأصلية، ومنها ما شابه التغيير بدخول اللسان العربي, وما يؤكد كل هذا ولا يدع مجالا للشك في بربرية المنطقة،كونها تنتمي إلى مناطق المغرب الإسلامي. ومهما يكن الأمر، فإن المنطقة عُرفت بهذا الاسم عند جل المؤرخين، الذين تعرضوا لذكرها فلا يعقل أن تكون الأجزاء بربرية والكل عربي، كما أنه ليس من المنطقي، أن تبقى هذه المناطق إلى أن يحل بها العرب لتأخذ اسما لها، علمًا أن الوجود العربي في المنطقة يعود إلى الفتوحات الإسلامية، نهاية القرن الأول الهجري وما تبعها من هجرات هلالية، إضافة إلى أن لفظة توات الحناء، ظلت مستعملة للدلالة على مناطق توات الوسطى إلى العصور الحالية.

(٢) **إقليم توات بين القرنين ١٨ – ١٩م**، فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ١٩٧٧، ص ٠٧.

(٣) **توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي ١٨٥٠م الى١٩٠٢م**، أحمد العماري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس المغرب، ب-ت، ص ١٢.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٢.

(٥) " Sahara . oranais . Gautier - (E . F), " Paris 1903. P. 247.

(٦) "**العمارة البيئية في المناطق الصحراوية الحارة**"، سليم فجال، دار الثقافة للنشر القاهرة، طبعة أولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠٣ ص ٠٩.

(7) quatres siecle d`histoire marocain au Sahara, Martin .A .G . P, Paris 1923 . P. 02 .

(٨) لقصابي جمع قصبة وهي اسم لواحدة من قصور منطقة تسابيت في الجهة الشمالية الشرقية لمدينة ادرار الحالية، عاصمة منطقة توات.

(٩) نظام ري قديم اشتهرت به المنطقة، حيث يعتمد على سلسلة من الآبار الارتوازية، المتصلة فيما بينها عن طريق نفق أرضي، يعرف عند الأهالي بـ (النفاد)، كما تساعد طبوغرافية الطبقات الأرضية على انتقال الماء من البئر الرئيسية، عبر النفق لتصل الى البساتين. للاستزادة راجع:

Boualem.R: (La Foggara,OPU,2008)

(10) Gautier (E. f) , Ibid., P.250.

(١١) أحمد العماري، المرجع السابق، ص ١٥.

(١٢) لسان العرب، ابن منظور، دار الحديث القاهرة، ج٠٧، ٢٠٠٣، ص٣٨٤.

(١٣) **تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى**، عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٣، ص١٢١.

(١٤) **نماذج من قصور منطقة الأغواط**، علي حملاوي، **دراسة تاريخية أثرية**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية الجزائر٢٠٠٦، ص١٦.

(١٥) **مظاهر المجتمع وملامح التجديد من خلال الشعر في العصر العباسي الأول(١٣٢هـ-٢٣٢هـ)**، مصطفى بيطام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٥، ص٢٩١.

(١٦) **قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني**، محمد الطيب عقاب، دار الحكمة، الجزائر، ٢٠٠٠م، ص٥١.

(١٧) المرجع نفسه، ص٣٦.

(18) Timimoun entre Tradition et modernite, Assali-M,memoire fin detude,Epau,Alger,juin1998, p.01

(١٩) **المعمار المبني بالتراب في منطقة تافيلالت قصور مدينة الريصاني من خلال وثيقتين محليتين تنشران لأول مرة، المعمار المبني بالتراب في حوض البحر المتوسط**، محمد لمراني، سلسلة ندوات ومناظرات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المملكة المغربية ١٩٩٩، رقم ٨٠، ص١٠١.

(٢٠) **الدين والطقوس والتغيرات**، نور الدين طوالبي، ترجمة وجيه البعيني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر١٩٨٨، ص٣٤.

(٢١) **جوهر التمدن الإسلامي، دراسات في فقه العمران**، مصفى بن حموش، دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٦ ص١٨١.

(٢٢) لسان العرب، ابن منظور، ص٢٣٣.

(٢٣) **إشكالية العمران والمشروع الإسلامي**، إبراهيم بن يوسف، مطبعة أبو داوود الجزائر١٩٩٢، ص٦٦.

(٢٤) **أراء أهل المدينة الفاضلة، الفارابي**، قدم له وعلق عليه، الدكتور ألبير نصري نادر، دار المشرق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت لبنان، ط٠٢، ب.ت، ص١١٨.

(٢٥) **كتاب العبر**...، إبن خلدون، طبعة مصححة ومنقحة، للأبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ب-ت)، ص٢٧.

(٢٦) **الإنسان والمدينة**، جان اونيموس، تعريب، كمال خوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٧، ص٥.

(٢٧) **عمارة الأرض في الإسلام**، مقارنة الشريعة، بأنظمة العمران الوضعية، جميل عبد القادر أكبر، مؤسسة الرسالة للطباعة، ط٠٢، بيروت١٩٩٥، ص١٥٩.

(٢٨) ابن خلدون، التاريخ...المصدر السابق، ص١٧٥.

(٢٩) **الخطط**، المقريزي، مكتبة الآداب القاهرة، الجزء الأول، ب ت، ص١٤٤.

(٣٠) يبدو أن التشابه الموجود بين العناصر المعمارية للقصر، ومثيلاتها في المدن الإسلامية، جعل بعض الرحالة يطلقون عليها اسم المدينة وفي هذا الإطار يقول العياشي: (...ثم إن المدن بالصحراء - لذلك الوقت- مثل غرداية والأغواط وورقلة وأولاد جلال وتوقرت وبسكرة، تيميمون.....) للاستزادة راجع: **الرحلة العياشية، والجزائر من خلال رحلات المغاربة**،ا. مولاي بلحميسي).

(٣١) **العمارة الإسلامية والبيئة، الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي**، يحي وزيري، عالم المعرفة، مطابع السياسة الكويت، العدد ٣٠٤، يونيو ٢٠٠٤، ص٩٦.

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



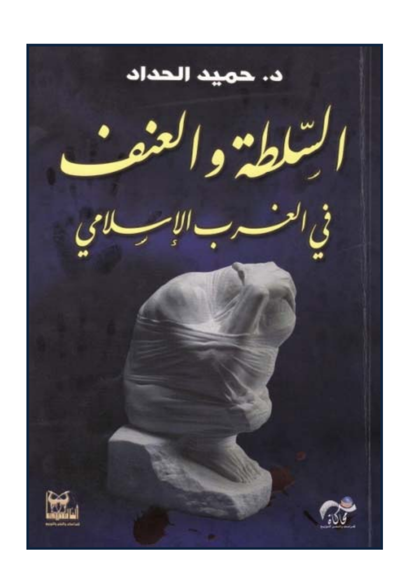
السلطة والعنف في الغرب الإسلامي

المؤلف: د. حميد الحداد

الناشر: النايا للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا
محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا.

تاريخ النشر: الطبعة الأولى ٢٠١١

عدد الصفحات: ٣٦٥ من الحجم المتوسط





عرض

فريد فوغالية

ماجستير التاريخ الإسلامي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة - الجمهورية الجزائرية

تشهد الكتابة التاريخية في بلاد المغرب - خاصةً المغرب وتونس- تطورًا معتبرًا سواء على مستوى المناهج المطبقة، أو المواضيع المدروسة، وفي هذا الإطار تندرج دراسة الدكتور حميد الحداد المعنونة: "السلطة والعنف في الغرب الإسلامي"، وهي رسالة دكتوراه في تاريخ المغرب الوسيط. مُحاولاً تجاوز عقبة غياب دراسات تاريخية تُعنى بإشكالية العلاقة بين "السلطة" و"العنف" في المغرب الوسيط، ويهَدِف تجديد الكتابة التاريخية المغربية من "الناحية الموضوعية على الأقل" كما ذكر الباحث، اقتحم حميد الحداد هذه "المغامرة" إدراكًا منه أن مثل هذه الإشكاليات كفيل برسم صورة أقرب إلى الواقع عن طبيعة الدولة المغربية الوسيطية وعلاقتها برعاياها.

لإنجاز هذه الدراسة استعمل الباحث مادة مصدرية غنية جدًا ومتنوعة تمثلت خصوصًا في كتب التراجم والمناقب، والمؤلفات الأدبية، وكتب النوازل المطبوعة منها والمخطوطة، وكتب الجغرافيا، ورسائل القضاء والحسبة، وكتب الآداب السلطانية، إضافة إلى مجموعة واسعة جدًا من الدراسات الحديثة سواء العربية أو الأجنبية.

فيما يخص المنهج، اعتمد الباحث على مقاربة نفسية - سيكولوجية بالبحث في طفولة بعض الحكام، والجوانب الخفية في شخصياتهم، حيث اتضح حسب الباحث "سادية" كثير منهم مثل: المعتضد العبادي، ابن تومرت، المنصور بن أبي عامر... مع ربط ذلك بالمحيط الاجتماعي والسياسي للظاهرة، كما تناول الموضوع أيضًا بمقاربة أنثروبولوجية مُبينا أن الذهنية السائدة آنذاك كانت تنظر إلى القتل والتعذيب في كثير من الأحيان "نظرة عادية".

تتناول هذه الدراسة الفترة الممتدة مابين القرن الخامس الهجري/ الحدي عشر ميلادي (بروز ملوك الطوائف بالأندلس وصعود نجم المرابطين)، والسابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي (سقوط دولة الموحدين)، مع تمديد فترة الانطلاق في كثير من الأحيان خاصةً بالأندلس، مُعتبرا مرحلة حكم العامريين وأحداث العنف التي شهدتها بمثابة إرهاص وإعلان لما سيحدث في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي. تُركز هذه الدراسة على أعمال الاعتقال والقتل والضرب والتشهير، مُتَناولاً العنف الممارس من قبل السلطة ضد الأفراد، وهو ما يُسميه الكاتب "العنف المؤسساتي المنظم".

تنقسم دراسة حميد الحداد إلى بابين، تحت عنوان: السجن تندرج تحت الباب الأول سبعة فصول، يتناول **الفصل الأول** تعريف لغوي لمصطلحي السجن والعقاب، أما **الفصل الثاني** فيتناول أنواع السجون، وهي حسب الباحث قسمين: القسم الأول: سجون الخاصة، خُصصت للأشراف وعِلية القوم، توفرت فيها وسائل الراحة وامتيازات متعددة مثل: عدم التقييد، حق الزيارة، وجود مكان للصلاة، حرية الاتصال والمراسلات، حرية التأليف، والمغادرة المؤقتة عند الحاجة، وبالتالي فإنها أقرب إلى الإقامة الجبرية. القسم الثاني: سجون العامة، وهي مخصصة للطبقة العامة وتتميز بضيق المساحة وقلة النظافة، وضعف التهوية، وقلة الطعام، إضافة إلى سوء المعاملة.

أما **الفصل الثالث** فإنه يُعالج الأسباب المؤدية إلى السجن، وهي حسب الباحث سياسية واقتصادية واجتماعية ومذهبية، واستنتج الباحث أن الأسباب السياسية هي أهمها جميعا ذلك أن "السياسة لعبة خطيرة لا تستقيم لصاحبها على الدوام"، يؤكد ذلك تعرض الحكام أنفسهم والأمراء والوزراء للسجن. أما الأسباب الاقتصادية والاجتماعية فترتبط بخيانة الأمانة واختلاس الأموال، وفرض ضرائب مجحفة على السكان، والقتل أو الفساد في الأرض، أو السرقة أو عقوق الوالدين... أما الأسباب المذهبية، فقد شَكل من يُطلق عليهم الباحث اسم "أصحاب الفكر المُسْتَنير" وهم الفلاسفة والمنجمين وبعض الشعراء أهم ضحايا السجن، وأبرز مثال على ذلك "الحجابة العامرية" في الأندلس التي اضطهدت هذه الفئات، كما تعرض المتصوفة لمختلف أشكال العنف من اعتقال وسجن ونفي وطرد وتعذيب، خاصة من قِبل المالكية في العهد المُرابِطي، بسبب تخوف السلطة الحاكمة من اتساع قاعدة المُريدين، واعتبارها لهم خطرا على الوحدة المذهبية للدولة، فالسجن حسب الباحث أصبح أداة لقهر المخالفين في الرأي والعقيدة.

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية   ISSN: 2090 – 0449



وفي **الفصل الرابع** يتناول الباحث طبقات المسجونين، حيث يتضح أن السجن قد مس جميع الشرائح الاجتماعية مثل: الحكام، وأفراد الأسرة الحاكمة، والوزراء، والكتاب، والفقهاء، والقضاة، والولاة، والقواد، والشيوخ، والشعراء، والمتصوفة، والثوار، والأبناء، وعامة الناس.

وجاء **الفصل الخامس** ليعالج مكان ومدة السجن، حيث تطرق الباحث إلى مختلف أنواع السجون(قلاع، مطبق، قصر، منزل...) وافتقار جلها لأبسط وسائل الراحة، ويرتبط موقع السجن غالبًا بقصور الحكام خاصةً في الأندلس لإشرافهم عليها، ولحمايتها من الاعتداءات وحاجة الحكام للتكتم على عمليات الحبس والتعذيب والقتل التي تحدث دون الرجوع لحكم القضاء. أما فيما يخص مدة السجن فإنها تختلف باختلاف الجاني ونوع الجريمة، حيث يُلاحظ الباحث عدم تساهل الحكام مع المتآمرين ضدهم، بينما في بعض القضايا كانت مدة السجن لا تزيد عن ليلة أو ثلاث.

في **الفصل السادس** يتناول الباحث قضية التعذيب داخل السجون، حيث يتعرض جُل السجناء -خاصةً السياسيين منهم- لمختلف أشكال التعذيب من ضرب وتقييد وتَكبيل... إضافةً إلى أنواع التعذيب النفسي كالتشهير والمثلة (التمثيل بالسجين)، وقد أدت مثل هذه الأفعال إلى وفاة كثير من السجناء. على الرغم من أنه كانت هناك أوامر من قبل بعض الأمراء بحسن معاملة السجناء وتفقد أوضاعهم، إلا أنها كانت مبادرات فردية وظرفية ليس لها أثر مهم في تغيير واقع السجون.

أما **الفصل السابع** فإنه يتناول عمليات الفرار وإطلاق السراح، حيث يلاحظ الباحث قلة عمليات الفرار نظرا لمناعة السجون والحراسة المشددة، أما إطلاق السراح فقد تعددت أسبابه مثل تغير الحكام أو الدول، وارتباطه بأحداث معينة مثل البيعة، أو فتح مدينة، أو دفع فدية، كما شكل الشِّعْرُ والاستعطاف في كثير من الأحيان سببًا رئيسيًا للإفراج عن المسجونين.

في **الباب الثاني** من الكتاب تطرق حميد الحداد إلى مسألة القتل الفردي، أي قتل الأفراد مُقَسما إياه إلى فصلين، يتناول **الفصل الأول** القتل دون المثلة، أي التمثيل بالأجساد، حيث يعالج القسم الأول منه المعنى اللغوي لمصطلحي "القتل" و "صبر" أي الإعدام، ثم حق الحياة من منظور الشريعة الإسلامية، ثم يعرض الباحث فكرة مفادها "سيادة السياسة الدموية في العصر الوسيط" انطلاقًا من أعمال حكام مثل المعتضد العبادي، وابن تومرت، والمنصور بن أبي عامر، ومحمد بن عبد الله البرزالي شيخ زناتة...إلخ.

أما القسم الثاني فانه يتناول طبقات المقتولين وقد شمل القتل جميع عناصر المجتمع من أعلى الهرم السكاني إلى أدناه، كما يَسْتَعرض مختلف الأدوات المستعملة في القتل مثل: السيف، الرمح، السهم، السكين، المُدية... إلخ.

وجاء القسم الثالث من هذا الفصل ليعالج مسألة الاغتيال والتسميم والخنق، إذ شكل الاغتيال وسيلة فعالة في التخلص من الخصوم السياسيين خاصة، نظرًا لسريته وفعاليته، وهذا يُبرز حسب الباحث جانبًا مظلمًا من جوانب العنف والطغيان السلطوي الذي شهده العصر الوسيط، ودون أي اعتبار للقيم أو الدين أو روح الإنسان. كما يتناول أيضًا التسميم الذي لم ينتشر بشكل واسع، وقد مس رجال السياسة بشكل خاص، وقد تنوعت طريقة تمرير السم لكن الطعام والشراب كانا الأكثر انتشارًا ونجاعة. أما عمليات الخنق فإن الباحث يشير إلى قلة المعطيات حولها بما قد يُفسَر بقلة اللجوء إليها في التصفية الجسدية.

أما **الفصل الثاني** فإنه يتناول القتل مع المثلة، حيث يعالج القسم الأول عمليات حز الرؤوس وتعليقها على شرفات أبواب وأسوار المدن كمراكش وفاس وغرناطة وإشبيلية ... وتعتبر هذه الطريقة وسيلة للتهديد والوعيد لكل من تسول له نفسه الخروج على الحاكم، أي أنه نوع من إبراز القوة والقدرة على البطش بالأعداء والتنكيل بهم.

وفي القسم الثاني يتناول الباحث عمليات الصلب للأجساد، والهدف من ذلك حسبه ليس إعادة التوازن للمجتمع فقط، بل هو إظهار الخلل بين فرد من الرعية تجرأ على العصيان والحاكم القوي، فالصلب يحمل في طياته غاية السلطان في إظهار قوته وجبروته، فالثائر تجاوز عقد البيعة وهو بذلك تحدى شخص الحاكم وشرعية حكمه، فيكون لزاما على الحاكم إظهاره – الثائر- بمظهر المنهزم المُحطم، وذلك تحقيقًا لغاية أخرى وهي ترهيب الرعية وإشعارها بغضب الخليفة وقوته وجبروته.

أما القسم الثالث فإنه يتناول العبث بالأجساد، مثل الطواف بالأجساد والجثث، وحلق اللحية والرأس، وبتر الأعضاء، وسمل الأعين، والضرب والإحراق، والذبح، وإغراق الجثث، والسلخ ونبش القبور. حسب الباحث فإن الغاية من التنكيل بالأجساد سواء للأحياء أو الأموات هو التشهير والحط من قيمة الشخص وإبراز قوة السلطة وانتصارها على أعدائها، وكان الهدف من بتر الأعضاء هو "نقش العقاب على الجسد" حتى يبقى واضحا للعيان، كي يُرسخ هيبة وكبرياء السلطة.

تَخلُص هذه الدراسة إلى أن اعتماد السلطة على البطش والعنف في تعاملها مع الرعية كان بغرض تحقيق ما يُمكنها من الرِفعة السياسية والتفرد بالملك، حتى لو كان ذلك باستغلال مبررات دينية وسياسية حَولت القتل إلى فعل مُطابق لتاريخ تعمل على صياغته. إن عمليات السجن والقتل والتعذيب التي مورست خلال هذه الفترة تؤكد حسب الباحث على "سادية" أغلب حكام الفترة المدروسة.

في الأخير، يتضح من خلال هذه الدراسة أن الباحث عرض فكرة مُؤداها أن لجوء السلطة إلى عمليات السجن والقتل والتعذيب ليس الغرض منه تصفية الأجساد فقط، وإنما هو التخلص من الجسد الذي يُمثل وعاء الفكرة المُعارضة للحكم، كما أن هذا العنف الممارس من قبل السلطة يرتبط ارتباطًا وثيقا بحركة المعارضة، فالسلطة أو النخب الحاكمة تلجأ إلى كل الوسائل الضرورية لحماية النظام وحماية مصالحها بما فيها العنف والبطش.

إن أهمية دراسة حميد الحداد تكمن في أنها أماطت اللثام عن جانب مُغَيب ومنسي من تاريخ الغرب الإسلامي، كما أنها ترسم صورة أقرب إلى الواقع عن الدولة المغربية، وطبيعة العلاقة القائمة بين السلطة الحاكمة ورعاياها، وهو ما يجعلها دراسة مهمة جدًا في معرفة تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط.





دور علماء تلمسان في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين)

أطروحة ماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط

إعداد: نبيل شريخي

إشراف: أ.د. خالد كبير علال

المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة ٢٠١٠



عرض
نبيل شريخي
المدرسة العليا للأساتذة
بوزريعة - الجمهورية الجزائرية

مقدمة

أنجبت مدينة تلمسان خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (١٤ و١٥م) ثلة من العلماء، الذين كانوا زينة لها وتاجا لبلاد المغرب الإسلامي كلّها، وتبعا لذلك أصبح هؤلاء العلماء في طليعة علماء المغرب الإسلامي، وكان لهم دور على مختلف الأصعدة السياسية والعلمية والاجتماعية. وعلى الرغم من المكانة التي تبوّأها علماء تلمسان، فإنّ الأدوار التي أدّوها في مختلف الجوانب لم تحظ بالدراسة الكافية، باستثناء بعض الدراسات التي أفردت بحثها في جانب واحد من هذه الأدوار، كما أمكن تتبّع هذه الأخيرة في سياق حديث تلك الدراسات عن علاقاتهم المختلفة، أو أثناء التعرّض بالدراسة للجانب السياسي والإداري للدولة الزيانية، أو الحياة الفكرية في حاضرة دولتهم تلمسان.

ومن هذا المنطلق يأخذ البحث في أدوار علماء تلمسان السياسية والاجتماعية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (١٤ و١٥م) مشروعيته؛ وذلك لما يضفيه ويكشفه من أعمال قدّمها علماء تلمسان في موطنهم، وعلى مستوى بلاد المغرب الإسلامي. وجاء اختيار البحث عن تلك الأدوار في هذين القرنين مُرتبطًا بالوضع السياسي الذي ميّز بلاد المغرب خلالهما؛ فقد عرف فيهما الحفصيون والزيانيون والمرينيون تقعّد الملك لهم، رغم بعض الفترات التي فقد فيها الزيانيون سلطتهم لصالح جيرانهم خاصّة الواقعين إلى الغرب منهم، أو المرينيين الذين آلت دولتهم للسقوط في أواخر القرن التاسع الهجري(١٥م).

إشكالية الدراسة

وجاءت الدراسة للبحث والإجابة عن عدد من الإشكاليات التي تتمحورُ حول الأدوار التي أدّاها علماء تلمسان في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي، فبالنسبة لعُلماء تلمسان، ما هي العوامل التي ساهمت في تنشئتهم وتكوينهم؟ وفيما يتعلق بالأوضاع السياسية، ما مدى علاقة علماء تلمسان بالحياة السياسية؟ وما هو تأثيرهم في المشهد السياسي وتأثرهم به؟ وما هي مكانتهم وطريقة معاملتهم من طرف رجال السياسة؟ وما هي أهداف سعي وتنافس سلاطين تلك الفترة لتقريب العلماء منهم؟ وما موقف علماء تلمسان من ذلك؟

وبما أنّ هؤلاء العُلماء هُم أفراد من المُجتمع التلمساني والمغربي عامّة ، فما هي طبيعة تلك العلاقة التي جمعتهم مع مجتمعهم؟ وما هي الأعمال والخدمات التي أدّوها لأفراده؟ ومنزلتهم ومكانتهم في أعينهم؟ وعلى اعتبار أنّ هؤلاء عُلماء قبل كلّ شيء، فما هو دورهم العلمي؟ وما هو الجديد الذي جاءوا به ؟ وهل كانت ميزتهم الاجتهاد؟ أم انطلت عليهم آفة ذلك العصر المتميّزة بالتقليد ؟ وما هي علاقتهم بالعلماء المعاصرين لهم؟ ومواقفهم تجاه القضايا التي ميّزت عصرهم؟

منهج الدراسة

وتمثّل المنهج الذي اتّبعناه في دراستنا في منهج الجمع والوصف والتحليل والإحصاء بدرجات مختلفة، فعمدنا في المرحلة الأولى إلى استقراء المادة التاريخية من المصادر التي أرّخت لفترة الدراسة، واستخلاص ما له علاقة بها، ثمّ تبويبها وفقًا لخطة الموضوع، كما لجأنا إلى المنهج الوصفي والإحصائي والتحليلي أثناء عرض أدوار علماء تلمسان في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية، ورأينا أنّه الكفيل بإبرازها والحكم عليها.

فصول الدراسة

اشتملت الدراسة على أربعة فصول، تناول الفصل الأوّل الأوضاع العامّة في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (١٤ و١٥م) باعتبارها وسيلة للتعرّف على الوسط الذي ندرس فيه أدوار علماء تلمسان. وتبيّن لنا من خلاله أنّ الأوضاع السياسية في بلاد المغرب الإسلامي تميّزت بعدم الاستقرار في أغلب فتراتها، وكان أهم أسباب ذلك تنافس الدول الثلاث . الحفصية والزيانية والمرينية . فيما بينها، كما أدركنا من استعراض الأوضاع الاجتماعية تشابها كبيرًا في تركيبة المجتمع المغربي وعادات وتقاليد وسلوكات أفراده. أمّا بالنسبة للأوضاع العلمية فإنّها لم تتأثر

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449



كثيرًا بالوضع السياسي وكانت في عمومها مزدهرة خاصّة في القرن الثامن الهجري(١٤م).

وتطرّقنا في الفصل الثاني من الدراسة إلى دور علماء تلمسان في الحياة السياسية ببلاد المغرب الإسلامي، والذي صدّرناه بعلاقتهم بالسياسيين وميزتها، ثمّ الخدمات التي قدّموها للسلطة السياسية في بلاد المغرب ومظاهرها، وأنهينا الفصل بعرض دور علماء تلمسان في العلاقات السياسية والعسكرية التي ربطت بين دول المغرب، ودورهم في العلاقات الداخلية في هذه الدول. وقد تجلى لنا أنّ العلاقات التي ربطها علماء تلمسان مع السلطة السياسية في بلاد المغرب لم تستقّر على حال وتحكمت فيها عدّة عوامل وظروف، كما أمكننا الوقوف على مختلف الأدوار والأعمال التي ساهم بها العلماء في المشهد السياسي، فكان أداؤهم للبيعة، وتوليهم للمناصب السياسية، والمشاركة في الاحتفالات الرسمية للدولة، والتوجّه في السفارات والوفود، وحمل السلاح في المعارك، عاكسًا لتلك الأدوار والمشاركات لعلماء تلمسان في الحياة السياسية. لكن في المقابل فضّل فريق منهم الابتعاد أو اعتزال السياسة حتى وإن اضطر إلى الفرار.

أمّا الفصل الثالث؛ فقد أفردناه للبحث عن دور علماء تلمسان في الحياة الاجتماعية ببلاد المغرب، وتضمّن حياة العلماء الاجتماعية وعلاقاتهم الأسريّة وبأفراد مجتمعهم، كما تمّ فيه عرض مختلف الخدمات التي قدّمها علماء تلمسان للمجتمع، وموقفهم من القضايا التي شغلت أفراده خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (١٤و١٥م). وتبيّن لنا منه أنّ علماء تلمسان أقاموا علاقات اجتماعية وطيدة مع أفراد مجتمعهم، جعلتهم يهتمون باحتياجاتهم ويُقدمون على قضائها لهم حسب مقدرتهم، ومن خلال وظائفهم. كما استغل بعضهم منزلته وعلاقته بالسلطة السياسية لتقديم خدمات وإزالة عثرات بعض أفراد المجتمع أمام السلطان. إضافة إلى ما أظهروه من تعاطف ومواساة للفقراء والمحتاجين، خاصّة في أوقات الحاجة التي كثيرًا ما تعرّض لها هؤلاء في بلاد المغرب زمن الأوبئة والمجاعات، وقد صاحب ذلك تواضعًا وانبساطًا منهم لجميع أفراد المجتمع؛ ممّا جعلت مكانتهم ومنزلتهم الاجتماعية تحظ بالسموّ والرفعة، كما قوبلت خدماتهم تلك بالاحترام والتقدير والامتنان.

وقد عالجنا في الفصل الرابع دور علماء تلمسان في الحياة العلمية ببلاد المغرب، وفي بدايته قمنا بإحصاء علماء تلمسان وتصنيفهم حسب العلوم التي برعوا فيها، ثمّ تطرّقنا إلى مختلف الأنشطة العلمية التي قام بها العلماء من تدريس، وتأليف، ومناقشات علمية، ممّا أجلى لنا الأدوار التي قام بها علماء تلمسان في الجانب العلمي. وكان دورُهم العلمي في الحياة العلمية ببلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين(١٤ و ١٥م) متنوّعًا؛ فلم يقتصر على جانب واحد، وإنّما كان ذلك تدريسًا وتأليفًا ومناقشة للمسائل والقضايا العلمية التي أثيرت في عصرهم، وهو ما أكد إلمامهم بمختلف العلوم وبوّأهم تلك المكانة العالية بين أهل العلم في تلك الفترة، وفي فترات لاحقة بعد وفاتهم.

نتائج الدراسة

وقد خرجنا من خلال دراستنا هذه إلى جملة من النتائج التي كانت إجابة عن الإشكاليات المطروحة في بدايتها، نجملها فيما يلي:

أنّ العوامل التي ساهمت في تنشئة وتكوين علماء تلمسان الذين برزوا خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين(١٤ و١٥م) كانت متنوّعة؛ فقد اعتبرت الأسرة التلمسانية العلم هو السؤدد والطريق الذي يجب أن يسلكه أبناؤها فحثتهم على طلبه، كما كان للبيئة العلمية التي نشأ فيها هؤلاء العلماء، وقيامهم بالرحلة العلمية وحرّية تنقلهم في أقطار بلاد المغرب، إضافة إلى عناية السلطة السياسية بالعلم وأهله، كلّها عوامل تظافرت في نبوغ علماء تلمسان.

وأقام عدد من علماء تلمسان علاقات بالسلطة السياسية الحاكمة في بلاد المغرب، كانت في أغلبها برغبة من هذه السلطة . الممثلة في الزيانية والمرينية والحفصية . التي أرادت باحتضانها للعلماء وتقريبها منهم منافسة جيرانها وكسب رضا الرعيّة عنها بذلك، وما أكد تلك النيّة هو تقلّب السلاطين على العلماء في أغلب الأحيان. كما لم يثبت العلماء في علاقاتهم السياسية على حال واحدة ؛ فكثيرًا ما وجدنا علماء يتنقلون من بلاط إلى آخر ناقلين معهم ولاءهم وبيعتهم؛ ممّا جعل ربط العلماء لتلك العلاقات يُفسَّر في كثير من الأحيان في إطار المصلحة والجري وراء متاع الدنيا منها.

واتّضح في مقابل ذلك أنّ فريقا آخر من علماء تلمسان اعتزل الحياة السياسية وفضّل عدم الاقتراب من ساحتها رغم ما عُرض عليه من أجل تقريبه إليها، كما أفرزت مشاركة بعضهم فيها إلى الندم والحزن على ذلك، وتطليق التقلّب في قصورها ومكائدها طلاقًا بائنا، خاصّة أنّ هؤلاء العلماء لم يسلموا في أغلبهم من غضب السلاطين وسخطهم؛ والذي أدّى في الكثير من الأحيان إلى مطاردتهم والإرسال في البحث عنهم، والقبوع في سجونهم. وأخذت مشاركة علماء تلمسان في الحياة السياسية عدّة مظاهر؛ فقد كان تولي مختلف المناصب، وقيادة الوفود والسفارات، وتقديم البيعة للسلاطين، والسعي لمدحهم وبيان شرف أسرهم عند بعضهم، وحضور مجالسهم واحتفالاتهم، كلّها أدلّة على تلك المشاركة.

أمّا عن الدور الذي قام به علماء تلمسان من خلال مشاركتهم في الحياة السياسية ببلاد المغرب ومدى تأثيرهم في أحداثها، فإنّه لم يرق في الغالب إلى تغيير هذه الأخيرة؛ فلقد كان احتلال مدينة تلمسان وحصارها . مثلاً . عدّة مرّات واقعًا عايشه علماء تلمسان دون أن يكون لهم دورٌ فعّال في رفعه، بسبب تحوّلهم إلى صف المُحتل والمنتصر أحيانًا، أو بعدم تعاملهم مع هذه الأحداث بأكثر فعالية وإصرار أحيانًا أخرى، كما أنّ سعيهم في إيقاف الصراعات الخارجية والخلافات الداخلية لم يُكتب له التوفيق في الكثير من الأحيان.



وتبيّن لنا من جهة أخرى؛ أنّ علماء تلمسان عاشوا حياة اجتماعية عادية؛ فقد كانت الأسرة هي المنشأ والمكوّن الأوّل لهم، ونظروا إليها ولأفرادها نظرة احترام وتقدير ورعاية، كما كانت لهم مخالطة لأفراد مجتمعهم وربطتهم بهم علاقات وصلات وطيدة، عامَلُوهُم أثناءها بالاحترام والأخلاق الحسنة. ولم يكن انشغالهم بالعلم والسياسة ليُبعدهم عن الاهتمام بشؤون المجتمع، فكثيرًا ما سخّر العلماء المناصب التي شغلوها وقربهم من السلطة السياسية لقضاء حاجيات أفراد المجتمع وتنفيس كُربهم من خلالها.

وقدّم علماء تلمسان خدمات جليلة لأفراد مجتمعهم، لم تقتصر على موطنهم تلمسان فحسب بل شملت بلاد المغرب كلها؛ فانتصبوا لعملية التعليم وسخّروا في ذلك بيوتهم وحوانيتهم وقاموا بإيواء طلبتهم وإكرامهم، كما كان من أشكال تلك الخدمات إفتاء الأفراد في ما علق لهم في شؤون حياتهم ، والحكم في قضاياهم وخلافاتهم، والعمل على إصلاح مجتمعهم بمحاربة الأخلاق السيّئة والسلوكات المُنحرفة التي وقع فيها بعضهم.

وأكد وقوف العلماء مع أفراد مجتمعهم في المحن والشدائد التي تعرّضوا لها، على الاندماج الذي عاشوه مع مختلف فئات المجتمع وقربهم منهم، وكانت المجاعات والأوبئة التي كثيرا ما تكرّرت تُعتبر محكًا حقيقيا أبان فيها العالم عن شفقته على أحوال مجتمعه والسعي لتجاوز مُلمّاته، حتى وإن كان ذلك بالتفريط في حاجته والإيثار بنفسه، كما أكّد هذا العطف سَعْيَهم لرفع المغارم والضرائب عنهم واستغلالهم لعلاقاتهم السياسية لتحقيق ذلك.

وإذا ما قارنّا بين دور علماء تلمسان في الحياة الاجتماعية مع ما سبقها من دورهم في الحياة السياسية أو ما يتبعُها في الحياة العلمية فإنّنا نلحظ تواضعًا لهذا الدور، ويمكن تفسيره بالوضع الاجتماعي للعلماء أنفسهم؛ فلقد كان الفقر والحاجة مُلازمَيْن لعدد كبير منهم، كما أنّ تلك المجاعات والأوبئة التي أبانوا من خلالها على دور اجتماعي كبير، قد حصدت أرواح الكثير منهم وألحقتهم بعداد الهلكى من أفراد المجتمع الآخرين.

وقابل أفراد المجتمع تلك الأخلاق التي عاملهم بها العلماء والأدوار والخدمات التي قدّموها لهم بالاحترام والتقدير وحفظ للجميل، وتجلى ذلك في إظهار مودّتهم وتمنّي رؤيتهم والاجتماع بهم، والحزن على فراقهم الذي كان امتلاء الطرقات في جنائزهم أحدُ مظاهره وصُوَره، كما كان حفظ ذِكراهم وتوقير أسَرِهم بعدَهُم يُعبِّر أيضًا عن المكانة التي حظي بها علماء تلمسان في أعين مجتمعهم.

وكان دورُ علماء تلمسان العلمي هو الأساسيُ بين تلك الأدوار التي قاموا بها في بلاد المغرب الإسلامي؛ وذلك باعتبار تكوينهم العلمي الذي جعلهم يحتكون بهذا الجانب أكثر من غيره. وقد أبان علماء تلمسان عن تمكّنهم ونبوغهم في عدّة علوم خاصّة الدينية منها ؛ ممّا بوّأهم لأن تكون لهم مكانة علمية راقية جعلتهم نجوما في سماء العلم ببلاد المغرب الإسلامي ومقصدا لطلبته والراغبين في الاستزادة منه. وقد أحصينا ثمانية وستين عالمًا تلمسانيًا عاشوا خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (١٤ ١٥ م)، كان أغلبهم له إلمامٌ بأكثر من علم.

وتجلّى الدور العلمي للعلماء من خلال بثّهم لمختلف العلوم التي انبرت لها مجالسهم العلمية في مدارس تلمسان وبلاد المغرب ومساجدها، إضافة إلى بيوتهم والمجالس السلطانية. وقد بلغ عدد العلماء المدرّسين ثلاثة وأربعين مدرّسًا؛ ونتيجة ذلك عرفت مدينة تلمسان توافد عدد كبير من الطلبة، كما كانت إقامة علماء تلمسان بمختلف المدن المغربية فرصة ثمينة أخرى للطلبة للالتقاء بهم والنهل من علومهم.

كما عكس الإنتاج العلمي والتأليف في مختلف العلوم تلك المكانة العلمية لعلماء تلمسان، بلغ عددُها مائة وأربعة وتسعين مؤلّفًا، مائة وثمانية عشر منها في العلوم الدينية، وكان انتشار هذه المؤلفات وتدريسها واستعمالها من طرف طلبة العلم وأهله في بلاد المغرب يدلنا على القيمة العلمية لها؛ إلا أنّ ما يُؤخذ عنها هو سيطرة المختصرات والحواشي التي جاوز عددها التسعين؛ ممّا جعل أعمالهم وإنتاجهم العلمي يوصف بالتقليد وإعادة ما ألف من قبل.

وأظهرت مشاركة علماء تلمسان في النقاشات والمناظرات العلمية فيما بينهم ومع علماء بلاد المغرب الآخرين عن مظهر ودور آخر لهم في الحياة العلمية، فقد أثارت العديد من القضايا العلمية والفكرية نقاشًا كانوا أحد طرفيه. واحتضنت تلك المناظرات مجالس علمية خاصّة، كما كانت المُراسلات العلمية وسيلة أخرى لتبادل الآراء فيها، وإضافة إلى إظهارها لسعة علم علماء تلمسان فإنّها من جهة أخرى أبرزت أخلاقهم وحسن معاملة مخالفيهم.

ورغم معارضة عدد من العلماء للتقليد الذي طبع الفترة التي عاشوا فيها، ووَصْف عدد آخرَ منهم بالاجتهاد والتميّز ببعض الآراء العلمية، فإن ذلك لم يرق إلى ما هو مطلوب منهم على الصعيد العملي؛ فقد جاءت مؤلفاتهم العلمية لتؤكد التقليد الذي انطلى على عدد كبير منهم ونفى عنهم صفة الاجتهاد.

خاتمة

وخُلاصة الدراسة؛ أنّ ما قمنا به في بحثنا قد كشف عن بعض الجوانب من حياة علماء تلمسان، والأدوار التي قدّموها في الميادين السياسية والاجتماعية والعلمية، إلا أنّ مواصلة البحث والسبر في أغوار بحر هؤلاء العلماء سيضيف معلومات واستنتاجات أخرى في هذا الجانب، خاصّةً إذا توفرت موارد أخرى أمام الباحث لم تستفد منها هذه الدراسة.

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

مرسوم تحرير العبيد في الولايات المتحدة الأمريكية
١ كانون الثاني ١٨٦٣
بين الدوافع الإنسانية والضرورات العسكرية

"أوراق الرئيس أبراهام لنكولن مصدرًا"



د. محمد عبد الرحمن بني سلامة

أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر

قسم التاريخ – كلية الآداب

جامعة اليرموك – المملكة الأردنية الهاشمية

الملف

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد عبد الرحمن بني سلامة ، مرسوم تحرير العبيد في الولايات المتحدة الأمريكية ١ كانون الثاني ١٨٦٣ بين الدوافع الإنسانية والضرورات العسكرية: أوراق الرئيس الأمريكي أبراهام لنكولن مصدرًا.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس عشر ؛ مارس ٢٠١٢. ص ١٣٤ – ١٤٩. [ISSN: 2090 – 0449]

ملخص

أجابت هذه الدراسة عن السؤال الآتي:

ما هي الدوافع الحقيقية الكامنة وراء قيام الرئيس الأمريكي أبراهام لنكولن Abraham Lincoln بإعلان تحرير العبيد في خضم الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١- ١٨٦٥)؟ لمعرفة ما إذا جاء تحرير العبيد لدوافع إنسانية رغبة في القضاء على مبدأ العبودية في الولايات المتحدة الأمريكية، أم أن الضرورات العسكرية التي فرضتها مجريات الحرب الأهلية، والرغبة في المحافظة على الاتحاد قائمًا، هي التي دفعت الرئيس أبراهام لنكولن لإعلان تحرير العبيد وفق الصيغة والحيثيات التي تضمنها ذلك الإعلان وتوقيته؟

وتوصلت الدراسة إلى النتيجة التالية:

إن القرار الذي اتخذه الرئيس لنكولن والقاضي بتحرير العبيد لم يكن قرارًا مدروسًا أو مخططًا له، ولم تلعب الدوافع الإنسانية في صدوره دوراً ذو شأن، وإنّما كان إجراءًا عسكريًا اضطراريًا، الهدف منه إنهاء الحرب باستسلام الولايات الثائرة، وإعلانها الطاعة والولاء لحكومة الاتحاد.

مقدمة

تاريخيًا، ارتبط تحرير العبيد في الولايات المتحدة الأمريكية بشخص الرئيس أبراهام لنكولن ومشاعره الانسانية، والتي جعلته يقدم على خطوة وصفت بأنها أهم قرار اتخذه رئيس أمريكي يومًا ما، حين أعلن الحرب على الولايات الجنوبية وحرّر عبيدهم، وعلى الرغم من كثرة الكتابات والدراسات حول هذا الموضوع إلا أنها جاءت في معظمها شمولية الطابع، ولم تعالج الأسباب والدوافع الموضوعية الكامنة وراء قيام الرئيس أبراهام لنكولن بإصدار المرسوم الشهير (إعلان الإعتاق) Emancipation Proclamation في ١ كانون الثاني ١٨٦٣ واضعًا بذلك حدًا – ولو من الناحية النظرية – للعبودية على الأرض الأمريكية، حيث ركّزت في غالبيتها على الجانب الإنساني كمحرك قوي دفع باتجاه الحرب وتحرير العبيد. بينما تؤكد الدراسة المستفيضة للحرب الأهلية وحجم الخسائر البشرية والمادية التي ذهبت بسببها، وحالة السود المتردية في الولايات المتحدة الأمريكية قبيل اندلاع الحرب الأهلية وبعد انتهائها أن هناك حتمًا أسبابًا أخرى يمكن اعتبارها الدافع الأول لإعلان الحرب وتحرير العبيد، وهو ما يدفع الباحث للتفكير جديًا في المكانة التي احتلتها الدوافع والعواطف الإنسانية من بين مجموعة الأسباب الأخرى التي قادت إلى تلك الحرب، والتي ذهب ضحيتها قرابة ٦٠٠ ألف قتيل بين الجانبين وأضعافهم من الجرحى.

التعريف بالمصدر

تحتفظ مكتبة الكونجرس Library of Congress باثنين وثلاثين مجموعة من الأوراق التي تركها الرؤساء الأمريكيين، وتشكل أوراق الرئيس أبراهام لنكولن واحدة من تلك المحفوظات، وهي موجودة في قسم المخطوطات Manuscript Division وقد وصلت إلى المكتبة بواسطة الابن الأكبر للرئيس أبراهام لنكولن روبرت تود لنكولن Robert Todd Lincoln 1843-1926 الذي احتفظ بها وعمل على تنظيمها بعد حادثة اغتيال والده في ١٤ ابريل ١٨٦٥. حيث نقل الابن أوراق والده إلى الينوى Illinois بمساعدة القاضي ديفيد دافيز David Davis ولاحقا شارك في المشروع اثنين ممن عملوا في مكتب السكرتارية للرئيس لنكولن وهم: جون نيكولاي John Nicolay وجون هاي John Hay، وفي عام ١٨٧٤ أعيدت معظم الأوراق إلى واشنطن. وفي عام ١٩١٩ أودع روبرت تود أوراق والده في مكتبة الكونجرس، وفي ٢٣ كانون الثاني ١٩٢٣ وقبل وفاته بعام واحد قام بنقل ملكية وحرية التصرف بالأوراق إلى مكتبة الكونجرس، واشترط لذلك أن تبقى محفوظة ومحظورة على اطلاع العامة حتى مضي ٢١ عام على وفاته، وفي ١٩٤٧/٧/٢٦ فتحت أوراق الرئيس لنكولن للعامة وتم عمل صور فوتوغرافية عنها ونظّمت فهارس خاصة بها.

وفي عام ١٩٥٩ أجريت عملية مراجعة وتدقيق للأوراق وتم إضافة بعض الوثائق إليها، وفي عام ١٩٦٠ تم إنهاء تحرير تلك الأوراق من قبل مكتبة الكونجرس، إلا أن مركز لنكولن للدراسات التابع لكلية نوكس في ايلنوي Lincoln Studies Center, Knox College- Illinois استمر في عملية فرز تلك الوثائق وتدقيقها، وفي عام ١٩٩٧ قام اثنين من طاقم المركز وهم رودني دافيز Rodney Davis ودوجلاس ويلسون Douglas Wilson بإضافة تعليقات وحواشي على جميع الوثائق المكتوبة بخط يد لنكولن.

تتكون أوراق الرئيس لنكولن من حوالي ٢٠ ألف ورقة مصنّفة في ثلاثة مجموعات، اشتملت على المراسلات العامة الصادرة والواردة، ونسخ من خطابات كتبها الرئيس، وتقع معظمها ضمن الفترة (١٨٥٠ – ١٨٦٥)، ومن بينها مرسوم تحرير العبيد والرسائل المتبادلة بين الرئيس ومرافقيه وأصدقائه وشخصيات سياسية بارزة واصطلاحيون، وبعض الرسائل الموجّهة من العامة إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة إلى تقارير عسكرية ومخاطبات قادة الجيوش. وتعد المجموعة الثانية هي الأكبر والأهم، لكونها اشتملت على وثائق الفترة الرئاسية ١٨٦٠-١٨٦٥ وتم تقسيمها إلى ٤٠ قسمًا مرتبة زمنياً.[1]

تعتبر أوراق الرئيس أبراهام لنكولن من مصادر التاريخ الأمريكي الأساسية، خاصةً فيما يتعلق بقضية تحرير العبيد ضمن مجريات الحرب الأهلية، حيث تعطي صورة واضحة عن الآراء والاقتراحات والخيارات التي تداولها الرئيس مع وطاقمه الوزاري، ومع ومستشاريه وأصدقائه وممثلي الشعب في الكونجرس فيما يتعلق بقضية تحرير العبيد والهدف النهائي للحرب الدائرة، وبالتالي فانه وبدونها لا يمكن الوقوف على تفاصيل الأحداث وتفسير التحول بشدة والميل نحو إصدار مرسوم تحرير العبيد بعد أن دخلت الحرب الأهلية عامها الثالث.

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

أهمية الدراسة

تأتي أهمية الدراسة للاعتبارات الآتية:

١- أنها تتناول موضوعًا هامًا في الشأن التاريخي الأمريكي، ذلك أن تحرير العبيد شكّل منعطفًا هامًا في تاريخ السود في أمريكا بشكل خاص، وكانت له تبعات رسمت ملامح نظام العلاقات العنصرية في أمريكا حتى الوقت الحاضر.

٢- أنها دراسة وثائقية حديثة حول موضوع إعلان تحرير العبيد مستفيدة من أوراق الرئيس أبراهام لنكولن التي تم نشرها مؤخرًا وسمح للعموم بالاطلاع عليها.

٣- أنها أول دراسة عربية حول الظروف والملابسات التي زامنت تحرير العبيد في أمريكا.

فرضية الدراسة

تنطلق الدراسة من الفرضية الأساسية التالية:

إن مرسوم تحرير العبيد في كانون الثاني ١٨٦٣م كان قرارًا عسكريًا بحتًا، وذلك استنادًا إلى الظروف والحيثيات والتوقيت والصيغة التي أحاطت بالإعلان، وإن صبغ إعلان الرئيس أبراهام لنكولن تحرير العبيد بالصبغة الإنسانية وجعل مسألة إنهاء الرّق سببًا في الحرب الأهلية وهدفًا من أهدافها لهو مجرد كلام من أدبيات الحرب، لا يرقى بحال من الأحوال إلى الحقيقة التاريخية.

مؤسسة العبودية في الولايات المتحدة الأمريكية: الإشكالية القانونية والأخلاقية

أ- قبل إعلان الاستقلال ١٦١٩- ١٧٧٦

شهد العالم الحديث - ومنذ مطلع القرن السابع عشر تحديدًا- صراعًا محمومًا وتنافسًا حادًا بين الدول الكبرى على التجارة بالعبيد، مدفوعا بعامل الربح المتأتي من تأمين المستعمرات بالأيدي العاملة المجانية، والهيمنة على طرق التجارة، وبالتالي أصبحت التجارة بالبشر عنصرا محركا لعجلة الاقتصاد الأوروبي، وركنا هاما من أركان التجارة الدولية آنذاك، والتي عرفت بالتجارة المثلّثة Triangular Trade [٢]، حيث كانت البضائع تنقل على متن السفن الأوروبية لاستبدالها بالرقيق الإفريقي، الذين ينقلون إلى مستعمرات العالم الجديد في أمريكا الشمالية والجنوبية والكاريبي، وهناك تتم مبادلتهم بمنتجات تلك المستعمرات من قطن وسكر وتبغ وغير ذلك لتنقل عبر المحيط الأطلسي مرّة أخرى إلى أوروبا.

وخلال النصف الأول من القرن السابع عشر بدأت السفن الأوروبية ترسو على الشواطئ الشرقية للمستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية محمّلة بالعبيد السود والخدم البيض White indentured servants، إذ لم تكن العبودية كمؤسسة اجتماعية واقتصادية قد تبلورت في ذهن سكان المستعمرات حتى ذلك الوقت، حتى أن السود أدرجوا في إحصاء سكان فيرجينيا بين عامي ١٦٢٣ و ١٦٢٤ كخدم وليس كعبيد، وسمح للبعض منهم بالزواج، ومنهم من أنهى مدة خدمته ومنح أرضا وعاش حرًا في مجتمع المستعمرة الناشئة، وحتى عام ١٦٤٠ لم يكن من السهولة بمكان التميز من الناحية القانونية بين الخدم البيض والسود.[٣]

شكّل العام ١٦٤٠ ونقطة تحول بارزة في تاريخ السود في أمريكا، حين قضت محكمة فيرجينيا Virginia بالحكم على الخادم الأسود مانويل Meanwhile بالعبودية مدى الحياة،[٤] واتبعت ذلك بعقوبات بحق كل أبيض يخالط السود خارج نطاق العمل، حيث اعتبرت المحكمة ذلك اهانة للنفس والجسد، وقضت ذات المحكمة في عام ١٦٦٢ بأن كل أسود يولد على الأرض الأمريكية يتبع حالة الأم من حيث كونها عبده أم سيدة حرّة، فإن كانت الأم عبده يكون أبنائها عبيدًا، ولو كان الأب سيدًا أبيض، وإن كانت حرّة يكون أولادها أحرارًا، وإن كان الأب عبدًا،[٥] وبدأ النظام الاجتماعي في المستعمرات يتشكل على أساس التفرقة بين السكان على أساس اللون.[٦] ولإزالة آخر أمل لدى السود لنيل حريتهم إذا ما تحولوا إلى المسيحية وأصبحوا أخوانا لسادتهم في الدين فقد سنّت محكمة فيرجينيا في عام ١٦٧٠ تشريعا قضى باعتبار الخدم الذين تم إحضارهم بالبحر يجب إبقاؤهم عبيدا مدى الحياة، وأن تحولهم للمسيحية لا يحررهم من عبوديتهم.[٧] وبالتالي أصبح طبيعيا تقبل السيد الأبيض لوجود أحد أبناءه عبدا في مزرعته ويدرجه ضمن ممتلكاته، ذلك أن محكمة فيرجينيا أصدرت قرارًا في عام ١٦٧١ قضى بطرد أي شخص أبيض من المستعمرة رجلا أو امرأة إذا ما تزوج من بين السود أو الهنود،[٨] وفي عام ١٦٧٩ نص دستور كارولينا الجنوبية على اعتبار العبيد ممتلكات Property.[٩]

وما أن شارف القرن الثامن عشر على نهايته حتى بلغت نسبة السود إلى البيض في الولايات الجنوبية حدّا فرض نوعا من الخشية والريبة لدى السكان البيض، وخاصة مع استمرار تدفق العبيد، حيث بلغت نسبة السود إلى البيض في فيرجينيا ٤٤% وفي كارولينا الجنوبية ٤٣% وفي ميرلاند ٣٧%.[١٠]

هذه النسب المرتفعة جعلت خوف السكان البيض واضحًا ومبررًا، خاصةً إذا ما قام السود بعصيان مسلح، وفي الوقت الذي طالب فيه البعض بالوقف الفوري لاستيراد العبيد والعمل على احتواء الموجود منهم داخل المجتمع من خلال تهيئة ظروف معيشة ملائمة لهم، ارتفعت أصوات أخرى بالمقابل ترفض المساس بمؤسسة العبودية لكونها أصبحت حجر الأساس في اقتصاد المستعمرات الناشئة، وفي ذات الوقت إصدار سلسلة من القوانين الكفيلة بحرمان العبيد من أية فرصة للتمرد. ولأجل ذلك شهدت المستعمرات البريطانية في أمريكا سلسلة من القوانين عُرفت بـ (قوانين العبيد) Black Code والتي بدورها أطاحت ببعض الامتيازات التي نالها السود وحلّ مصطلح العبودية الدائمة بديلاً عن أيّة استثناءات أو اعتبارات لحالة هنا أو هناك.[١١]

كان من المتوقع وفي ظل إرساء قواعد العبودية الدائمة أن ينتفض العبيد محاولين التمرد أو الهرب، ولأجل ذلك صدرت تباعًا في المستعمرات الجنوبية مجموعة قوانين العبيد الهاربين Fugitive

Slave Law[١٢] والتي بلغت في قسوتها حدًا أباح للسكان البيض قتل العبيد الهاربين وإزهاق أرواحهم، فقد نص قانون العبيد الهاربين في فيرجينيا على (**لما كان كثير من العبيد قد دأبوا على الفرار وأقدموا على قتل الحيوانات وإلحاق الأذى بالسكان، فانه على من يراهم أن يزهق أرواحهم بأية طريقة يراها مناسبة**).[١٣]

ولم تكن قوانين السود وقوانين العبيد الهاربين وحدها المتعلقة بردع العبيد وضمان خضوعهم، فقد كانت سلطة السيد المباشرة هي الأقوى، فبيده جلد عبيده أو حرمانهم من وجبات الطعام أو سجنهم أو قطع بعض أجزاء من أجسادهم وكيهم بالنار، إذ لم يكن هناك ما يردع السيد عن التنكيل بعبيده سوى مصلحته في بقاء العبد قادرًا على العمل. وقد حاول العبيد التخلص من قيودهم بالتمرد على سادتهم أو الهرب من مزارعهم ووجهوا نداء إلى حكام المستعمرات ملتمسين منحهم حريتهم على اعتبار أنهم بشر أحرار لم يسبق لهم أن تنازلوا عن حريتهم بموجب أي ميثاق أو اتفاقية،[١٤] وعلى الرغم من حاجة حكام المستعمرات إلى وقوف العبيد إلى جانبهم في حرب الاستقلال الوشيكة إلا أنهم لم يتخذوا أية إجراءات قانونية في هذا الشأن.

ب- بعد إعلان الاستقلال ١٧٧٦-١٨٦١

شكّلت حرب الاستقلال الأمريكية ١٧٧٦-١٧٨٣ فرصة قوية أمام السود للمطالبة بتحريرهم من العبودية، فالشعارات التي أطلقها سكان المستعمرات الثائرة ضد الحكم البريطاني والمطالبة بالحرية والاستقلال أثارت مشاعر السود أيضًا، وفي خطوة عسكرية استباقية ورغبة في التقليل من فرص نجاح الثوّار، أعلن الحاكم العام البريطاني اللورد دنمور Lord Dunmore أن جميع السود يصبحوا أحرارًا بمجرد تمكنهم من اللحاق بمعسكرات الجيش البريطاني،[١٥] وقد استغل كثير من السود تلك الفرصة النادرة وانضموا إلى معسكرات الجيش البريطاني، مما أفزع الثوار بقيادة جورج واشنطن George Washington ودفعهم لمراجعة مواقفهم المتصلبة بمنع السود من المشاركة في حرب الاستقلال.

كانت التحديات العسكرية والاقتصادية والأمنية التي خلقها إعلان دنمور بمثابة الهاجس الذي اقلق القوات الوطنية، التي بدأت تتراجع أمام الضربات العسكرية المتتالية التي قادها الجيش البريطاني بمساعدة السود، مما أجبر واشنطن على مراجعة سياسته السابقة فيما يتعلق باستثناء السود من الخدمة العسكرية، واضطرت الولايات الجنوبية إلى إتباع سياسة أقل قسوة تجاه السود، أملا في الحد من فرارهم وانضمامهم إلى جانب القوات البريطانية، لكن جميع التسهيلات التي قدمتها الولايات الثائرة للسود لم تكن تضاهي عرض دنمور عليهم بالحرية مدى الحياة.

بدأت الولايات الشمالية تباعا بإصدار قوانين تبيح انضمام السود إلى القوات الوطنية، واضطرت بعض الولايات مثل نيو يورك New York وفيرجينيا Virginia ورود آيلاند Rhode Island ومساتشوتس Massachusetts ونيو هامبشير New Hampshire إلى عتق عبيدها وإرسالهم إلى جهات القتال كمحاربين أحرار، أو كبدلاء عن البيض الذين سقطوا في ساحات المعارك، وبنهاية الحرب كان الكونجرس قد صادق على السماح بتجنيد السود في الجيش ومنح الأحياء منهم الحرية عند انتهاء الحرب.[١٦]

لكن الصورة كانت تبدو أكثر قتامة بالنسبة للولايات الجنوبية، فجورجيا Georgia وكارولينا الجنوبية South Carolina استمرتا على موقفهما بعدم السماح للسود في الخدمة العسكرية، مع العلم بأن هاتين الولايتين كانت تتركز فيهما أعلى نسبة من السود،[١٧] وقادت كارولينا الجنوبية في مجلس المستعمرات الثائرة حركة ساندتها فيها كافة الولايات الجنوبية بهدف طرد السود نهائيا من الخدمة العسكرية، وعدم السماح بتجنيدهم سواء العبيد منهم أو الأحرار.[١٨] وحين اشتدت حاجة الوطنيين إلى المزيد من الجنود، أوصى كونجرس الولايات الثائرة بتجنيد ثلاثة آلاف جندي من عبيد جورجيا وكارولينا الجنوبية، فاشترطت هاتين الولايتين أن يتم شراء كل عبد يتم تجنيده لقاء مبلغ ألف دولار للواحد منهم،[١٩] وهي دلالة صريحة على رفض الجنوب تحرير العبيد تحت أي ظرف من الظروف مهما بلغت قسوتها.

في الرابع من تموز ١٧٧٦ تم الإعلان عن استقلال الولايات المتحدة، وترقب السود أملا في أن يتم تحريرهم وأن يمنحوا حقوقهم المدنية أسوة بالسكان البيض، وعلى الرغم من أن وثيقة إعلان الاستقلال Declaration of Independence تضمنت العبارة التالية (**إن كافة بني الإنسان خلقوا متساوين وأن خالقهم منّ عليهم بحقوق معينة لا يجوز التصرف فيها أو تحويلها ...**)[٢٠] إلا أنها كانت عبارة مبهمة وغير واضحة فيما يتعلق بالعبيد، إذ خلت الوثيقة من أي ذكر للعبودية، وحين قبلت بريطانيا بمعاهدة الصلح في عام ١٧٨٣ بدأت الشركات الأمريكية سباقا محموما لاستيراد العبيد، وبدا واضحا أن الأمة التي ثارت لأجل الحرية والديمقراطية كانت قائمة على العبودية، وخاصة في الجنوب الذي رأى في العبيد الإوزة التي تبيض ذهبا، والتي لم يكن من الممكن الاستغناء عنها، بينما أبدت الولايات الشمالية رغبتها في تحرير شامل للعبيد وأن تكون الولايات المتحدة الأمريكية خالية من العبودية، وبدأت بإصدار قوانين تحرّم العبودية على أراضيها.[٢١]

شهد العام ١٧٨٧م حراكًا سياسيًا بين الولايات المستقلة، وتركز النقاش حول مسألتين قانونيتين أساسيتين، **الأولى**: آلية دخول الأراضي غير المأهولة في المنطقة الشمالية الغربية إلى الاتحاد، وهل ستدخل كولايات تبيح الرّق أم تحرّمه. **الثانية**: حسم مسألة احتساب السكان لغايات التمثيل في مجلسي الشيوخ والنواب، وهل سيتم احتساب العبيد ضمن مجموع السكان أم لا.

وقد تمخض عن ذلك الجدل صدور قانون الشمال الغربي Northwest Territories Ordinance والذي نصت المادة السادسة منه على انه (**يجب أن لا تكون هناك عبودية أو استخدام غير إرادي في المنطقة المذكورة، ما لم تكن عقوبة على جريمة،**

ويشترط أن أي شخص يهرب من أداء الأعمال والخدمات إذا كانت بموجب القانون في أي من الولايات الأصلية أن يتم إرجاعه حسب القانون إلى الشخص الذي يطالب بخدماته).[٢٢] أما فيما يتعلق بنصيب الولايات لغايات التمثيل في المجلسين، فتشير الأوراق الفيدرالية إلى الجدل الذي دار حول تلك المسألة بين الولايات الجنوبية والولايات الشمالية فيما يتعلق بتحديد نصيب كل ولاية من عدد أعضائها في مجلسي الشيوخ والنواب، وهل يتم احتساب العبيد ضمن مجموع السكان أم لا، وقد أصرّت الولايات الجنوبية على أن يضاف العبيد إلى مجموع السكان مع تأكيدهم على حرمانهم من حق التصويت، وبالمقابل اعترضت الولايات الشمالية بحجة أنه طالما اعتبرت قوانين الولايات الجنوبية العبيد متاعا فلا يجوز إدراجهم كسكان لغايات التمثيل في المجلسين.[٢٣]

ولما كان الدستور بحاجة إلى موافقة ٩ ولايات من أصل ١٣ عشر ليكون ساريًا على الاتحاد كله،[٢٤] وتحت إصرار الولايات الجنوبية على إدراج العبيد ضمن مجموع السكان لغايات التمثيل في المجلسين، وبالمقابل رفض الولايات الشمالية لدلك التوجه، فقد جاء الدستور بصيغة توفيقية بين الطرفين، ونصّت المادة الأولى منه في الفقرة الثانية على أنه **(يوزّع عدد النواب والضرائب المباشرة بين مختلف الولايات التي قد يضّمها هذا الاتحاد بنسبة عدد سكان كل منها، وهو العدد الذي يحدّد بأن يضاف إلى مجموع عدد السكان الأحرار... ثلاثة أخماس من عداهم من الناس)**[٢٥] والمقصود هنا العبيد، ونصّت المادة الرابعة منه في الفقرة الثانية **(أي شخص ملزم بالخدمة أو العمل في إحدى الولايات طبقا لقوانينها ويفرّ إلى ولاية أخرى، لا يجوز أن يعفى من تأدية تلك الخدمة أو ذلك العمل بموجب أي قانون أو إجراء لدى هذه الولاية، بل يجب تسليمه عند طلب الجهة التي تؤدّى هذه الخدمات والأشغال لمصلحتها)**[٢٦] وكان هذا النص الدستوري شرطا لدخول الولايات الجنوبية في الاتحاد، وأصبح الدستور ساريًا على الولايات المتحدة الأمريكية اعتبارًا من ٤ تموز ١٧٨٨م.[٢٧]

يلاحظ بأن الدستور الأمريكي أقرّ بمبدأ العبودية حيث وجدت، وبالمقابل منع قانون الشمال الغربي انتشار العبودية في المناطق الغربية التي ستدخل مستقبلا إلى الاتحاد، وإذا كان الشمال الليبرالي قد طالب بتحريم الرق في كافة الأراضي الأمريكية، فان الجنوب لم ترضه تلك الإجراءات، حيث علّق آملا كبيرا على نقل زراعته وعبيده إلى المناطق الغربية بعد أن أُنهكت التربة في الجنوب، وبدت الارستقراطية الزراعية الجنوبية قلقة على اقتصادها، على الرغم من أن الدستور كفل لها أن يعاد إليها عبيدها إذا ما فرّوا إلى الولايات التي لا تجيز قوانينها العبودية.

أيقن العبيد أن الدستور رسّخ بشكل أو بآخر عبوديتهم، وان قوانين العبيد الهاربين ما هي إلا تأكيدًا على بقائهم عبيدًا مدى الحياة، ولذلك لجئوا إلى الهرب شمالاً، وظهر ما عرف بالخط الحديدي الخفي Underground Railroad[٢٨] وتأسست جمعيات كثيرة في الولايات الشمالية بهدف الضغط على الحكومة الاتحادية لإلغاء العبودية على الأراضي الأمريكية.[٢٩] وبدأت العديد من صحف الشمال تولي الإشكالية الأخلاقية للعبودية جانبا هاما على صفحاتها.[٣٠]

شعر الجنوب بالضغط جراء تزايد هروب العبيد من مزارعهم، وكانوا متأكدين بأنه لولا الدعم والتشجيع الذي يقدمه الشمال لما تمكن هؤلاء الهاربين من الإفلات، ولذلك قادت الولايات الجنوبية حركة داخل الكونجرس لاستصدار قانون يمنع إيواء العبيد الهاربين، ويلزم الولايات الشمالية بإعادتهم إلى الأماكن التي فرّوا منها، وأثمرت جهودهم عن صدور قانون العبيد الهاربين Fugitive Slave Law في عام ١٧٩٣م، والذي نصّ على عقوبات صارمة على كل من يأوي أو يتستّر أو يساعد العبيد الهاربين.[٣١]

شكّل طلب ميسوري Missouri[٣٢] الانضمام إلى الاتحاد كولاية تبيح الرق قلبا للتوازن القائم بين الولايات الشمالية والجنوبية حتى ذلك الحين، حيث كانت ١٢ ولاية تبيح الرق Slave-state و١٢ ولاية تحرّمه على أراضيها Non-Slave State، مما يعني أن قبول طلب ميسوري كولاية تبيح الرّق سيعطي الولايات الجنوبية تفوقا عدديا في الكونجرس، حيث كان يمثل كل ولاية أعضاء اثنين منتخبين عنها. وإذا كان ذلك الطلب قد أسعد الجنوب فانه قد أغضب الشمال الذي تكتّل لضمان دخول ميسوري كولاية خالية من الرّق، مما خلق أزمة حادّة بين الجانبين، إلى درجة أن وصفها الرئيس جيفرسون بأنها "النار التي اشتعلت في الظلام، والجرس الذي دقّ إيذانا بالكارثة التي أوشكت أن تحلّ بالاتحاد".[٣٣] وفي عام ١٨٢٠م تمكن السناتور هنري كلاي Henry Clay[٣٤] من نزع فتيل الأزمة فيما عرف بتسوية ميسوري Missouri Compromise، حيث اتفق الجانبان على أن تنظّم ميسوري إلى الاتحاد كولاية تبيح الرّق، وبالمقابل تنفصل مين Maine عن مساتشوتس Massachusetts وتنظّم إلى الاتحاد كولاية تحرّم الرّق، مما يعطي استمرارية للتوازن القائم بين الولايات، وكذلك تم إدراج بند يتعلق بتحريم الرّق شمال خط العرض ٣٠.[٣٥]

يلاحظ أن حالة من الاحتقان والشّك سادت بين الولايات الشمالية والجنوبية، واتسعت الهوّة بين الجانبين، وأن تسوية ميسوري أكثر ما توصف بأنها هدنة بين الجانبين، سرعان ما ستنتهي بأية لحظة، وهو ما أثبتته أحداث عام ١٨٥٠م. فحتى ذلك العام كان التفوق في صالح الشمال، حيث دخلت أريجون Oregon و منيسوتا Minnesota إلى الاتحاد كولايتين تحرّمان الرّق، في حين دخلت تكساس Texas فقط كولاية تبيح الرّق، وحين تهيّأت كاليفورنيا California ونيومكسيكو New Mexico ويوتاه Utah لدخول الاتحاد، تجدد الخلاف مرّة أخرى، حيث حاولت الولايات الجنوبية الضغط باتجاه دخولها كولايات تبيح الرّق لاستعادة التوازن مع الولايات الشمالية، وهدد الجنوب بالانفصال عن اتحاد الولايات فيما لو تم اعتراض دخول تلك المناطق كولايات مباحة

للرّق، وهنا تدخل السناتور هنري كلي مرة أخرى، وبوساطة منه توصل الجانبان إلى ما عرف ب اتفاقية ١٨٥٠م Compromise of 1850 وكان من أهم بنودها السماح لكاليفورنيا بالدخول كولاية خالية من الرّق وأن يطبّق في يوتاه و نيو مكسيكو مبدأ السيادة الشعبية Popular Sovereignty بأن يختار سكان تلك الولايات ما إذا ستكون ولاياتهم مباحة للرّق أم لا، مع إلزام الشمال بإعادة كافة العبيد الهاربين والمتواجدين على أراضيه.[٣٦]

كان للشمال وتهديده صراحة بأنه لن يسمح بانفصال الجنوب دون حرب، قد جعل الولايات الجنوبية ترضخ لتلك التسوية، خاصة وان النص المتعلق بتفعيل قانون العبيد الهاربين من شأنه إرضاء ملاّك العبيد الطامعين باستعادة عبيدهم، الذين شكّلوا عماد ثروتهم واقتصادهم، إلا أن الأحداث اللاحقة أثبتت أن الشمال تلكّأ في إعادة العبيد الذين لجأوا إليه، وأنه عازم كل العزم على محاربة مؤسسة الرّق في كافة الولايات الخاضعة لسلطة حكومة الاتحاد.

سادت حالة من تلبد العلاقات بين الولايات الشمالية والجنوبية طيلة خمسينيات القرن التاسع عشر، وكان من أهم عوامل تأزم العلاقات بين الجانبين فيما يتعلق بمسألة العبودية أحداث كانساس – نبراسكا في عام ١٨٥٤م[٣٧] وقرار المحكمة الفيدرالية المتعلق بقضية العبد سكوت ضد ساندفورد Dred Scott V. Sandford case[٣٨] وعلى الصعيد الشعبي نشطت جمعيات إلغاء العبودية في الولايات الشمالية، ووجّه الكتّاب والسياسيون الليبراليون اهتمامهم صوب الإشكالية الأخلاقية المتعلقة باستعباد الإنسان لأخيه الإنسان، وقامت هارييت بيتشر ستو Harriet Beecher Stowe بنشر روايتها الشهيرة كوخ العم توم Uncle Tom's Cabin[٣٩] والتي أثارت حماس الجماهير للمضي قدما والمطالبة بإلغاء القوانين التي رسّخت العبودية في أمريكا، وظهر من بين السود الأحرار شخصيات لامعة، استنهضت همم العبيد وطالبتهم بالثورة لأجل حريتهم، ومن أشهرهم فريدريك دوجلاس Fredrick Douglass،[٤٠] وهاربيت توبمان Harriet Tubman.[٤١]

وبدا واضحًا أن الجنوب يحضّر نفسه للانفصال عن الولايات الشمالية، وذلك لقناعته أن الكفّة السياسية والقانونية والشعبية تميل لصالح الشمال، وأن بمقدور أيّة حكومة جديدة أن تتبنّى قانونا أو تعديلا دستوريا يحرّم الرّق في الولايات الجنوبية، مما يهدد العمود الفقري لنظامها الاقتصادي، وبالتالي يقضي على مصالح النخب والأرستقراطيات الزراعة، التي أظهرت عزمها الدفاع عن مصالحها وامتيازاتها، حتى لو كلفها الأمر الدخول في حرب شاملة ضد الأشقّاء في الولايات الشمالية.

خريطة توضح الواقع الجيوسياسي للولايات المتحدة الأمريكية والمتعلقة بأحداث كانساس – نبراسكا[٤٢]

الحرب الأهلية: مراجعة في أسباب انفصال لولايات الجنوبية

لم تكن العبودية هي القضية الوحيدة التي أجّجت نار الصراع بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية، فهناك الكثير من القضايا الخلافية زادت من القطيعة بين الجانبين، وأدت بالنهاية إلى إعلان الحرب، ولعل أبرز تلك القضايا ما يلي:

أولاً: **الفوارق الاقتصادية**. أدى التباين الطبيعي بين شمال الولايات المتحدة الأمريكية وجنوبها إلى اختلاف واضح في النمط الاقتصادي، فبينما كان الشمال يسعى لأن يكون المركز الرئيس للصناعة والتجارة والمال، كان الجنوب راضيا مكتفيا بتطوير زراعة القطن والأرز وقصب السكّر، وكان كل قطاع يسير في طريق اقتصادي مختلف عن الآخر، مع ما يرافق ذلك من تباين في العقلية وطريقة التفكير ونمط الحياة لدى سكان الإقليمين. وبحلول القرن التاسع عشر ظهر واضحا أن الولايات المتحدة منقسمة إلى مجتمعين: صناعي تجاري في الشمال، وزراعي في الجنوب، وهذا بدوره خلق نوعا من تضارب المصالح بينهما.

وتجدر الإشارة هنا إلى؛ أن مسألة **الحماية الجمركية**، أدت إلى زيادة حدّة الخلاف بين الجنوب والشمال، فمنذ تأسيس اتحاد الولايات، سنّ الكونجرس نظاما للحماية الجمركية، بفرض رسوم مرتفعة على السلع والبضائع المستوردة High Protective Tariffs من أوروبا، بهدف تشجيع الصناعات المحليّة الناشئة، وكانت أي زيادة في تلك الرسوم تقابل برفض ومعارضة شديدة واستياء من قبل ممثلي الولايات الجنوبية في الكونجرس، لأن سكان الجنوب اعتادوا تصدير منتجاتهم الزراعية واستيراد المصنوعات والسلع الأوروبية التي تعودوا على استهلاكها، وكان من شأن فرض رسوم جمركية على تلك الصناعات ارتفاع أثمانها، وبالمقابل استفاد من هذه الزيادات أرباب الصناعة في الولايات الشمالية.[٤٣]

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

أما القضية الثانية التي أثارت حفيظة سكان الجنوب فكانت **البنك المركزي** The Central Bank، ففي الثلث الأول من القرن التاسع عشر اتجهت الولايات الشمالية نحو إيجاد بنك مركزي موحد، ينظّم عمل المصارف في الولايات ويفرض رقابة مالية على كافة قطاعات الاقتصاد والمال، وكان الجنوب متوجسا من تلك الخطوة، ويرى فيها زيادة في سيطرة الولايات الشمالية على اقتصاديات الجنوب، لكون غالبية أصحاب المصانع الكبيرة ورجال الأعمال هم من الشمال.(٤٤)

وأخيرًا؛ كانت مشكلة توزيع الأراضي على المستوطنين والمهاجرين الجدد سببًا مضافًا لما سبق، حيث كان توجّه الولايات الشمالية أن توزّع الأراضي على السكان والمهاجرين مجانًا، ضمن خطة شاملة لاعمار المناطق غير المأهولة وتشجيع الاستيطان والزراعة، بينما كانت مصلحة الولايات الجنوبية المحافظة على أسعار الأراضي مرتفعة، لأن الأرض هي مصدر ثروتهم المباشر بعد العبيد، بالإضافة إلى أن ذلك التوجه من شأنه أن يجعل الجنوب طاردا للمهاجرين والشمال جاذبا لهم.(٤٥)

وعليه فقد ارتأت الولايات الجنوبية أن الانفصال عن حكومة الاتحاد، من شأنه المحافظة على اقتصادهم مزدهرًا مستقلاً، وربما زيادته عن طريق فتح باب التجارة بالعبيد على مصراعيه، لتقليل تكلفة الإنتاج، وإلغاء الرسوم الجمركية المفروضة على البضائع والسلع المستوردة، وتنظيم أوراقهم المالية والبنكية بما يتوافق مع مصالحهم ويعزّز من اقتصادياتهم.

ثانيًا: الانتخابات وانقسام الأحزاب، فكان من الطبيعي والمتوقع أن تنقسم الأحزاب السياسية في الولايات المتحدة تبعا للقضايا الخلافية التي عصفت بالاتحاد، إذا ما علمنا أنه وحتى أحداث كانساس-نبراسكا الدموية، كانت الأحزاب وطنية الطابع وليست إقليمية، وكان من أشهر الأحزاب على الساحة الأمريكية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر الوجز Whigs، الأرض الحرّة Free Soil Party، حزب الجهلة Know Nothing،(٤٦) والحزب الديمقراطي Democratic Party، وكان الوجز أكثر الأحزاب تأثرًا بالأحداث السياسية، فبعد أحداث كانساس – نبراسكا انقسم أعضاء الحزب بين الشمال والجنوب تبعًا لاختلاف مواقفهم، وفي حين أصبح الوجز هامشيا قليل الأعضاء في الجنوب انظّم أعضاءه الشماليون إلى حزب الجهلة.

أما الحزب الديمقراطي فقد انقسم أيضا إلى لحزبين: ديمقراطي شمالي وآخر جنوبي، تبعا لتباين مواقف الأعضاء من قضايا العبودية والجمارك والأراضي، وحقوق الولايات في مواجهة حقوق حكومة الاتحاد والكونجرس، وكذلك انفصل معارضو الرّق من حزب الوجز وحزب الأرض الحرّة وانظمّوا إلى الحزب الجمهوري Republican Party الناشئ، الذي بدأ باجتذاب المتعاطفين مع الرقيق والمؤيدين لنظام الحماية الجمركية وتوزيع الأراضي مجّانا على السكان، ومنذ عام ١٨٥٦م تشير خريطة الأحزاب السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية إلى أن الحزبين الجمهوري والديمقراطي كانا الأكثر شعبية والأقوى على الساحة.(٤٧)

أزالت انتخابات عام ١٨٥٨م في أمريكا الغموض عن مواقف الأحزاب من القضايا الوطنية، وانشغل الرأي العام الأمريكي بالجدل السياسي في المناقشات والمناظرات الانتخابية للفوز بعضوية مجلس الشيوخ عن ولاية الينوى، بين مرشح الحزب الجمهوري أبراهام لنكولن ومرشح الحزب الديمقراطي دوجلاس Stephen A. Douglas، وعلى الرغم من فوز دوجلاس في تلك الانتخابات، إلا أن الجدل أظهر الخلاف الحادّ في الرؤية والتوجهات بين الشمال الذي مثّله الحزب الجمهوري، والجنوب الذي مثّله الحزب الديمقراطي، وأن الحزب الديمقراطي عانى أزمة انقسام داخلي بين تيارين، وُصف الأول بالمتطرّف والثاني بالاعتدال، ولمعت شخصية لنكولن وأصبح ذو شهرة وطنية كبيرة.(٤٨)

ما من شكّ بان نتائج انتخابات الرئاسة الأمريكية لعام ١٨٦٠م كانت السبب المباشر والعامل الحاسم في تفجّر الأزمة الأمريكية الداخلية، والتي ظهرت على شكل حرب أهلية استمرت طيلة ٤ سنوات، ففي عام ١٨٦٠م اجتمع الحزب الديمقراطي في كارولينا الجنوبية لانتخاب مرشح الحزب للفترة الرئاسية القادمة، وانقسم الحزب على نفسه، فبينما اشترط المتطرفون الجنوبيون أن يدرج في برنامج الحزب استصدار قرار من الكونجرس بالسماح للرق بالانتشار في المناطق، رأى المعتدلون بقيادة دوجلاس أن مبدأ السيادة الشعبية أكثر قبولا وقابلية للتحقيق، ووصل الخلاف حدّا أرجأ انعقاد المؤتمر، وأغلقت قاعة الاجتماعات، فما كان من أعضاء الحزب الديمقراطي الشمالي إلا أن اجتمعوا في بلتيمور Baltimore واختاروا دوجلاس مرشّحا عن الحزب في الانتخابات المقبلة، وردّ ديمقراطيو الجنوب بترشيح جون سي بركنردج John C. Breckinridge، وهكذا انقسم الحزب إلى شمالي وجنوبي، مع اختلاف في وجهات النظر وخاصة فيما يتعلق بمسألة العبودية.

وعلى الجهة السياسية المقابلة، كان الحزب الجمهوري قد اجتمع في شيكاغو Chicago ورشّح أبراهام لنكولن بعد استبعاد وليام سيوارد William Seward المتطرّف أملا في أن يحقق لنكولن المعتدل الفوز للحزب الجمهوري، وأدرج الحزب في برنامجه الانتخابي: عدم السماح للرقّ بالانتشار في المناطق الغير متواجد فيها أصلا، فرض تعريفة جمركية على البضائع والمستوردات من الخارج، وتوزيع الأراضي مجانًا، وهي أمور ما كان الجنوب ليقبل بها مطلقا، وهكذا فان المراقب لانتخابات الرئاسة الأمريكية كان يدرك حتما أن مصير الاتحاد الفيدرالي متوقف على نتيجتها.(٤٩)

وفي ٦ نوفمبر ١٨٦٠م فاز أبراهام لنكولن في الانتخابات بحصوله على ٤٠% من أصوات الناخبين،(٥٠) وكانت الولايات الشمالية قد تكتّلت لضمان فوزه، بينما كان انقسام الحزب الديمقراطي سببًا في تشتّت أصواته، على الرغم من تصويت غالبية الولايات الجنوبية لمرشحهم بركنردج. وأخيرا أدرك الجنوب أن المغزى من فوز لنكولن

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

هو أن الشمال إنما يعبّر عن عزمه الأكيد تنفيذ برنامج الحزب الجمهوري، وبإمكانية الإطاحة بمؤسسة العبودية في الولايات المتحدة الأمريكية من جذورها، استنادًا إلى صلاحيات الكونجرس التي تفوق صلاحيات الولايات، ولتفادي ذلك تداعت الولايات الجنوبية لعقد مؤتمرات شعبية تمهيدًا لإعلان الانفصال.(٥١)

إعلان الحرب وموقف الرئيس أبراهام لنكولن

في ديسمبر ١٨٦٠م بدأت كارولينا الجنوبية خطواتها العملية نحو الانفصال، وما أن حلّ فبراير من العام التالي، حتى كانت سبع ولايات قد أعلن ممثلوها الرغبة في الانفصال عن حكومة الاتحاد، وهي (كارولينا الجنوبية، جورجيا، ألاباما، ميسيسيبي، فلوريدا، لويزيانا، تكساس)، وشهدت مدينة مونتجمري في ألاباما أول مؤتمر جنوبي انفصالي علني، تمخض عنه تكوين كيان سياسي جديد وهو ما عرف ب (الولايات الكونفدرالية الأمريكية) Confederate States of America وانتخب جيفرسون دافيز Jefferson Davis رئيسًا، والكسندر ستيفنز Alexander Stephens نائبًا له، ووضع المؤتمرون دستورًا جديدًا، نصّ صراحة على الحق في امتلاك العبيد، مع ضمان حرية نقلهم عبر الولايات، والتأكيد على سيادة الولايات States Sovereignty ورفض أية رسوم جمركية على الواردات.(٥٢)

تردد الرئيس بوكنان James Buchanan والباقي على مدة رئاسته حوالي شهران في اتخاذ أية إجراءات ضد الحراك الجنوبي، وربّما كان يفضل ترك هذه المعضلة لخليفته لنكولن لحلّها، خاصة وأن شريحة واسعة من سياسيي الشمال أعلنت صراحة قبولها انفصال الجنوب بسلاسة وسلام، وتبارى المعتدلون لإعلان اتفاقيات تسوية لرأب الصدع، كما فعل كرتندن Crittenden Compromise(٥٣) ولكن الجنوب على ما يبدو كان قد حسم أمره، وصمّ قادته آذانهم عن سماع ما من شأنه ثنيهم عن رغبتهم في الانفصال، علمًا أن الحزب الديمقراطي كانت له الأغلبية في مجلسي الشيوخ والنواب U.S Senate and House of Representatives.

منذ فوزه في الانتخابات وحتى تسلمه مقاليد الرئاسة الأمريكية لم يقل لنكولن الكثير، وكان الجميع يدرك عظم المسؤولية الملقاة على عاتق الرئيس الجديد، وقد عبرّ بوكنان للنكولن عن ذلك بقوله وهو يرافقه إلى البيت الأبيض (**إذا كانت فرحتك يا سيدي بدخولك هذا البيت بمثل فرحتي بمغادرته فأنت أسعد رجل في هذه البلاد...**)(٥٤) وكان السؤال المطروح بين النخب السياسية: هل ستتحكم ميول لنكولن الشخصية في قراراته أم سيلتزم ببرنامج الحزب الجمهوري الذي أوصله إلى سدّة الرئاسة؟

أثناء جداله ومناظراته مع دوجلاس عبّر لنكولن صراحة عن رأيه فيما يتعلق بالعبودية على الأرض الأمريكية بقوله(٥٥) (**لست إذن، ولم أكن في يوم من الأيام من المؤيدين بأية طريقة للمساواة الاجتماعية والسياسية بين البيض والسود، ولست من المؤيدين لأن يكون هناك ناخبون أو محلفون من السود... ولا حتى تأهيلهم ليمتلكوا مكاتب أو السماح بالزواج منهم أو تزويجهم... إضافة إلى أنني أؤمن بوجود اختلاف جسدي بين البيض والسود وهو ما يمنع عيشهم سويا، وبما أن الوضع يحتّم إظهار من هو المتفوّق ومن هو الدوني فإنني أؤكد تفوّق الجنس الأبيض...**)(٥٦) ولكن تحولا واضحا طرأ على موقفه كرئيس، ففي خطابه الافتتاحي قال:(... **ليس لدي هدف سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لمعارضة أو التدخل بمؤسسة العبودية في الولايات حيث وجدت، وليس لدي حق شرعي أو نزعة لعمل ذلك...**)(٥٧) بهذه الكلمات الواضحة توجّه الرئيس إلى الجنوب في خطابه الافتتاحي، علّه يثنيهم عمّا اعتبره تمردًا وانفصالاً غير قانوني عن الاتحاد.

وفيما كفّ الرئيس الجديد حديثه عن العبودية، راح يؤكد في خطاباته ورسائله على فكرة الاتحاد وأنها أبدية ودائمة، بحكم أن الاتحاد قائم قبل الدستور ذاته، وأنه لا يحق تحت أية ذريعة أو مسمّى أن تنفصل أية ولاية عن جسم الاتحاد.(٥٨) وتعهد بالحفاظ على وحدة الاتحاد وجمع الضرائب وإنفاذ البريد حتى في حال اعتراض ورفض الولايات الجنوبية، مؤكدًا على أنه لن يكون هناك استخدام للقوة في أي مكان.(٥٩)

واستخدم لنكولن أسلوبه الخطابي الرائع والمؤثر للتأكيد على أن الجنوب والشمال ليسوا أعداء، بل أصدقاء، وتشير أوراق الرئيس إلى الكم الهائل من الرسائل التي بعث بها إلى أصدقائه والى العديد من شخصيات الجنوب البارزة، في محاولة لطمأنتهم على أوضاعهم وعبيدهم واقتصادهم، ومن تلك الرسائل الهامة تلك التي بعث بها إلى الكسندر ستيفنز نائب رئيس الاتحاد الكونفدرالي لاحقًا، والتي أكد له فيها على أن مخاوف الجنوب من أن تقوم الإدارة الجمهورية الجديدة بالقيام بما من شأنه التعرض للعبودية في الجنوب، بشكل مباشر أو غير مباشر، لهي مخاوف غير مبّررة، ولا أساس لها من الواقع،(٦٠) ولكن يبدو أن الخيارات المتاحة أمام الرئيس كانت تتضاءل، فإما أن يقبل بانفصال الجنوب طواعية، وإما أن يرفض ذلك ويعلن الحرب على الولايات التي أعلنت انفصالها عن الاتحاد ويعتبرها في حالة تمرد وعصيان.

كان أكثر ما يخشاه لنكولن أن أي تصرف استفزازي من شأنه جعل الولايات الحدودية Border States في الجنوب الأوسط والأعلى والتي تبيح الرق ولكنها لم تعلن بعد انضمامها إلى الولايات الكونفدرالية المستقلّة، أن تسارع إلى إعلانها رفض التبعية لحكومة الاتحاد، وبالتالي ترجح كفّة الجنوب ويصبح من الصعب السيطرة على حركة الانفصال، حيث كانت (فيرجينيا، كارولينا الشمالية، تينيسي، أركانساس، ميسوري، كنتاكي، ميرلاند وديلاور) ولايات تبيح الرّق، ولكنها لم تعلن انضمامها لاتحاد الولايات الجنوبية، كما أن شنّ هجوم عسكري على الجنوب قد يدفع ببريطانيا للتدخل إلى جانب الجنوب، حفاظا على مصالحها وتجارتها، ورغبة منها في جعل الولايات المتحدة مقسّمة، مما يحدّ من منافسة الولايات المتحدة الأمريكية لها في المجال الدولي.(٦١) وهكذا ظلّت إدارة الرئيس لنكولن تحتوي الأوضاع بمرونة واضحة، في محاولة لاسترضاء الجنوب الذي

استولى على كافة القواعد العسكرية للقوات الاتحادية، ولكن أزمة قلعة سومتر Fort Summter قبالة ميناء شارلستون Charleston Bay في كارولينا الجنوبية، والتي تعتبر من أهم الموانئ الجنوبية، دفعت بالرئيس وأركان حكومته لإعلان الحرب، فعلى الرغم من عدم نيّة الرئيس إمداد حامية القلعة سوى بالمواد التموينية دون الأسلحة، إلا أن قوات الجنوب أطلقت النار على القلعة في ١٢ ابريل ١٨٦١م واستسلمت حاميتها بعد يومين، وتم إنزال العلم الاتحادي عن الحصن، فما كان من الرئيس إلا إعلانه الحرب، والدعوة لتكوين جيش من المتطوعين، وفرض حصار بحري على الموانئ الجنوبية، وردّ الجنوب بإعلان النفير وتجهيز الجيوش.[٦٢]

ما إن شاع خبر قلعة سومتر حتى بدأت الولايات الحدودية إعلانها الانضمام إلى جاراتها في الجنوب، ففي ١٧ ابريل انضمت ولاية فيرجينيا إلى الاتحاد الكونفدرالي الجنوبي، وبعد أسابيع قليلة تبعتها كلا من: تينسي، أركانساس وكارولينا الشمالية، وتم نقل عاصمة الاتحاد الجنوبي من مونتغمري Montgomery في ألاباما إلى ريتشموند Richmond في فيرجينيا،[٦٣] والتي تبعد ١٠٠ ميل فقط عن واشنطن عاصمة الشمال. وبخسارة تلك الولايات الأربع ركّز لنكولن وإدارته على الولايات الأربع الباقية، والتي ما زالت على ولائها لحكومة الاتحاد، وهي: ديلاور، ميرلاند، كنتاكي وميسوري، خاصة وأنه إذا ما أعلنت ميرلاند انضمامها إلى الجنوب فستنفصل العاصمة واشنطن عن بقية مناطق الاتحاد، وستسقط بيد القوات الجنوبية حتما، وكانت حركة قد بدأت تكبر في ميرلاند مطالبة بالانضمام إلى الولايات الجنوبية، ولذلك تدخل لنكولن سريعا لمنع حدوث ذلك، فدخلتها القوات الفيدرالية، وحدثت صدامات في شوارع بلتيمور Baltimore كانت نتيجتها سيطرة الجيش الحكومي وفرض الأحكام العسكرية والعرفية على المدينة Martial Law وقد أفزع هذا النوع من الإدارة السكان وزاد من مطالبهم بالانفصال، واحتج رئيس المحكمة الفيدرالية العليا U.S Supreme Court على تلك الإجراءات، فأمر لنكولن باعتقال الضباط الفيدراليين المشكوك في أمرهم وكذلك اعتقل عمدة المدينة وقائد شرطتها و٣١ من أعضاء الهيئة التشريعية فيها والعديد من الكتاب والصحفيين وأودعهم السجن، وهكذا ضمن لنكولن ميرلاند ولاية تدين بالتبعية لحكومة الاتحاد.[٦٤]

أما ميسوري فقد طُبّقت فيها الأحكام العرفية أيضا، وظلت الأوضاع الداخلية فيها غير آمنة ومتقلبة، حيث قوبلت إجراءات حكومة الاتحاد بالرفض والمقاومة، وفرّ العديد من سكانها البيض ليخدموا في جيش القوات الفيدرالية الجنوبية.[٦٥] وفي كنتاكي – مسقط رأس كلاً من الرئيس لنكولن ورئيس الولايات الكونفدرالية المنفصلة جيفرسون دافيز، فقد ظلّت على حيادها خلال الأشهر الأربعة الأولى من الحرب، ولكن غالبية رجالها انضموا إما إلى جيش الاتحاد أو إلى الجيش الفيدرالي الجنوبي، ووصل الأمر بالأشقاء أن انضم قسم منهم إلى الجنوب بينما انضم القسم الآخر إلى الشمال، تمامًا كما حدث مع أبناء وأحفاد هنري كلاي مهندس تسويتي ١٨٢٠ و ١٨٥٠، حيث انقسم الأخوة وتقاتلوا في ساحات المعارك.[٦٦]

كانت الأشهر الأولى من الحرب تكاد تكون سجالاً بين الطرفين، وان كانت تميل نوعًا ما في كفة الجيش الفيدرالي الشمالي، ولكن وبتسلم روبرت لي Robert Lee قيادة جيوش الجنوب بدأت الولايات الجنوبية تحقق تفوقًا نوعيًا واضحًا على الجيش الشمالي في ساحات المعارك وفي معظم الجهات، وأصبح النصر حليف الجنوب بعد أن كان في حالة دفاع، وصارت قواته تهاجم حتى وصلت إلى مشارف واشنطن العاصمة، واضطرت جيوش الشمال للعودة سريعًا لحماية عاصمة الاتحاد من السقوط.[٦٧]

في يوليو ١٨٦١ كانت موقعة بل رن الأولى Bull Run 1 في فيرجينيا، وانتهت بهزيمة قاسية للقوات الاتحادية الشمالية القادمة لاحتلال ريتشموند عاصمة الجنوب، وأدرك قادة الجيوش الشمالية صعوبة الموقف العسكري، وبدأوا بالبحث عن أية وسائل من شأنها إضعاف جبهة الجنوب، وفي ٢٥ من الشهر ذاته وبناء على توصيات الرئيس أقرّ الكونجرس القانون الذي أوضح جليًا **أن حرب الشمال إنما الهدف منها الحفاظ على الاتحاد وليس تحرير العبيد،**[٦٨] ويبدو أن إقرار هذا القانون كان تمهيدا لإزالة سوء الفهم أو الغموض الذي قد يكتنف القانون اللاحق الذي مرّره الكونجرس في ٦ أغسطس من نفس العام، وهو قانون المصادرة Confiscation Act والذي اعتبر العبيد الذين يستخدمهم سادتهم في العمليات الحربية ضمن الممتلكات التي يجوز لجيوش الاتحاد مصادرتها،[٦٩] ولكن إجراء الكونجرس على ما يبدو قد شجّع القيادات الحربية للسير خطوة إلى الأمام فيما يتعلق بتحرير العبيد، ولو بقرارات فردية، ففي ٣٠ أغسطس ١٨٦١ قام الجنرال جون فريمونت John C. Fremont قائد الجيش الشمالي في سانت لويس St. Louis وبموجب مرسوم عسكري بإعلانه العبيد التابعين للكونفدراليين الجنوبيين أحرارا، وكذلك أعلن الجنرال بنيامين بتلر Benjamin Butler العبيد الهاربين واللاجئين إلى معسكرات جيشه (غنائم) واستخدمهم في العمليات غير القتالية،[٧٠] ولكن ما إن سمع الرئيس لنكولن بمرسوم الجنرال فريمونت، وفي خطوة احترازية منه وخوفًا من نقمة الولايات الحدودية فقد سارع إلى إلغاءه فورًا، ولمّا تلكّأ فريمونت واحتجّ على إلغاء قراره بادر لنكولن باستبداله بالجنرال هنري واجر Henry Wager.[٧١] وفي رسالة بعث بها لنكولن إلى براوننق O.H. Browning عبّر له فيها عن خشيته من خسارة كنتاكي قائلاً (إن فقدان كنتاكي كفقدان المعركة بأكملها)[٧٢]

تشير أوراق الرئيس لنكولن إلى عشرات البرقيات التي تلقاها تأييدًا لخطوة فريمونت في تحرير العبيد، واحتوت على نصائح من سياسيين ورجال قانون ومشرعين تدفعه باتجاه المضي قدمًا في تحرير العبيد،[٧٣] وهناك من وجّه نقدا لاذعا للرئيس، فقد تلقى برقيات من بعض الشخصيات اللامعة في الحزب الجمهوري وصفت إلغاءه أمر الجنرال فريمونت بالخطوة الضعيفة والظالمة، وهناك من

عبّر عن حزنه وأسفه أن يمتلك الرئيس القدرة على فعل الخير ولا يقوم به،[٧٤] وإزاء الخطوة التي قام بها الجنرال دافيد هنتر David Hunter بتجنيد العبيد الهاربين من الجنوب وضمّهم إلى جيشه تحت اسم الكتيبة الأولى/ كارولينا الجنوبية، وإعلانه الحرية لعبيد جورجيا، فلوريدا وكارولينا الجنوبية، فقد بادر الرئيس أيضًا لإلغاء أوامر الجنرال، على الرغم من توسل وزير المالية سالمون تشيز Salmon Chase للرئيس بأن لا يعترض على تلك الإجراءات،[٧٥] إلا أن سياسة لنكولن كانت واضحة في هذا الشأن، فهمّه الأول كان منصبًا على عدم إثارة نقمة الولايات الحدودية فتنحاز للجنوب، وكان لديه أمل في أن تسوية ما ستنهي الحرب بسرعة، وان إعلانه تحرير العبيد من شأنه الدفع بالمقاومة والتعنّت إلى أبعد مدى.

وحتى تلك الفترة لم تكن ردود فعل عبيد الجنوب قوية تجاه الأحداث، فإذا استثنينا بعض العمليات الفردية الغير منظمة التي قام بها البعض من عبيد الجنوب كما فعل روبرت سمولز Robert Smalls[٧٦] فإن غالبيتهم التزمت الصمت، بينما أصبح ليبراليو الشمال والجمعيات المطالبة بتحرير السود أكثر إلحاحًا وتعنتا في مطالبتهم الرئيس باتخاذ الخطوة الحاسمة بإعلان تحرير شامل للعبيد، وكذلك توالت برقيات قادة الجهات إلى الرئيس تطلب منه توجيه ضربة قوية للجنوب بإعلان تحرير عبيدهم، أملاً في أن يثور العبيد على سادتهم ويلتحقوا بجيوش الشمال، أو على الأقل يحدثون اضطرابات داخلية من شأنها خلخلة الجبهة الجنوبية وشلّ اقتصادها،[٧٧] لكن الرئيس لنكولن ظلّ متمسكا بموقفه، وفي ٢ يوليو ١٨٦٢ أمر بتجنيد ٣٠٠ ألف مجنّد، لإعطاء الجيش مزيدًا من الدفع باتجاه حسم المعركة.[٧٨]

ولمّا كانت الخسائر في صفوف جيوش الشمال فادحة، وعانت مختلف الجهات من نقص في الجنود، وبالمقابل أظهر السود في الشمال حماسة ورغبة في المشاركة في الحرب، فقد صادق الكونجرس في ١٧ يوليو ١٨٦٢ على القانون الذي سمح للسود بالخدمة كجنود في الجيش. وتأسست وحدات منهم خدموا في كتائب منفصلة عن البيض، أطلق عليها قوات الولايات المتحدة الملونة United States Colored Troops تمييزا لها عن بقية قوات الشمال، وكانت بإمرة ضباط من البيض.[٧٩]

تحتوي أوراق الرئيس لنكولن على رسالة هامة بعث بها إلى محرر صحيفة نيو يورك تربيون New York Tribune ، وهي تلخص نظرته وسياسته تجاه الاتحاد والحرب والعبودية خلال تلك الفترة الحسّاسة، ومما ورد فيها (.. **سوف أحافظ على الاتحاد، سوف أحافظ عليه بأقصر الطرق وبما يتوافق مع الدستور، وبما يمكنني من استعادة سلطة الاتحاد، بالطريقة الأقرب، بحيث يعود الاتحاد قائما كما كان... لا أوافق أولئك الذين يقولون بأنهم لن يحافظوا على الاتحاد قائما إلا بوجود العبودية، ولا أوافق أولئك الذين يقولون بأنهم لن يحافظوا على الاتحاد إلا بالقضاء على العبودية، إن هدفي الأسمى في هذا الكفاح هو حماية الاتحاد والحفاظ عليه، وليس المحافظة على العبودية أو تدميرها، إذا تمكنت من الحفاظ على الاتحاد دون أن أحرّر عبدا واحدا فسأفعل، وإذا تمكنت من الحفاظ على الاتحاد بتحرير البعض وترك البعض عبيدا فسأفعل، وإذا تمكنت من الحفاظ على الاتحاد بتحرير جميع العبيد فسأفعل ... ما أفعله تجاه العبودية أفعله لقناعتي بأن ذلك يساعد في الحفاظ على الاتحاد، وما تجاهلته وألغيته كان لاعتقادي بأنه لا يخدم القضية**...).[٨٠]

ولكن آمال إدارة لنكولن في إنهاء الحرب يبدو أنها كانت بعيدة على أرض الواقع، ففي ٣٠ أغسطس ١٨٦٢ انتهت معركة "بل رن الثانية" بكارثة عسكرية بالنسبة لجيش الاتحاد، وبعد أقل من شهر تمكنت القوات الجنوبية بقيادة توماس جاكسون Thomas Jackson من أسر ١٢ ألف جندي من جيش الشمال في فيرجينيا،[٨١] وبعدها بيومين التقى الجيشان في اليوم الأكثر دموية في التاريخ الأمريكي في معركة انتيتام Antietam[٨٢] وخسر الجانبان آلاف الجنود،[٨٣] ولم يحقق أي طرف نصرًا على الآخر، وكانت العديد من التقارير قد وصلت الرئيس تفيد باحتدام الصراع في بريطانيا بين مؤيد لدخول بريطانيا الحرب إلى جانب القوات الجنوبية، وبين معارض لذلك الاتجاه، وكانت مسألة العبيد وتحريرهم مثار جدل بين الفريقين، خاصة أن حزب الأحرار البريطاني كان يرى أن مساندة الجنوب ما هو إلا ضربة للديمقراطية وللحرية والعدالة الإنسانية، وبالمقابل كان أصحاب المصارف والدائنون مصرّون على التحالف مع مصالحهم القوية مع الجنوب، فما كان من الرئيس إلا أن رضخ لرأي قادة الجهات، والى نصائح الأصدقاء ورجال السياسة، وبدأ باتخاذ الخطوات العملية الكفيلة بتحرير العبيد وحسم المسألة.

تحرير العبيد: صيغة الإعلان، مراحله وتأثيراته في نتائج الحرب

أولا: الإعلان التمهيدي عن تحرير العبيد
The Preliminary Emancipation

في يوليو ١٨٦٢ أرسل لنكولن إلى طاقم الحكومة مسّودة بيان صاغها بنفسه لإعلان تحرير العبيد، طالبا منهم إبداء الرأي، وبعد مشاورات عدّة تم الانتهاء من صيغة البيان،[٨٤] وفي ٢٢ سبتمبر وقّع لنكولن النسخة النهائية وأعلن عنها، وبالعودة إلى تلك الوثيقة الهّامة يمكن ملاحظة ما يلي:[٨٥]

(١) حدد الإعلان اليوم الأول من كانون الثاني ١٨٦٣ موعدًا نهائيًا للولايات وأجزاء الولايات الثائرة لتعلن عودتها طواعية إلى حكومة الاتحاد، والا تعتبر في حالة تمرد، وساعتها يجب على حكومة الاتحاد وسلطتها العسكرية أن تعتبر الأشخاص المملوكين كعبيد أحرارًا وإلى الأبد. فهو والحال هذه لا يخرج عن كونه إنذارًا إلى الولايات الثائرة مدته ١٠٠ يوم لإعلانها الاستسلام الكامل للسلطة الفيدرالية، وفي حال تجاوزت تلك المدة دون إعلانها الولاء والانضواء تحت سلطة الاتحاد، يكون عبيدها أحرارًا بموجب ذلك الإعلان.

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(٢) أشار الإعلان إلى أن الضرورة العسكرية والرغبة في قمع الثورة هي السبب وراء إصدار ذلك المرسوم، وهو استدراك صريح إلى أن الغاية في الأساس هي القضاء على تمرد الولايات الثائرة وليس تحرير العبيد، وهي رسالة موجهة الى أولئك الذين يرفضون القتال بين الشمال والجنوب بسبب العبيد، فالإعلان برّر ذلك الإجراء وشرح الغاية منه.

(٣) حدّد الإعلان المناطق التي يسري عليها، واستثنى الولايات الحدودية وبعض المقاطعات التي استولى عليها جيش الاتحاد، وأشار الإعلان صراحة إلى أن المناطق المستثناة والمدرجة تترك وكأن الإعلان لم يصدر. وهي رسالة تطمينية إلى الولايات الحدودية والمناطق التي خضعت لسلطة جيش الاتحاد بأن لا نية لتحرير عبيدهم والإضرار بمصالحهم، كي يبقوا على وفائهم للسلطة الفيدرالية الحكومية، وعدم مقاومتهم لجيوش الشمال.

(٤) أشار الإعلان إلى قبول العبيد المحررين في الخدمة العسكرية وفي حاميات القلاع وغيرها من الخدمات، وهي رسالة أخرى موجّهة للعبيد ليلتحقوا – في حال استمرار سادتهم في حالة تمرد ضد سلطة الحكومة – في صفوف جيوش الشمال.

وهكذا جاء الإعلان المبدئي عن تحرير العبيد ملبيًا لرغبة الرئيس لنكولن بتحقيق الأمور التالية:

- توجيه إنذار جاد وحازم ونهائي إلى الولايات الجنوبية بإعلانها إنهاء مظاهر التمرد والعصيان والعودة إلى جسم الاتحاد، وهو خيار كان لنكولن يأمل بتحقيقه لتجنب إراقة المزيد من الدماء.
- طمأنة الولايات الحدودية بأن الإعلان لا يسري على مناطقها، ولن تكون له تأثيرات على اقتصادها المرتبط جذريا بالعبيد، وبالتالي الركون إلى بقائها على الولاء لسلطات الحكومة الفيدرالية.
- رفد الجيش الشمالي بمزيد من الجنود السود وعلى مختلف الجهات، من الراغبين بالمشاركة في تحرير إخوانهم عبيد الجنوب، وتعويض الخسائر البشرية التي منيت بها قوات الشمال.
- تحفيز العبيد في الجنوب للهرب من سادتهم واللجوء إلى معسكرات جيش الشمال، وساعتها سيكونو مجندين نظاميين، والأهم أنهم سينالون حريتهم.
- إرضاء الحركة الشعبية والمنظمات والجمعيات التي كانت تدفع باتجاه تحرير العبيد، وبالتالي اطمئنان الإدارة إلى تناغم التوجهات في جبهتها الداخلية والتفرغ تماما لتحقيق النصر بإخضاع الولايات الثائرة.
- إضافة بعد أخلاقي إلى الحرب إلى جانب البعدين السياسي والعسكري، حيث أضيف هدف آخر للحرب وهو تحرير العبيد، وبالتالي كسب المزيد من الأنصار والمؤيدين للشمال في حربه ضد الولايات الثائرة، وخاصة على الصعيد الدولي فيما يتعلق بمواقف بريطانيا وفرنسا، حيث أصبح من الصعب على تلك الدول الوقوف إلى جانب الولايات الجنوبية التي تحارب للاستمرار في استعباد البشر.
- شلّ قدرة الولايات الجنوبية على مواصلة الحرب في حال استجاب العبيد لنداء الحرية، وبالتالي خلق ثورة داخلية وحالة من الاضطراب تجعل من الصعوبة على الولايات الثائرة أن تواصل حربها في ظل اضطراب أوضاعها الداخلية، خاصةً وأن غالبية جنود الجيش الكونفدرالي الجنوبي كانوا قد تركوا عائلاتهم برعاية عبيدهم السود، وهذا من شأنه تحطيم معنويات الجنود على الجبهات، وجعلهم في حالة قلق دائم على مصير عائلاتهم ومنازلهم ونسائهم وأطفالهم ومزارعهم. ويبدوا أن لنكولن كان متخوفا من إقدام العبيد في الجنوب على ارتكاب مجازر بحق أسيادهم وعائلاتهم، ولذلك طالبهم الإعلان بالامتناع عن جميع أشكال العنف إلا إذا كان ضروريا للدفاع عن النفس.

ثانيًا: الإعلان النهائي لتحرير العبيد

The Emancipation Proclamation (Final Draft)

في ١ كانون الثاني ١٨٦٣ انقضت المدة التي حددها الرئيس لنكولن في إعلانه التمهيدي عن تحرير العبيد، ولم تستجب أي من الولايات الجنوبية ولم تعلن عودتها إلى الاتحاد، فما كان من الرئيس لنكولن إلا أن أصدر أمرًا بإعلان جميع العبيد في الولايات وأجزاء الولايات الثائرة أحرارا،[٨٦] وبمطالعة تلك الوثيقة يمكن ملاحظة أنها لم تنص صراحةً على تحرير العبيد في كافة أراضي الولايات المتحدة الأمريكية، ولم تتطرق لعبيد الولايات الحدودية بأي شكل، واستثنى الإعلان أجزاء الولايات التي عادت إلى حوزة الحكومة الفيدرالية، ويبدو التركيز واضحًا فيها على توجهات صارمة للجيش قيادة وضباطًا وأفرادًا بضرورة الحيلولة دون عودة العبيد الفارين إلى ولاياتهم، والسماح لهم بالانضمام إلى صفوف القوات النظامية والأسطول ومحطات القطارات وحاميات القلاع والحصون، على اعتبار أنهم أصبحوا وإلى الأبد أحرارًا.

وهكذا أقدم الرئيس على خطوة لطالما تردد بشأنها بسبب المحاذير الكثيرة والمبررّة التي رافقتها، ولكن قراءة الأحداث التالية لذلك الإعلان تثبت بوضوح أنها جاءت في التوقيت المناسب من الناحية العسكرية تحديدًا، وآتت نتائجها المرجوة بشكل ملموس وخاصةً في جبهات القتال.

تأثير الإعلان عن تحرير العبيد في مجريات الحرب

تحوي أوراق الرئيس لنكولن مئات من البرقيات والرسائل المؤيدة لخطوته الجريئة بإعلانه تحرير العبيد، وعليه يمكن القول أن لنكولن استطاع جلب المزيد من المؤيدين لسياسته القاضية بضرورة إعادة تبعية الولايات الجنوبية بالقوّة إلى اتحاد الولايات الأمريكية في حال فشل المساعي السلمية.[٨٧] وظهر تأثير تلك

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الخطوة في أدبيات الحرب، فقد صيغت الأناشيد والألحان لتضيف تحرير العبيد إلى جانب الحفاظ على الاتحاد، ولعلّ أشهر ما كتب في هذا المجال نشيد نداء المعركة من أجل الحرية Battle Cry of Freedom[٨٨] أما على الصعيد الدولي، فبمجرد إصدار ذلك الإعلان، سارعت بريطانيا لإعلانها الحياد فيما يتعلق بالحرب الأهلية الأمريكية، واكتفت بالاعتراف للجنوبيين بحقوق المحاربين، وأعلنت تأييدها لموقف الحكومة الفيدرالية بحقها في مصادرة أية سفينة هدفها الوصول إلى الجنوب، ولو بطريقة غير مباشرة.[٨٩]

أما على الصعيد العسكري، فقد شهدت ساحات القتال تبدلاً ملحوظًا في صالح الجيش الشمالي، فخلال العام ١٨٦٣ حققت جيوش الشمال وعلى مختلف الجبهات تقدمًا ملموسًا، وبدأت الخسائر تتوالى على الجيش الكونفدرالي الجنوبي، ويمكن أن يعزى ذلك التحول إلى عدّة أمور أهمها:

١- أوقفت بريطانيا وتبعتها فرنسا إمداد الجنوب بالغذاء والسلاح والمستلزمات الطبية بعد إعلانهما الحياد التام، مما ضيّق الخناق على الجنوب وأضعف من قدرته على المقاومة، وأبعد أية فرصة للحصول على دعم ومساندة خارجية.

٢- بدأت الجيوش الجنوبية تعاني من نقص حاد في الغذاء والذخيرة، وفرّ العديد من الجنود عائدين إلى منازلهم لتأمين عائلاتهم بالغذاء اللازم بعد انتشار الجوع في كثير من مناطق الولايات الجنوبية.

٣- صار الجنوب ملزمًا بتسخير جزء كبير من جيشه لتسيير دوريات لمراقبة الحدود والقبض على العبيد الهاربين، الذين استجابوا لنداء التحرير الذي أعلنه لنكولن.

٤- بصدور ذلك الإعلان أصبح جيش الشمال مفتوحًا أمام السود لينظموا إليه، وبلغ عدد السود الذين وضعوا أنفسهم بتصرف الجيش الفيدرالي الشمالي ما يقارب ٢٠٠ ألف، مما شكّل رافدا قويا ودفعا لجيوش الشمال، الذين بدأوا بإسناد مهمات متعددة لكتائب السود وخاصة الصعبة منها.[٩٠] وكذلك أتاح تجنيد السود في الحرب الفرصة أمام البيض الراغبين بتعيين بدلاء عنهم بعد أن فرض التجنيد الإجباري على الولايات الشمالية، ففي ٣ مارس ١٨٦٣ سنّ الكونجرس التجنيد الإجباري، والذي رفضته شريحة واسعة من السكان، وأعلنت بعض المدن العصيان رافضة الزج بأبنائها في ساحات القتال، كما حدث في نيو يورك في يناير ١٨٦٣، فكان السماح بتجنيد السود مخرجًا للأزمة، حيث أجاز القانون إرسال البديل.[٩١]

٥- تأثر عبيد الجنوب بإعلان تحريرهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فمنهم من فرّ من سيده باحثًا عن معسكرات الشمال، وقدّر عددهم بحوالي ٥٠٠ ألف عبد، ومنهم من بقي، ولكن مع ميول أكثر للعنف ورفض الأوامر انتظارًا لما ستسفر عنه نتيجة الحرب،[٩٢] وفي كلتا الحالتين كانت ردود فعل العبيد كارثية على قدرة الجنوب على الصمود، حتى أن هناك العديد من المطالبات في الولايات الجنوبية بدأت تضغط باتجاه تجنيد العبيد والزجّ بهم في ساحات المعارك، لكن تلك المقترحات جوبهت بالرفض، فقد هدد ممثل كارولينا الجنوبية في كونجرس الولايات الكونفدرالية بالانسحاب إذا ما سمح للعبيد بأن يصبحوا جنودًا، متذرعًا بأنه إذا كان بإمكان العبد أن يكون جنديًا مخلصًا يدافع عن ولايته، فإن نظام العبودية في الجنوب مبني إذن على أسس خاطئة.[٩٣]

توالت انتصارات الجيوش الشمالية وحققت تقدمًا على مختلف جبهات القتال، وكخطوة تشجيعية أقرّ الكونجرس في يوليو ١٨٦٤ قانونًا قضى بدفع مرتبات للجنود السود مساوية لرواتب نظرائهم البيض، وبذلك أصبح تأثير الجنود السود في مجريات الحرب ككرة الثلج المتدحرجة، تتعاظم شيئًا فشيئًا، وفي ٣١ يناير ١٨٦٥ أقرّ الكونجرس الأمريكي التعديل الثالث عشر للدستور والذي حرّم الرّق والتشغيل الإكراهي في الولايات المتحدة وفي أي مكان خاضع لسلطانها إلا عقاب على جرم حكم على مقترفه بذلك حسب الأصول.[٩٤] وفي ٣١ مارس وفي خطوة يائسة لتجنب الهزيمة المحققة أجاز كونجرس الولايات الجنوبية قانونا قضى بالسماح للعبيد في ولاياتهم بالخدمة كجنود ومنحهم الحرية حال انتهاء الحرب،[٩٥] ولكنها جاءت خطوة متأخرة جدًا، حيث كانت جيوش الشمال قد أخضعت غالبية الولايات الجنوبية لقبضتها، ففي ٢٦ مايو ١٨٦٥ استسلمت آخر جيوش الولايات الجنوبية وأخذ رئيس الولايات الكونفدرالية الثائرة سجينًا، وأعلن عن انتهاء العمليات العسكرية وعودة الولايات الجنوبية إلى الاتحاد.

خاتمة

توصلت الدراسة للنتائج التالية:

إن القرار الذي اتخذه الرئيس لنكولن والقاضي بتحرير العبيد لم يكن قرارًا مدروسًا أومخططًا له، ولم تلعب الدوافع الإنسانية في صدوره دورًا ذو شأن، وإنما كان إجراءًا عسكريًا الهدف منه إنهاء الحرب باستسلام الولايات الثائرة، وإعلانها الطاعة والولاء لحكومة الاتحاد، للأسباب والشواهد التالية:

١- إذا كان الدافع لاتخاذ ذلك القرار العطف على العبيد والنية الصادقة لتخليصهم من سلاسل عبوديتهم، فلماذا تأخر صدوه حتى مطلع السنة الثالثة من الحرب؟

٢- أشارت كافة التقارير الواردة إلى الرئيس من قادة الجبهات إلى ضرورة الإسراع في تحرير العبيد لأنه وبحسب تقديراتهم المبنية على مشاهداتهم، فإن ذلك سيضعف قدرة الجيوش الجنوبية، وحين كان الرئيس مقتنعًا بإمكانية حسم المعركة دون تحرير العبيد فقد سبق وألغى أوامر قادته بتحرير العبيد في بعض المناطق، ولكن حين أيقن أن جيوش الجنوب بدأت تهدد العاصمة الاتحادية واشنطن، سارع إلى الإعلان التمهيدي عن تحرير العبيد.

٣- أشارت الرسائل التي بعث بها وتسلمها الرئيس لنكولن إلى فقدانه ثقة العامة في إمكانية حسم المعركة سريعًا، وسادت قناعة لدى كثير من السياسيين البارزين وأصدقاء الرئيس تحديدًا بأن استمرار الحرب سيكلف الكثير من الدماء، وعليه ارتفعت الأصوات مطالبة بالسماح للجنوب بالانفصال، وهذا ما لم يكن يقبل به لنكولن، الذي أصرّ على أن من واجباته كرئيس الحفاظ على وحدة الاتحاد أولاً وأخيرًا، ولمّا كانت منظمات وجمعيات مناهضة الرقّ والصحف والمجلات تلعب دورًا بارزًا في تهيئة الرأي العام الأمريكي في أوقات الحرب، فقد وجد الرئيس في قضية تحرير العبيد دفعا أخلاقيا لمبدأه الرافض للانفصال، وهذا أعطاه مزيدًا من التأييد الشعبي.

٤- هل كان الرئيس لنكولن سينجح في انتخابات الرئاسة الأمريكية في عام ١٨٦٤ لو لم يقدم على تلك الخطوة التي حققت له نجاحًا شخصيًا على الصعيد الشخصي، وللحزب الجمهوري بشكل عام، أم أن منافسه مرشح الحزب الديمقراطي في تلك الانتخابات الجنرال جورج ماكليلان George McClellan سيكون الفائز، خاصةً وأن الديمقراطيون ضمّنوا في برنامجهم الانتخابي عزمهم إنهاء الحرب سريعًا؟ من المؤكد أن غالبية الناخبين كانت ستصوت لمن يتعهد بإنهاء الحرب ووقف شلال الدماء، خاصة أن غالبية البيض في الشمال لم تكن راغبة بإراقة دماء الأشقاء خدمة لقضية السود.

٥- أشار الإعلان التمهيدي الأول والإعلان النهائي عن تحرير العبيد بوضوح تام إلى ضرورة الاستفادة من خدمات السود في الجيش وفي ساحات القتال، وبالتالي يمكن ربط تحرير العبيد بالاستفادة من مجهودهم الحربي، وهو ما أثبتته الحقائق التالية على أرض الواقع، إذ انقلبت موازين القوة لصالح جيوش الشمال مباشرة بعد تحرير العبيد.

٦- لم يرد في أوراق الرئيس لنكولن أي ذكر لمخطط أو برنامج عمل حكومي حول كيفية احتواء ما يزيد على أربعة ملايين عبد حال تحريرهم واحتوائهم وإعادة تأهيلهم داخل المجتمع كمواطنين أحرار، وهذا يشير إلى أن القرار لم يكن مدروسًا ولا مخططًا له.

٧- عبّرت الرسائل المتبادلة بين الرئيس وأصدقائه بشكل خاص عما كان يدور في خلده تجاه الاتحاد والحرب الأهلية وقضية العبودية، وهو لم ينكر قطعًا أن إعلانه تحرير العبيد بموجب صلاحياته كرئيس للولايات المتحدة الأمريكية في وقت الحرب إنما جاء لردع اتحاد الولايات الجنوبية إزاء خطوته الانفصالية، ولمّا لم تلق تهديداته أذنا صاغية وجد نفسه مضطرًا لإصدار أمرًا تنفيذيًا بتحرير عبيد الولايات الثائرة.

الهوامش

(١) بلغ عدد المنشور من هذه الوثائق على صفحات الانترنت حوالي ٦١ ألف وثيقة، مدعومة ومزودة بنص مطبوع طبق الأصل عن الوثيقة مع بعض الشروح والتعليقات والحواشي. للاطلاع أنظر:

www.abrahamlincolnpapers.com

(2) **Dictionary of American History**. Stanley I. Kutler, *Editor*, Third Edition, (New York: Charles Scribner's Sons.2003) p 209-210

(٣) وصلت أول شحنة من السود إلى ميناء جيمس تاون Jamestown في مستعمرة فيرجينيا Virginia في عام ١٦١٩ وكان عددهم ٢٠ يرافقهم مجموعة من الخدم البيض الذين قبلوا بالعمل لحساب الشركة التي دفعت تكاليف نقلهم إلى العالم الجديد لمدد متفاوتة. أنظر:

Billngsley. Andrew, **Black Family in White America** (New York: Simon and Schuster, 1968) p 48

(٤) في عام ١٦٤٠ فرّ ثلاثة خدم من مزرعة سيدهم في فيرجينيا، اثنان من البيض وواحد من السود، وبعد أن ألقي القبض عليهم أصدرت المحكمة حكما قضى بزيادة عدد سنوات الخدمة بالنسبة للخدم البيض، أما الخادم الأسود مانويل فقد حكم عليه بالعبودية مدى الحياة. أنظر:

Franklin, John Hope, **From Slavery to Freedom** Op, Cit., p 54-55

(5) Clayton E. Jewett and John O. Allen, **Slavery in the South, A State by State** (Westport: Greenwood Press, 2004) p 261

(6) Ibid., p 261

(7) Franklin, John Hope, **From Slavery to Freedom** Op, Cit., p 56.

(8) Zinn. Howard, **A People History of the United States** (London: Longman Group Limited) p 30-31

(9) Clayton E. Jewett and John O. Allen, Op, Cit., p 207

(10) Historical Census Statistics on Population Totals by Race, 1790 to 1990, and by Hispanic Origin, 1790 to 1990, for the United States, Regions, Divisions and States. by: Campbell Gibson and Kay Jung. Working Paper No 56 . US Census Bureau, Washington DC, September 2002. P 63, 43.

(11) Louis Filler, **Crusade Against Slavery 1820-1860** (Michigan: Preference Publications, 1986) p 23.

(12) National Archive and Records Administration, Record Group 46, Record of the United States Senate 1789 -1990. 3/ 1849, **Fugitive Slave Law**.

(13) Zinn, Howard, Op, Cit., p 32.

(14) **The Slaves Appeal to the Royal Governor of Massachusetts**, National Archive and Record Administration. Record of the United States 23-3-1774.

(15) Zinn. Howard, Op, Cit., p 81.

(16) 16 Franklin. john hope, Op, Cit., p96

(17) Tindall. George Brown, **America, A Narrative History** (New York: w.w. Norton & Company, 1992) p 245-246.

(18) Franklin. john hope, Op, Cit., pp 85-88

(19) Ibid., p 89

(20) **Dictionary of American History**, Third Edition, Stanley I. Kutler Editor in Chief, Volume 2, (New York: Charles Scribner's Sons, 2003) pp 520-524

(21) Tindall. George Brown, Op, Cit., p 246.

(22) **Dictionary of American History**, Op, Cit., Volume 6, pp 200-201.

(23) James Madison, Alexander Hamilton, John Jay, **The Federalist Papers**, Published by Tribeca Books. No 54, The Apportionment of Members Among the States.

(٢٤) الولايات التي دخلت ضمن الاتحاد هي: ديلاور، بنسلفانيا، نيو جيرسي، مساتشوتس، نيو يورك، فيرجينيا، كارولينا الجنوبية، كارولينا الشمالية، نيو هامبشير، كونكتيكيت، رود آيلاند، ميرلاند.

(٢٥) حول أمريكا، دستور الولايات المتحدة الأمريكية مع ملاحظات توضيحية، مكتب برامج الإعلام الخارجي. وزارة الخارجية الأمريكية. www.America.gov/ar ص ٢١

(٢٦) المرجع نفسه، ص ٢٩.

(٢٧) المرجع نفسه، ص ١٥

(٢٨) أطلق هدا الاسم على عملية هروب العبيد من الجنوب إلى الشمال الحر، بمساعدة الكثير من البيض في الشمال حيث قدموا لهم الإرشاد والمأوى، ومساعدتهم على الهروب شمالا إلى كندا تجنبا لتنفيذ قوانين العبيد الهاربين بحقهم. للمزيد أنظر:

Dictionary of American History, Op, Cit., Volume 8, pp 249-251

(٢٩) من أبرز الجمعيات في هذا المجال:

- الجمعية الأمريكية لإبطال العبودية The American Antislavery Society
- جمعية نيو انجلند لمناهضة العبودية The New England Antislavery Society

(٣٠) ظهرت في تلك الفترة العديد من الصحف التي حملت أسماء تدل على توجهاتها بالمطالبة بإلغاء العبودية، مثل: صحيفة المحرر (Liberator)، التحرر الذاتي(Emancipator)، نجم الشمال(North Star).

(31) **Dictionary of American History**, Op, Cit., Volume 3, Op, Cit., pp 481-482.

(٣٢) اشترى الرئيس جيفرسون Thomas Jefferson إقليم لويزيانا من فرنسا بمبلغ ١٥ مليون دولار، والذي أضاف حوالي ٨٠٠ ألف ميل مربع إلى الولايات المتحدة، فيما عرف بصفقة لويزيانا Louisiana Compromise والتي تضمّ حاليا الولايات التالية (أركانساس Arkansas ، أيوا Iowa، كانساس Kansas، ميسوري Missouri ، مينوسوتا Minnesota، داكوتا الجنوبية South Dakota، داكوتا الشمالية North Dakota ، أوكلاهوماOklahoma، لويزيانا Louisiana ، كولورادو Colorado، مونتانا Montana ويمنق Wyoming. وبعد إتمام الصفقة قسمت تلك المنطقة إلى عدّة أقاليم واتفق على أنه حين يصبح أي إقليم منها مهيأ للانضمام إلى الاتحاد فيتقدم بطلب الانضمام وللكونجرس صلاحية قبول الطلب أو رفضه.

(33) Joseph J. Ellis, **American Sphinx: The Character of Thomas Jefferson** (New York: Alfred A. Knopf Inc., 1997) p 147.

(٣٤) من أبرز السياسيين الأمريكيين شهرة في زمنه، ولد في فيرجينيا في عام ١٧٧٧ ثم شغل منصب عضو في مجلس الشيوخ وعضو في مجلس النواب عن ملاية كنتاكي لأكثر من مرّة، كتب اتفاقية ١٨٢٠ واتفاقية ١٨٥٠ ولذلك سمي بالموفّق الأكبر The Great Compromiser، توفي في عام ١٨٥٢.

(35) **American Civil War**, Volume 3, Op, Cit., pp 35-36.

(36) Tindal. **America: A Narrative History**, Op, Cit., pp 598-605.

(٣٧) تتلخص أحداث كانساس – نبراسكا بأنه وفي عام ١٨٥٤م تقدّم سيناتور ايلنوي دوجلاس Douglas بطلب إلى الكونجرس لإصدار قانون للموافقة على مد خط حديدي يربط الساحل الشرقي للولايات المتحدة بساحلها الغربي، وكان لدوجلاس دوافع انتخابية ومنافع شخصية وراء هذا المشروع، والذي أثار أزمة بين الشمال والجنوب، ذلك أن الخط الحديدي سيمر من أراضي كانساس ونبراسكا التي طالما عارض النواب الجنوبيون انضمامها إلى الاتحاد كولايات جديدة لقناعتهم بأنها ستدخل كولايات تحرّم الرّق نظرا لموقعها شمال خط عرض ٣٠، وهو الخط الذي منع الرّق من الانتشار شماله بموجب اتفاقية ١٨٢٠، وقد أغرى دوجلاس نواب الجنوب بالموافقة على تمرير القانون بعد أن أقنعهم بأن نبراسكا وكانساس ستنضمان إلى الاتحاد كولايات تطبّق فيهما السيادة الشعبية فيما يتعلق بالعبودية، وهذا سيلغي اتفاقية ١٨٢٠ وقد أجيز القانون وهبّ الشمال لتوطين الإقليمين بسكان من دعاة إلغاء العبودية، وبالمقابل بذلت الولايات الجنوبية كل ما في وسعها لتوطين الإقليمين بسكان من دعاة الرّق، وبلغت الخلافات حد التصادم المسلّح، ووصل عدد القتلى بين الجانبين حوالي ٢٠٠ قتيل، وإزاء تلك الأحداث اتخذ الكونجرس قرارا بتجميد عضوية الإقليمين في الاتحاد. للمزيد أنظر:

Tindall, Op, Cit., pp 611-613

(٣٨) أثارت قضية دريد سكوت ضد ساندفورد اهتمام الرأي العام الأمريكي، نظرًا للمكانة القانونية والسياسية الهامة التي احتلتها القضية فيما يتعلق بدستورية قوانين العبودية في أمريكا، والواقع أن الصراع لم يكن بين العبد سكوت ضد سيدته ساندفورد بقدر ما هو صراع بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية حول مسألة العبودية. وتدور أحداث القضية حول سكوت الذي ولد عبدًا ونقله سيده إلى المنطقة الحرّة في لويزيانا، وبعد وفاة سيده لجأ سكوت إلى المحكمة طلبا لحريته على أساس أنه طالما أن العبودية كانت محظورة في المناطق الحرّة فانه قد أصبح حرًا هناك، وما دام كذلك فلا بد أن يكون حرًا إلى الأبد، وقد ساند سكوت في دعواه جمعيات مناهضة الرّق في الشمال، وبالمقابل أرادت أرملة السيد ساندفورد بيع سكوت من ضمن ممتلكات أخرى ورثتها عن زوجها وساندها الجنوب في حقها القانوني، وانتقلت القضية إلى المحكمة الفيدرالية والتي أصدرت قرارها بأنه لا يمكن لسكوت (العبد) التمتع بالامتيازات الممنوحة للمواطنين الأحرار، وبالتالي لا يحق له رفع دعواه أمام المحكمة حسب دستور الولايات المتحدة الأمريكية. للمزيد حول انعكاسات القضية على انقسام الرأي العام الأمريكي أنظر:

Fehrenbacher, Don E. **The Dred Scott Case: Its Significant in American Law and Politics**. (New York: Oxford University Press, 1978)

ولمعرفة تفاصيل الدعوى وملابساتها والمناقشات القانونية أنظر:

Encyclopedia of the Supreme Court of the United States. Volume 2, (New York: David S. Tanenhaus, 2008) pp 58-63

(٣٩) ولدت ستو في عام ١٨١١م في كنتكيت، وكان زوجها كالفن ستو من أبرز دعاة تحرير العبيد، وفي عام ١٨٣٤م بدأت بالكتابة، وفي عام ١٨٥٠م وفي أعقاب صدور قانون العبيد الهاربين نشرت روايتها "كوخ العم توم" والتي لاقت استحسانًا من قبل دعاة تحرير العبيد، وبيع في اليوم الأول ثلاثة آلاف نسخة منها، وأكثر من ٣٠٠ ألف نسخة في العام الأول، وطبعت الرواية في ٣٢ لغة، وكان السبب الأساس في شهرة روايتها أنها انطلقت من صميم الواقع الذي ساد الولايات الأمريكية في القرن التاسع عشر، والذي كان محورة الاسترقاق والتجارة بالعبيد، وتمكنت ستو من خلال روايتها تصوير الحالة المحزنة لأحوال العبيد وويلاتهم، والقسوة التي يعاملون بها، ومما قاله أبراهام لنكولن عن المؤلفة مشيرا إلى دورها في الحرب الأهلية بمبالغة لا تخلو من الحقيقة " المرأة الصغيرة التي أشعلت هذه الحرب الكبيرة " توفيت الكاتبة في عام ١٨٩٦م. للمزيد أنظر:

Hedrick, Joan D. Harriet Beecher-Stowe, **A life** (New York: Oxford University Press, 1994)

(٤٠) فريدريك دوجلاس (١٨١٧-١٨٩٥) ولد في ميرلاند عبد، ثم هرب إلى مساتشوتس وأصبح من دعاة إلغاء الرّق، ثم عمل محاضرا في جمعية مساتشوتس لإبطال الرّق، وفي عام ١٨٤٧م انتقل إلى نيو يورك وأسس صحيفة نجم الشمال، والتي نادت بالحرية للسود، واستمر في نشاطاته السياسية ودعوته لتعليم السود، وخلال الحرب الأهلية الأمريكية ساهم دوجلاس في تشكيل وحدات عسكرية لمساندة قوات الشمال. للمزيد حول حياته ونشاطاته أنظر:

Douglass, Fredrick. **The Life and Time of Fredrick Douglass** (Hartford: Park Publishing, 1881)

(٤١) هاربيت توبمان _ ١٨٢٠-١٩١٣) عبده هاربة من ميرلاند، ساعدت آخرين في الحصول على حريتهم من خلال ما عرف ب (الخط الحديدي الخفي) وهو عبارة عن شبكة سرّية من المؤيدين لإبطال العبودية ساعدوا العبيد على الفرار من سادتهم والتوجه شمالا وصولا إلى كندا، من خلال تأمين محطات للعبيد الهاربين على الطرق وتوفير المأكل والمأوى والإرشادات لهم، وقد تمكنت توبمان من قيادة ١٩ رحلة خطيرة عبر الولايات الجنوبية تمكنت خلالها من مساعدة أكثر من ٣٠٠ عبد على الهرب. للمزيد أنظر:

Burns, Bree. **Harriet Tubman** (New York: Chelsea Juniors, 1992)

(42) Tindal**. America: A Narrative History**, Op, Cit., p 613.

(٤٣) حدث في عهد الرئيس جاكسون Andrew Jackson 1767-1845 في عام ١٨٢٣م أن ألغت ولاية كارولينا الجنوبية قانون الكونجرس بفرض رسوم جمركية إضافية على الصناعات المستوردة، وهددت بالانفصال عن حكومة الاتحاد، ولكنها تراجعت عن موقفها لعدم تمكنها من حشد التأييد الرسمي والشعبي الكافي في الجنوب لمساندتها في مسعاها نحو الانفصال. للمزيد حول الرسوم الجمركية ودورها في الحرب الأهلية انظر:

Ratner, Sidney. **The Tariff in American History** (New York: Van Nostrand, 1972)

(44) Tindal. **America: A Narrative History**, Op, Cit., pp 414-420.

للمزيد حول نشأة البنك المركزي الأمريكي والخلاف بين الجنوب والشمال انظر:

Timberlake, Richard H. **The Origins of Central Banking in the United States** (Cambridge, Mass: Harvard University Press, 1978)

(45) **American Civil War**, Op, Cit., Volume 3, pp 12-14

(٤٦) نظّم هذا الحزب من قبل جمعيات سرّية غرضها معارضة الأجانب وخصوصا المهاجرين الجدد، وسمي بتلك التسمية لأن تعليمات الأعضاء كانت تقضي بأن يقولوا (لا يعرفون ... جهلة) في حال التحقيق معهم، وقد أصبحوا أكثر تنظيما وتسمّوا رسميا بالحزب الأمريكي. أنظر:

Anbinder, Gregory. **Nativism and Slavery: The Know Nothings and the Politics of the 1850s** (New York: Oxford University Press, 1992).

(47) Tindal. America: A Narrative History, Op, Cit., pp 515-516.

(48) Angle, Paul, Great Equal: **The Complete Lincoln-Douglas Debates of 1858** (Chicago: University of Chicago Press, 1958)

(49) James Russell, Abraham Lincoln (eBookMall, Inc, 2002)

(50) Abraham Lincoln, **A Legacy of Freedom**. U.S Department of States, Bureau of International Programs, p 7-8

(51) Tindal. **America: A Narrative History**, Op, Cit., pp 629-634.

(52) Ibid., pp 627-634.

(٥٣) تضمّنت تلك التسوية إجراء تعديلات على الدستور الأمريكي تضمن الحفاظ على الرقّ بصورة قانونية حيث وجد، والسماح بتجارة العبيد محليا في الولايات التي تبيح قوانينها الرقّ، وأن تتعهد حكومة الاتحاد الفيدرالية بدفع ثمن العبيد الهاربين من الجنوب، وتفعيل اتفاقية ميسوري. أنظر:

American Civil War, Volume 3, Op, Cit., pp 71-72

(54) Tindal. America: A Narrative History, Op, Cit. 637.

(٥٥) كان لنكولن من دعاة حل قضية العبودية بحصرها في المناطق حيث انتشرت، ومنع انتشارها، وإعادة العبيد إلى إفريقيا أو جزر الكاريبي. أنظر:

American Civil War, Volume 2, Op, Cit.,270.

(56) Zinn. Howard, Op, Cit.,

(57) **The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress**. Series 1. General Correspondence. 1833 -1916. Abraham Lincoln, [January 1861] (First Inaugural Address, Draft of Opening Paragraph).

(58) Ibid. Series 1.

(59) Ibid. Series 1.

(٦٠) كانت علاقة صداقة قد ربطت بين لنكولن وستيفنز في أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر، حيث كان كلا منهما عضوا في الكونجرس عن حزب الوجز. وتحوي أوراق الرئيس لنكولن على رسالة موجهة من ستيفنز إلى لنكولن بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٨٦٠ وقام الرئيس لنكولن بالإجابة عليها بتاريخ ٢٢ ديسمبر ١٨٦٠. للاطلاع على نص الرسالتين أنظر:

The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress, Op, Cit., Series 1. General Correspondence. 1833 -1916.

Alexander H. Stephens to Abraham Lincoln, Friday, December 14, 1860 (Sectional crisis)

(61) **The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress**, Op, Cit Series 1. General Correspondence. 1833-1916. William H. Seward to Abraham Lincoln, [1861] (Relations with Britain and France).

(62) **The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress**, Op, Cit Series 1. General Correspondence. 1833-1916. Abraham Lincoln to William H. Seward, Friday, March 15, 1861 (Requests opinion on Fort Sumter).

(63) Tindal. **America: A Narrative History**, Op, Cit. pp 638-639.

(64) **American Civil War**, Volume 3, Op, Cit., pp 83-85

(65) Ibid., p 85.

(66) Ibid., p 85.

(67) Tindal. **America: A Narrative History**, Op, Cit. 646-647.

(68) **The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress**, Op, Cit Series 1. General Correspondence. 1833-1916. Abraham Lincoln, [May-June 1861] (Message to Congress, July 4, 1861, Second Printed Draft, with Changes in Lincoln's Hand)

(69) **The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress**, Op, Cit Series 1. General Correspondence. 1833-1916. George A. Coffey to Abraham Lincoln, Thursday, August 22, 1861 (Telegram reporting confiscation of newspapers)

(70) **The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress**, Op, Cit Series 1. General Correspondence. 1833-1916. John C. Fremont to Abraham Lincoln, Saturday, May 31, 1862 (Telegram regarding military affairs)

(71) **The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress**, Op, Cit Series 1. General Correspondence. 1833-1916. Abraham Lincoln to John C. Fremont, Monday, September 02, 1861 (Fremont's August 30 Proclamation; endorsed by Lincoln, Sept. 3, 1861)

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية



(72) **The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress**, Op, Cit Series 1. General Correspondence. 1833-1916. Abraham Lincoln to Orville H. Browning, Sunday, September 22, 1861 (Fremont's Proclamation)

(٧٣) تم حصر ٦٩ برقية تلقاها الرئيس تؤيد خطوة الجنرال فريمونت، أنظر

The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress, Op, Cit . Series 1. General Correspondence. 1833-1916. (Support for Fremont's proclamation)

(74) **The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress**, Op, Cit., Series 1. General Correspondence. 1833-1916. Charles Sumner to Abraham Lincoln, Sunday, December 28, 1862 (Requests pen Lincoln will use to sign the Emancipation Proclamation)

(75) **The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress**, Op, Cit., Series 1. General Correspondence. 1833-1916. Salmon P. Chase to Abraham Lincoln, Monday, July 29, 1861 (Military affairs)

(٧٦) عبد من الجنوب قام مع مجموعة صغيرة بسرقة السفينة الحربية (بلانتر) وتوجه بها إلى أسطول الجيش الشمالي. أنظر:

Tindal. **America: A Narrative History**, Op, Cit. p 667, 690.

(77) **The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress**, Op, Cit., Series 1. General Correspondence. 1833-1916. (Military affairs)

(78) **The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress** Series 1. General Correspondence. 1833-1916. Abraham Lincoln to George B. McClellan, Wednesday, July 02, 1862 (Military situation)

(79) National Archives and Records Administration, General Order 143. Orders and Circulars 1797-1910. Records of the Adjutant Generals. Office. Records Group 94.General Order No. 143, May 22, 1863; Orders and Circulars, 1797-1910; Records of the Adjutant General's Office, 1780s-1917; Record Group 94; National Archives

(80) **The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress** Series 2. General Correspondence. 1858-1864. Abraham Lincoln to Horace Greeley, Friday, August 22, 1862 (Clipping from Aug. 23, 1862 New York Tribune)

(81) James M. Mcpherson, **The Atlas of the Civil War** (USA: Courage Books, 2005) p 77

(82) Ibid., p 80

(٨٣) بلغ عدد القتلى في صفوف الجيش الفيدرالي في تلك المعركة ١٢,٤٠١بينما كان عدد قتلى الجيش الكونفدرالي الجنوبي حوالي ١٠ آلاف. للمزيد حول تلك المعركة أنظر:

James M. Mcpherson, **The Atlas of the Civil War**, Op, Cit., p 79-85

(٨٤) تتضمن أوراق الرئيس لنكولن لأربعة نسخ من الإعلان والتي أرسلت إلى طاقم الإدارة لبيان الرأي، مع مشروحاتهم على تلك الوثيقة، ويبدو أن لنكولن استجاب إلى نصيحة سكرتير الدولة Secretary of State ويليام سيوارد William Seward بالتريث قليلا بإصدار الإعلان حتى يتحقق تقدم على الجبهات في مصلحة الجيش الفيدرالي، كي لا يظن البعض أن الإعلان عن تحرير العبيد جاء كخطوة يائسة من قبل الحكومة الفيدرالية التي لم تحقق نصرا في ميادين القتال، فيفقد الإعلان الهدف المرجو منه. أنظر:

Series 1. **The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress**. General Correspondence. 1833-1916. William H. Seward to Abraham Lincoln, Tuesday, December 30, 1862 (Recommended alterations to Emancipation Proclamation)

(85) **The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress** Series 1. General Correspondence. 1833-1916. Abraham Lincoln, Tuesday, July 22, 1862 (Preliminary Draft of Emancipation Proclamation)

(86) **The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress Series** 1. General Correspondence. 1833-1916.Abraham Lincoln, Thursday, January 01, 1863 (Final Emancipation Proclamation--Final Draft [Lithograph Copy])

(٨٧) تحوي أوراق الرئيس لنكولن مئات الرسائل والبرقيات التي تلقاها تأييدا لقراره بتحرير العبيد. للاطلاع على تلك الوثائق أنظر:

The Abraham Lincoln Papers at the Library of Congress. Series 1. General Correspondence. 1833-1916, 1863 (Resolutions supporting Emancipation Proclamation)

(٨٨) قصيدة كتبها الشاعر جورج روت George Root وأصبحت كلماتها تنشد في المعسكرات وعلى الجبهات ومن أبياتها

إننا ننهض ملبين نداء إخوتنا الذين سبقونا ... سنملأ المراتب الشاغرة بملايين الأحرار الآخرين

سينضمّ إلينا بالترحاب المخلصين الصادقين والشجعان ... قد يكونوا فقراء ولكن لن يكون بينهم عبد

أنظر: **مختارات من الفكر الأمريكي**، تحرير: دايان رافيتش، ترجمة: نمير عباس وصادق عوده (عمان: دار الفارس للنشر والتوزيع، ١٩٩٨) ص ٣١٧ - ٣١٨.

(٨٩) للمزيد حول موقف بريطانيا من الحرب الأهلية الأمريكية أنظر:

Amanda Foreman, **A world on Fire**: Britain's Crucial Role in the American Civil War (New York: Random House, 2000)

(90) James M. McPherson, **The Negro's Civil War**: How American Blacks Felt and Acted During the War of the Union (New York: Random House Inc. 1998) p 166-168

(91) Tindal. **America: A Narrative History**, Op, Cit. p 667, 690.

(92) James M. McPherson, **The Negro's Civil War**, Op, Cit., p 80-87.

(93) Zinn, Howard, Op, Cit., p 118

(٩٤) انظر نص التعديل في، حول أمريكا، دستور الولايات المتحدة الأمريكية مع ملاحظات توضيحية، مرجع سابق، ص ٢٥.

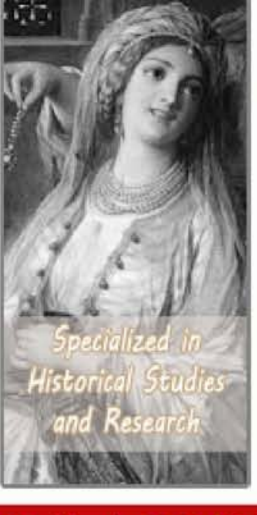
(95) Tindal. **America: A Narrative History**, Op, Cit. p 668-669.

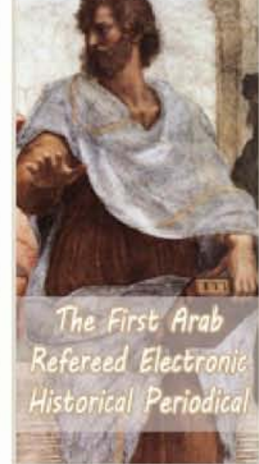












ISSN: 2090 – 0449 Online

Fifth Year - Issue (15) March 2012 | Raby Than 1433

Kan historique périodique

www.kanhistorique.org

info@kanhistorique.org



Issued Quarterly By:
Junior Historian Series





Available for
downloading or reading at:
Nashiri Non-profit E-Publishing House
Internet Archive

Five Years Online